

اللغة والمسؤولية

ألفه بالإنكليزية

نعوم تشومسكي

ترجمه إلى العربية

أ. د. عيسى علي العاكوب

عُضُو مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دِمَشْقَ

أُسْتَاذُ الْبَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ فِي جَامِعَةِ حَلَبَ

٢٠١٩ وزارة الاعلام ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تشومسكي ، نعومي
اللغة والمسؤولية. / نعومي تشومسكي .- الرياض ، ١٤٤٠هـ

٢٥٤ صفحة : ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٩٦-٩٥-٦

١- اللغة أ.العنوان

١٤٤٠/٩١٧٣

ديوي ٤٠٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩١٧٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٩٦-٩٥-٦

طبعة عام

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



المحتويات

رَقْمُ الصَّفْحَةِ:

العنوان:

٥	المَحَوِّلاتُ
٧	مَعَ عَقْلِ الْقَارِئِ إِلَى دُنْيَا هَذَا الْكِتَابِ
١١	مِلَاحِظَةُ الْمُتَرْجِمِ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ
١٣	تَوْضِيحٌ تَمْهِيْدِيٌّ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

١٥	عِلْمُ اللُّغَةِ وَالسِّيَاسَةِ
----	---------------------------------

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

١٧	السِّيَاسَةُ
----	--------------

الْفَصْلُ الثَّانِي

٦٧	عِلْمُ اللُّغَةِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
----	---

الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

٩١	فَلَسَفَةُ اللُّغَةِ
----	----------------------

الفصل الرابع

التجريبية والعقلانية ١١٣

القسم الثاني

النحو التوليدي ١٣٥

الفصل الخامس

ولادة النحو التوليدي ١٣٧

الفصل السادس

علم الدلالة ١٧٩

الفصل السابع

النظرية المعيارية الموسعة ٢١٣

الفصل الثامن

البنية العميقة ٢٢١

الفصل التاسع

النحو العام والمسائل التي لمّا تحل ٢٣٥

مَعَ عَقْلِ الْقَارِئِ إِلَى دُنْيَا هَذَا الْكِتَابِ

عزيزي القارئ،

أفهمني المولى سُبْحَانَهُ، تَفَضُّلاً، أَنْ مَنْ يَتَصَدَّى لِإِتْقَانِ التَّرْجَمَةِ مِنْ لُغَةٍ أُخْرَى إِلَى لُغَتِهِ، وَيُحَسِّنُ فِيهَا يَقُومُ بِهِ، شَخْصٌ حَبَاهُ صَانِعُ الوجودِ نِعَمَتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ: أَوَّلَاهُمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فَهْمِ مَقَاصِدِ عُلَمَاءِ مُبْدِعِينَ فِي لُغَةٍ غَيْرِ لُغَتِهِ. وَثَانِيَتُهُمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُفْهَمَ قَوْمَهُ مَقَاصِدَ مَنْ يُتَرْجَمُ أَعْمَالُهُمْ بِلُغَتِهِ الَّتِي هِيَ لُغَتُهُمْ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ، يَكُونُ الْمُتَرْجِمُ الْمُتَّقِنُ لِلْفَهْمِ وَالْإِفْهَامِ مُظْهِراً آيَاتِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَهُ فِي عُقُولِ خَلْقِهِ.

وَإِذَا أَضَعُ هَذَا كُلَّهُ فِي الْحُسْبَانِ أَقُولُ لِقَارِئِي عَنِ الْكِتَابِ:

ينطوي هذا الكتابُ عَلَى عَرْضٍ فِي غَايَةِ الْعُمُقِ لِلتَّفَكِيرِ السِّيَاسِيِّ وَاللِّغَوِيِّ عِنْدَ نَعُومِ تَشُومسكي، عَالِمِ اللُّغَةِ الْأَمْرِيكِيِّ الَّذِي طَبَّقَتْ شُهْرَتُهُ الْآفَاقَ. وَأَصْلُ هَذَا الْكِتَابِ أَسْئَلَةٌ عَمِيقَةٌ عَرْضَتْهَا اللِّغَوِيَّةُ الْفَرَنْسِيَّةُ مِتْسُو رُونَا عَلَى تَشُومسكي، وَإِجَابَاتُ تَشُومسكي عَنْهَا. وَتُظْهِرُ أَسْئَلَةُ رُونَا خُبْرَةً وَاسِعَةً بِالْفَضَاءِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي يَجُولُ فِيهِ ذَهْنُ تَشُومسكي وَتُظْهِرُ فِيهِ اجْتِهَادَاتُهُ فِي مَجَالَاتِ السِّيَاسَةِ وَعِلْمِ اللُّغَةِ، وَمُتَابَعَةً دَقِيقَةً لِتَطَوُّرِ فِكْرِهِ وَتَلْقِي هَذَا الْفِكْرِ فِي بَيِّنَاتِ عِلْمِ اللُّغَةِ بِتَنْوِيعَاتِهِ وَأَفْرَعِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَهُ اتِّصَالٌ بِهَا.

وتتوزعُ مادَّةُ الكتابِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

الأوَّلُ عنوانُهُ: عِلْمُ اللُّغَةِ وَالسِّيَاسَةِ، وَيَقِفُ عِنْدَ تَفْكِيرِ تَشْوِمُسْكِي فِي مَجَالَاتِ: السِّيَاسَةِ، وَعِلْمِ اللُّغَةِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَفِلْسَفَةِ اللُّغَةِ، وَالتَّجْرِبِيَّةِ وَالْعَقْلَانِيَّةِ.

والثَّانِي عنوانُهُ: النَّحْوُ التَّوْلِيدِيُّ، وَيُجِيبُ فِيهِ تَشْوِمُسْكِي عَنْ أَسْئَلَةٍ مِتْسُو رُونَا فِي خَمْسَةِ مَوْضُوعَاتٍ هِيَ: وَلَادَةُ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ، وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ، وَالنَّظَرِيَّةُ الْمَعْيَارِيَّةُ الْمَوْسَّعَةُ، وَالْبِنْيَةُ الْعَمِيقَةُ، وَالنَّحْوُ الْعَامُّ وَالْمَسَائِلُ الَّتِي لَمَّا تُحَلَّ.

وَأَبْرَزُ مَا يُمْكِنُ قَارِئُ الْكِتَابِ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ مِنْهُ هُوَ خَطُّ السَّيْرِ الْعِلْمِيِّ النَّشِطِ جَدًّا وَالْمُخْلِصِ وَالْعَمِيقِ وَالشَّامِلِ لِتَشْوِمُسْكِي مِنْذُ بَدَايَاتِ تَحْصِيلِهِ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي صَارَ فِيهِ عَالِمَ لُغَةٍ تَجْتَلِيهِ الْعَيُونُ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَتُتَنَاقَلُ فِكْرُهُ وَمُعَالَجَاتُهُ لِمَسَائِلِ الْعِلْمِ بِاللُّغَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَقَدْ اسْتَرْعَى انْتِبَاهِي فِي حَدِيثِ هَذَا الرَّجُلِ: كَرَاهِيَّتُهُ الظُّلْمَ وَالتَّفَاقُ وَالِاسْتِعْلَاءَ عَلَى الْآخَرِ، وَإِثَارُهُ الدَّقَّةَ الْعِلْمِيَّةَ، وَتَوَاضُعُهُ الْجَمِّ، وَإِجَابَاتُهُ الْمَضْبُوطَةَ الْمُحْكَمَةَ، وَتَخَوُّنُهُ عِلْمَهُ فِي غَيْرِ قَلِيلٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ. وَأَغْرَانِي بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ تَنَاوُلُهُ الْفِكْرِيُّ الْفِلْسَفِيُّ الْعَمِيقُ لِمَسَائِلِ عِلْمِ اللُّغَةِ، وَإِحَاطَتُهُ بِتَوَارِيخِ الْفِكْرِ، وَثِقَافَتِهِ الشَّامِلَةِ فِي مَجَالَاتِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ ذَاتِ الصَّلَةِ بِعِلْمِ اللُّغَةِ. وَقَدْ آتَسْتُ عِلْمًا فِي كُلِّ مَا قَالَهُ هُنَا.

وَلَدَيَّ أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي أَنْ يَقْرَأَ طَلَبَةُ الْعِلْمِ الَّذِينَ تَصِلُ أَيْدِيهِمْ إِلَى الْكِتَابِ الْمَادَّةَ الْعِلْمِيَّةَ الْقِيَمَةَ فِي تَضَاعِيفِ صَفَحَاتِهِ، وَأَنْ يَهْتَمُّوا خَاصَّةً بِطَبِيعَةِ التَّفْكِيرِ الْعِلْمِيِّ الْعَمِيقِ الدَّقِيقِ لَدَى هَذَا الْعَالَمِ؛ ابْتِغَاءً أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُمْ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّاتٍ عِلْمِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ يَحْدُوها أَمَلٌ إِلَى تَحْقِيقِ فُتُوحٍ عِلْمِيَّةٍ قِيَمَةٍ، وَالْإِجَابَةِ عَنْ أَسْئَلَةٍ مُلِحَّةٍ تَحْتَاجُ الثَّقَافَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَالْعُلُومَ اللَّغَوِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَى إِجَابَاتٍ مُصِيبَةٍ لَهَا.

وأحسب أن عقل القارئ الكريم سيتبين أن المترجم بذل جهداً كبيراً في نقل المعاني الدقيقة لما قاله المؤلف، إلى عربية لها حظ من التسديد والإصابة والدقة، وقدّر واضح من الضبط بالحركات، والإخراج الموفق في عرض المادة العلمية على عيني القارئ. وقد أحسن أخي الرائع حسن ربيع الضامن كعادته طباعته وإخراجه، فجزاه الله سبحانه عن العلم وأهله خير الجزاء.

وفي الختام، لك يا ربي حمدٌ من عرفتهم قدر النعماء، وأطلقت ألسنتهم بآيات الثناء.

وكتبه في حلب المحفوظة بالعناية،

مساء السبت، السابع والعشرين من رمضان الخير عام ١٤٤٠هـ،

الأول من شهر حزيران عام ٢٠١٩م،

المستفني بمولاه سبحانه

عيسى بن علي بن عيسى العاكوب

ملاحظة المترجم عن الفرنسية

أن يظهر اسمي مُترجماً لكتابٍ من تأليفِ نعوم تشومسكي إلى الإنجليزِيَّة، أمرٌ يستدعي حقاً شيئاً من التفسير. ويتمثّل أصلُ هذا الكتابِ في أحاديثٍ بين تشومسكي واللغويَّةِ الفرنسيَّةِ مِتسو رونا Mitsou Ronat، جَرَتْ بِالإنجليزِيَّةِ مِنْ جانِبِ تشومسكي، وبالفرنسيَّةِ مِنْ جانِبِها. وقد سَجَلَتِ الأحاديثُ عَلَى أشرطةِ تَسْجِيلٍ، ثُمَّ نَشَرَتْها مِتسو رونا في فرنسا بَعْدَ نَقْلِ أحاديثِ تشومسكي إِلَى الفرنسيَّةِ (نعوم تشومسكي، Dialogues avec Mitsou Ronat، باريس، ١٩٧٧م).

وَحِينَ أَعَدَّتْ دَارُ نَشْرِ بانثيون Pantheon بَعْدَئِذٍ لِنَشْرِ هذا الكتابِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، سَأَلَنِي تشومسكي أَنْ أُعِدَّ «ترجمةً إنجليزِيَّةً». وَلَمَّا كَانَتْ الْمَقَاطِعُ الَّتِي أَسْهَمَتْ بِهَا مِتسو رونا بِالفرنسيَّةِ أَصْلاً، شَكَّلَتْ هَذِهِ الْمَقَاطِعُ مُهِمَّةً وَاضِحَةً لِلتَّرْجَمَةِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ التَّرْجَمَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ لِتشومسكي أَسْفَرَتْ عَنْ مُشْكَلَةٍ مُخْتَلَفَةٍ. ذَلِكَ أَنَّ الْأَشْرَطَةَ الْأَصْلِيَّةَ لَمْ تَعُدْ فِي الْمُتَنَاقُلِ. وَقَدْ شَعَرْتُ حِينَئِذٍ كَمَنْ يَشْعُرُ بِأَنْ إِحْدَى مَسْرُحِيَّاتِ شَكْسْبِيرِ قَدْ فُقِدَتْ وَلَمْ تَبَقْ مِنْهَا إِلَّا التَّرْجَمَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ (الرَّائِعَةُ جَدًّا) لِشَلِيلْ وَتِيكْ، وَأَنَّ الْمَشْكَلَةَ كَانَتْ إِذْ ذَاكَ مُشْكَلَةَ إِعْدَادِ النَّصِّ الْإِنْجِلِيزِيِّ اعْتِمَادًا عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ. ثُمَّ سَهَّلَتِ الْمُهْمَةُ نِسْبِيًّا بِاسْتِعْدَادِ تشومسكي لِمُرَاجَعَةِ «تَرْجَمَتِي» بِقَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعَنَاءِ، ثُمَّ تَصْحِيحِهَا. وَعَلَى غِرَارِ مَا كَانَتْ الْحَالُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، فَإِنَّهُ فِي عَمَلِهِ هَذَا قَامَ أَيْضًا بِبَعْضِ التَّنْقِيحَاتِ الْمَلْمُوسَةِ فِي النَّصِّ.

وهكذا، تَبَعًا لِأَهْمِيَّةِ هذا الجزءِ مِنَ الكتابِ - حَيْثُ هو الجزءُ الأَكْبَرُ بِكثيرٍ - كان ينبغي حقًّا أن تقولَ صَحيْفَةُ العنوان: «أُعِيدَ تَنْظِيمُهُ بِمُساعدَةٍ...»، بدلًا مِنْ «ترجمة...». وطبيعيًّا، مَعَ الجُهدِ الكَبيرِ الذي بذَلَه تشومسكي، أنْ بعضَ الأخطاءِ يَمكُنُ أن تكونَ قد غابَتْ عنه؛ وعن هذه، عَلَيَّ أن أُقِرَّ وأنا وَجِلٌّ، بالمسؤوليَّةِ التَّامَّةِ.

ومَعَ هذه الصَّعوباتِ وجدَّتني أَسْتَمْتَعُ بِالعَمَلِ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِمْتاعي بِأَيَّةِ ترجمةٍ قُمْتُ بها في حياتي: بِسَبَبِ المَحْثَى - فَالفَصْلُ الأوَّلُ، عن المَسائِلِ السِّياسِيَّةِ وعن حَرَكَةِ الطُّلابِ في السِّتِيناتِ، قال أشياء كثيرةٌ جَدًّا مِمَّا لا بُدَّ مِنْ أن يُقالَ - وكذا لِأَنني أَعْتَقِدُ أَنَّ الكتابَ يُقَدِّمُ أَوْضَحَ عَرَضٍ حَتَّى الآنَ لِتَصَوُّراتِ تشومسكي الأساسِيَّةِ في عِلْمِ اللُّغَةِ والمَسائِلِ المَرْتَبِطَةِ بِهِ في مِيايِنِ الفِلسَفَةِ، وَعِلْمِ النِّفْسِ، والدراساتِ الاجتماعيَّةِ. ويُقَدِّمُ الكتابُ مَدْخَلًا رَائعًا لِأولئك الذين ليس لديهم اِطِّلاعٌ عَلَى العَمَلِ اللُّغَوِيِّ ومنهجِ النُّحُوِّ التَّولِيدِيِّ عِنْدَ تشومسكي. ويُقَدِّمُ في الوَقْتِ نَفْسَهُ فِكرَةً شامِلَةً عن الجَوائِبِ المَخْتَلِفَةِ لِلنُّحُوِّ التَّولِيدِيِّ والحالِ الرَّاهِنَةِ لِلْبَحْثِ، مِمَّا ينبغي أن يكونَ ذا أَهْمِيَّةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللُّغَوِيِّينَ، والفلاسِفَةِ، والآخِرِينَ الذين لديهم حَظٌّ أَوْفَرُّ مِنَ الاِطِّلاعِ عَلَى هذه المَسائِلِ.

توضيح تمهيدي

تقوم المادة التي تأتي على أحاديث جرت في كانون الثاني ١٩٧٦م، أدير جزء منها بالفرنسية، وجزء آخر بالإنجليزية. ثم نُشرت النسخة في ترجمة فرنسية عام ١٩٧٧م. وقد عرّضت إعادة الترجمة جُملة مشكلات؛ من بينها صعوبة إعادة بناء الأصل. وفي أثناء مُراجعة الترجمة، أدخلت عدداً من التعديلات الأسلوبية، وتلك المتصلة بالفحوى أحياناً، مُضيفاً مقاطع لإيضاح ما قيل أو توسعته. وهكذا فإنّ الكتاب الذي بين أيدينا، مع حفاظه على البنية الأساسية للأصل، ليس مجرد ترجمة للترجمة الفرنسية لملاحظاتِي، بل هو توسيع وتعديل، في بعض الحالات، للرواية الفرنسية.

نعوم تشومسكي

كيمبردج، ماسوشوستس

نيسان ١٩٧٨م



القِسْمُ الْأَوَّلُ عِلْمُ اللِّغَةِ وَالسِّيَاسَةِ

الفصل الأول السياسة

م. ر.: لعلهُ من المُفارقة أن تبدو كتاباتك السياسيّة وتحليلاتك للإيديولوجيا الإمبرياليّة الأمريكيّة معروفةً في فرنسا وفي الولايات المتّحدة، أكثر من التخصّص الجديد الذي أوجدته: النحو التوليديّ. ويفرضُ هذا سؤالاً هو: هل ترى صلةً بين نشاطاتك العلميّة - دراسة اللّغة - ونشاطاتك السياسيّة؟ - في مناهج التحليل، مثلاً؟

ن. ت.: إن كان ثمة من صلةٍ، فإنّها على مستوى أكثر تجريدًا. وليس لديّ إذنُ بإدخال مناهج غير مألوفةٍ في التحليل، والمعرفة الخاصّة التي أمتلكها بشأن اللّغة ليست ذات صلةٍ مباشرةٍ بالمسائل الاجتماعيّة والسياسيّة. وإن كلّ شيءٍ كتبته حول هذه الموضوعات يمكن أن يكتبه إنسانٌ آخر. ليس ثمة علاقةٌ مباشرةٌ تمامًا بين نشاطاتي السياسيّة، تأليفًا وسوى ذلك، والعمل المتّصل بتركيب اللّغة، مع أنّها قد تُستخلص، نسبيًّا، من افتراضاتٍ ومواقف محدّدة فيما يتعلّق بالجوانب الأساسيّة في الجبلة البشريّة. ذلك أنّ التحليل التقديّ في ميدان الإيديولوجيا، يبدو لي مسألة واضحة المعالم كثيرًا، مُقارنةً بتناولٍ يقتضي درجةً من التجريد المفهوميّ. أمّا في تحليل الإيديولوجيا، الذي شغلني كثيرًا، فإنّ قدرًا ضئيلاً من تفتح العقل، والذكاء العاديّ، والشكّ الصّحّي سيكون كافياً، على الجملة.

خُذي، مثلاً، مسألة فاعليّة المُثقفين في مجتمعٍ كمُجمّعنا. إذ تتولّى هذه

الفئة، التي قوامها المؤرِّخون والباحثون الآخرون والصَّحافيون والمُعلِّقون السِّياسيون وسواهم، القيام بتحليل صورة ما للواقع الاجتماعي وتقديمها. وبفعل تحليلاتهم وتفسيراتهم، يُستفاد منهم بوصفهم وُسطاء بين الحقائق الاجتماعية وعامة الناس: يُوجدون التبرير الإيديولوجي للممارسة الاجتماعية. تأملي عمل المُتخصِّصين في المسائل المُعاصرة، وقارني تفسيرهم بأحداث الواقع، قارني ما يقولونه بعالم الواقع. ستجدين، على الأكثر، اختلافاً كبيراً ومنظماً بوضوح. وتستطيعين من ثم أن تتقدّمي خطوة وتُحاولي تفسير هذه الاختلافات، آخذة في الحسبان الموقف الطبقي للمُتقنين.

وأحسب أن تحليلاً كهذا ذو أهميّة من طراز ما، لكنّ المهمّة ليست عسيرة جدّاً، والمشكلات التي تنشأ لا يُلوح لي أنّها تفرضُ قدرًا كبيراً من التحدّي العقلي. وبقدّر قليل من المثابرة والانكباب، سيُدرِك أيُّ إنسانٍ مستعدّاً لتخليص نفسه من نظام الإيديولوجيا المشتركة والدّعاية أشكال التشويه الذي طوّرتّه التّقسيمات الماديّة للمُتقنين. إنّ أيَّ إنسانٍ قادرٌ على فعل ذلك. وإن نُفَذَ مثُل هذا التّحليل على نحو هزيل، فذلك لأنّ التّحليل الاجتماعي والسياسي، على الجُملة، يُنفذ ابتغاء الدّفاع عن المصالح الخاصّة أكثر منه ابتغاء تفسير الوقائع الاجتماعية.

وبسبب هذا الميل فحسب، على المرء أن يكون حذراً من أن يُعطي انطباعاً، هو خاطئ في كلّ الأحوال، بأنّ المُفكرين المُزوِّدين بتدريب خاصّ، هم وحدهم قادرون على مثل هذا العمل التحليلي. والحق أن هذا فعلاً هو ما يريد المُتقنون منّا أن نعتقده: يزعمون أنّهم مُنهمكون بعملٍ سرّي، ليس مُهيأً للناس البُسطاء. لكنّ ذلك هُراء. والعلوم الاجتماعية، على الجُملة، وتحليل القضايا المُعاصرة، على نحو خاصّ، مُيسّرةٌ تماماً لمن شاء أن يكون له حظٌّ في هذه المسائل. وما يُدعى من تعقيدٍ وعمقٍ وغموضٍ في هذه المسائل، جزءٌ من خداع

يقوم بالدعاية له نظام التوجيه الإيديولوجي، الذي يرمي إلى جعل المسائل تبدو بعيدة عن الناس العاديين، وإقناعهم بعجزهم عن تنظيم مسائلهم الخاصة، أو فهم العالم الاجتماعي الذي يعيشون فيه من دون وصاية الوُسطاء. ولذلك السبب فحسب، ينبغي أن يكون المرء حذرًا من ربط تحليل المسائل الاجتماعية بالموضوعات العلمية التي تتطلب تدريبًا وتقنيات خاصة، ومن ثم إطارًا مرجعيًا وفكريًا خاصًا، قبل أن تُدرس بجدية.

وإنه ليُجزئ في تحليل المسائل الاجتماعية والسياسية، أن نواجه الحقائق، وأن نكون مُستعدين لسلوك خطّ عقلائي في النقاش. ولا يُحتاج هنا إلا إلى مبدأ الحسّ العام Common Sense، عند ديكارت، المؤزّع على نحو مُتساوٍ تمامًا... إن قُدِّر لك بذلك أن تفهمي الاستعداد للنظر إلى الحقائق بعقلٍ مفتوح، وأن تُخضعي الافتراضات البسيطة للاختبار، وأن تصلي بالمناقشة إلى نهايتها. أما ما وراء ذلك، فليس ثمة معرفة خاصة لا غنى عنها لسبر هذه «الأعماق»، الغير الموجودة.

م. ر.: الحق أنني أؤمن بالعمل القادر على تبيان وجود «قواعد» للإيديولوجيا، مما هو بعيد عن مُتناول وعي أولئك المعلقين بالتاريخ؛ أذكر مثلاً الدراسة التي خصصها جين بيير فاي (Jean Pierre Faye) لظهور النازية. ويظهر هذا الطراز من الأعمال أن نقد الإيديولوجيا يمكن أن يظفر بعُمقٍ فكري.

ن. ت.: لا أقول باستحالة إيجاد نظرية مثيرة فكريًا تُعالج الإيديولوجيا وأسسها الاجتماعية. ذلك ممكن، لكنه غير ضروري، مثلاً، لفهم ما يُغري المثقفين غالباً بإخفاء الحقيقة لمصلحة قوة خارجية، أو بإظهار كيف يُفعل بها في حالات خاصة ذات أهمية مباشرة. ومؤكد أنه في مُستطاع المرء أن يبحث في هذا

كُلُّهُ بِوَصْفِهِ مَوْضُوعَ بَحْثٍ مَثِيرٍ . لَكِنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّزَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ :

- ١- أَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نُقَدِّمَ تَحْلِيلًا نَظَرِيًّا مُهِمًّا لِهَذَا؟ - الإِجَابَةُ: نَعَمْ ، مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأِ . وَهَذَا الطَّرَازُ مِنَ الْعَمَلِ يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَى مُسْتَوًى يَتَطَلَّبُ فِيهِ تَدْرِيبًا خَاصًّا ، وَيُؤَلَّفُ ، مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأِ ، جِزَاءً مِنَ الْعِلْمِ .
- ٢- هَلْ مِثْلُ هَذَا الْعِلْمِ ضَرُورِيٌّ لِإِبْعَادِ الْمَوْشُورِ الْمُشَوِّهِ الَّذِي يَفْرُضُهُ الْمُتَقَفُّونَ عَلَى الْوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ؟ - الْجَوَابُ: لَا . فَالْتَّشْكِيكِيَّةُ وَالْانْكَبَابُ الْعَادِيَّانِ يَكْفِيَانِ .

دَعَيْنَا نَأْخُذُ مِثَالًا مَلْمُوسًا: حِينَ يَجْرِي حَادِثٌ مَا فِي الْعَالَمِ ، تَبَحُّثُ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ - الْمَرْئِيَّةُ وَالْجَرَائِدُ - عَمَّنْ يَفْسِّرُهُ . وَتَعَوُّدُ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، عَلَى الْأَقْلَ ، إِلَى الْمُحْتَرِفِينَ فِي مِيدَانِ الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، مُطْمَئِنَّةً نَفْسَهَا بِفِكْرَةٍ تَبْدُو مَقْبُولَةً فِي الظَّاهِرِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ مَقْبُولَةً ضَمَنْ حُدُودٍ ، مُؤَدَّاهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْخَبْرَاءَ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ خَاصَّةٌ عَلَى تَفْسِيرِ مَا يَحْدُثُ . وَإِذَا هَذَا الْوَضْعُ ، يَكُونُ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ عِنْدَ الْمُحْتَرِفِينَ أَنْ يَجْعَلُوا النَّاسَ جَمِيعًا يَعْتَقِدُونَ بِوُجُودِ إِطَارٍ مَرَجِعِيٍّ عَقْلِيٍّ يَمْتَلِكُونَهُ هُمْ وَحْدَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَمِنْ ثَمَّ ، فَإِنَّهُمْ وَحْدَهُمْ أَرْبَابُ الْحَقِّ فِي تَفْسِيرِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، أَوْ إِنَّهُمْ فِي مَنْزِلَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُخَوِّلُهُمْ فِعْلَ ذَلِكَ . وَهَذِهِ إِحْدَى الطُّرُقِ الَّتِي يُوَدِّي فِيهَا الْمُتَقَفُّونَ الْمُحْتَرِفُونَ عَمَلًا نَافِعًا وَفَعَالًا دَاخِلَ نِظَامِ التَّوْجِيهِ الْاجْتِمَاعِيِّ . فَأَنْتِ لَا تَسْأَلِينَ إِنْسَانَ الشَّارِعِ عَنْ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ جِسْرٍ ، أَنْفَعَلِينَ ذَلِكَ؟ تَعُودِينَ إِلَى الْخَبِيرِ الْمُحْتَرِفِ . وَعَلَى غِرَارِ هَذَا تَمَامًا ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلِي إِنْسَانَ الشَّارِعِ هَذَا: أَيْجِبُ أَنْ نَتَدَخَّلَ فِي أَنْجُولَا؟ - هَهُنَا يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَى الْمُحْتَرِفِينَ - الْمُخْتَارِينَ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ ، لِيَكُونَ مُطْمَئِنًّا .

وَلَا يَضَاحُ هَذَا كُلُّهُ ، دَعَيْنِي أُعَلِّقُ عَلَى نَحْوِ شَخْصِيٍّ جَدًّا: فِي عَمَلِي الْحَرْفِيِّ

الخاصّ أدنو من مجموعة من الميادين المختلفة . وقد قمتُ بِعَمَلٍ في ميدانِ عِلْمِ اللغةِ الرِّياضيّ، مثلاً، من دونِ أيّة وثائق رَسْمِيَّةٍ تَخْصِصِيَّةٍ في الرِّياضيّات ؛ وفي هذا الموضوعِ أنا الذي علّمتُ نفسي تماماً، وليس ذلك التّعليمَ الجيّدَ . لكنني كثيراً ما أدعى إلى الجامعات ، لِاتحدّثَ عن عِلْمِ اللغةِ الرِّياضيّ في حلقاتِ دراسيّةٍ ومؤتمراتٍ في الرِّياضيّات . ولم يحدّثْ أن سألني أحدٌ عمّا إن كنتُ أملكُ الوثائقَ الرّسميّةَ المُناسِبةَ لِلتحدّثِ في هذه الموضوعات ؛ وليس في مقدورِ الرِّياضيّينَ أن يكونوا غيرَ مُبالِينَ . وما يشاؤونَ أن يعرفوه هو ما ينبغي عليّ قوله . ولم يعترضْ أحدُ البتّةِ عليّ حَقِّي في التحدّثِ ، ويسألُ عمّا إن كنتُ أُحمِلُ درجةَ دكتوراه في الرِّياضيّات ، أو كنتُ تلقّيتُ مقرّراتٍ دراسيّةٍ في هذا الموضوع . ذلك لم يكنْ قد دخلَ عقولَهم . يريدونَ أن يعرفوا صوابي أو خطأي ، إثارةَ الموضوع أو عدمَ إثارتِهِ ، هل يمكنُ أن يكونَ ثَمّةُ مناهجٍ أفضلُ - فالْمُناقِشَةُ تتناولُ الموضوعَ وليس حَقِّي في مُناقِشَتِهِ .

أمّا في جانبٍ آخَرَ ، مُناقِشَةُ أو حوارٍ يتّصلُ بِمَسائِلَ اجتماعيّةٍ أو بِالسِّيَاسَةِ الخارجيّةِ الأمريكيّةِ ، فيتنام أو الشرق الأوسط ، فإنّ هذه القضيةُ تُثارُ دائماً ، وبِقَدَرٍ كبيرٍ من الحنقِ غالباً . فكثيراً ما اعترضَ عليّ على أساسِ الوثائقِ الرّسميّةِ ، أو سِئلتُ عن التّأهيلِ الخاصّ الذي تلقّيته ليؤهلّني لِلتحدّثِ عن هذه المسائل . فالافتراضُ هو أنّ أناًساً مثلي ، ممّن هم خارجونَ عن الرّأيِ التّخصّصي ، غيرُ مؤهلّينَ لِلتحدّثِ عن أشياء كهذه .

قارني بينَ الرِّياضيّاتِ والعُلومِ السِّيَاسيّةِ - فذلك لافِتٌ للنّظَرِ تماماً . في الرِّياضيّاتِ ، وفي الفيزياء ، يهتمّ النّاسُ بِما تقولينه ، وليس بِشهادَتِكَ . أمّا ابتغاءُ التحدّثِ عن الواقعِ الاجتماعيّ ، فعَلَيْكَ أن تملكِي المؤهّلاتِ العِلْميّةَ المُناسبةَ ، خاصّةً حينَ تتعدّينَ عن إطارِ التّفكيرِ المُسلمِ به . ويمكنُ القولُ ، على الجُمْلَةِ ، إنّه

يبدو مقبولاً أن نقولَ إنَّه كُلُّما كَانَتِ المَادَّةُ العَقْلِيَّةُ ثَرِيَّةً فِي مِيْدَانٍ مِنْ مِيَادِنِ العِلْمِ، قَلَّ الاهتمامُ بِالمُؤَهَّلَاتِ، وكَثُرَ الاهتمامُ بالمحتوى. حَتَّى إِنَّه فِي مقدورِ المرءِ أَنْ يذهبَ إِلَى أَنَّ مُعَالَجَةَ المسائلِ الأساسيةِ فِي التَّخَصُّصَاتِ الإِدْيُولُوجِيَّةِ، ربَّما تكونُ شَيْئاً خَطِيراً؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّخَصُّصَاتِ لَا تَهْتَمُّ تَمَاماً بِاكتشافِ الوقائعِ وتفسيرِها كما هِيَ فِي الواقعِ، بل، عَلَى العكسِ، تَمِيلُ إِلَى تقديمِ هَذِهِ الوقائعِ وتفسيرِها عَلَى نَحْوِ تَسْتَجِيبٍ فِيهِ لِمُتَطَلِّبَاتِ إِدْيُولُوجِيَّةٍ مُحدَّدةٍ، وتغدو خَطِراً عَلَى المصالحِ القائمةِ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلَى هَذَا النِّحْوِ.

وابتغاء استكمالِ الصُّورَةِ، عَلَى أَنَّه عَلَى اختلافٍ لَافِتٍ لِلنَّظَرِ، فِي تجربتي الشَّخْصِيَّةِ عَلَى الأقلِّ، بَيْنَ الولاياتِ المُتَّحِدَةِ والديمقراطياتِ الصَّنَاعِيَّةِ الأُخْرَى، فِيمَا يَتَّصِلُ بِهَذَا المَوْضُوعِ. وَهَكَذَا وَجَدْتُ خِلَالَ أعْوامٍ، أَنَّنِي كَثِيراً مَا أُطَالِبُ بِالتَّعْلِيقِ عَلَى قَضَايَا دَوْلِيَّةٍ أَوْ مَسَائِلَ اجْتِمَاعِيَّةٍ مِنْ جَانِبِ الصَّحَافَةِ والإِذَاعَةِ والمَرْتَبَةِ (التَّلْفَازِ) فِي كندا وأوروبا الغَرْبِيَّةِ واليابانِ وأستراليا، لَكِنَّ ذَلِكَ نَادِراً جَدّاً فِي الولاياتِ المُتَّحِدَةِ.

(أَسْتَشْنِي هُنَا الصَّفَحَاتِ الخَاصَّةَ فِي الجرائدِ حَيْثُ يُفَسِّحُ المَجَالُ لِرَأْيِي مُخَالَفٍ، وَحَتَّى يَشْجَعُ، لَكِنَّه يُغْلَفُ وَيُوصَفُ بِأَنَّهُ «تَعْبِيرٌ تَامٌّ عَنْ مَجَالٍ لِلرَّأْيِ». وَأَشِيرُ فِعْلاً إِلَى التَّعْلِيقِ والتَّحْلِيلِ، اللَّذَيْنِ يَدْخُلَانِ فِي التِّيَّارِ السَّائِدِ فِي مُنَاقَشَةِ القَضَايَا المُعَاصِرَةِ وتفسيرِها، بِوَصْفِهِمَا اخْتِلافاً حَاسِماً).

وَقَدْ كَانَ التَّعَارُضُ مُثِيراً حَقّاً، إِبَّانَ مَرَحَلَةِ حَرْبِ فَيْتْنَامِ، وَيَبْقَى كَذَلِكَ اليَوْمَ. وَإِنْ قُدِّرَ لِهَذَا وَحْدَهُ أَنْ يَكُونَ تَجْرِبَةً شَخْصِيَّةً، فَلَنْ تَكُونَ لَهُ أَيَّةُ أَهْمِيَّةٍ، لَكِنِّي عَلَى يَقِينٍ تَامٍّ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ. فَالولاياتُ المُتَّحِدَةُ فَدَّةٌ بَيْنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّاتِ الصَّنَاعِيَّةِ فِي صَرَامَةِ نِظَامِ التَّوْجِيهِ الإِدْيُولُوجِيِّ - وَقَدْ نَقُولُ «التَّلْقِينَ الحِزْبِيِّ» - الَّذِي يُمارَسُ

عَبَّرَ وسائل الإعلام. وَلَعَلَّ إحدَى الأدواتِ المستعمَلةِ لِتحقيقِ هذا التّضييقِ في المنظور، إنّما هي الاعتمادُ عَلَى المَراجعِ المُتخصّصة. وقد أَفلَحَتِ الجامعاتُ وفُروغُ الدّرسِ الأكاديميّ، في الماضي، في حِمَايةِ مواقفٍ وتفسيراتٍ مُكَيِّفَةٍ، حيثُ إنّ الاعتمادَ عَلَى «الخِبْرَةِ الاحترافيّةِ»، سيؤكِّدُ، عَلَى الجُمْلَةِ، أَنَّ النّظراتِ والتّحليلاتِ التي تنأى عن التّقليدِ لن يُعَبَّرَ عنها إِلَّا في النّزَرِ اليسيرِ.

وهكذا، فإنَّ تَرَدُّدي في مُحاولَةِ رَبْطِ عملي في عِلْمِ اللّغَةِ بِتَحليلاتٍ للقضايا الرّاهنة أو لِإيديولوجيا، عَلَى غِرارِ ما يقترحُ كثيرونَ، يَرَجُعُ إلى سببَيْنِ. أمّا في المقامِ الأوّل، فإنَّ العلاقةَ واهيئةٌ حقًّا. يُضَافُ إلى ذلك، أَنّني لا أريدُ أن أُسْهِمَ في الإيهامِ بأنَّ هذه المَسائلَ تقتضي فَهْمًا تَقْنِيًّا، يَعزُّ الحصولُ عليه من دُونِ إعدادٍ خاصّ. لكنّني لا أريدُ أن أنكَرَ ما تقولين: فالإنسانُ يستطيعُ أن يتناولَ طبيعةَ الإيديولوجيا، وفاعليّةَ التّوجيهِ الإيديولوجيّ، والتّأثيرِ الاجتماعيِّ لِلْمُتَقَفِّينَ؛ إلخ، عَلَى نحوٍ مُمتنع. لكنَّ المُهمّةَ التي تُواجهُ المُواطنَ العاديَّ المُهمّتَ بِفَهمِ الواقعِ الاجتماعيِّ وإزالةِ الحُجُبِ المُسدّلةِ عليه، ليستُ مُماثلةً لِمُشكِلةِ جين بيري فاي في بَحْثِهِ لِلّغَةِ الاستبداديّةِ.

م. ر.: أَشرتَ في تحليلاتِكَ لِإيديولوجيا إلى حقيقةٍ «غريبة»: يحدثُ أحيانًا أنَّ بعضَ الصّحفِ تُمارِسُ سِياسةَ «تَوَازُنٍ»، أساسُها تقديمُ تقاريرٍ أو تفسيراتٍ متناقضةٍ في وقتٍ واحدٍ. وقد قُلْتُ، في آيَةٍ حال، إنّ الرّوايةَ الرّسميّةَ وَحَدها، روايةَ الإيديولوجيا السّائدة، هي التي احْتِفَظَ بها، حتّى من دونِ بُرهان، في حينَ أنَّ روايةَ المُعارضةِ رُفِضَتْ مَعَ وجودِ الدّليلِ المُقَدَّمِ والمُصدّقيّةِ في المصادرِ.

ن. ت.: نعم جزئيًّا، لِأَنَّهُ جَلِيٌّ أنَّ الوَضَعَ الممتازَ يَتَّفَقُ والرّوايةُ التي تستجيبُ جيّدًا لِمُتطلّباتِ القوّةِ والامتياز. وَمِنَ المُهمِّ دائِمًا، عَدَمُ إهمالِ اللّاتوازُنِ

المُروَّع بشأنِ كَيْفِيَّةِ تقديمِ الواقعِ الاجتماعيِّ إلى الجمهورِ .

ولا تستطيعينَ ، فيما أعلمُ ، أن تَجِدِي في وسائلِ الإعلامِ في أمريكا صحافياً اشتراكياً واحداً ، ليس ثَمَّةُ مُعلِّقٍ سياسيٍّ واحدٍ مُنظَّمٍ في نقابةٍ اشتراكيٍّ في الوقتِ نفسه . ومن وجهةِ النظرِ الإيديولوجيةِ ، فإنَّ وسائلَ الإعلامِ هي مِثَّةٌ بِالمِثَّةِ «رَأْسمَالِيَّةُ الدَّولةِ» . وبمعنى ما ، لدينا ما يفوقُ ما هو موجودٌ هنا ؛ «الصُّورةُ المُطابِقةُ Mirror Image» في الاتحادِ السوفييتيِّ ، حيثُ يُمثَّلُ كُلُّ مَنْ يَكْتُبُ في صحيفَةٍ «برافدا» ، الوَضْعُ الذي يُطلقونَ عليه «الاشتراكية» - وهو في الحقيقةِ نوعٌ من اشتراكيةِ الدَّولةِ ذو طابعٍ استبداديٍّ واضح . وهنا في الولاياتِ المتَّحدةِ ثَمَّةُ دَرَجَةٍ مُدهِشَةٍ مِنَ التَّمائُلِ الإيديولوجيِّ في مِثْلِ هذا البلدِ المُعقَّد . ليس ثَمَّةُ صوتٍ اشتراكيٍّ واحدٍ في وسائلِ الإعلامِ ، ليس ثَمَّةُ حَتَّى صوتٍ جَبَانٍ ؛ قد يكونُ هناكُ بعضُ الاستثناءاتِ الهامشيَّةِ ، لكنني غيرُ قادرٍ على التَّوقُّعِ ، ارتجالاً . ولهذا سَبَبانِ أساساً . هناكُ ، أولاً ، التَّجانُسُ الإيديولوجيُّ الاستثنائيُّ لدى فِئَةِ المُثَقِّفينَ الأمريكيِّينَ على الجُملةِ ، الذين قلَّما يتعدونَ عن واحدٍ مِنَ المُتغيِّراتِ في الإيديولوجيا الرأسماليةِ لِلدَّولةِ (الليبراليةِ أو المُحافظة) ، وهو أمرٌ يستدعي تفسيراً . والسَّبَبُ الثاني ، أنَّ وسائلَ الإعلامِ مؤسَّساتُ رأسماليةٌ . ولا ريبَ في أنَّه صُورةٌ مُطابِقةٌ لما هو موجودٌ في هيئةِ مديري شركةِ «جنرال موتورز» . وإن لم يكنُ موجوداً فيها اشتراكيٌّ - ماذا سيفعلُ هناكُ ! - فليسَ ذلكُ لِأنَّهم عاجزونَ عن إيجادِ أيِّ واحدٍ مِنَ الأكفِياءِ . إنَّ وسائلَ الإعلامِ في مجتمعٍ رأسماليٍّ ، هي مؤسَّساتُ رأسماليةٌ . أمَّا كَوْنُ هذه المؤسَّساتِ تعكسُ إيديولوجيا المصالحِ الاقتصاديَّةِ السَّائدةِ ، فأمرٌ لا يكادُ يدعو إلى الدهشةِ .

تلك حَقِيقَةٌ سادِجَةٌ وأوَّلِيَّةٌ . وما تتحدَّثينَ عنه يُشيرُ إلى ظاهراتٍ أكثرَ صِحَّةً .

وهذه ، معَ إثارتِها ، لا ينبغي أن تجعلَ المرءَ ينسىِ العواملَ السَّائدةِ .

وَجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ، أَنَّهُ مَعَ التَّسْجِيلِ الشَّامِلِ والمعروفِ لِأَكَاذِبِ الْحُكُومَةِ إِبَّانَ حَرْبِ فَيْتَنَامٍ، ظَلَّتِ الصَّحَافَةُ، بِثَبَاتٍ وَاضِحٍ، مُنْقَادَةً عَلَى نَحْوِ مَلْحُوظٍ، وَمُسْتَعِدَّةٌ لِقَبُولِ مَزَاغِمِ الْحُكُومَةِ، وَإِطَارِ تَفْكِيرِهَا، وَتَفْسِيرِهَا لِمَا يَحْدُثُ. وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ الصَّحَافَةَ - فِي مَسَائِلَ تَقْنِيَّةٍ دَقِيقَةٍ كَمَسْأَلَةِ نَجَاحِ الْحَرْبِ مَثَلًا - كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لِلانْتِقَادِ، وَكَانَ هُنَاكَ دَائِمًا مُرَاسِلُونَ شُرَفَاءُ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ وَصَفُّوا مَا رَأَوْهُ. لَكِنِّي أَشِيرُ إِلَى النَّمُودَجِ الْعَامِّ فِي التَّفْسِيرِ وَالتَّحْلِيلِ، وَإِلَى افْتِرَاضَاتٍ أَكْثَرَ تَعَمِيمًا بِشَأْنِ مَا هُوَ صَحِيحٌ وَلَا تُق. زَيْدِي عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ الصَّحَافَةَ أحيانًا أَخَفَّتْ تَمَامًا حَقَائِقَ دَامِغَةً - وَمَا قَذَفَ لَأَوْسَ بِالْقَنَابِلِ بِمِثَالِ خَفِيِّ.

لَكِنَّ تَبَعِيَّةَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ تُوضَحُ بِوَسَائِلَ أَقَلِّ صَحْبًا. خُذِي مَشَاوِرَاتِ مُعَاهَدَةِ السَّلَامِ، الَّتِي كَشَفَتْهَا إِذَاعَةُ هَانُوِي فِي تَشْرِينَ الْأَوَّلِ ١٩٧٢م، قَبْلَ انْتِخَابَاتِ الرِّئَاسَةِ فِي تَشْرِينَ الثَّانِي مُبَاشَرَةً. فَحِينَ ظَهَرَ كَيْسَنْجَرُ فِي الْمَرِيَّةِ (التَّلْفَازِ) لِيُعلنَ أَنَّ «السَّلَامَ فِي الْيَدِ»، قَدِمَتِ الصَّحَافَةُ عَنْ طَيْبِ خَاطِرٍ رِوَايَتَهُ لِمَا يَحْدُثُ، مَعَ أَنَّهُ، حَتَّى التَّحْلِيلُ السَّرِيعُ لِتَعْلِيقَاتِهِ، أَظْهَرَ أَنَّهُ كَانَ رَافِضًا الْمَبَادِئَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْمُحَادَثَاتِ فِي نَقْطَةِ خَطِيرَةٍ - وَهَكَذَا كَانَ تَصْغِيدُ الْحَرْبِ الْأَمْرِيكِيَّةِ - مِثْلَمَا حَدَّثَ حَقًّا فِي الْقَصْفِ فِي عِيدِ الْمِيلَادِ - أَمْرًا مُحْتَمًّا. وَلَسْتُ أَقُولُ هَذَا مِنْطَلِقًا مِنْ عَوْنِ إِدْرَاكِ مُتَأَخِّرٍ فَحَسْبُ. فَقَدْ بَذَلْتُ، بِمُشَارَكَةِ آخَرِينَ، جُهْدًا كَبِيرًا فِي مُحَاوَلَةٍ جَعَلَ الصَّحَافَةَ الْقَوْمِيَّةَ تُوَاكِفُ الْحَقَائِقَ النَّاصِعَةَ فِي وَقْتِهَا، وَكُتِبَتْ أَيْضًا مَقَالَةٌ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلَ قَصْفِ أَعْيَادِ الْمِيلَادِ^(١)، تَنْبَأَتْ خَاصَّةً «بِقَصْفِ مُرَوِّعٍ مُتَزَايِدٍ لِفَيْتَنَامِ الشَّمَالِيَّةِ».

وَالْقِصَّةُ نَفْسُهَا تَمَامًا كَانَ قَدْ أُعِيدَ تَمَثِيلُهَا فِي كَانُونِ الثَّانِي ١٩٧٣م، حِينَ

١- فِي «التَّحْرِيرِ Liberation» (كَانُونِ الثَّانِي ١٩٧٣م).

أُعلنت معاهدة السلام نهائياً. حيثُ أوضح كيسنجر والبيت الأبيض، أنّ الولايات المتحدة كانت ترفضُ كلَّ مبدأٍ أساسيٍّ في المعاهدة التي كانت قد وقَّعت عليها؛ ومن ثم، فإنَّ حرباً متصلةً كانت أمراً لا مفرَّ منه. وقد سارعت الصحافةُ إلى قبول الرواية الرسمية، وبالغت في ذلك حتَّى سمحت ببعض التزييفات المضللة لِتقف غير مُتهمة. وقد عرضت لهذا كُلُّه بإسهابٍ في موضعٍ آخر^(١).

أو لنذكرُ حالةً أخرى، حيثُ إنني في مقالةٍ كتبتها لصحيفة رامبارتز Ramparts^(٢)، أبديت وجهةَ نظرٍ في التفسيرات الارتجاعية للحرب الفيتنامية ممَّا عرضته الصحافة حينَ دنت الحرب من نهايتها عامَ ١٩٧٥م - أعني الصحافة الليبرالية، أمَّا الصحافة الأخرى فغيرُ مُتهمةٍ بهذه المسألة.

أمَّا على الصعيدِ العمليِّ الشامل، فإنَّ الصحافة سلَّمت بالمبادئ الأساسية لِدعاية الحكومة، من دُونِ مناقشتها. ونتحدثُ هنا عن ذلك القسمِ من الصحافة الذي عدَّ نفسه مُعارضاً للحرب. وذلك غريبٌ جداً.

ويصدقُ الشيءُ نفسه على المُنتقدين الانفعاليين للحرب؛ وفي مقدورنا أن نتجرأً فنقول إنَّهم إلى حدٍّ كبيرٍ غيرُ شاعرين بها.

وينطبقُ هذا خاصَّةً على أولئك الذين يُعدُّون «النُّخبة المُفكِّرة». والحقُّ أنَّ ثمةَ كتاباً لافتاً للنظرٍ يدعى «النُّخبة المُفكِّرة في أمريكا-The American Intellectual Elite» ألفه س. كاديوشين (C. Kadushine)، يقدِّمُ حصيلةَ اختبارٍ مُفصَّلٍ لِرأيٍ مجموعةٍ وُصفتُ بِأنَّها «النُّخبة المُفكِّرة»، وقد شرعَ في تأليفه عامَ

١- انظر «المتاريس Ramparts» (نيسان ١٩٧٣م)؛ السياسة الاجتماعية Social Policy (أيلول ١٩٧٣م).

٢- ظهر هذا في العدد الأخير من تلك المجلة، التي كانت عاجزةً عن إيجادِ الدَّعم الماليِّ، ولم تعد موجودة. Ramparts، آب ١٩٧٥م.

١٩٧٠م. ويتضمّن هذا الكتابُ قَدْرًا كبيرًا من المعلوماتِ عن مواقفِ المجموعةِ إزاءَ الحربِ، في الوقتِ الذي كانت فيه المُعارضةُ للحربِ على أشدها. وقد عدّتِ الأغلبيةُ السّاحقةُ نفسها مُعارضةً للحربِ، لكنّ ذلك، على الجُملةِ، راجعٌ إلى ما سمّوه أسبابًا عمليّةً «براغماتيّةً»: غَدُوا على قناعةٍ، في لحظةٍ من اللحظاتِ، بأنّ الولاياتِ المتّحدة لا يمكنُ أن تَربَحَ بِشَمَنِ يمكنُ قبولُهُ. وأحسبُ أنّ دراسةً «للنُّخبَةِ المُفكِّرةِ في ألمانيا» عام ١٩٤٤م، كانت قد تمخّضت عن النتائجِ نفسها. حيثُ تُشيرُ الدّراسةُ على نحوٍ مثيرٍ تمامًا، إلى درجةٍ كبيرةٍ من التّطابقِ والاستجابةِ للإيديولوجيا السّائدة بين أناسٍ يعدّون أنفسهم مُنتقدين نشيطين لسياسةِ الدّولة.

أمّا نتيجةُ هذا الإذعانِ المُتماثِلِ لأولئك الذين هم في مركزِ القوّة، كما سمّاه هانز مورجنثاؤ (Hans Morgenthau) بِحقٍّ، فهي أنّ الخطابَ والنّقاشَ السّياسيّين في الولاياتِ المتّحدة أقلُّ تشبّهًا، على الجُملةِ، منهُما حتّى في بعضِ البلدانِ الفاشيّة، إسبانيا فرانكو مثلاً، حيثُ كان ثَمّةُ مُناقشةٍ فعّالةٍ تغطّي مجالًا إيديولوجيًا واسعًا. ومع ذلك، فإنّ عُقوباتِ الانحرافِ عن العقيدةِ الرّسميّةِ كانت أشدَّ صرامةً منها هنا بما لا يُقارَن، ومع ذلك، لم يكنِ الرّأيُ والتّفكيرُ مقيّدَين بِمِثْلِ هذه القيودِ الصّيقة، وهي الحقيقةُ التي كثيرًا ما أثارت دهشة المُثقفين الإسبان، الذين يزورون الولاياتِ المتّحدة إبّانَ الأعوامِ الأخيرةِ من عهدِ فرانكو. وكثيرًا ما كانتِ الحالُ كذلك تمامًا في البرتغالِ الفاشيّة، حيثُ يبدو أنّ ثَمّةَ مجموعاتٍ ماركسيّةٍ ذاتِ شأنٍ في الجامعاتِ، ونذكرُ هنا مثلاً واحدًا فحسبُ. فقد صار التّنوّعُ الإيديولوجيُّ وأهمّيّتهُ بارزَينِ مع سقوطِ الدّكتاتوريّةِ. وقد عكّسَ هذا أيضًا في حركاتِ التّحرّرِ في المُستعمراتِ البرتغاليّةِ - شارعُ ثنائيّ الاتّجاهِ، في تلكِ الحالِ، حيثُ إنّ المُثقفينَ البرتغاليّين كانوا متأثرينَ بِحركاتِ التّحرّرِ، وأنا أفترضُ العكسَ.

أمّا في الولاياتِ المتّحدة، فالوَضْعُ مختلفٌ تمامًا، وحينَ تُقارَنُ الولاياتُ

المتّحدة بالديمقراطيات الرأسمالية الأخرى ، تكون أشدّ قسوة ومذهبيّة في تفكيرها وتحليلها السياسيّين . وليس ذلك بين المثقّفين فحسب ، مع أنّ هذه الحقيقة في هذا القطاع قد تكون أكثر غرابة . والولايات المتّحدة فذّة أيضاً في أنّه ليس هناك ضغطٌ منهم لاشتراك القوّة العاملة في الإدارة ، ناهيك عن سيطرة عماليّة حقيقيّة . وهذه المسائل ليست نشطة في الولايات المتّحدة ، في حين أنّها موجودة في أوروبا الغربيّة كلّها . إنّ غياب أيّ صوتٍ اشتراكيّ ذي شأن ، أو مناقشة لها هذه الصّفة ، سمّةٌ مثيرةٌ تماماً أيضاً في الولايات المتّحدة ، مقارنةً بمجتمعات أخرى لها بنية اجتماعيّة ومُستوى تطوّر اقتصاديّ مُماثلان لِمَا للولايات المتّحدة .

وهنا رأى المرءُ تغيّراتٍ ضيّلةً في نهاية السّتينيات ؛ أمّا في عام ١٩٦٥م ، فإنّك ستلقين كبيرَ عنّتٍ في العثور على أستاذٍ جامعيّ ماركسيّ ، أو اشتراكيّ ، في أحدِ أقسامِ علمِ الاقتصادِ في الجامعات المرموقة ، على سبيلِ المثال . فقد سادت إيديولوجيا رأسماليّة الدولة العلوم الاجتماعيّة وكلّ التخصّصات الإيديولوجيّة ، دونما استثناءٍ تقريباً . وكانت هذه التّمائليّة قد سُمّيت «نهاية الإيديولوجيا» . وقد هيمنت في الميادين الحرفيّة - ولا تزالُ تهيمنُ على نطاقٍ واسع - وكذا في وسائل الإعلام وصُحف الرّأي . إنّ درجةً كهذه من التّمائل الإيديولوجيّ في بلدٍ ليس لديه شُرطة سرّيّة ، على الأقلّ ليس أكثر من جهازٍ واحد ، وليس لديه مُعسكرات اعتقالٍ ، لأمّ استثنائيّ حقاً . وقد ضيّق نطاق التنوّع الإيديولوجيّ (أعني الضّرب الذي يتضمّن نقاشاً فعّالاً حول مسائل اجتماعيّة) تضيقاً كبيراً هنا لأعوامٍ كثيرة ، مخروفاً نحو اليمين أكثر منه في الديمقراطيات الصناعيّة الأخرى . وهذا أمرٌ على قدرٍ كبيرٍ من الأهميّة . وينبغي أن يُنظر إلى الأشياء الدّقيقة التي أَلْمَعَتْ إليها داخل هذا الإطار .

وقد حدثت تغيّراتٌ في أواخر السّتينيات في الجامعات ، حدّث ذلك إلى

حدّ كبيرٍ بسببِ حَرَكَةِ الطَّلَبَةِ، التي طالبتْ وحَقَّقَتْ بعضَ التَّوسيعِ في المجالِ المسموحِ بهِ للتَّفكيرِ. وقد كانتْ رُدودُ الفَعْلِ مثيرَةً. والآنَ، حيثُ تضاعَلَ ضَغْطُ حَرَكَةِ الطَّلَابِ، ثَمَّةَ جُهْدٍ واضحٍ لإِعادةِ بناءِ التَّقْلِيدِ الذي زُعِزَعَ قليلاً.

وقد حَدَثَ دائماً في المُنَاقَشاتِ والمُؤَلَّفَاتِ التي تناوَلَتِ تلكَ المرحلةَ - التي كثيراً ما تُدعى «مرحلةُ الاضطراباتِ»، أو شيئاً من هذا القبيل - أن يُصوَّرَ اليَسَارُ الطُّلابيَّ بِوَصْفِهِ خطراً يُهدِّدُ حُرِّيَةَ البَحْثِ والتَّعْلِيمِ؛ ويُقالُ إنَّ حَرَكَةَ الطَّلَابِ قد تَضَعُ حُرِّيَةَ الجامعاتِ في خَطَرٍ، مِنْ خِلالِ مُحَاوَلَةِ فَرَضِ التَّوجِيهَاتِ الإِدْيُولُوجِيَّةِ الاستبداديةِ. وتِلْكُمْ هي الطَّرِيقَةُ التي يَصِفُ فيها مُثَقِّفُو رَأْسِمَالِيَّةِ الدَّوْلَةِ حَقِيقَةَ أَنَّ توجيهِهم الإِدْيُولُوجيَّ القريبَ مِنَ الكَمالِ، قد صارَ موضوعَ بَحْثٍ شديدِ الإيجازِ، لأنَّهم يُحاولونَ ثَانِيَةً سَدَّ هذه الاختلالاتِ الواهيةِ في نظامِ التَّوجيهِ الفكريِّ، وَقَلَبَ العَمَلِيَّةِ التي نشأ عنها اختلافٌ ضَمِيلٌ جداً داخلَ المُؤَسَّساتِ الإِدْيُولُوجِيَّةِ: خَطَرُ استبدادِ فاشِيَّةِ اليَسَارِ! وهم يؤمنونَ بِذلكَ إيماناً قوياً، إلى دَرَجَةٍ غُسِلَتْ فيها أدمغَتُهم وسيطَرَتْ عليهم التزاماتُهم الإِدْيُولُوجِيَّةِ. والمِرءُ يَتَوَقَّعُ ذلكَ مِنَ البوليسِ، أَمَّا حينَ يَصْدُرُ عن الثُّجْبَةِ المَثَقَّفَةِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ غريباً جداً.

ولا شكَّ في أَنَّهُ كانتْ هناكَ حالاتٌ في الجامعاتِ الأمريكيَّةِ، تجاوزتْ فيها أَعْمَالُ الطَّلَابِ حُدودَ ما هو لائِقٌ ومشروعٌ. وتولَّى إثارةَ بعضٍ مِنْ أسوأِ الأَحداثِ، عَلَى غِرارِ ما هو معروفٌ الآنَ، مُشَاغِبُونَ لِمَصْلُحَةِ الحُكُومَةِ^(١)، مَعَ أَنَّ قَدْرًا ضَمِيلاً مِنْهَا، حَقًّا، مَثَلُ انتهاكاتٍ مِنْ جانِبِ الحَرَكَةِ الطُّلابِيَّةِ نَفْسِهَا. تِلْكُمْ هي الأَحداثُ

١- انظُرْ ابتغاءَ بعضِ الأمثلةِ: ديف دِلنجر Dave Dellinger في «أكثرُ قوَّةَ ممَّا نعرفُ More»

Power Than We know (نيويورك: Doubleday، ١٩٧٥م)؛ ونعوم تشومسكي

«Introduction to N Blackstock»، طبعة Cointelpro (نيويورك: Vintage

Books، ١٩٧٦م).

التي يركّز كثيرون من المُعلّقين انتباههم عليها حينَ يدينونَ حركةَ الطّلاب . ومهما يكنُ ، فإنَّ الحَصيلَةَ الرّئيسةَ لِحركةِ الطّلاب كانتَ مختلفةً تمامًا ، فيما أحسبُ . فقد أثارتَ تحديًا لِتَبعيةِ الجامعاتِ لِلدولةِ وقُوَى خارجيّةٍ أُخرى - معَ أنَ هذا التّحدّي لم يُثبتْ تأثيرًا فعليًا ، وقد بقيَ هذا الخُضوعُ كما هو إلى حدٍّ كبيرٍ ، وأدّى بِنجاحٍ محدودٍ أحيانًا إلى إحداثِ انفتاحٍ في الميادينِ الإيديولوجيّةِ ، ومن ثَمَ إلى تنوُّعٍ كبيرٍ نسبيًّا في التّفكيرِ ودراسةِ البَحثِ . وأرى أنَ هذا التّحدّي لِلتّوجيهِ الإيديولوجيِّ ، الذي صعدَه الطّلابُ (الذين كانتَ جَمهرُهم من اللّبراليّين) ، وخاصّةً من دارسي العلومِ الاجتماعيّةِ ، هو الذي أثارَ مِثْلَ هذا الإِرهَابِ ، الذي يقتربُ أحيانًا من الهِسْتيريا ، في رُدودِ أفعالٍ «النُّخبَةُ المُثَقَّفة» . وكثيرًا ما تبدو لي الدّراساتُ التحليليّةُ والاستعاديّةُ التي تَظهرُ اليومَ ، مُبالغًا فيها كثيرًا وغيرَ دقيقةٍ في وَصفِها للأحداثِ التي حدثتْ وأهمّيّتها . ويُحاولُ كثيرونَ ممّن ينتمونَ إلى النُّخبَةِ المُثَقَّفةِ ، إعادةَ بناءِ المُعتقَدِ التّقليديِّ والهيمنةِ على الفِكرِ والبَحثِ ، التي أرسوا دَعائمَها بِمِثْلِ هذا النّجاحِ ، والتي كانتَ مُهدّدةً حقًّا - والحريّةُ دائِمًا تهديدٌ لِلْمُفَوَّضينَ .

م . ر .: كانتَ حركةُ الطّلابِ قد عُبِتْ أَوَّلًا لِمُقاومةِ الحربِ في فيتنامَ ،

ولكنَ ، أَلَمْ تتدخَّلْ مباشرةً في مسائلٍ أُخرى ؟

ن . ت .: كانتِ القضيةُ المُباشرةُ حربَ فيتنامَ ، ولكنَ أيضًا حركةُ الحُقوقِ المدنيّةِ في الأعوامِ السّابقةِ - وَعَلَيْكَ أنَ تتذكّري أنَ الشّخصيّاتِ النّشيطةَ في طليعةِ حركةِ الحُقوقِ المدنيّةِ في الجَنوبِ ، كثيرًا ما كانتَ من الطّلابِ . خُذي مِثْلًا الـ SNCC (لجنةُ التّسيقِ الطّلابيِّ السّلميِّ) ، التي كانتَ مجموعةً على قَدَرٍ كبيرٍ من الأهميّةِ والنّفوذِ ولها قِادةٌ سَوَداءُ ، على الجُملةِ ؛ وقد أيّدها جُمهورٌ عريضٌ من الطّلابِ البِيضِ . وإضافةً إلى ذلكَ ، ينبغي أنَ تكونَ بعضُ القضايا المُبكَرةِ ذاتَ علاقةٍ بِفَتْحِ حَرَمِ الجامعةِ لِمَجالِ فِكرِيٍّ أَرَحَبَ وَلِنِشاطٍ سياسيٍّ ذي اتّجاهاتٍ

مُتَبَايِنَةٌ، كما هي الحال في الجَدَلِ الكلاميِّ الباركلي Berkely.

وما بَدَأَ لي في ذلك الوقت، أَنَّ النَّشِيطِينَ مِنَ الطَّلَّابِ كانوا يحاولونَ حقًّا «تَسْيِيسَ» الجامعات. وفي المرحلة التي لم تُكُنْ فيها هيمنةُ الإيديولوجيينَ في الكُلِّيَّاتِ موضوعًا لِلْبَحْثِ، كانتِ الجامعاتُ قد سُوِّسَتْ عَلَى نطاقٍ واسعٍ، وَقَدِّمَتْ خِدْمَاتٍ مُنَظَّمَةً وَفَعَالَةً لِقُوى خَارِجِيَّةٍ، وَخَاصَّةً لِلْحُكُومَةِ، بِرَامِجِهَا وَسِيَاسَاتِهَا؛ واستمرَّ هذا إِبَّانَ حَرَكَةِ الطَّلَّابِ، عَلَى غِرَارِ ما هو عليه اليوم. وَمِنَ الصَّوَابِ القولُ إِنَّ حَرَكَةَ الطَّلَّابِ حاولَتْ، مِنْذُ الْبَدْءِ، فَتَحَ الجامعاتِ وتحريرَها مِنَ السَّيْطَرَةِ الْخَارِجِيَّةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْمَسْعَى بَدَأَ شَكْلًا غَيْرَ قَانُونِيٍّ مِنَ «التَّسْيِيسِ»، عِنْدَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا الجامعاتِ وَأَحَالُوهَا إِلَى امْتِدَادِ ذِي شَأْنٍ فِي أَدَوَاتِ سِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ وَالإيديولوجيا الرَّسْمِيَّةِ. وَيَبْدُو هَذَا كُلُّهُ جَلِيًّا فِيمَا يَتَّصِلُ بِمَخَابِرِ الجامعاتِ الْمُعَدَّةِ لِإِنْتاجِ الْأَسْلِحَةِ، أَوْ بِرَامِجِ الْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ذَاتِ الْعِلَاقَاتِ الْقَوِيَّةِ بِالتَّمَرُّدِ الْمُضَادِّ، وَخِدْمَاتِ اسْتِخْبَارَاتِ الدَّوْلَةِ وَالِدَّعَايَةِ، وَالتَّوْجِيهِ الْاجْتِمَاعِيِّ. وَقَدْ يَكُونُ أَقَلُّ وَضُوحًا، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي مِيدَانِ الْبَحْثِ الْأَكَادِمِيِّ، فِيمَا أُخْسَبُ.

وابْتِغَاءَ إِضْاحِ هَذَا، خُذِي مِثَالًا مِنْ تَارِيخِ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَمَا يُدْعَى التَّفْسِيرَ التَّعْدِيلِيَّ Revisionist في المَرَحَلَةِ الَّتِي أَعْقَبَتِ الْحَرْبَ الْعَالَمِيَّةَ الثَّانِيَةَ. كَانَ التَّعْدِيلِيُّونَ، كَمَا تَعْلَمِينَ، أُولَئِكَ الْمَفْسِّرِينَ الْأَمْرِيكِيِّينَ، الَّذِينَ قَاوَمُوا الرِّوَايَةَ «التَّقْلِيدِيَّةَ» الرَّسْمِيَّةَ لِمَا يَجْرِي. وَقَدْ ذَهَبَ هَذَا الْمَعْتَقَدُ التَّقْلِيدِيُّ، الْمُسَيِّطُ سَيْطَرَةً تَامَةً آنَذَكَ، إِلَى أَنَّ الْحَرْبَ الْبَارِدَةَ لَمْ تُكُنْ سِوَى نَتِيجَةٍ لِلْعُدْوَانِيَّةِ الرَّوْسِيَّةِ وَالصِّينِيَّةِ، وَأَنَّ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ مَثَلَتْ دَوْرًا إِيْجَابِيًّا، رَدَّ فِعْلٍ عَلَى هَذَا لَيْسَ غَيْرِ. وَكَانَ هَذَا الْمَوْقِفُ مُتَبَنًى حَتَّى مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْأَكْثَرِ لِيَبْرَالِيَّةً. خُذِي رَجُلًا مِثْلَ (جون كينيث جالبرت John Kenneth Galbraith)، الَّذِي كَانَ دَاخِلَ الْمُؤَسَّسَةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ لِأَمْدٍ غَيْرِ قَصِيرٍ أَحَدَ الْعُقُولِ الْأَكْثَرِ تَفَتُّحًا، وَبَحْثًا وَتَشَكُّكًا،

وأحد أولئك الذين حاولوا إزالة الإطار التقليدي عن كثير من المسائل . ففي كتابه «الدولة الصناعية الجديدة The New Industrial State»، الذي نُشر عام ١٩٦٧م - متأخراً إلى ذلك العهد! - والذي يركّز فيه على الموقف الصريح والانتقادي للمُتَقَفِّين والآمال المُشجَّعة التي يُقدِّمها هذا، يقول: إنّ «المصدر التاريخي الحقيقي» للحرب الباردة، إنّما كان عُدوانية الروس والصينيين: «الطموحات الثورية والأمية للسوفييت، وطموحات الصينيين الأكثر حداثة، والقوة القاهرة لإصرارهم على زعمهم»^(١).

وذلكم ما كان النقاد الليبراليون يردّدونه عام ١٩٦٧م.

وكان البديل «التعديلي» قد طوّر في صورة روايات كثيرة متناقضة عند (جيمس ويربرغ James Warburg)، و(د. ف. فلمنج D. F. Fleming)، و(وليم أبلمان وليامز William Appleman Williams)، و(جار ألبروفيتز Gar Alperovitz)، و(جبريل كولكو Gabriel Kolko)، و(ديفيد هوروفيتز David Horowitz)، و(ديان كلمنز Diane Clemens)، وآخرين. وقد ذهبوا إلى أنّ الحرب الباردة حصيلة مُخطّطات القوى العظمى وشكوكها. ولا يلقى هذا الموقف قبولاً ظاهرياً فحسب، بل يحظى بتأييد قوي من التسجيل التاريخي والتوثيقي. وقليلون هم الذين ركّزوا اهتمامهم على الدراسات «التعديلية»، التي كثيراً ما كانت مجال مزاح ازدرائي أو انتقاصي بين المُحلِّلين «الجادين».

ومهما يكن، فإنّه غدا مُستحيلاً في نهاية السّتينيات منع البحث الرّصين للموقف «التعديلي»؛ ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى ضغوط الحركة الطلابية.

١- الدولة الصناعية الجديدة The New Industrial State (نيويورك: Signet Books،

١٩٦٧م)، ص ٣٣٥.

فقد قرأ الطلاب هذه الكتب وأرادوا لها أن تُناقش . وما حدثٌ مثيرٌ تماماً .
ما حدثٌ أولاً هو أنه ، ما إن دُرِسَ البديلُ التعديليُّ بِجِدَّةٍ حتَّى تفكَّكَ
الموقفُ التقليديُّ تماماً ، ثم تلاشى ، وما إن افتُتِحَتِ المُناقشةُ حتَّى وجدتَ نفسها
في حاجةٍ إلى موضوع ، عملياً . ولم يُعبَأَ بالموقفِ التقليديِّ .

ولا ريبَ في أنَّ المؤرِّخينَ التقليديينَ قليلاً ما سلَّموا بأنهم كانوا على خطأ .
وبينما نجدُهم بدلاً من ذلك يتبنونَ بعضَ الآراءِ التعديليةِ ، إذا هم يعزُّونَ إلى
التعديليينَ موقفاً غيبياً ، بِمقتضاهُ «كانتِ الحكومةُ السوفيتيةُ» ... مُجرَّدَ هدفٍ سيئٍ
الحِظِّ لِديبلوماسيتنا «الشَّريرةِ» . كان هذا ردَّ (هربرت فايس Herbert Feis)
على موقفِ (جار ألبروفيتز) ، الذي كان رأيُه الفعليُّ أنَّ «الحربَ الباردةَ لا يمكنُ
أن تُفهمَ حقاً بوصفِها ردٌّ فعلٍ أمريكيٍّ على التَّحدِّي السوفيتيِّ ، بل على الأصحَّ
بوصفِها تفاعلاً مثيراً للشُّكوكِ المتبادلةِ ، ومن ثم ، فإنَّ اللومَ في هذا الشأنِ ينبغي
أن تتحمَّله الأطرافُ جميعاً» . وعلى نحوِ نموذجيٍّ تماماً ، كان الرأْيُ المعزُّو إلى
التعديليينَ رأياً تافهاً ؛ ذلك لأنَّه لم يحسُبَ حساباً لِلتفاعلِ بينَ القُوَى العظمى .
وقد تبنَّى المؤرِّخونَ التقليديونَ بعضَ عناصرِ التحليلِ التعديليِّ ، في حينَ أنَّهم
يعزُّونَ إليها مبدأً أحمقَ كان مختلفاً أساساً عما اقترحَ فعلاً ، وكان فعلاً صورةً
مُطابقةً تماماً لِلموقفِ التقليديِّ الأصليِّ . وطبيعيُّ أنَّ المثيرَ لهذا الشكلِ من
المُناقشةِ واضحٌ إلى القَدْرِ الكافي .

وانطلاقاً من هذا المبدأ الأساسيِّ الذي أُعيدَ فيه النَّظَرُ قليلاً ، حاولَ كثيرٌ من
المؤرِّخينَ التقليديينَ إعادةَ تشكيلِ صورةِ خيريةِ أمريكا وتأثيراتها .
لكنني لا أريدُ أن أدخَلَ هذا التطوُّرَ هنا . أمَّا عن تأثيرِ التحليلِ التعديليِّ ،
فإنَّ (جالبرت) يُقدِّمُ ثانيةً مثلاً مثيراً: سَبَقَ أن استشهدتُ بِكتابه ، الذي ظهرَ عام

١٩٦٧م، ونَجِدُهُ في طَبْعَةٍ مُنْفَحَةٍ، عام ١٩٧١م، قد أَحَلَّ كلمة «The» مَحَلَّ كلمة «an» في الْفِرْقَةِ الْمُقْتَبَسَةِ «إِنَّ الطُّمُوحَاتِ الثَّوْرِيَّةَ وَالْأُمَمِيَّةَ لِلْسُوفِيَّةِ، وَطُمُوحَاتِ الصِّينِيِّينَ الْأَكْثَرِ حَدَاثَةً، وَالْقُوَّةَ الْقَاهِرَةَ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَزَاعِمِهِمْ، كَانَتْ مُصَدَّرًا تَارِيخِيًّا حَقِيقِيًّا an undoubted historical Source [للحرب الباردة]» (التَّأْكِيدُ مِنْ جَانِبِي). وَمَا يَزَالُ هَذَا التَّفْسِيرُ خَادِعًا وَمُنْحَرِفًا، لِأَنَّهُ لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى؛ وَسَيَكُونُ مَثِيرًا أَيْضًا أَنْ نُبَيِّنَ عَلَى نَحْوٍ دَقِيقٍ الطَّرِيقَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا مُبَادَرَاتُ الصِّينِ «مُصَدَّرًا حَقِيقِيًّا» لِلْحَرْبِ الْبَارِدَةِ. لَكِنَّ الْمَوْقِفَ يُمْكِنُ الدَّفَاعُ عَنْهُ عَلَى الْأَقْلَ، خِلَافًا لِلْمَوْقِفِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي يُقَدِّمُهُ فِي الطَّبْعَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ - وَقَبْلَ التَّأْثِيرِ الْعَامِّ لِحَرَكَةِ الطُّلَّابِ فِي الْجَامِعَاتِ.

وَيُظْهِرُ (جَالِبَرْت) مِثَالًا مُثِيرًا لِأَنَّهُ أَحَدُ الْعُقُولِ الْمُنْفَتِحَةِ، وَالْإِنْتِقَادِيَّةِ، وَالبَاحِثَةِ بَيْنَ الْمُتَقَفِّينَ اللَّيْبَرَالِيِّينَ. وَإِنَّ تَعْلِيقَاتِهِ عَلَى الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ وَبَوَاعِثِهَا مُثِيرَةٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُا تُقَدِّمُ بِوَصْفِهَا مُلَاحِظَةً جَانِبِيَّةً عَارِضَةً: لَا يُحَاوَلُ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنْ يُقَدِّمَ تَحْلِيلًا تَارِيخِيًّا أَصْلِيًّا، بَلْ يَصِفُ وَصْفًا سَرِيعًا فَحَسْبُ الْعَقِيدَةِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا أُولَئِكَ الْمُفَكِّرُونَ اللَّيْبَرَالِيُّونَ، الَّذِينَ كَانُوا إِلَى حَدٍّ مَا تَشَكِّيكَينَ وَإِنْتِقَادِيَّينَ. وَلَا نَتَحَدَّثُ هُنَا عَنْ (آرْثَرْ شَلِيزَنْجِر Arthur Schlesinger) أَوْ الْإِيدِيُولُوجِيَّينَ الْآخَرِينَ، الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ أحيانًا مُنْتَخَبَاتٍ مِنَ الْحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ، عَلَى نَحْوِ يُمَاطِلُ مَا يَفْعَلُهُ مُؤَرِّخُو الْحَزْبِ مِنْ ذَوِي الْوَلَاءَاتِ الْآخَرَى.

وَفِي مَقْدُورِ الْمَرَّةِ أَنْ يَفْهَمَ لِمَاذَا كَانَ كَثِيرُونَ جِدًّا مِنَ الْمُفَكِّرِينَ اللَّيْبَرَالِيِّينَ وَجِلِينَ - فِي نِهَايَةِ السَّنِينَ، وَلِمَاذَا يَصِفُونَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةَ بِأَنَّهَا مَرَحَلَةٌ دِكْتَاتُورِيَّةٌ الْيَسَار: لِأَنَّهُمْ اضْطُرُّوا ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى أَنْ يَرَوْا عَالَمَ الْحَقَائِقِ فِي الْوَاجِهَةِ؛ تَهْدِيدٌ خَطِيرٌ، وَخَطَرٌ حَقِيقِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ مُهِمَّتَهُمُ التَّوْجِيهُُ الْإِيدِيُولُوجِي. وَهَنَاكَ دِرَاسَةٌ جَدِيدَةٌ وَمُثِيرَةٌ حَقًّا قَدَّمَتَهَا اللَّجْنَةُ الثَّلَاثِيَّةُ - أَرْزَمَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ The Crisis

of Democracy ، تأليف (مايكل كروزير Michel Crozier) ، و(صموئيل هنتغتون Sammuel Huntington) ، و(جوجي وتنوكي Joji Watanuki) - تُناقشُ فيها مجموعةٌ دَوْلِيَّةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْآخِرِينَ مَا يَرَوْنَهُ تَهْدِيدَاتٍ مُعَاَصِرَةً لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ . وَأَحَدُ هَذِهِ التَّهْدِيدَاتِ «الْمُتَقَفِّونَ الْمَوْجَّهُونَ قِيَمِيًّا» ، الَّذِينَ ، كَمَا يُشِيرُونَ بِحَقِّ ، كَثِيرًا مَا يَتَحَدَّثُونَ الْمَوْسَّسَاتِ الْمَسْؤُولَةَ عَنْ «تَخْرِيبِ الشُّبَّانِ» - وَهِيَ عِبَارَةٌ مُلَائِمَةٌ . وَقَدْ أَسْهَمَتِ الْحَرَكَةُ الطَّلَابِيَّةُ إِسْهَامًا مُلَمُّوسًا فِي هَذَا الْجَانِبِ مِنْ «أَزْمَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ» .

وَقَدْ مَضَتْ الْمُنَاقَشَةُ فِي أَوَاخِرِ السَّنِيَّاتِ إِلَى أَعْدَدٍ مِنْ قَضِيَّةٍ فَيَتَنَامُ أَوْ تَفْسِيرِ التَّارِيخِ الْمُعَاَصِرِ ؛ إِذْ اِهْتَمَّتْ بِالقَوَانِينِ نَفْسِهَا . وَقَدْ وَاجَهَ عِلْمُ الْاِقْتِصَادِ التَّقْلِيدِيُّ لِأَمْدٍ قَصِيرٍ ، تَحْدِيَّ الطَّلَابِ الَّذِينَ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِنَقْدِ جَوْهَرِيٍّ لِفَاعِلِيَّةِ الْاِقْتِصَادِ الرَّأْسِمَالِيِّ ، فَقَدْ نَاقَشُوا الْقَوَانِينِ ، أَرَادُوا دِرَاسَةَ مَارْكَسِ وَالْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ . وَرَبَّمَا يَكُونُ فِي مُسْتَطَاعِي أَنْ أُوضِحَ هَذَا مَرَّةً أُخْرَى بِحَادِثَةٍ شَخْصِيَّةٍ :

فِي رَبِيعِ عَامِ ١٩٦٩م ، هَمَّتْ جَمَاعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ طُلَّابِ عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ هُنَا فِي كِيمْبَرْدِجِ أَنْ تَبْدَأَ بِمُنَاقَشَةِ طَبِيعَةِ عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ بِوَصْفِهِ مِيدَانًا لِلدَّرْسِ . وَلِإِفْتِتَاحِ الْمُنَاقَشَةِ ، أَرَادُوا تَنْظِيمَ مُنَاطَرَةٍ يَكُونُ الْمُتَحَدِّثَانِ الرَّئِيسَانِ فِيهَا (بُولِ سَامُوِلْسُونِ Paul Samuelson) ، عَالِمُ الْاِقْتِصَادِ الْكِينِزِيِّ(*) الْبَارِزُ فِي مَعْهَدِ مَاسُوْشُوْسْتَسِ لِلتَّقْنِيَّةِ MIT (حَاصِلٌ عَلَى جَائِزَةِ نُوبَلِ الْآنَ) ، وَعَالِمُ اِقْتِصَادِ مَارْكَسِيِّ . أَمَّا لِهَذِهِ الْمُهْمَّةِ الْآخِرَةِ ، فَلَمْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى إِيجَادِ أَيِّ إِنْسَانٍ فِي مِْنْطَقَةِ بُوسْطُنِ ، لَيْسَ نَكْمَةً وَاحِدًا كَانَ مُسْتَعِدًّا لِبَحْثِ الْمَوْقِفِ الْكِلَاسِيكِيِّ الْجَدِيدِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ .

*- نَسْبَةٌ إِلَى جُونِ مَينَارْدِ كِينِزِ (١٨٨٣-١٩٤٦م) ، وَهُوَ عَالِمُ اِقْتِصَادِ بَرِيطَانِيٍّ ، نَادَى بِضَرُورَةِ تَوْسِيعِ الدَّوْلَةِ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَشَارِيعِ الْعَامَّةِ ، بَغْيَةَ الْقَضَاءِ عَلَى الْبَطَالَةِ [الْمُتَرْجِمُ عَنْ الْمَوْرِدِ] .

وقد سُئِلْتُ أخيراً أن اضطلع بهذه المهمة، مع عَدَمِ امتلاكي اطلاعاً خاصاً في عِلْمِ الاقتصاد، ولا التزاماً بالماركسيّة. لا أَحَدَ مُحْتَرِفاً، أو حتّى شَبَهَ مُحْتَرِفٍ عامَ ١٩٦٩م! ومعلومٌ أنّ كيمبرج مَكَانٌ فَعَّالٌ جدّاً في هذه المسائل. لَعَلَّ في ذلك ما يعطيك فكرةً ما عن المُنَاخِ الفكريِّ السائد. وَمِنْ غَيْرِ السَّهْلِ أن تَتَخَيَّلِي شيئاً شَبِيهاً بهذا في أوروبا الغربيّة أو اليابان.

نَقَلْتُ الحركةَ الطَّالِبِيَّةَ هذه الأشياءَ إلى مجالٍ أصغر: ما كان يُوصَفُ، كما أعلمُكَ، بأنّه إرهابٌ في الجامعة... الـ SS تَسِيرُ في الأروقة... والمُثَقَّفُونَ الأكاديميُّونَ نَجَوُا بِصُعُوبَةٍ مِنْ هذه الهَجَمَاتِ المُخيفَةِ التي شَنَّها المتطرّفونَ مِنَ الطَّالِبِ... طَبِيعِيّ، وما مَرَجُعُ ذلكَ إِلَّا جُرأتُهُمُ العَظِيمَةُ. أوْهَامٌ لا تُصَدِّقُ! وَمَعَ ذلكَ، كان ثَمَّةَ حَوَادِثُ حَقّاً، أُثِيرَتْ أحياناً مِنْ جَانِبِ مُثِيرِينَ في وَكَالَةِ الاستخباراتِ الأمريكيّةِ FBI، كما نَعْرِفُ الآنَ، أَثَارَتْ ذلكَ التَّفْسِيرَ الجُنُونِيّ. أيُّ شَيْءٍ مُدْمِرٍ أن تُفْتَحَ الجامعةُ لِأَمَدٍ قَصِيرٍ جدّاً! أمّا وسائلُ الإعلامِ فلم تُمسَّ البتّة، وقد أُعيدَ الآنَ تَأْسِيسُ المَبْدَأِ التَّقْلِيدِيّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعدْ هُنا ضَغْطٌ. وفي مَقْدُورِ مؤرِّخِ دِبلُوماسيٍّ جادٍّ مِثْلِ (جَادِس سميث Gaddis Smith) أن يَصِفَ الآنَ وَلِيَامِز وكولكو بِأَنَّهُمَا «مُؤَلِّفَا كَرَارِيسَ» في عَمُودٍ لِمُراجَعَةِ الكُتُبِ في التَّايْمِزِ النيويوركيّة.

م. ر.: إلَامَ تَعَزُّو «تَرَاجُع» الضَّغْطِ هذا؟

ن. ت.: إلى أشياء كثيرة. حِينَ تَنَامِي اليَسَارُ الجَدِيدُ داخلَ حَرَكَةِ الطَّالِبِ في الوِلَايَاتِ المِتَّحِدَةِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أن يُدْمَجَ نَفْسَهُ بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ضَارِبَةٍ الجُذُورِ في أيِّ قِطَاعٍ مُهمٍّ مِنَ النَّاسِ. وكان هذا في جُمْلَتِهِ نَتِيجَةً لِلتَّضْيِيقِ الإِدْيُولُوجِيِّ في المَرَحَلَةِ السَّابِقَةِ. فَالطَّالِبُ يُشكِّلُونَ مَجْمُوعَةً اجْتِمَاعِيَّةً هَامِشِيَّةً وَعَابِرَةً. وَلِكُونِ اليَسَارِ الطَّالِبِيِّ أَقْلِيَّةً ضَعِيفَةً، كَثِيراً ما واجهَتْهُ ظُرُوفٌ صَعْبَةٌ جدّاً. وَلَمْ يَظْهَرْ إلى الوجودِ تَقْلِيدٌ فِكْرِيٌّ فَعَّالٌ لِلْيَسَارِ، ولا حَرَكَةٌ اشْتِرَاكِيَّةٌ ذاتُ قَاعِدَةٍ

في الطَّبَقَةِ العامِلَةِ. لم يَكُنْ ثَمَّةَ تَقْلِيدٍ فَعَالٍ أَوْ حَرَكَةٍ شَعْبِيَّةٍ يَسْتَطِيعُ الطَّلَابُ أَنْ يَنَالُوا تَأْيِيدَهُمَا. وفي ظِلِّ هذه الظُّرُوفِ، ربَّما يَكُونُ مُدْهِشًا أَنْ تَسْتَمِرَّ حَرَكَةُ الطَّلَابِ مَا اسْتَمَرَّتْ.

م. ر.: والجِيلُ الجَدِيدُ؟

ن. ت.: تُوَاكِهُهُ أَشْكَالٌ جَدِيدَةٌ مِنَ التَّجَرِبَةِ. ويبدو أَنَّ الطَّلَابَ اليَوْمَ يَجِدُونَ أَسْهَلَ لَهُمْ أَنْ يَتَكَيَّفُوا وَالْمَطَالِبَ الَّتِي تُفَرِّضُ مِنَ الْخَارِجِ، مَعَ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَالِغَ؛ وَانْطِلَاقًا مِنْ تَجْرِبَتِي الشَّخْصِيَّةِ عَلَى الْأَقْلَ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنَّ الْكُلِّيَّاتِ تَخْتَلِفُ تَمَامًا الْيَوْمَ عَنْهَا فِي الْخَمْسِينِيَّاتِ وَأَوَائِلِ السَّتِينِيَّاتِ. فَالرَّكُودُ وَالتَّارِجُ فِي الْمَيْدَانِ الْاِقْتِصَادِيَّ، لَهُمَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي مَوَاقِفِ الطَّلَابِ. وفي ظُرُوفِ السَّتِينِيَّاتِ، اسْتَطَاعَ الطَّلَابُ أَنْ يَفْتَرِضُوا أَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ وَسَائِلَ الْعَيْشِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا فَعَلُوا. لَاحَ أَنَّ الْمَجْتَمَعَ يَمْتَلِكُ وَظَائِفَ كَافِيَةً، وَكَانَ ثَمَّةَ إِحْسَاسٍ بِالرَّاحَةِ وَالتَّفَاوُلِ، وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤَمِّلَ بِالْعُثُورِ عَلَى مَكَانٍ، أَيْ مَكَانٍ. أَمَّا الْآنَ، فَإِنَّ الْحَالَ لَمْ تَعُدْ كَذَلِكَ. فَحَتَّى أَوْلَئِكَ «الْمُتَخَصِّصُونَ» وَالْمُعَدُّونَ إِعْدَادًا حَرْفِيًّا جَيِّدًا، قَدْ يَعْمَلُونَ سَائِقِي «تَاكسي» مُتَقَفِّينَ جَيِّدًا. وَقَدْ أَحَسَّتِ الْفَعَالِيَّةُ الطَّلَابِيَّةُ تَأْثِيرَ هَذَا كُلِّهِ.

وإِنَّ عَوَامِلَ أُخَرَ قَدْ فَعَلَتْ فِعْلَهَا. وَثَمَّةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْجَامِعَاتِ، وَرَبَّمَا كَثِيرًا مِنْهَا، حَاوَلَتْ عِلَاقَةً اسْتَبْعَادَ الطَّلَابِ الْيَسَارِيِّينَ. وَحَتَّى فِي الْجَامِعَاتِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ اسْتُغِلَّ الْمِيعَارُ السِّيَاسِيُّ لِاسْتَبْعَادِ الطَّلَابِ الَّذِينَ قَدْ «يُثِيرُونَ الْمُشْكِلاتِ». وَطَبِيعِيٌّ أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ اسْتَبْعَادًا تَامًا، وَإِلَّا فَإِنَّهَا سَتَسْتَبْعِدُ الطَّلَبَةَ الْجَيِّدِينَ جَمِيعًا. وَيُؤَاكِهُ الطَّلَابُ الْيَسَارِيُّونَ صُعُوبَاتِ جَمَّةٍ فِي الْعَمَلِ فِي الْجَامِعَاتِ، أَوْ، وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ أَخِيرًا، فِي الْحَصُولِ عَلَى الْوُظَائِفِ، عَلَى الْأَقْلَ فِي التَّخَصُّصَاتِ الْإِدْيُولُوجِيَّةِ، وَالْعِلْمِ السِّيَاسِيَّةِ، وَعِلْمِ الْاِقْتِصَادِ، وَالدرَّاسَاتِ الْاَسْيُويَّةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ.

م. ر.: إِبَانَةُ النَّشْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِكِتَابِكَ «عُنْفُ الثَّوْرَةِ الْمُضَادَّةِ» (Bains de Sang)

Counterrevolutionary Violence، كان ثَمَّةَ لَغَطٍ كَثِيرٍ

فِي فَرَنْسَا بِشَأْنِ حَقِيقَةِ أَنَّ الْأَصْلَ الْإِنْجِلِيزِيَّ قَدْ أُخْضِعَ لِلرَّقَابَةِ (أَعْنِي:

مُنْعٍ مِنَ التَّوْزِيعِ) مِنْ جَانِبِ الْمَجْمُوعَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا دَارُ النَّشْرِ؛

وَقَدْ أُغْلِقَتْ دَارُ النَّشْرِ نَفْسُهَا، وَطُرِدَ مَوْظُفُوهَا، وَصَارَ رَئِيسُ التَّحْرِيرِ

سَائِقَ «تَاكْسِي»، وَهُوَ الْآنَ يُدِيرُ اتِّحَادَ سَائِقِي «التَّاكْسِي». وَقَدْ

شَكَّكَتِ الْمَرْئِيَّةُ (التَّلْفَازُ) الْفَرَنْسِيَّةُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ.

ن. ت.: تِلْكَ «الرَّقَابَةُ» مِنْ جَانِبِ الْمَجْمُوعَةِ حَدَثَتْ حَقًّا، كَمَا تَقُولِينَ،

لَكِنَّهَا كَانَتْ عَمَلًا أَحْمَقَ مِنْهُمْ. أَمَّا عَلَى ذَلِكَ الْمَسْتَوَى، فَلَيْسَتْ الرَّقَابَةُ ضَرُورَةً،

وَقَدْ زُوِّدَتْ بِعَدَدِ الْقَرَاءِ الْمَتَوَقَّعِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْجُهْدِ الَّذِي بَذَلَهُ الْجِهَازُ الْإِيدِيُولُوجِيُّ

الضَّخْمُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَقَدْ تَرَأَى لِي فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ إِنْ قُدِّرَ لِاسْتِبْدَادِ

فَاشِيٍّ عَقْلِيٍّ أَنْ يَظْهَرَ إِلَى الْوُجُودِ، فَسَيَخْتَارُ إِذْ ذَاكَ النِّظَامَ الْأَمْرِيكِيَّ. إِنْ رَقَابَةُ

الدَّوْلَةِ لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً. غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ، أَوْ حَتَّى غَيْرُ فَعَالَةٍ كَثِيرًا، مُقَارَنَةً بِصُورِ

التَّحْكَمِ الَّتِي تُمَارِسُهَا أَنْظِمَةٌ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا وَلَا مَرْكَزِيَّةً.

م. ر.: دَاخِلَ هَذَا الْإِطَارِ، كَيْفَ تُفَسِّرُ قِضِيَّةَ وَوترغيتِ Watergate، الَّتِي

كَثِيرًا مَا عُرِضَتْ فِي فَرَنْسَا بِوَضْفِهَا «انْتِصَارًا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ»؟

ن. ت.: إِنْ اعْتَدَادَ قِضِيَّةَ وَوترغيتِ انْتِصَارًا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ أَمْرٌ خَاطِئٌ فِيمَا

أَرَى. وَالسَّوَالُ الْحَقِيقِيُّ الْمُثَارُ لَمْ يَكُنْ: هَلِ اسْتَعْمَلَ نِيكْسُونُ أُسَالِيبَ فَاسِدَةٍ إِزَاءَ

خُصُومِهِ السِّيَاسِيِّينَ؟ - بَلْ: مَنْ كَانَتْ الضَّحَايَا؟ الْإِجَابَةُ وَاضِحَةٌ. أُدِينُ نِيكْسُونُ

لِأَنَّهُ أَخْطَأَ فِي اخْتِيَارِ الْخُصُومِ الَّذِينَ اسْتَعْمَلَ مَعَهُمْ أُسَالِيبَ تَسْتَحِقُّ التَّوْبِيخَ فِي

مَعَارِكِهِ السِّيَاسِيَّةِ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ مَعَهُمْ هَذِهِ الْأُسَالِيبَ. هَاجَمَ الشَّعْبَ بِقُوَّةٍ.

رَنَاتُ هَاتِفٍ؟ - وَجِدْتُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمُمَارَسَاتِ لِأَمْدٍ طَوِيلٍ. لَدَيْهِ «قَائِمَةٌ

أعداء؟- لكنّه لم يحدث شيءٌ لأولئك الذين كانوا في القائمة. وقد كنتُ في تلك القائمة، ولم يحدث لي شيءٌ. لا، أخطأ حقًا في تخيُّره الأعداء: لديه في قائمته رئيسُ الـ IBM، ومُستشارو الحكومة الكبار، والمُعلِّمون المُميَّزون في الصحافة، ومؤيِّدو الحزب الديمقراطي المرموقون. وقد شنَّ حملةً على صحيفة الواشنطن بوست، المؤسسة التجارية الرأسمالية الكبيرة. وقد حصَّن هؤلاء الناس الأقوياء أنفسهم سريعاً، على غرار ما يُتوقع. ووترغيت؟- أقوياء أمام أقوياء.

إنَّ جرائم مُماثلة، وجرائم أكثرَ خطراً، قد تُنسبُ إلى أناسٍ آخرين وإلى نيكسون. لكنَّ تلك الجرائم وُجِّهَتْ نموذجياً إلى أقليّاتٍ أو إلى حركاتٍ لها طابعُ التغيير الاجتماعي، والقليل يُعارضُ دائماً. وقد أبعَدَت الرقابةُ الإيديولوجيةُ هذه المسائلَ عن أعينِ الناسِ إبانَ مرحلةِ ووترغيت، ومع ذلك، فإنَّ توثيقاً رائعاً بشأنِ هذا القمعِ قد ظهرَ في هذا الوقتِ تماماً. وحينَ هدأتُ عاصفهُ ووترغيت فحسبُ، توجَّهَتْ الصحافةُ والمُعلِّقون السياسيون نحوَ بعضِ من الحالاتِ الحقيقيةِ والعميقةِ من إساءةِ استعمالِ سلطانِ الدولة - وما نزالُ دُونَما إدراكٍ أو تبيينٍ لخطورةِ المسألة.

وقد نشرتِ اللجنةُ الكنسيَّةُ، مثلاً، معلوماتٍ لم تُوضَحْ أهميَّتها حقيقةً. وحينَ إفشائها رُكِّزَ قَدْرٌ كبيرٌ من الدعايةِ على قضيةِ مارتين لوتر كينغ، لكنّه ما تزالُ هناكُ مُفاجآتٌ مهمَّةٌ جدًّا لم تكنِ الصحافةُ تُدانيها حتَّى هذا اليومِ (كانون الثاني ١٩٧٦م). ومِثَالُ ذلك الآتي: في شيكاغو كان ثمةَ عصابةُ شارع تُدعى (البلاكستون رانجرز The Blackstone Rangers)، عمِلَتْ في حيِّ الأقليّاتِ (الغيت Ghetto).

وكان (البلاك بانثرز The Black Panthers) على اتِّصالٍ بهم، يحاولون تسييسهم، فيما يبدو. وما دامتُ جماعةُ الرانجرز قد بقيتْ عصابةً شارع في الغيت - عصابةً إجراميةً، كما صوّرتها وكالةُ الاستخباراتِ الأمريكيَّة، على الأقل - فإنَّ وكالةَ

الاستخبارات لم تكن مهتمة كثيراً بالأمر؛ فقد كان هذا أيضاً وسيلة للسيطرة على الغيت. أما وقد غدوا مُتطرفين داخل مجموعة سياسية، فقد صاروا خطرين احتمالاً.

ليست المهمة الأساسية لوكالة الاستخبارات أن تُوقِف الجريمة. بل تعمل بوصفها بوليساً سياسياً، على نطاقٍ واسع. وثمة إشارة تُقدمها ميزانية الوكالة والطريقة التي تُوزَع بها. وقد كُشِفَتْ بعضُ المعلومات المُوحية في هذا الموضوع من جانب مجموعة تُطلق على نفسها اسم «لجنة المواطنين للتحقيق من نشاطات وكالة الاستخبارات الأمريكية»، وقد نجحت هذه المجموعة في أن تستل من وسائل إعلام وكالة الاستخبارات FBI، مكتب ولاية بنسلفانيا، مجموعة من الوثائق حاولت أن تسلّمها إلى الصحافة. أما تصنيف هذه الوثائق فقد كان تقريباً على النحو الآتي: ٣٠٪ مخصصة لإجراءات الروتين، ٤٠٪ للرقابة السياسية وتتضمن مجموعتين من الجناح اليميني، وعشر مجموعات مهتمة بالمهاجرين، وأكثر من مائتين من المجموعات الليبرالية أو اليسارية؛ ١٤٪ للضباط الغائبين من دون إذن مغادرة AWOLS والفارين من الجندية؛ ١٪ للجريمة المنظمة - وجمهرتها في المقامرة - والباقي للاختطاف، وسرقة المصارف، والقتل، إلخ.

وأمام التحالف المتوقع بين الرانجرز والبانثرز، قرّرت وكالة الاستخبارات الأمريكية أن تُباشِر عملاً ما، مُنسقة مع البرنامج القومي لتعرية اليسار الذي كانت مُشتركة فيه، والبرنامج القومي للاستخبارات المضادة المعروف بـ Cointelpro. وقد حاولوا إثارة نزاع بين المجموعتين بطريق التزوير، رسالة مجهولة أرسلها إلى قائد الرانجرز مجهول وصَف نفسه بأنه «أخ أسود». وقد حذرت الرسالة من مكيدة يُديرها واحدٌ من البانثرز لقتل قائد الرانجرز. كان غرضها الواضح إثارة الرانجرز - الذين وصفتهم وثائق وكالة الاستخبارات بأنهم مجموعة يُشكّل النشاط العنيف والقتل وما شابه ذلك، وجهاً آخر لهم - ابتغاء أن يردّوا بعنف خطة القتل المزعومة.

لكنّ ذلك لم يُؤتِ أكله، ربّما لأنّ العلاقات بين الرّانجرز والبانثرز كانت إذ ذاك وثيقة جدًّا. وكان على وكالة الاستخبارات أن تضطلع بمهمّة إنهاء البانثرز بنفسها. ولكن كيف؟

مع أنّنا لا نمتلك التّحقّق المدروس، نستطيع تكوين ما يبدو قصّة معقولة: بعد بضعة أشهر، في كانون الأوّل ١٩٦٩م، شنت شرطة شيكاغو غارة قبل الفجر على مقرّ البانثرز. وقد أُطلقت مئة طلقة تقريبًا. زعمت الشرطة أولاً أنّها ردّت على نيران البانثرز، لكنّ الصحافة أكّدت بسرعة أنّ هذا كان ادّعاء. وقد قُتل (فريد هامبتون Fred Hampton) أحد قادة البانثرز الموجودين والمرموقين في فراشه. وثمّة دليل على أنّه ربّما يكون خدر بمخدر. ويزعمُ شهود أنّه قُتل عمدًا وببرود. وقُتل أيضًا (مارك كلارك Mark Clark)، ويمكن أن يُوصف هذا الحدث بجلاءٍ بأنّه قتلٌ سياسي من ذلك الطراز الذي تقوم به الشرطة السريّة النازيّة Gestapo.

كان المُعتقد آنذاك، أنّ شرطة شيكاغو كانت وراء الغارة. وسيكون ذلك سيئًا جدًّا، لكنّ الحقائق التي كُشفت منذ ذلك الوقت تشي بشيء ما أشدّ سوءًا. ونعلم الآن أنّ حرس هامبتون الشّخصيّ، (وليم أونيل William O'Neal)، الذي كان أيضًا رئيس أمن البانثرز، كان مُتسللًا من وكالة الاستخبارات. وقبل الغارة بأيّام، سلّم مكتب وكالة الاستخبارات إلى شرطة شيكاغو مُخططًا لمقرّ البانثرز زوّدها به أونيل، مع موقع الأسيرة، وتقرير لأونيل يشته به وجود أسلحة غير قانونيّة في المقرّ: تلكم هي الذريعة للغارة. وقد يوضّح مُخطّط المقرّ الحقيقة التي أدركها الصّحافيون، وهي أنّ إطلاق الشرطة النّار كان مُوجّهًا إلى زوايا داخلية من المقرّ أكثر منه إلى المداخل. ومن المؤكّد أنّ ذلك يُقوّض كثيرًا الرّغم الأصلي أنّ الشرطة كانت تُطلق النّار ردًّا على الطلقات الناريّة للبانثرز التي تُحيط

بها بيئةٌ مجهولة. وقد رَوَتْ صحافةُ شيكاغو أنَّ وكالةَ الاستخباراتِ التي عَمِلَ أونيل لها، كانتَ رئيسةَ البرنامجِ القوميِّ للاستخباراتِ المضادةَ Cointelpro، المُوَجَّهَ إلى البانثرز وجماعاتِ سُوداءَ أُخرى. وسواءً أكانَ هذا صحيحاً أم غيرَ صحيح، ثَمَّةَ دَلِيلٌ مُباشرٌ عَلَى اشتراكِ وكالةِ الاستخباراتِ FBI في جَرَائِمِ الاغتيال. وَحِينَ تُضَافُ هذه المعلوماتُ إلى المُحاوَلَةِ الأكيدةِ مِنْ جانبِ وكالةِ الاستخباراتِ لِإثارةِ العُنفِ والصِّراعِ المُزَوَّرِ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ، يبدو معقولاً أنَّ نُخَمِّنَ أنَّ وكالةَ الاستخباراتِ FBI أَخَذَتْ عَلَى عَاتِقِهَا مُبادَرةَ القَتْلِ، التي لم تستطِعْ أَنْ تنتزعَها مِنْ جَماعَةٍ «مَيَّالَةٍ إِلَى العُنفِ»، كانتَ قد وَجَّهَتْ إِلَيْهَا رِسالةً مُزَوَّرةً تُورِّطُ البانثرز في مُحاوَلَةِ قَتْلِ قائِدها.

ولا شَكٌّ فِي أَنَّ هذا الحادِثَ وَحْدَهُ (الذي صادَفَ أَنَّهُ لم يُحَقِّقْ فِيهِ جِدِّيًّا مِنْ جانبِ لَجَنَةِ الكَنِيسَةِ)، يَفُوقُ أَحداثَ ووترغيتِ بُرْمَتِها فِي الأَهَمِّيَّةِ. أَمَّا الصَّحَافَةُ، القومِيَّةُ والمَرْتَبَةُ، فلم يَكُنْ لَدَيْهَا، عَلَى الجُمْلَةِ، ما تَقُولُهُ فِي المَوْضُوعِ، مَعَ أَنَّهُ عُطِّيَ جَيِّداً مَحَلِّيًّا فِي شيكاغو. وَقَلَّما عَرَضَ المُعْلَقُونَ السِّيَاسِيُّونَ لِلْمَسْأَلَةِ. والمُقارَنَةُ بِتَغْطِيَةِ فَطاعاتٍ مِثْلِ «قائمةِ أَعْداءِ» نيكسون أو خِداعِ الصَّرائبِ، أَمْرٌ غَرِيبٌ تَمَامًا. وإِبَّانَ قَضِيَّةِ ووترغيتِ كُلِّها، مِثْلًا، لم يَجِدِ الجُمهُورُ الجَدِيدُ الَّذِي كانَ فِعْلاً آنَذا المُمَثِّلَ الرَّسْمِيَّ لِلليبراليَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ فُرْصَةً لِلحَدِيثِ أو التَّعْلِيْقِ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلِ، مَعَ أَنَّ الحَقائِقَ الأساسِيَّةَ والوثائِقَ صارتَ مَعْرُوفَةً.

وقد قَدِّمَتْ عائِلَةُ فريد هامبتون دَعْوَى مَدَنِيَّةً عَلَى شُرْطَةِ شيكاغو، لَكِنَّهُ حَتَّى الآنَ اسْتَبْعَدَ تَوَرُّطُ وكالةِ الاستخباراتِ FBI فِي المَحاکِمِ، مَعَ أَنَّ مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَةً حَوْلَ المَوْضُوعِ مُتَوافِرَةٌ الآنَ فِي شَهادَاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَحْتَ القَسَمِ.

وَإِذا كانَ مَنْ اسْتاءُوا مِنْ «فَطائِعِ ووترغيتِ» مُهْتَمِّينَ حَقِيقَةً بِالْحَقُوقِ المَدَنِيَّةِ

والإنسانية، فعَلَيْهِمْ أَنْ يُتَابَعُوا المعلومات التي كَشَفَتْ عنها اللُّجْنَةُ الكَنَسِيَّةُ بِشَأْنِ مسألةِ البلاكتون رانجرز، ويدرسوا الصُّلَّةَ المُمكنةَ لهذه المعلوماتِ بما يُعرَفُ مِنْ تَوَرُّطِ وكالةِ الاستخباراتِ FBI، في قَتْلِ شُرْطَةِ شيكاغو فريد هامبتون. وينبغي، عَلَى الأقلِّ، مُباشرةَ بَحْثٍ جَدِّيٍّ، لِإِخْتِبَارِ ما يبدو علاقاتٍ مُحتمَلةً، ولِإيضاحِ ضُلُوعِ وكالةِ الاستخباراتِ في ظِلِّ نيكسون وأسلافِهِ. فما نَحْنُ إِزاءَهُ هنا، كان اغتيالاً ربَّما تكونُ الشُّرْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ القُومِيَّةُ قد تورَّطت فيه، جَرِيمَةً تتجاوزُ كَثِيرًا أيَّ شيءٍ يُنسَبُ إلى نيكسون في تحقيقاتٍ ووترغيت. وَعَلَيَّ أَنْ أُعيدَ إلى الأذهانِ أَنَّ التَّحْقِيقَ في ووترغيت مَسَّ قَضِيَّةَ ذاتِ أَهمِّيَّةٍ استثنائيةٍ، قَصَفَ كمبوديا، لكنَّ ذلكَ عَلَى أُسُسٍ ضَيِّقَةٍ جَدًّا - وَأَنَّ «السَّرِّيَّةَ» المزعومةَ لِلْقَصْفِ، وليس الواقعةَ نَفْسَهَا، هي التي أَثَّهَمَ بِهَا نيكسون بِوَصْفِها «جَريمَتَهُ» في هذا الصَّدَدِ. وهناك حالاتٌ أُخرى مِنْ هذا القَبِيلِ في سان دييغو San Diego، مثلاً، اتَّضحَ أَنَّ الـ FBI موَّلَتِ مجموعةً يَمِينِيَّةً مُتطَرِّفَةً مِنْ مُنظَّمَةِ (الْمِينْت مِين Minute Men) السابقة، وسَلَّحَتْها وَوَجَّهَتْها، وحوَّلَتْها إلى شيءٍ سُمِّيَ مُنظَّمَةُ الجيشِ السَّرِّيِّ، وهي مُتَخَصِّصَةٌ بِأَعْمَالٍ إرهابِيَّةٍ مُختلفةٍ الأنواعِ. سَمِعْتُ عن هذا أَوَّلًا مِنْ أَحَدِ طُلَّابِي السَّابِقِينَ، وقد كان هَدَفًا لِمُحاوَلَةِ قَتْلِ مِنْ جَانِبِ المُنظَّمَةِ. والحقُّ أَنَّهُ الطَّالِبُ الذي نَظَّمَ المُناظَرَةَ في عِلْمِ الاقْتِصادِ التي حَدَّثْتُكَ عنها مِنْذُ قَلِيلٍ، حِينَ كانَ ما يَزَالُ طالِبًا في MIT. وكانَ مِنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ يَدْرُسُ في كَلِيَّةِ ولايةِ سان دييغو وَيُمارِسُ نَشَاطاتٍ سِيَاسِيَّةً - ليسَ لَهَا أَبَدًا طابَعُ العُنْفِ، ولكنَّ ليسَ ذلكَ هو المُهِمُّ.

وقد قادَ رَئِيسُ مُنظَّمَةِ الجيشِ السَّرِّيِّ - وهو مُخْبِرٌ مَاجُورٌ لِوكالةِ الاستخباراتِ FBI - سيارَتَهُ إلى ما وراءَ مَنْزِلِهِ، وأَطْلَقَ مُرافِقَهُ النَّارَ عَلَى البَيتِ، حَيْثُ جُرِحَتْ فِعْلاً امْرَأَةٌ شَابَّةٌ. أَمَّا الشَّابُّ الذي كانَ هَدَفًا لَهُمْ، فلم يَكُنْ في

البيت في ذلك الوقت. وقد سرق هذا العميل لوكالة الاستخبارات السلاح. وبحسب معلومات الفرع المحلي لـ ACLU، سُلمت البندقيّة في اليوم التالي إلى مكتب وكالة استخبارات سان دييغو، الذي أخفاها؛ ولمدة ستة أشهر، ظلّت وكالة الاستخبارات تكذب على شرطة دييغو بشأن الحادث. ولم تُعرف القضية علانية حتى وقت متأخر.

أما هذه المجموعة الإرهابيّة، التي تُوجّهها وتُموّلها وكالة الاستخبارات، فقد أنهتها أخيراً شرطة سان دييغو، بعد أن حاولت هذه المجموعة إطلاق القنابل على مسرح في حضور الشرطة. وقد نُقل موظف وكالة الاستخبارات FBI، الذي نحنُ بصددّه، والذي أخفى السلاح، خارج ولاية كاليفورنيا، ومن ثم لم يكن في الإمكان محاكمته. وكذا، نجّا مُخبر وكالة الاستخبارات من المحاكمة، مع أن عدداً من أعضاء المنظمة الإرهابيّة السريّة حُكِموا. وكانت وكالة الاستخبارات داخلّة في مساعٍ لإثارة حربٍ عصابات بين الجماعات السوداء في سان دييغو، مثلما هي الحال في شيكاغو، في الوقت نفسه تقريباً. وفي وثائق سرّيّة أنّ وكالة الاستخبارات فازت بِشرفٍ إثارة القتل والضرب والاضطراب في الغيت، الأمر الذي أحدثَ تعليقاً محدوداً جداً في الصحافة أو صحف الرأى.

وقد ضوَّقَ هذا الشابُّ نفسه بأساليبٍ أُخر. ويبدو أنّ وكالة الاستخبارات واصلت إخضاعه لأنواعٍ مختلفةٍ من التخويف والتّهديد، بوساطةٍ مُخبرين. وإضافةً إلى ذلك، ووفقاً لوكلائها في الـ ACLU، قدّمت وكالة الاستخبارات معلومات إلى الكلية التي كان يُدرّس فيها، مُفادها أنّه هو الذي كان سبباً لانتهاكاتٍ بسوء السلوك وُجّهت إليه. وقد واجه ثلاث عمليّاتٍ تحقيقيّ مُتوالية في الكلية، ويبرأ في كلّ مرّةٍ من التّهم الموجهة إليه. وفي تلك المرحلة، قرّر مُستشار النّظام في كلّية ولاية كاليفورنيا (جلن دمك Glen Dumke) أن يرفُض نتائج تحقيق لجان

الاستماعِ المُستقلَّةِ، وأن يكتفي بِعَزْلِهِ مِنْ مَنْصِبِهِ. لَاحِظِي أَنَّ حَوَادِثَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، لَمْ تُعَدَّ «دِكْتَاتُورِيَّةً» فِي الْجَامِعَةِ.

وَقَدْ سُلِّمَتِ الْحَقَائِقُ الْأَسَاسِيَّةُ إِلَى اللَّجْنَةِ الْكَنَسِيَّةِ مِنْ جَانِبِ ACLU فِي حَزِيرَانَ ١٩٧٥م، ثُمَّ قُدِّمَتْ إِلَى الصَّحَافَةِ أَيْضًا. وَبِحَسَبِ عِلْمِي، لَمْ تُجَرِّمِ اللَّجْنَةُ أَيَّ تَحْقِيقٍ فِي الْقَضِيَّةِ. أَمَّا الصَّحَافَةُ الْقَوْمِيَّةُ، فَلَمْ تَقُلْ فِعْلًا أَيَّ شَيْءٍ بِشَأْنِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، ثُمَّ قَالَتْ شَيْئًا ضئيلاً جَدًّا مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ.

وَتُوجَدُ تَقَارِيرُ مُشَابِهَةٌ بِشَأْنِ بَرَامِجِ حُكُومِيَّةٍ أُخْرَى لِلْقَمْعِ. حَيْثُ ذُكِرَ، مَثَلًا، أَنَّ الاستخباراتِ العسْكَرِيَّةَ مُتَوَرِّطَةٌ فِي أَعْمَالٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ فِي شِيكََاغُو. وَفِي سِيَاتِل Seattle تُبَذَلُ جُهُودٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا لِتَمْزِيقِ الْجَمَاعَاتِ الْيَسَّارِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَتَشْوِيهِ سُمْعَتِهَا. وَقَدْ أَمَرَتْ وَكَالَةُ الاستخباراتِ أَحَدَ مُوظَّفِيهَا بِاسْتِمَالَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُتَطَرِّفِينَ لِلْقِيَامِ بِنَسْفِ جِسْرٍ: وَأُرِيدَ لِهَذَا النَّسْفِ أَنْ يُنْفَذَ عَلَى نَحْوِ يُقْتَلُ فِيهِ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي أُرِيدَ مِنْهُ أَنْ يَزْرَعَ الْقُبْلَةَ أَيْضًا. رَفُضَ الْمُوظَّفُ تَنْفِيزَ هَذِهِ التَّعْلِيمَاتِ. وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ أَخْبَرَ الصَّحَافَةَ، وَشَهِدَ أَخِيرًا فِي الْمَحْكَمَةِ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ صَارَتِ الْقَضِيَّةُ مَعْرُوفَةً. وَفِي سِيَاتِل، كَانَ مُتَسَرِّبُو وَكَالَةِ الاستخباراتِ يُحَرِّضُونَ عَلَى عَمَلِيَّاتِ الْإِحْرَاقِ، وَالْإِرْهَابِ، وَالضَّرْبِ بِالْقَنَابِلِ، وَفِي إِحْدَى الْحَوَادِثِ وَرَّطَوْا شَابًّا أَسْوَدَ فِي مُحَاوَلَةِ سَرَقَةٍ، كَانُوا قَدْ شَرَعُوا بِهَا، وَقَدْ قُتِلَ فِي أَثْنَائِهَا الشَّابُّ. أَعْلَنَ عَنْ هَذَا (فِرَانْك دُونَر Frank Donner) فِي صَحِيفَةِ الْأُمَّةِ Nation، إِحْدَى الصُّحُفِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الْقَلِيلَةِ، الَّتِي حَاوَلَتْ الْقِيَامَ بِبَعْضِ التَّغْطِيَةِ الْجَدِّيَّةِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْقَضَايَا.

وَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ هَذَا، لَكِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثُ الْمَعزُولَةُ لَا تَأْخُذُ دِلَالَتَهَا الْكَامِلَةَ، إِلَّا حِينَ تَضَعِيْنَهَا فِي سِيَاقِ سِيَاسَاتِ وَكَالَةِ الاستخباراتِ FBI، مِنْذُ

ظهورها إلى الوجود في مرحلة الذُّعُرِ الشَّدِيدِ بعدَ الحربِ العالَمِيَّةِ الأولى، ممَّا لن أحوِّلَ أن أناقشه هنا. وقد بدأتْ عمليَّاتُ البرنامجِ القوميِّ للاستخباراتِ المضادَّةِ Cointelpro في الخمسينيَّاتِ، بِخُطَّةٍ لِمُزِيْقِ الحزبِ الشَّيْعِي وإِفْنائِهِ. ومعَ أنَّ هذا لم يُعلَنَ رَسْمِيًّا، عَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا شَيْئًا مِمَّا كانَ يَجْرِي، وكانَ ثَمَّةَ اعتراضاتٌ قليلةٌ جدًّا؛ فقد عُدَّ عملاً مشروعاً تماماً، حتَّى إِنَّ النَّاسَ أَطْلَقُوا النِّكَّاتِ في هذا الشَّانِ.

وفي عام ١٩٦٠م، طُوِّرَ برنامجُ التَّمْزِيْقِ إلى حَرَكَةٍ اسْتِقْلالٍ بُورْتوريكِيَّة. وفي تشرين الأوَّلِ مِنْ عام ١٩٦١م، وتحتِ إدارَةِ النَّائِبِ العامِّ روبرتْ كِنْدِي، بدأتِ الـ FBI برنامجَ تَمْزِيْقٍ مُوجَّهاً إلى حزبِ العُمَّالِ الاشتراكيِّ (المنظَّمة التَّروْتسكِيَّة الكُبْرَى)؛ وقد طُوِّرَ البرنامجُ أخيراً إلى حَرَكَةِ الحَقُوقِ المَدَنِيَّةِ، الـ KUKLUX، الجماعاتِ القوميةِ السُّوداءِ، وحَرَكَةِ السَّلامِ عامَّةً؛ وبِحُلُولِ عام ١٩٦٨م شَمِلَ «الْيَسَّارَ الجَدِيدَ» كُلَّهُ.

والأساسُ المَنْطِقيُّ المُقَدَّمُ في الدَّاخلِ لِهَذِهِ البرامجِ الغَيْرِ المشروعةِ، كُشِفَ عنه تماماً. فالبرنامجُ المُعدُّ لِمُزِيْقِ حزبِ العُمَّالِ الاشتراكيِّ، الذي جاءَ مِنَ المَكْتَبِ المركزيِّ لِلـ FBI مُباشرةً، عُرِضَ أساسُهُ المَنْطِقيُّ جَوْهريًّا في هذه العباراتِ: بدَّأنا هذا البرنامجَ لِأَسْبَابٍ الآتِيَةِ:

١- إِنَّ حزبَ العُمَّالِ الاشتراكيِّ يُرَشِّحُ مُرَشَّحِينَ في الانتخاباتِ المَحَلِّيَّةِ في البلادِ كُلِّها وَمِنْ دُونِ قَيْدٍ؛

٢- يُؤَيِّدُ وَحْدَةَ الجَنُوبِ؛

٣- يُؤَيِّدُ كاسترو.

إِلَامَ يُشِيرُ هذا فِعْلاً؟- إِنَّهُ يعني أَنَّ المُبادَرَةَ السِّيَاسِيَّةَ لِحِزْبِ العُمَّالِ

الاشتراكيّ في ترشيح مرشحيه في الانتخابات - وهو نشاطٌ سياسيٌّ مشروعٌ - وعمله في تأييد الحقوق المدنيّة، ومُحاولاته تغيير السياسة الخارجيّة للولايات المتّحدة، تُبرّر القضاء عليه بأيدي الشرطه السياسيّة القوميّة.

هذا هو الأساس المنطقي وراء برامج القمع الحكومي هذه: كانت مُوجهة لمقاومة نشاطات الحقوق المدنيّة ولمقاومة العمل السياسيّ المشروع المُخالف للإجماع السائد. ومُقارنته ببرامج الاستخبارات المضادة Cointelpro والأعمال المرتبطة بالحكومة في الستينيات، كانت ووترغيت حفلة شاي. ومما يزيدنا معرفة، في آية حال، أن نقارن الاهتمام النسبيّ المُجاري لها في ميدان الصحافة. وتكشف هذه المُقارنة بجلاءٍ وأسى، أن الاختيار الخاطيء للأهداف، لا الأفعال الخاطئة، هو الذي أدّى إلى السقوط المُباغت لنيكسون. وكان الاهتمام المزعوم بالحقوق المدنيّة والديمقراطيّة أمراً زائفاً، لم يكن هناك «انتصارٌ للديمقراطيّة».

م. ر.: يبدو أن عَرَضاً يتضمّن مقاطع من دستور الولايات المتّحدة وثيقة حقوق الإنسان وُزّع في الشوارع في وقتٍ واحد، وقد رفض الشعب التوقيع عليه، ظاناً أنه دعاية يساريّة.

ن. ت.: مثل هذه الحوادث أُبلغ عنه منذ الخمسينيات، فيما أذكر. وقد خوّف الشعب لأعوامٍ كثيرة. ويؤثّر الليبراليّون الاعتقاد بأن هذا كلّهُ راجعٌ إلى نَقَرٍ من أناسٍ سيّئين: جوي مكارثي Joe McCarthy، وريتشارد نيكسون، وذلك غير صحيح البتّة. وفي وَسع المرء أن يُعيد القمع بعد الحرب إلى إجراءات الأمن التي شرّعها ترومان عام ١٩٤٧م، ومُحاولات الليبراليّين الديمقراطيّين تشويه سمعة هنري وولس ومؤيديه في ذلك الوقت. وإنّ الشّيخ الليبراليّ هيوبرت همفري، هو الذي اقترح إبقاء المُخيّمات في حال «طوارئ قوميّة». وصوّت أخيراً ضدّ قانون (مكران McCarran)، لكنّه قال إذ ذاك إنه وَجَدَه مزعجاً جداً

في بعضِ الجوانب؛ وكان مُعارضاً لِلْفِرْقَةِ التي تذهبُ إلى أَنَّ السُّجْنَاءَ في مُخَيَّماتِ الاعتقالِ ينبغي أن يحميهم حقُّ الأمرِ القضائيِّ بِالتَّحقيقِ في قانونيَّةِ سَجْنِهِم habeas carpus: تلك لم تُكُنِ الطَّريقَةُ التي يُعاملُ بِها المتآمرونَ الشَّيوعِيُّونَ! كان قانونُ القمْعِ الشَّيوعيِّ، الذي قدَّمه الليبراليُّونَ الرِّئيسونَ بعدَ عِدَّةِ أعوامٍ، غيرَ دستوريٍّ على نحوٍ واضحٍ تماماً، بِحَيْثُ إِنَّه لم يُحاولِ أَحَدٌ تعزيزَه فِعْلاً، فيما أعلَمَ. كان هذا القانونُ موجَّهاً على نحوٍ محدَّدٍ في بعضِ جوانبه لِمُقاومةِ التَّقَابُاتِ العُماليَّةِ. وعدا هؤلاء الشَّيوخَ، أيدَ كثيرٌ مِنَ المثقِّفينَ الليبراليِّينَ ضِمْنَ الأهدافِ الأساسيَّةِ لـ «المكارثية McCarthyism»^(*)، مع أنَّهم عارضوا منهاجها - خاصَّةً حينَ غَدَّوا أهدافاً أيضاً. وقد نفَّذوا ما يمكنُ أن يُعدَّ «تَطْهيراً» جزئياً في الجامعاتِ، وبِوسائلٍ متعدِّدةٍ طَوَّروا الإطارَ الإيديولوجيَّ لِتَخْلِيصِ المجتمعِ الأمريكيِّ مِنْ «سَرَطانٍ» الانشقاقِ الخطيرِ هذا. هذه بعضُ أسبابِ التَّمائُلِ الاستثنائيِّ والضَّيقِ الإيديولوجيِّ في الحياةِ الفكريَّةِ في الولاياتِ المتَّحدةِ، وعُزْلَةِ حَرَكةِ الطَّلَّابِ التي عَرَضْنا لها قَبْلُ. وإذا كان هؤلاء الليبراليُّونَ قد عارضوا مكارثي، فذلك لِأنَّه مضى بعيداً جدًّا، وفي السَّبيلِ الخاطئةِ. فقد هاجمَ المثقِّفينَ الليبراليِّينَ أنفُسَهُم، أو الشَّخصيَّاتِ السَّياسِيَّةَ الرِّئيسةَ مثلَ (جورج مارشال George Marshall)، بدلاً مِنْ قَصْرِ نَفْسِهِ على «العَدُوِّ الشَّيوعيِّ». وهو، على غرارِ نيكسون، أخطأ في تَخْيِيرِ أعدائه حينَ بدأ بِمُهاجَمَةِ الكنيسةِ والجيشِ. ويمكنُ القولُ، على الجُمْلَةِ، إِنَّه إذا ما كان المثقِّفونَ الليبراليُّونَ قد انتقدوه، فإنَّ مَبْعَثَ ذلك أنَّ مَناهجَه لم تُكُنِ المَناهجَ الصَّحيحةَ لِتَخْلِيصِ البلادِ مِنَ الشَّيوعِيِّينَ

*- نزعةٌ سياسيَّةٌ ظهرت في منتصفِ القرنِ العشرين، وتسمُّ باصطناعِ العنفِ في مُقاومةِ العناصرِ التي تعدُّها الدَّولَةُ هُدَامَةً، وبِشَّنِ حملاتِ التَّشهيرِ على الأفرادِ مِنْ غيرِ تحرُّرٍ أو تحقيقِ [المترجم عن المورد].

الحقيقيين. وقد كان ثمة بعض استثناءاتٍ جديرةً بالملاحظة، لكنها قليلةٌ على نحوٍ مُخزِنٍ.

وعلى نحوٍ مُماثلٍ، عارضَ القاضي (رُوبرت جاكسون Robert Jackson)، وهو أحدُ الليبراليين الرئيسيين في المحكمة العليا، مبدأ «الخطر الواضح والمائل» (الذي يمكن أن تُقلَّصَ وفقًا له حُرِّيَّةُ الكلام في الحالات التي تُؤثِّرُ في أَمْنِ الدولة)، حينَ طُبِّقَ على نشاطاتِ الشيوعيين، لأنَّه لم يكنْ صارمًا تمامًا. وهو يُبيِّنُ أنَّك إن انتظرتِ حتَّى يصيرَ الخطرُ «واضحًا ومائلًا» فسيكونُ ذلك متأخرًا جدًّا. عليك أن تُوقفي الشيوعيين قَبْلَ «أعمالهم الوشيكة». ومن ثمَّ، أيدي وجهة نظرٍ استبداديةٍ حقًّا: لا ينبغي لنا أن نأذنَ بالشروع بهذا النقاش.

لكن هؤلاء الليبراليين هُزِّوا هَزَّةً عنيفةً حينَ وجَّهَ مكارثي أسلحته إليهم، فلم يُعدَّ يلعبُ وفقًا لقواعدِ اللعبة - اللعبة التي اخترعوها.

م. ر.: على نحوٍ مُماثلٍ، لاحظتُ أنَّ الفضيحة التي تلبَّست بها الـ CIA، لم تُعبَأَ بالنشاطاتِ الرئيسةِ للوكالة، بل بحقيقة أنها فعلت ما كان أساسًا المجال المُخصَّصَ لـ FBI.

ن. ت.: جزئيًّا، نعم. وانظري إلى الغضب الذي نشأ عن محاولاتِ الاغتيالِ السياسي التي نظَّمتها الـ CIA. فقد زلزلَ الناسَ لأنَّ الـ CIA حاولتِ اغتيالَ قادةِ أجانب. ولا شك في أنَّ هذا سيِّئٌ جدًّا. لكن هذه لم تكنْ سوى محاولاتٍ مُجهضة؛ على الأقلِّ في مُعظمِ الحالات - وذلك غيرُ واضحٍ في بعضِ الحالات. تأملي، بالمُقارنة، برنامجَ الفونيكس Phoenix program، الذي كانتِ الـ CIA مُتورطةً فيه، والذي يُبيدُ أربعين ألفَ مدنيٍّ في عامين، وفقًا لحكومة سايجون. لماذا لا يُؤخَذُ هذا في الحُساب؟ - لماذا يكونُ هؤلاء الناسُ جميعًا أقلَّ أهميَّةً من كاسترو أو شنيدر أو لومببا؟

أما الموظف الذي كان مسؤولاً عن هذا، (وليم كولبي William Colby)، الذي ترأس ال CIA، فبعدُ الآن مجردَ عمودٍ في مجلةٍ ومُحاضرٍ في حرم الجامعة. وقد حَدَثَ الشَّيْءُ نفسه في لاوس، حتَّى إنَّه أسوأ. كم قُتِلَ مِنَ الفلاحين نتيجةَ برامجِ ال CIA؟ - ومن يتحدَّثُ عن ذلك؟ - لا أحد. ولا إعلانات. هي دائماً القِصَّةُ نفسها. الجرائمُ التي يُكشَفُ عنها خطيرةٌ، لكنَّها تافهةٌ مُقارَنةً ببرامجِ الجريمةِ الخطيرةِ حقًّا التي تضطلعُ بها الدَّولةُ، والتي تُتجاهلُ أو تُعدُّ قانونيَّةً تماماً.

م. ر.: كيف نَحْدُ هذه المعلوماتِ كُلِّها؟ - إن لم تُبلَّغَ عنها الجرائدُ...

ن. ت.: هذه المعلوماتُ يمكنُ الحصولُ عليها، ولكن لِمُتَعَصِّبينَ فَحَسْبُ: ابتغاءَ اكتشافِها، عَلَيْكَ أَنْ تُخَصِّصِي كَثِيراً مِنْ حَيَاتِكَ لِلْبَحْثِ. وبهذا المعنى، تكونُ المعلوماتُ متوافرةً. لكنَّ هذا «التَّوافرُ» لا يكادُ يكونُ ذا شأنٍ في الممارسة، غيرُ مُهمٍّ سياسياً تقريباً. الشَّيْءُ نفسه على المستوى الشخصي، إذ طبعيٌّ أَنْ الموقِفَ بالنِّسبةِ إلى شخصٍ مثلي جديرٌ بالإِثَارِ التَّامَّ في الولاياتِ المتَّحدة لدى الجمعيَّاتِ الاستبداديَّة. وفي الاتِّحادِ السَّوفيَّتي، مثلاً، إن حاولَ أَحَدُهُمْ أَنْ يفعلَ ما أَفَعَلُهُ أنا هنا، فَمِنْ المَحْتَمَلِ أَنْ يكونَ في السَّجْنِ. وإنَّه لَمُثِيرٌ ونَموذجيٌّ أَنْ كتاباتي السَّياسِيَّةَ التي تَنقِذُ سياساتِ الولاياتِ المتَّحدة لا تُترجمُ فيما يُسمَّى البلدانَ الشيوعيَّةَ، معَ أَنَّها موجودةٌ، على نطاقٍ واسعٍ جدًّا، في أجزاءٍ أُخرى كثيرةٍ مِنَ العالَمِ. لكنَّه على المرءِ أَنْ يكونَ دقيقاً في تقديرِ الأهمِّيَّةِ السَّياسِيَّةِ لِلتَّحرُّرِ النَّسْبِيِّ مِنَ القَمْعِ - عَلَى الأَقْلَ بالنِّسبةِ إلى المُتميِّزين - في الولاياتِ المتَّحدة. لِنَقُلْ بِدِقَّةٍ، ماذا يعني مادياً؟

في العامِ الماضي، مثلاً، دُعِيتُ لِإِلْقَاءِ مُحاضرةٍ في جامعةِ هارفاردِ أمامَ

مجموعةٍ مِنَ الصَّحَافِيِّينَ تُدْعَى زُمَلَاءَ نِيْمَنِ Nieman Fellows، يَأْتُونَ هُنَاكَ كُلَّ عَامٍ مِنْ كُلِّ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَمِنْ بُلْدَانٍ خَارِجِيَّةٍ، لِتُعْزِزَ اِطْلَاعَهُمْ، إِنْ جَازَ الْقَوْلُ. وَقَدْ سَأَلُونِي أَنْ أَعْرِضَ لِقَضِيَّةٍ وَوَتَرغِيتُ والموضوعاتِ المرتبطةِ بِهَا - كَانَتْ الصَّحَافَةُ فَخُورًا تَمَامًا، عَلَى الْجُمْلَةِ، بِتَصَرُّفِهَا الشَّجَاعِ والمبدئيِّ إِبَانِ مَرَحَلَةِ وَوَتَرغِيتُ؛ لِسَبَبٍ صَغِيرٍ جَدًّا، عَلَى غِرَارٍ مَا حَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَهُ. وَبَدَلًا مِنْ مُنَاقَشَةِ وَوَتَرغِيتُ، تَحَدَّثْتُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَلْمَعْتُ إِلَيْهَا مِنْذُ قَلِيلٍ؛ لِأَنِّي دُهَشْتُ مِنْ الدَّرَجَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَعْرِفَ بِهَا هَؤُلَاءِ الصَّحَافِيُّونَ، الَّذِينَ كَانُوا مُحَنِّكِينَ تَمَامًا وَمُثَقِّفِينَ مُقَارَنَةً بِعَامَّةِ النَّاسِ، أَشْيَاءٌ عَنْ هَذِهِ الْقَضَايَا. حَقًّا، لَيْسَ بَيْنَهُمْ مَنْ لَدَيْهِ أَيْةٌ فِكْرِيَّةٌ عَنْ تَدْرُجِ بَرَامِجِ الْقَمْعِ الَّتِي تَضَعُهَا الـ FBI، مَا خَلَا صِحَافِيًّا وَاحِدًا مِنْ شِيكََاغُو، عَرَفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ قَضِيَّةِ هَامْبَتُون. وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ نُوقِشَ بِإِسْهَابٍ فِي صِحَافَةِ شِيكََاغُو. وَلَوْ وُجِدَ أَحَدٌ مِنْ سَانِ دِيغُو فِي الْمَجْمُوعَةِ، لَكَانَ قَدْ عَرَفَ مَا يَتَّصِلُ بِمُنْظَمَةِ الْجَيْشِ السَّرِّيِّ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

ذَلِكَ أَحَدُ الْمَفَاتِيحِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا. وَكُلُّ إِنْسَانٍ مُوجَّهٌ إِلَى الْاِعْتِقَادِ بِأَنَّ مَا يَعْرِفُهُ يُمَثِّلُ اسْتِثْنَاءً مَحَلِّيًّا. وَيَبْقَى النَّمُودُجُ الْكَامِلُ مَخْفِيًّا. كَثِيرًا مَا تُقَدَّمُ الْمَعْلُومَاتُ فِي الصُّحُفِ الْمَحَلِّيَّةِ، أَمَّا أَهَمِّيَّتُهَا الْعَامَّةُ، الْأَنْمَاطُ عَلَى الْمُسْتَوَى الْقَوْمِيِّ، فَتُظَلُّ غَامِضَةً. تِلْكَ كَانَتْ الْحَالُ إِبَانِ قَضِيَّةِ وَوَتَرغِيتُ كَامِلَةً، مَعَ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ ظَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَمَامًا، فِي عُنَاصِرِهَا الْأَسَاسِيَّةِ، وَبِتَوْثِيقٍ شَامِلٍ. وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، قَلَّمَا كَانَتْ الْمُنَاقَشَةُ تَحْلِيلِيَّةً أَوْ فِي أَيِّْ مَكَانٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الشُّمُولِ، وَلَمْ تُفَسَّرْ مَا حَدَّثَ عَلَى نَحْوٍ مُقْنَعٍ. وَمَا تُوَاكِهِيهِ هُنَا صَرْبٌ مُؤَثِّرٌ جَدًّا مِنَ التَّوْجِيهِ الْإِدْيُولُوجِي؛ لِأَنَّ الْمَرَّةَ يُمْكِنُ أَنْ يَظَلَّ تَحْتَ وَقَعِ الْاِنْتِبَاعِ بِأَنَّ الرِّقَابَةَ لَا تُوجَدُ، وَبِمَعْنَى تَقْنِيٍّ دَقِيقٍ، ذَلِكَ صَحِيحٌ. فَلَنْ تُودَعِيَ السَّجَنَ إِنْ أَنْتِ اِكْتَشَفْتِ الْحَقَائِقَ، وَلَا حَتَّى إِنْ أَعْلَنْتَهَا فِي أَيِّْ وَقْتٍ اسْتَطَعْتَ. لَكِنَّ التَّنَاجِجَ تَبَقَّى عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ،

كَأَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ رَقَابَةٍ حَقِيقِيَّةٍ. والواقعُ الاجتماعيُّ يُخْفِيهِ، عَلَى الْجُمْلَةِ، الْمُثَقَّفُونَ. وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ الْقَضَايَا كَانَتْ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا إِبَّانَ الْمَرَحَلَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا حَرَكَةُ شَعْبِيَّةٌ وَطَلَابِيَّةٌ هَائِلَةٌ مُعَادِيَةٌ لِلْحَرْبِ. وَدَاخِلَ بَنِيَةِ الْحَرَكَاتِ الشَّعْبِيَّةِ، كَانَتْ ثَمَّةَ إِمْكَانِيَّاتٍ كَثِيرَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْآرَاءِ الَّتِي تَبْتَعِدُ عَنِ الْحُدُودِ الضَّيِّقَةِ لِلْإِدْيُولُوجِيَا «الرَّسْمِيَّةِ» تَقْرِيبًا، الَّتِي يَعْمَلُ الْمُثَقَّفُونَ وَفَقًّا لَهَا، عَلَى الْجُمْلَةِ.

م. ر.: وماذا كَانَ رَدُّ فِعْلِ الْأَمْرِيكِيِّينَ عَلَى بَيَانَاتِ سُولْجِينِيَتْسِن(*)؟

ن. ت.: مثيرًا جَدًّا - عَلَى الْأَقْلَ فِي الصَّحَافَةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مَا يُهْمُنِي أَسَاسًا. انْتَقَدَ بَعْضُهُمْ تَطَرُّفَهُ. فَقَدْ مَضَى حَقًّا إِلَى أْبْعَدَ مِمَّا فِي مَقْدُورِهِمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا. إِذْ دَعَا، مَثَلًا، إِلَى تَدْخُلِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْمُبَاشِرِ فِي الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّتِيِّ - تَدْخُلًا مِنْ نَوْعٍ قَدْ يُوْدِّي حَقًّا إِلَى حَرْبٍ وَيُرْجَّحُ، بِدَرَجَةِ أَقْلٍ، أَنْ يُوْدِّيَ إِلَى إِيْذَاءِ الْمُتَشَقِّقِينَ الرُّوسِ أَنْفُسَهُمْ. وَشَجَبَ أَيْضًا تَهَاوُنَ أَمْرِيكََا فِي التَّخَلِّيِ عَنِ الْقِتَالِ لِإِخْضَاعِ الْمُقَاوِمَةِ الْفِيْتِنَامِيَّةِ، وَعَارِضَ جِهَارًا الْإِصْلَاحَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ فِي إِسْبَانِيَا، وَأَيَّدَ صَحِيفَةً دَعَتْ إِلَى الرَّقَابَةِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، وَهَلَّمَ جَرًّا. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ تَتَوَقَّفِ الصَّحَافَةُ عَنْ إِظْهَارِ إِعْجَابِهَا بِكَوْنِ هَذَا الرَّجُلِ عَمَلًا خُلُقِيًّا كَامِلًا. وَفِي حَيَاتِنَا التَّافَهَةِ لَا نَكَادُ نَتَخَيَّلُ قِمَمًا مِنَ الْعَظَمَةِ كَهَذِهِ الْقِمَمِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ «الْمُسْتَوَى الْخُلُقِيَّ» لِسُولْجِينِيَتْسِن مُمَازِلٌ تَمَامًا لِمُسْتَوَى شُيُوعِيَّيْنِ أَمْرِيكِيِّينَ كَثِيرِينَ قَاتَلُوا بِشَجَاعَةٍ مِنْ أَجْلِ الْحُرِّيَّاتِ الْمَدْنِيَّةِ هَهُنَا فِي بِلَدِهِمْ، لَكِنَّهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَدَافِعُونَ، أَوْ يَرَفُضُونَ انْتِقَادَ حَمَلَاتِ التَّطْهِيرِ وَمُعَسْكَرَاتِ الْعَمَلِ فِي الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّتِيِّ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ (زَخَارُوفَ) لَيْسَ غَرِيبًا فِي آرَائِهِ كَسُولْجِينِيَتْسِنَ،

*- سُولْجِينِيَتْسِن، أَلَكْسَنْدَر (١٩١٨- م): رَوَائِي سُوْفِيَاتِي. مُنِحَ جَائِزَةُ نُوبَلٍ فِي الْأَدَبِ لِعَامِ ١٩٧٠ م [الْمُرْتَجَمُ عَنِ الْمَوْرَدِ].

لكنّه أيضاً يقول إنّها كانت نكسةً عظيمةً للغرب ألا تستمرّ حربُ فيتنام حتّى انتصار أمريكا. وهو يشكو من أنّ الولايات المتّحدة لم تعمل بتصميم كافٍ، وتباطأت كثيراً في إرسال قوّاتٍ عاجلة كبيرة. كلّ تلفيقٍ جهاز الدّعاية الأمريكيّ يُعاد هنا، على غرار ما كان الشيوعيون الأمريكيّون، الذين قاتلوا في سبيل الحقوق المدنيّة هنا، يردّدون الدّعاية الرّوسيّة. إنّ حقيقة العدوان الأمريكيّ في جنوبي فيتنام التي يُصدّق بها بسهولة، ليست جزءاً من التاريخ، مثلاً. وينبغي أن يُعجّب المرءُ بشجاعة زخاروف العظيمة وعمله الرائع في الدّفاع عن حقوق الإنسان في الاتحاد السوفييتي. أمّا أن نُشير إلى أناس كهؤلاء بأنهم «عماليق أخلاقيّون» فأمرٌ غير عاديّ.

لماذا يفعلون هذا؟- لأنّ المُهمّ كثيراً عند المُثَقِّفين الأمريكيّين الكبار، أن يجعلوا الناس يعتقدون بأنّ الولايات المتّحدة لا تواجه أيّة مشكلاتٍ حقيقة. مثلاً هذه المشكلات يظهُر في الاتحاد السوفييتي فحسب، و«العماليق الأخلاقيّون» يكونون هناك للرّد عليها.

قارني سولجينيّتسن بآلافٍ مُؤلّفةٍ من المُقاومين لحرب فيتنام والمُنشقين عليها؛ فقد مثّل كثيرٌ منهم مستوى أخلاقياً أسمى من مُستواه بما لا يُقارن. فسولجينيّتسن يدافع بقوة عن حقوقه الخاصّة وحقوق أمثاله - ممّا يثير الإعجاب حقاً. أمّا المقاومون وكثيرٌ من المُنشقين، فيدافعون عن حقوق الآخرين - وعلى نحوٍ مُحدّد، عن ضحايا العدوان والإرهاب الأمريكيّين. وكانت أعمالهم على مستوى خُلقيّ أرفع. وإضافةً إلى ذلك، لم تكن أعمالهم ردّاً فعلٍ صرفاً على اضطهادهم؛ إذ إنّهم في الأعم الأغلب قاموا بهذه الأعمال، التي آلت بهم إلى السّجن أو النّفي، بإملاءٍ من إرادتهم الحرّة، بينما كان في وسعهم بسهولة أن

يعيشوا في راحة. ومع ذلك، قرأنا في الصحف الليبرالية الأمريكية أنه من العسير أن يكون في مقدورنا تصوّر العظمة الخلقية لسولجينيّسن في مجتمعنا، وأن من المؤكّد أنّنا لا نستطيع أن نظفر بأحد مثله. ادّعاءٌ مثيرٌ جدًّا، ويعني أشياء كثيرة.

ويُدعى هنا بقدر كبير من التعميم أن المقاومة الأمريكية كان سببها خشية الشبان من الالتحاق بالجنديّة؛ وهذا اعتقادٌ مناسبٌ كثيرًا للمثقفين الذين ألزموا أنفسهم بالمعارضة «البراغماتية» للحرب. لكنّها فُريةٌ كبيرة، لأنّ جمهرة أولئك الذين كانوا في المقاومة منذ بداياتها، كان سهلًا عليهم كثيرًا الفرار من الالتحاق، كما فعل آخرون كثيرون فعلًا. والحق أن كثيرين من النشطين سابقًا حصلوا على تأجيلات، واختار كثير من المنشقين أيضًا سلوكًا صعبًا ومؤلمًا لأسباب تتصل بالمبدأ. أمّا أولئك الذين أيّدوا الحرب بداءةً، والذين أثاروا فحسب همسة اعتراضهم حين غدت التكاليف باهظة جدًّا، فإنّه مُستحيلٌ أن يقبلوا بوجود مقاومة شجاعة ومبدئية، على نطاق واسع في قطاع الشباب، للفِطاعات التي تحملوها هم أنفسهم بطيب خاطر.

ولا يرغب التيار العام للبرالية الأمريكية في أن يسمع أيّ شيء عن ذلك كلّ. وسيثير عددًا كبيرًا من التساؤلات المحيرة: ماذا كانوا يفعلون حين كان المقاومون للحرب يواجهون السجن أو التشريد؟ - وهلّم جرا. وهكذا يأتيهم سولجينيّسن كأنه هديّة من الله، تهبّ لهم أن يتهربوا من الأسئلة الخلقية، «يُصدرونها» إن جاز التعبير، وأن يخفوا دورهم بوصفهم أناسًا ظلّوا صامتين لأعوام كثيرة، أو اعترضوا أخيرًا على أسسٍ بغیضةٍ أخلاقيًا تتصل بالتكلفة والمنفعة الخاصة لحكومة الولايات المتحدة.

وقد قدّم (موينهان Moynihan)، حين كان سفيرًا إلى الأمم المتحدة،

التَّيْجَةُ نَفْسَهَا حِينَ هَاجَمَ الْعَالَمَ الثَّالِثَ . وَأَثَارَتْ هَذِهِ الْهَجَمَاتُ إِعْجَابًا كَبِيرًا هُنَا ؛
 كَمَا حَدَثَ مِثْلًا حِينَ اتَّهَمَ الرَّئِيسَ الْأُوغَنْدِيَّ عِيْدِي أَمِينُ بِأَنَّهُ «قَاتِلُ عُنْصُرِيَّ» .
 وَلَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ أَنْ يَكُونَ عِيْدِي أَمِينُ قَاتِلًا عُنْصُرِيًّا أَوْ لَا ؛ إِذْ إِنَّ التَّلْقِيبَ صَحِيحٌ
 حَقًّا . الْقَضِيَّةُ هِيَ مَاذَا يَعْنِي لَدَى مُؤَيِّنِهَانِ أَنْ يُقَدَّمَ هَذَا الْاِتِّهَامُ ، وَمَاذَا يَعْنِي لَدَى
 الْآخَرَيْنِ أَنْ يَتَغَنَّى بِبُنْبُلِهِ وَشَجَاعَتِهِ فِي عَمَلٍ كَهَذَا؟ - مَنْ مُؤَيِّنِهَانِ هَذَا؟ - عَمَلُ
 الرَّجُلِ فِي أَرْبَعِ إِدَارَاتٍ ، هِيَ إِدَارَاتُ كَنْدِي وَجُونْسُونِ وَنِيكْسُونِ وَفُورْدِ - وَيَعْنِي
 هَذَا ، تِلْكَ الْإِدَارَاتِ الَّتِي كَانَتْ مُلَطَّخَةً الْأَيْدِي بِدِمَاءِ الْقَتْلِ الْعُنْصُرِيِّ عَلَى مَسْتَوَى
 لَا يَحِلُّمْ بِهِ عِيْدِي أَمِينُ . تَخِيلِي أَنْ مَوْظِفًا صَغِيرًا فِي الرَّايِخِ الثَّالِثِ (*) اتَّهَمَ شَخْصًا
 مَا بِأَنَّهُ قَاتِلُ عُنْصُرِيَّ . هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي تَحْوِيلِ الْمَسَائِلِ الْخُلُقِيَّةِ إِلَى مَسَائِلٍ أُخْرَى ،
 هِيَ إِحْدَى الطَّرِيقِ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ أُسُسِ الْمَشْرُوعِيَّةِ الْخُلُقِيَّةِ لِمُمَارَسَةِ السَّلْطَةِ
 الْأَمْرِيكِيَّةِ ، الَّتِي اهْتَزَتْ إِبَّانَ حَرْبِ فَيْتْنَامِ . وَقَدْ اسْتُغِلَّ سُولْجِينِيْتَسْنِ لِهَذِهِ الْغَايَةِ
 بِطَرِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ جَدًّا وَيُمْكِنُ التَّنَبُّؤُ بِهَا ؛ مَعَ أَنَّ الْمَرْءَ طَبْعًا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ
 يَسْتَخْلَصَ ، وَفَقَ تِلْكَ الْأُسُسَ ، أَيَّةَ اسْتِنَاجَاتٍ بِشَأْنِ اتِّهَامَاتِهِ الْمُوجَّهَةِ إِلَى النِّظَامِ
 السُّوْفِيَّتِيِّ بِالْاِضْطِهَادِ وَالْعُنْفِ .

تَأْمَلِي حَالٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ (أَنْجِيلَا دِيْفَز Angela Davis): تُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِ
 السُّودِ الْأَمْرِيكِيِّينَ بِشَجَاعَةٍ كَبِيرَةٍ وَإِيمَانٍ عَظِيمٍ . لَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، رَفَضَتْ
 الدِّفَاعَ عَنِ الْمُنَشَقِّينَ التَّشِيكِيِّينَ أَوْ انْتِقَادَ الْغَزْوِ الرُّوسِيِّ لِتَشِيكُوْسْلُوْفَاكِيَا ، فَهَلْ تُعَدُّ
 «عِمْلَاقَةً خُلُقِيَّةً»؟ - مَعَ ذَلِكَ لَدَيَّ اعْتِقَادٌ بِأَنَّهَا أَسْمَى مِنْ سُولْجِينِيْتَسْنِ عَلَى
 الْمَسْتَوَى الْخُلُقِيِّ . فَهِيَ عَلَى الْأَقْلِّ لَمْ تَلْمِ الْاِتِّحَادَ السُّوْفِيَّتِيِّ لِأَنَّهُ لَمْ يُمَارَسْ
 فَظَائِعُهُ بِالْقَدْرِ اللَّازِمِ .

* - أَلْمَانِيَا النَّازِيَّةُ ١٩٣٣-١٩٤٥ م [الْمُتَرْجِمُ] .

م. ر.: بَعْدَ هَذَا الَّذِي قُلْتَهُ، وَمَا قِيلَ بِشَأْنِ التَّدْخُلِ الْأَمْرِيكِيِّ فِي التَّشْلِيلِ فِي
 كِتَابِ يَرَايبِ Uribe^(١)، تُوجَدُ سِيَاسَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلْحَقْنِ Vaccination
 عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ. فَضِيحَةٌ كَبِيرَةٌ تُثَارُ بِعَنَاءٍ حَوْلَ حَدَثٍ صَغِيرٍ - وَوَتَرَعَيْتُ،
 الْحَالُ الـ ITT عَامَ ١٩٧٣ م - لِإِخْفَاءِ الْفَضَائِحِ الْحَقِيقِيَّةِ وَجَعْلِهَا أَكْثَرَ
 قَبُولًا (بِحَسَبِ تَعْرِيفِ فَاي Faye): فَضَائِحٌ مِنْ قَبِيلِ الْإِغْتِيَالِ السِّيَاسِيِّ،
 انْقِلَابِ أَيْلُولٍ. فَأَنْتَ تَحْقِنُ الْجُمْهُورَ بِفَضِيحَةٍ صَغِيرَةٍ؛ ثُمَّ حِينَ تَحْدُثُ
 الْأَشْيَاءُ الْخَطِيرَةُ يَكُونُ الْمَوْضُوعُ قَدْ جُرِّدَ قَبْلَ مِنْ مُعْظَمِ فَاعِلِيَّتِهِ
 التَّحْسِسِيَّةِ، وَتَفْقِدُ أَهْمِيَّةَ الْمَوْضُوعِ مَا فِيهَا مِنْ نَضَارَةٍ - الْمِيعَارَانِ
 الْأَسَاسِيَّانِ لِعَنَاوَيْنَ كَبِيرَةٍ فِي الْجَرَائِدِ^(٢).

ن. ت.: نَعَمْ، ذَلِكَ مُنْسَجِمٌ مَعَ مَا قَدْ قُلْتَهُ تَوًّا عَنْ الصَّحَافَةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ مِنْذُ
 نِهَآيَةِ الْحَرْبِ. فَالْحُكُومَةُ الْآنَ فِي حَاجَةٍ كَبِيرَةٍ إِلَى تَرْمِيمِ مَصْدَاقِيَّتِهَا، لِتَجْعَلَ النَّاسَ
 يَنْسَوْنَ التَّارِيخَ، وَلِتُعِيدَ كِتَابَتَهُ. وَعَلَى الْمُثَقِّفِينَ، عَلَى نَحْوِ اسْتِثْنَائِيٍّ، تَوَلَّى هَذِهِ
 الْمُهْمَّةَ. وَلَا غِنَى أَيْضًا عَنْ تَرْسِيخِ الدَّرُوسِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ قَدْ اسْتُخْلِصَتْ
 مِنَ الْحَرْبِ، وَتَأْكِيدِ أَنَّ هَذِهِ تُتَصَوَّرُ عَلَى أَضِيقِ الْأُسُسِ، بِلُغَةٍ مَقُولَاتٍ حِيَادِيَّةٍ
 اجْتِمَاعِيًّا، مِنْ قَبِيلِ «الْغَبَاءِ» أَوْ «الْخَطَأِ» أَوْ «الْجَهْلِ»، أَوْ رَبَّمَا «الْخَسَارَةِ».
 لِمَاذَا؟- لِأَنَّهُ سَيَكُونُ ضَرُورِيًّا حَالًا تَسْوِيعُ مُوَاجَهَاتٍ أُخْرَى، وَرَبَّمَا
 تَدْخُلَاتٍ أَمْرِيكِيَّةٍ أُخْرَى فِي الْعَالَمِ، فَيَتَنَامَتُ أُخْرَى.

أَمَّا فِي هَذَا الْوَقْتِ، فَسَيَتَحَتَّمُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ تَدْخُلَاتٍ نَاجِحَةً، لَا تَتَفَلَّتُ مِنْ

١- مانويل يرايب Manuel Uribe : Le Livre noir de L'intervention américaine au Chile (باريس: Le Seuil، ١٩٧٤م).

٢- جان بيير فاي Jean Pierre Faye : Le Portugal d'Otelo: La révolution dans le Labyrinthe (باريس: J. - C. Lattès، ١٩٧٦م)، وَيَتَضَمَّنُ تَحْلِيلًا لِتَغْطِيَةِ
 انْقِلَابِ تَشْرِينَ الثَّانِي ١٩٧٥م فِي الْبَرْتِغَالِ.

السَّيطرة. تشيلي، مثلاً. حتَّى إِنَّهُ يَكُونُ مُمْكِنًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الصَّحَافَةِ أَنْ تَنْتَقِدَ التَّدْخِلَاتِ النَّاجِحَةَ - جُمْهُورِيَّةَ الدَّومِينِيكَان، تشيلي، إلخ - مَا دَامَتْ هَذِهِ الْإِنْتِقَادَاتُ لَا تَتَجَاوَزُ «الْحُدُودَ الْمَدْنِيَّةَ»؛ أَيُّ مَا دَامَتْ لَا تُفِيدُ فِي إِثَارَةِ حَرَكَاتٍ شَعْبِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى تَعْوِيقِ هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتِ، وَغَيْرِ مَصْحُوبَةٍ بِأَيِّ تَحْلِيلٍ عَقْلَانِيٍّ لِدَوَافِعِ الْإِمْبِرِيَالِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، شَيْءٌ مَا هُوَ لَعْنَةُ كَامِلَةٌ، لَا تَحْتَمِلُهُ الْإِيدِيُولُوجِيَا الْإِمْبِرِيَالِيَّةُ.

كَيْفَ تُوَاصِلُ الصَّحَافَةُ اللَّيْبَرَالِيَّةُ بِشَأْنِ فَيْتْنَام، ذَلِكَ الْجَانِبَ الَّذِي يُؤَيِّدُ «الْحَمَائِمَ»؟ - بِتَأْكِيدِ «غَبَاءِ» التَّدْخِلِ الْأَمْرِيكِيِّ؛ وَذَلِكَ تَعْبِيرٌ حِيَادِيٌّ سِيَاسِيًّا، إِذْ سَيَكُونُ كَافِيًّا أَنْ نَجِدَ سِيَاسَةً «ذَكِيَّةً».

كَانَتْ الْحَرْبُ إِذْنِ خَطَأً مُبَاغِتًا حُوِّلَتْ فِيهِ النِّيَّاتُ الْخَيْرَةُ إِلَى سِيَاسَاتٍ سَيِّئَةٍ، بِسَبَبِ جَيْلٍ مِنَ الْمُوظَّفِينَ غَيْرِ الْأَكْفِيَاءِ وَالْمُتَعَجَّرِينَ. وَتُشْجَبُ وَخَشْيَةُ الْحَرْبِ أَيْضًا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ أَيْضًا يُسْتَعْمَلُ بِوَصْفِهِ مَقُولَةً حِيَادِيَّةً... بِإِفْتِرَاضِ أَنَّ الْأَهْدَافَ كَانَتْ مُبَرَّرَةً - سَيَكُونُ صَحِيحًا تَمَامًا أَنْ يُفَعَلَ الشَّيْءُ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ إِنْسَانِيَّةٍ.

فَالْحَمَائِمُ «الْمَسْئُولَةُ» كَانَتْ مُعَارِضَةً لِلْحَرْبِ - عَلَى أَسَاسِ عَمَلِيٍّ - وَلَا مَحِيدَ الْآنَ عَنْ إِعَادَةِ بِنَاءِ نِظَامِ الْإِعْتِقَادَاتِ الَّذِي تَكُونُ الْوَلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ بِمُقْتَضَاهُ خَيْرَةً الْإِنْسَانِيَّةِ، الْمُلْتَزِمَةَ تَارِيخِيًّا بِالْحُرِّيَّةِ، وَتَقْرِيرِ الْمَصِيرِ، وَحَقُوقِ الْإِنْسَانِ. وَبِشَأْنِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ، تُشَارِكُ الْحَمَائِمُ «الْمَسْئُولَةُ» الْإِفْتِرَاضَاتِ الْمُقَدَّمَةَ نَفْسَهَا كَالصُّقُورِ: لَا يَتَسَاءَلُونَ عَنْ حَقِّ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فِي التَّدْخِلِ فِي الْبُلْدَانِ الْآخَرِ. وَكَانَ انْتِقَادُهُمْ مُنَاسِبًا كَثِيرًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الدَّوْلَةِ، الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ تَمَامًا لِأَنْ تُتْلَمَ عَلَى أَخْطَائِهَا، مَا دَامَ الْحَقُّ الْأَسَاسِيُّ فِي التَّدْخِلِ الْعَنِيفِ غَيْرَ مَعْرُوضٍ عَلَى مَائِدَةِ الْبَحْثِ.

تَأْمَلِي هَذَا الْمَقَالِ الْإِفْتِتَاحِيَّ فِي التَّايْمَزِ الْيُورِوكِيَّةِ، حَيْثُ يَعْرِضُ تَحْلِيلًا اسْتِعَادِيًّا لِلْحَرْبِ الْفَيْتْنَامِيَّةِ حِينَ آلَتْ إِلَى نِهَائِهَا. وَيَشْعُرُ الْمُحَرَّرُونَ بِأَنَّ الْوَقْتَ

مُبَكَّرٌ جَدًّا وَلَا تَحِينَ استخلاصِ النَّتَائِجِ بِشَأْنِ الْحَرْبِ:

كَلِيوُ، إِلَهَةُ التَّارِيخِ، وَايَةُ وَبَطِيئَةٌ وَمُتَرَدِّدَةٌ فِي طُرُقَاتِهَا... وَفِي وَقْتٍ مُتَأَخَّرٍ، مُتَأَخَّرٍ كَثِيرًا، يَسْتَطِيعُ التَّارِيخُ مُبَاشَرَةَ الْقِيَامِ بِتَحْدِيدِ نِسْبَةِ الْمَزِيحِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْحَمَاقَةِ، مِنَ الْمُثُلِ الْعُلْيَا وَالْأَوْهَامِ فِي مِلْحَمَةِ فَيْتَنَام... هُنَاكَ أُولَئِكَ الْأَمْرِيكِيُّونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ الْحَرْبَ، لِلْحِفَاطِ عَلَى فَيْتَنَامَ جَنُوبِيَّةٍ غَيْرِ شِيعَوِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، يُمْكِنُ أَنْ تُشَنَّ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلَفٍ. وَهُنَاكَ أَمْرِيكِيُّونَ آخَرُونَ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ فَيْتَنَامَ جَنُوبِيَّةٍ غَيْرِ شِيعَوِيَّةٍ قَابِلَةٌ لِلْحَيَاةِ كَانَتْ دَائِمًا أُسْطُورَةً... عَقْدٌ مِنَ الْجَدَلِ الْعَنِيفِ أَخْفَقَ فِي حَلِّ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الْمُتَّصِلَةِ. وَتَرَيْنَ أَنْتِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ إِمْكَانِيَّةً حَتَّى لِمَوْقِفٍ ثَالِثٍ: أَيُّ إِنْ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لَمْ يَكُنْ لَهَا الْحَقُّ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِيُّ وَالْخُلُقِيُّ، فِي أَنْ تَتَدَخَّلَ بِالْقُوَّةِ فِي الشُّؤُنِ الدَّاخِلِيَّةِ لِفَيْتَنَام. وَنَحْنُ نَدْعُ لِلتَّارِيخِ مُهِمَّةَ الْحُكْمِ عَلَى الْمُنَاطَرَةِ بَيْنَ الصُّقُورِ وَالْحَمَائِمِ ذَاتِ الشَّانِ، أَمَّا الْمَوْقِفُ الثَّالِثُ، الْمُقَابِلُ لِلثَّانِيَيْنِ الْآخَرَيْنِ، فَإِنَّهُ مُسْتَبْعَدٌ مِنْ مَائِدَةِ النَّقَاشِ. وَلَا يَمْتَدُّ نِطاقُ عَمَلِ كَلِيوِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْفِكْرِ السَّخِيفَةِ، مِنْ مِثْلِ الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ لَيْسَ لَهَا حَقٌّ فَذَلِكَ لِيَتَدَخَّلَ الْعَنِيفُ فِي الشُّؤُنِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْآخَرِينَ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِثْلُ هَذَا التَّدَخُّلِ نَاجِحًا أَمْ لَا. وَقَدْ نَشَرَتِ التَّايْمِزُ عِدَدًا مِنَ الرِّسَائِلِ الَّتِي جَاءَتْ رَدًّا عَلَى مَقَالَتِهَا الْإِفْتِتَاحِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ رِسَالَةٍ تَتَسَاءَلُ عَنِ الْبَدَائِلِ الْمُقَدَّمَةِ. وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ تَمَامًا مِنْ أَنَّ رِسَالَةَ كَهْزَةِ عَلَى الْأَقْلَ قَدْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ...(*) . وَرَبَّمَا رِسَائِلُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ.

*- مِلَاحَظَةٌ لِلْمُتَرَجِّمِ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ: وَضَعَ نَعُومُ تَشُومَسْكِ بَيْنَ أَيْدِينَا الرِّسَالَةَ الَّتِي أَرْسَلَهَا هُوَ وَالْبَرْفُورُ إِدُوَارْدُ س. هَرْمَانُ إِلَى التَّايْمِزِ النِّيُيُورْكِتِيَّةِ. وَلَكِنَّ رَغْبَةً فِي اغْتِنَامِ فُرْصَةٍ نَشَرَهَا فِي هَذَا التَّارِيخِ الْمَتَأَخَّرِ، لِأَهْمِيَّتِهَا الْجَوْهَرِيَّةِ وَلِإِيضَاحِ الْقِيُودِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْمُنَاقَشَةِ الْعَامَّةِ فِي جَرِيدَتِنَا الرَّئِيسَةِ.

٨ نيسان، ١٩٧٥م

إلى رئيس التحرير

النيويورك تايمز

٢٢٩ غرب الشارع الثالث والأربعون

نيويورك، ن. ي. ١٠٣٦

سيدي العزيز

يَلْحَظُ المقالُ الافتتاحيُّ لِلتَّايْمِزِ، في عددِ الخامسِ مِنْ نيسان، أنَّ «عَقْدًا مِنْ الجدلِ العنيفِ قد أخفقَ في حلِّ هذه المعركةِ المتَّصلةِ» بينَ رأيَيْنِ مُتَحاورَيْنِ، ذلك أنَّ «الحربَ لِلحفاظِ على فيتنامَ جنوبيَّةٍ غيرِ شيوعيَّةٍ ومستقلَّةٍ، يمكنُ أن تُشنَّ على نحوٍ مختلفٍ»، وأنَّ «فيتنامَ جنوبيَّةٍ غيرِ شيوعيَّةٍ قابلةٌ لِلحياةِ كانتَ دائماً أسطورةً». ويوجدُ أيضاً موقفٌ ثالثٌ: ذلك أنَّ الولاياتِ المتَّحدة، بِصرفِ النِّظَرِ عن إمكانيَّاتِ نِجَاحِها، ليسَ لها الحقُّ ولا الكِفايةُ لِلتَّدخُلِ في شُؤونِ فيتنامِ الدَّاخِليَّةِ. وكانَ هذا موقفُ الكثيرينَ في حركةِ السَّلامِ الحقيقيَّةِ، أي أولئك الذين عارضوا الحربَ لِأنَّها كانتَ خطأً، وليسَ لِأنَّها لم تنجَحْ فَحَسَبُ. والمؤسفُ أنَّ هذا الموقفَ ليسَ شريكاً في المناظرةِ، كما تراها التَّايْمِزِ.

وفي صحيفَةٍ مُقابِلَةٍ، يرى (دونالد كرك Donald Kirk) أنَّه «منذُ أن راجَ استعمالُ تعبيرِ «حمامِ الدَّمِ» لِأوَّلِ مرَّةٍ في حربِ الهندِ الصِّينيَّةِ، لا يبدو أنَّ أحدًا استعمله لِلدَّلالةِ على الحربِ نفسِها - بل على النِّتائِجِ المُحتمَلَةِ لِإنهاءِ الحربِ فَحَسَبُ». وهو مخطئٌ تماماً. وأنَّ كثيراً مِنَ الأمريكيِّينَ المُنضويِّينَ تحتَ لواءِ حركةِ السَّلامِ الحقيقيَّةِ، أصرُّوا لِأعوامٍ على النِّقطةِ الأساسِيةِ الأوَّليَّةِ التي يَلْحَظُ هو أنَّه لم يَلْحَظُها «أحدٌ»، وأنَّها شيءٌ مألوفٌ في أدبيَّاتِ الحربِ. ولِنذكرُ مثالا واحداً فَحَسَبُ، فقد كُتِبَنا كُتَيْباً في الموضوعِ هو (عُنْفُ الثَّورةِ المُضادَّةِ: حماماتُ دَمٍ في الواقعِ والدَّعاية Counterrevolutionary Violence: Bloodbaths in Fact and Propagand, 1973).

مع أن الهيئة التي امتلكت الناشر (ورنر برذرز Warner Brothers)، رفضت السماح بالتوزيع بعد النشر. لكنه، بصرف النظر عن هذا تماماً، تكررت هذه الملاحظة مراراً في مناقشة الحرب وأدبياتها. من جانب ذلك الشطر من الرأي نفسه الذي يستبعد المقال الافتتاحي للتأيمز من المناظرة.

المُخْلِصَان

نعوم تشومسكي

بروفسور، MIT

إدوارد س. هرمان

بروفسور، جامعة بنسلفانيا

ن ت / اس هـ:

يُلْحَظُ أَنَّهُ حِينَ تُحَدِّدُ التَّائِمَزُ إِطَارَ الْمُنَازَرَةِ، يُسْتَبَعَدُ مَوْقِفُ الْكَثِيرِينَ فِي حَرَكَةِ السَّلَامِ اسْتِبْعَاداً تَامّاً مِنَ الْبَحْثِ. وَمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ خَاطِئٌ، بَلْ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التَّفَكِيرُ فِيهِ، لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ. حِينَ تُحَدِّدُ التَّائِمَزُ الْقَوَاعِدَ الْأَسَاسِيَّةَ، تُوَضَّعُ فِي الْحُسْبَانِ الْمُقَدِّمَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ لِنِظَامِ الدَّعَايَةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَ الدَّوْلَةُ مِنْ جَانِبِ كُلِّ الْمُشَارِكِينَ فِي الْمُنَازَرَةِ: كَانَ الْهَدَفُ الْأَمْرِيكِيُّ الْحِفَاطَ عَلَى فِتْنَانِمْ جَنُوبِيَّةٍ «مُسْتَقِلَّةٍ» - هُزَاءً كَامِلاً، مِثْلَمَا أَنَّ مِنَ السَّهْلِ إِظْهَارَهُ - وَالسَّؤَالُ الَّذِي يَبْرُزُ هُوَ مَا إِذَا كَانَ هَذَا الْهَدَفُ الْمُهِمُّ ضِمْنَ فَهْمِنَا أَوْ لَا. وَحَتَّى أَنْظِمَةُ الدَّعَايَةِ الْأَكْثَرُ وَقَاحَةً، نَادِراً مَا تَمْضِي بَعِيداً إِلَى حَيْثُ تَعْرِضُ عَقِيدَةَ الدَّوْلَةِ بِوَصْفِهَا مَبْدَأً غَيْرَ قَابِلٍ لِلنَّقَاشِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ انتِقَادَهَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى رَفْضِهِ، بَلْ رَبَّماً إِلَى تَجَاهُلِهِ فَحَسْبُ.

وَلَدَيْنَا هُنَا تَوْضِيحٌ مُدْهَشٌ لِعَمَلِ الدَّعَايَةِ فِي دِيمُقْرَاطِيَّةٍ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّاتِ. تُعْلِنُ الدَّوْلَةُ الْاسْتِبْدَادِيَّةَ بِسَاطَةِ عَنْ الْعَقِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ - بَوْضُوحٍ، جِهَاراً. وَيَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ دَاخَلَ نَفْسِهِ أَنْ يَعْتَقِدَ بِمَا يَشَاءُ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ إِلَّا

بِمُخَاطَرَتِهِ. أَمَّا فِي نِظَامِ الدَّعَايَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُعَاقَبُ أَحَدٌ (نَظَرِيًّا طَبْعًا) لِإِعْتِرَاضِهِ عَلَى الْعَقِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ. وَحَقًّا إِنَّ الْأَنْشِقَاقَ يَشْجَعُ عَلَيْهِ. وَمَا يَحَاوُلُ هَذَا النِّظَامُ فِعْلُهُ، إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَضَعَ حَدُودًا لِلْإِعْتِقَادِ الْمُمْكِنِ: مُؤَيِّدُو الْعَقِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ فِي جَانِبٍ، وَالْمُنْتَقِدُونَ وَالْأَقْوِيَاءُ وَالشَّجْعَانُ، وَكَثِيرُونَ مُعْجَبُونَ بِاسْتِقْلَالِهِمْ فِي الرَّأْيِ، فِي جَانِبٍ آخَرَ - الصَّقُورُ وَالْحَمَائِمُ. لَكِنَّا نَسْتَبِينُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا يَشْتَرِكُونَ فِي بَعْضِ الْإِفْتِرَاضَاتِ الضَّمْنِيَّةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْإِفْتِرَاضَاتِ هِيَ الَّتِي تَكُونُ حَاسِمَةً حَقِيقَةً. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ نِظَامَ الدَّعَايَةِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً حِينَ يُلَمَّحُ إِلَى مُعْتَقَدَاتِهِ تَلْمِيحًا بَدَلًا مِنْ أَنْ يُلْحَقَ عَلَيْهَا، حِينَ يَضَعُ الْقِيُودَ عَلَى الْإِعْتِقَادِ الْمُحْتَمَلِ بَدَلًا مِنْ عَقِيدَةٍ جَلِيلَةٍ وَيُمْكِنُ تَعَرُّفُهَا بِسُرِّ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُرَدِّدَهَا بِبَغَائِيٍّ - أَوْ يُعَانِي عَقَابِيلَهَا. وَكَلَّمَا كَانَتِ الْمُنَظَرَةُ قُوَّةً غَرَسَتِ الْمُعْتَقَدَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ لِنِظَامِ الدَّعَايَةِ، الْمَفْرُوضَةَ ضِمْنِيًّا عَلَى كُلِّ الْجِهَاتِ، بِفَعَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الزَّعْمَ الْمَدْرُوسَ بِأَنَّ الصَّحَافَةَ قُوَّةٌ أَنْشِقَاقِيَّةٌ انتِقَادِيَّةٌ رُبَّمَا يَكُونُ خَطِيرًا جَدًّا عَلَى سَلَامَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، حِينَ تَكُونُ خَاضِعَةً تَمَامًا لِلْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلنِّظَامِ الْإِدْيُولُوجِيِّ: فِي هَذِهِ الْحَالِ، مَبْدَأُ حَقِّ التَّدْخُلِ هُوَ الْحَقُّ الْأَوْحَدُ لِلْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فِي أَنْ تَكُونَ قَاضِيَةَ الْعَالَمِ وَجَلَّادَهُ، وَإِنَّهُ لِنِظَامٍ عَجِيبٍ فِي غَرَسِ الْعَقَائِدِ.

وَمَا يَزَالُ هُنَا مِثَالٌ ثَانٍ مِنَ الطَّرَازِ نَفْسِهِ. تَأَمَّلِي هَذَا الْمَقْبُوسَ مِنْ صَحِيفَةِ الْوَاشِنْغْتُن بَوسْتِ، الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا تُعَدُّ الْمُنتَقَدَ الْأَكْثَرَ صَلَابَةً لِلْحَرْبِ بَيْنَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْقَوْمِيَّةِ. وَهَذَا مِنْ مَقَالٍ افْتِتَاحِيٍّ فِي ٣٠ نَيْسَانِ، ١٩٧٥م، عُنْوَانُهُ Deliverance: لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ السُّلُوكِ الْعَمَلِيِّ فِي سِيَاسَةِ فَيْتْنَامِ خِلَالَ الْأَعْوَامِ خَاطِئًا وَمُضِلًّا - وَحَتَّى مَاسَاوِيًّا - فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُ أَنَّ جِزَاءً مِنْ هَدَفِ تِلْكَ السِّيَاسَةِ كَانَ صَحِيحًا وَيُمْكِنُ الدَّفَاعُ عَنْهُ. وَعَلَى نَحْوِ مُحَدَّدٍ، كَانَ صَحِيحًا أَنْ نَأْمَلَ أَنْ يَكُونَ الشَّعْبُ فِي فَيْتْنَامِ الْجَنُوبِيَّةِ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُقَرَّرَ هُوَ نَفْسُهُ شَكْلَ

الحكومة والنظام الاجتماعي. وأنّ الجمهور الأمريكي مؤهّل، ومُلمزٌ حقاً بأنّ يستكشف كيف قدّر للدوافع الخيرة أن تُحوّل إلى سياسة رَعْناء، لكننا غير قادرين على تحمّل أبعاد ذكرى ذلك الدافع الأول كلّها.

وماذا كانت «الدوافع الخيرة»؟ - متى، بدقّة، حاولت الولايات المتحدة مساعدة الفيتناميين الجنوبيين في اختيار شكل حكومتهم ونظامهم الاجتماعي الخاصين؟ ما إن تُعرض أسئلة من هذا القبيل حتى يغدو العبث واضحاً. فمُنذ اللحظة التي أخفقت فيها المحاولة الفرنسية المدعومة من أمريكا للقضاء على الحركة الوطنية الرئيسة في فيتنام، كانت الولايات المتحدة، بوعي ومعرفة، مُعارضة للقوى السياسية المنظمة في جنوبي فيتنام، وقد لجأت إلى زيادة العنف حين عجزت عن القضاء على هذه القوى السياسية. لكنّ هذه الحقائق، المؤثقة من دون ريب، ينبغي أن تُخفى. وليس في مقدور الصحافة الليبرالية أن تسأل عن العقيدة الأساسية لِدِين الدولة؛ ذلك لأنّ الولايات المتحدة خيرة Benevolent، مع أنّها كثيراً ما تُضلل في براءتها، فهي تجهد في أن تأذن بالاختيار الحرّ، مع أنّه تُرتكب أحياناً بعض الأخطاء في غزارة برامجها للتّوَادِّ الدّولي. وعليّنا أن نعتقد أنّنا نحن «الأمريكيين» خيرون دائماً، مع أنّنا، من دون ريب، عُرضة للخطأ:

لأنّ «الدّرس» الأصلي لفيتنام هو حتماً أنّنا بَوْصَفِنا

شعباً لَسْنَا سَيِّئِينَ جوهرياً، بل إنّنا عُرضة للخطأ - وعلى

نطاقٍ واسع...

لاحظي اللّغة المُنمّقة: «انّنا بَوْصَفِنا شعباً» لَسْنَا سَيِّئِينَ جوهرياً، حتّى إن كُنّا عُرضة للخطأ. فَهَلْ كُنّا نحن «بَوْصَفِنا شعباً» الذين قرّرنا خوض الحرب في فيتنام؟ - أو أنّه كان شيئاً له كبير صلة بِقَادَتِنَا السِّيَاسِيِّينَ والمؤسّسات الاجتماعية

التي يخدمونها؟- طبعيَّ أنْ عَرَضَ سُؤَالِ كهذا غيرُ قانونيَّ، تَبَعًا لِمبادئِ دينِ الدَّولةِ ؛ لِأَنَّ ذلكَ يُثِيرُ مسألةَ المَصَادِرِ الدَّستوريَّةِ لِلسُّلْطَةِ، ولا يُثِيرُ أمثالَ هذه الأَسْئَلَةِ إِلَّا المُتَطَرِّفُونَ اللَّاعقلانيُّونَ الذينَ ينبغي أنْ يُسْتثنَوْا مِنَ المُناظَرَةِ (في مقدورنا أنْ نُثِيرَ مِثْلَ هذه الأَسْئَلَةِ بالنسبةِ إلى مجتمعاتٍ أُخرى طبعًا، أمَّا الولاياتُ المتَّحدةُ فلا).

وليس مِنَ التَّشاؤْمِ أنْ أُوْمِنَ بِفَعَالِيَّةِ مِثْلِ هذه التَّقْنِيَّاتِ في مشروعِيَّةِ التَّدخُّلاتِ الأمريكيَّةِ، بِوَصْفِها أساسًا لِأَعْمَالٍ مُستقبليَّةِ. إذ لا ينبغي أنْ ينسَى المرءُ أنَّه في الوقتِ الذي كانتَ فيه حكومةُ الولاياتِ المتَّحدةِ تُواجهُ هزيمةً في فيتنام، حَقَّقَتْ نَجَاحًا كبيرًا في أندونيسيا، وتشيلي، والبرازيل، وفي بلدانٍ أُخرى كثيرةٍ إِبَّانَ المرحَلَةِ نفسِها. إِنَّ مَوَارِدَ الإِدْيُولُوجيا الإمبرياليَّةِ ضَخْمَةٌ جدًّا. وهي تُجِيزُ - والحقَّ نقولُ، تُشجِّعُ - مجموعةً مِنَ أشكالِ المُعارِضَةِ، كتلك التي أَوْضَحْتُها تَوًّا. وَلَعَلَّه مِنَ المَأْذُونِ به أنْ تُنْتَقَدَ هَفَوَاتُ المُفَكِّرِينَ وهَفَوَاتُ مُستشاري الحكومةِ، وَحَتَّى اتِّهَامُهُمْ بِرَغْبَةٍ صِرْفَةٍ في «السَّيْطَرَةِ»؛ وهذه، ثانيةً، مَقُولَةٌ حياديَّةٌ اجتماعيًّا، غيرُ مرتبطةٍ بالبَتَّةِ بِنِى اجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ ملموسة. أمَّا رَبْطُ تلكِ «الرَّغْبَةِ - الصَّرْفَةِ - بِالسُّلْطَةِ» بِاستعمالِ القُوَّةِ مِنْ جانِبِ حكومةِ الولاياتِ المتَّحدةِ لِإِحتفاظِ بِترتيبٍ مُحدَّدٍ لِلنَّظَامِ العالَميِّ، وتحديدًا لِضَمَانِ أنْ تَظَلَّ دَوْلُ العالَمِ مَفْتُوحَةً قَدْرَ الإمكانِ لِلإستغلالِ مِنْ جانِبِ الشَّرِكاتِ الأمريكيَّةِ - فَذلكَ فَظٌّ جدًّا، ذلكَ يُعَرِّضُ بِطَرِيقَةٍ مُزَعِجَةٍ.

وَعَلَى النِّهَاجِ نفسِه، ينبغي أنْ يَتَجاهَلَ أَعْضاءُ العالَمِ الأكاديميِّ المُحترَمُونَ، التَّوثِيقُ المُهمُّ فيما يَتعلَّقُ بِالمبادئِ التي تُوجَّهُ السَّيَاسَةُ الخارجيَّةُ لِلولاياتِ المتَّحدةِ، واهتمامِها بِإِيجادِ نِظامٍ اقتصاديٍّ عالَميٍّ يَستجِيبُ لِحاجاتِ الاقتصادِ الأمريكيِّ وأَسْياده. وَأُشِيرُ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، إِلَى التَّوثِيقِ الخَطِيرِ الذي انطَوَتْ

عَلَيْهِ وَثَائِقُ الْبَانْتَاغُون، الَّذِي يُعْطِي أَوَاخِرَ الْأَرْبَعِيَّاتِ وَأَوَائِلَ الْخَمْسِيَّاتِ، حِينَ حُدِّدَتِ السِّيَاسَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ بوضوح، أَوِ الْوَثَائِقُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْتَخْطِيطِ الدَّوْلِيِّ لِمَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ الْحَرْبِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا فِي أَوَائِلِ الْأَرْبَعِيَّاتِ مَجْمُوعَاتُ دِرَاسَاتِ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ فِي الْمَجْلِسِ بِشَأْنِ الْعِلَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ، وَنَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ مِثَالَيْنِ مُهِمَّيْنِ فَحَسْبُ. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِتَعْمِيمٍ كَبِيرٍ إِنَّ مَسْأَلَةَ تَأْثِيرِ الشَّرَكَاتِ فِي السِّيَاسَةِ الْخَارِجِيَّةِ، أَوْ تَأْثِيرِ الْعَوَامِلِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي تَكْوِينِ السِّيَاسَةِ، يُحْتَفَظُ بِهَا لِمُجَرِّدِ الذِّكْرِ فِي هَوَامِشِ دِرَاسَاتٍ مُحْتَرَمَةٍ لِتَكْوِينِ السِّيَاسَةِ، وَهِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي قَدْ دُرِسَتْ أحيانًا، وَالتِّي مِنْ السَّهْلِ تَوْثِيقُهَا حِينَ تُدْرَسُ.

م. ر.: أَنْ تَكْشِفَ فَوَائِدَ «حُبِّ الْخَيْرِ لِلْآخَرِينَ» أَمْرٌ لَا يَكَادُ يَتِمُّ إِلَّا بِذَوْقِي خَيْرٍ. وَالْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ يُوجِي إِلَيَّ بِنُقْطَةِ التَّقَاءِ غَرِيبَةٍ، فِي صُورَةٍ اسْتِنْتَاجٍ مُؤَقَّتٍ، يَرْجِعُنَا إِلَى السُّؤَالِ الْأَوَّلِيِّ: مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَ نَظَرِيَّةٍ فِي الْإِدْيُولُوجِيَا وَمَفْهُومَاتِ نَظَرِيَّتِكَ

اللُّغَوِيَّةُ، النَّحْوِ التَّوْلِيدِيّ **Generative grammar** ؟

ن. ت.: الْإِدْيُولُوجِيَا الْإِمْبِرْيَالِيَّةُ، كَمَا تَقُولِينَ أَنْتِ، يُمْكِنُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ أَنْ تُجِيزَ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ، وَالْاِنتِهَاقَاتِ، وَالْاِنتِقَادَاتِ - وَذَلِكَ كُلُّهُ يَبْقَى مَقْبُولًا، مَا خَلَا وَاحِدًا: أَنْ تُكْشِفَ الدَّوَافِعَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ. وَلَدَيْكَ حَالٌ مُمَاثِلَةٌ فِي الشُّعْرِيَّاتِ التَّوْلِيدِيَّةِ. وَأَنَا أَتَأَمَّلُ التَّحْلِيلَ الَّذِي اقْتَرَحَهُ (هَالِي Halle) وَ(كيسر Keyser)^(١) لِبَحْرِ الْخُمَاسِيِّ الْيَامَبِيِّ الْإِنْجِلِيزِيِّ.

١- موريس هالي و س. جي، كيسر، النَّبْرُ الْإِنْجِلِيزِيُّ، شَكْلُهُ وَتَطَوُّرُهُ، وَدَوْرُهُ فِي الشُّعْرِ Stress, Its Form, Its Growth and Its Role in Verse (نيويورك: هاربر و رو، ١٩٧١م)، و«تَشْوِشٌ وَدِرَاسَةُ الْعُرُوضِ Chaucer and the Study of Prosody»، كُولِجِ إِنْجِلِش، الْمَجْلَدُ ٢٨ (١٩٦٦م)، الصَّفَحَاتُ ١٨٧-٢١٩.

فَلِلْبَيْتِ بِنْيَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ تَنَاقُوبِ النَّبَرَاتِ الضَّعِيفَةِ وَالْقَوِيَّةِ ، هَكَذَا :

ض ق ، ض ق ، ض ق ، ض ق ،

(حَيْثُ ض = ضَعِيفٌ وق = قَوِيٌّ)

لكنّه ، إن قرأ المرء ديوان الشعر الإنجليزيَّ وَجَدَ عَدَدًا هائلًا مِنْ نَقَائِضِ
الْوِزْنِ ، مِنْ «الْجَوَازَاتِ» الْخَارِجَةِ عَلَى النَّظَامِ السَّائِدِ ، وَهَذِهِ الْأَشْعَارُ لَيْسَتْ مَقْبُولَةً
فَحَسْبُ ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَكُونُ أَكْثَرَ جَمَالًا . يُحْظَرُ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَحَسْبُ : أَنْ تَجْعَلِي
مَوْعًا ضَعِيفًا فِي الْبَحْرِ الْعَرُوضِيِّ (فِي النَّظَامِ الشَّعْرِيِّ النَّظَرِيِّ) ، يُقَابَلُ صَائِنًا
مَنْبُورًا مُحَاطًا بِصَائِنَيْنِ غَيْرِ مَنْبُورَيْنِ (هَالِي وَكِيسِر : «مَفْهُومُ نَبَرِ الْحَدِّ الْأَعْلَى
«Concept of maximum stress»).

إِنَّ مُلَاحَظَةَ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّصْرِيحَاتِ الْمَحْظُورَةِ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ تَأْذُنُ
بِالتَّفَاوُلِ بِأَنْ تَسْتَطِيعَ نَظَرِيَّةُ الْإِيدِيُولُوجِيَا أَنْ تَكْشِفَ الْقَوَانِينَ الْمَوْضُوعِيَّةَ الَّتِي تُشَكِّلُ
أَسَاسَ الْخِطَابِ السِّيَاسِيِّ ؟ أَمَّا فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَجَازٌ صِرْفٌ .

الفصل الثاني علم اللغة والعلوم الإنسانية

م. ر.: هناك قدرٌ كبيرٌ من التساؤل في هذه الأعوام الأخيرة عن «الدراسات المتداخلة التخصصات»، عن إقامة أوثق العلاقات بين التخصصات المتقاربة. ماذا تعتقد بشأن الطريقة التي قدّمت بها العلاقة بين علم اللغة Linguistics وعلم النفس Psychology؟

ن. ت.: أرى أنه لا ينبغي أن يتحدث المرء عن «علاقة» بين علم اللغة وعلم النفس؛ لأنّ علم اللغة جزءٌ من علم النفس؛ وليس في مقدوري أن أتصوره في أية طريقة أخرى.

ويمكن القول، على الجملة، إنه كثيراً ما يُقام التمييز الآتي: علم اللغة هو دراسة اللغة، وعلم النفس هو دراسة اكتساب اللغة أو استعمالها. وهذا التمييز لا يبدو لي ذا دلالة كبيرة، ليس ثمة تخصصٌ في مقدوره أن يشغل نفسه على نحو مفيد باكتساب شكلٍ من المعرفة أو استعماله، من دون الاهتمام بطبيعة ذلك النظام من المعرفة.

وإن قدر لعلم النفس أن يقصّر ميدانه على دراسة نماذج التعلم أو الإدراك أو الكلام، في الوقت الذي يستبعد فيه من ميدان بحثه النظام نفسه الذي يُكتسب أو يستعمل، فإنّه سيدين نفسه بالعقم. وسيكون ذلك النوع من التقييد لعلم النفس تافهاً تماماً.

وفي هذه التَّقْطِعة، يبدو عِلْمُ اللُّغَةِ، الذي يُفْهَمُ بِوَضْعِهِ دِرَاسَةً لِانْظِمَةِ اللُّغَةِ، سَادًّا الْخَلَلَ الْمَفْهُومِيَّ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا يُفْهَمُ بِهَا عِلْمُ النَّفْسِ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ يَأْذَنُ بِوُجُودِ عِلْمِ نَفْسٍ لُغَوِيٍّ يَهْتَمُّ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ بِالنِّظَامِ الْمُكْتَسَبِ وَالطَّرَائِقِ الَّتِي يُكْتَسَبُ بِهَا وَيُسْتَعْمَلُ. وَيَعِدُّ هَذَا التَّوَجُّهَ بِأَمَالٍ كَبِيرَةٍ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، يَبْدُو أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ الَّذِي لَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ إِلَّا بِالنِّظَامِ الْمُكْتَسَبِ، وَلَيْسَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يُكْتَسَبُ بِهَا أَوْ الطَّرَائِقِ الَّتِي يُوضَعُ فِيهَا مَوْضِعَ الِاسْتِعْمَالِ، يُحَدِّدُ نَفْسَهُ بِحُدُودٍ ضَيِّقَةٍ جَدًّا، وَيُهْمِلُ بَحْثَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَهْمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْدَافِهِ الدَّقِيقَةِ، الَّتِي لَهَا أَهْمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ فِي نَفْسِهَا.

إِنَّ عِلْمَ النَّفْسِ اللَّغَوِيَّ، حِينَ يُفْهَمُ جَيِّدًا، هُوَ تَخَصُّصٌ يَشْمَلُ دِرَاسَةَ النِّظَامِ الْمُكْتَسَبِ (النَّحْوِ)، وَمَنَاهِجِ الْاِكْتِسَابِ (الْمُرْتَبِطَةِ بِالنَّحْوِ الْعَامِّ)، وَنَمَازِجِ الْإِدْرَاكِ وَالْإِنْتِاجِ، وَكَذَا يَدْرُسُ الْأُسُسَ الْمَادِّيَّةَ لِهَذَا كُلِّهِ. وَتُشَكِّلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ كُلًّا مَتَمَّاسِكًا. وَيُمْكِنُ النَّتَاجُ الَّتِي يُحْصَلُ عَلَيْهَا مِنْ دِرَاسَةِ أَحَدِ الْأَقْسَامِ، أَنْ تُسَهِّمَ فِي فَهْمِ الْأَقْسَامِ الْأُخْرَى. خُذِي، مَثَلًا، عَمَلَ (جِري فودر Jerry Fodor) فِي عِلْمِ اللُّغَةِ النَّفْسِيَّ Psycholinguistics ...

م. ر.: إِنْ لَمْ تَخْنِي الذَّاكِرَةُ، كَانَ يُجْرِي التَّجَارِبَ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْ إِدْخَالِ الصُّبُجَاتِ أَوْ «الْقَعَقَعَاتِ» فِي أَمَكْنَةٍ مُحَدَّدَةٍ عَلَى شَرِيطِ مَغْنَطِيسِيٍّ تَكُونُ الْجُمْلُ قَدْ سُجِّلَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْأَلُ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يُجَرَّبُ عَلَيْهِمْ عَنِ الْمَوْضِعِ الدَّقِيقِ فِي الْجُمْلَةِ الَّذِي يَكُونُونَ قَدْ أَدْرَكُوا فِيهِ، أَوْ سَمِعُوا، هَذِهِ «الْقَعَقَعَاتِ».

ن. ت.: نَعَمْ. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ مَبْدِئِيًّا إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ قَدْ يُسَاعِدُ فِي حَلِّ الْمَشْكِلاتِ الْخِلَافِيَّةِ فِي الْبِنْيَةِ اللَّغَوِيَّةِ.

خُذِي قَضِيَّةَ التَّحْوِيلِ النَّحْوِيِّ الْمُسَمَّاةَ «الرَّفْعَ Raising». وَهَذِهِ عَمَلِيَّةٌ

يُسَلِّمُ بِهَا فِي تَرَكَيبِ مِثْلِ: تَوَقَّعَ جُونُ أَنْ يُغَادِرَ بِلَ John expected Bill to Leave. وتأخُذُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ فَاعِلَ الْجُمْلَةِ الْمُنْدَمِجَةِ: يَغَادِرُ بِلَ Bill Leaves و«تَرْفَعُهُ» إِلَى مَوْقِعِ الْمَفْعُولِ بِهِ لِلْفِعْلِ الرَّئِيسِ (حَيْثُ إِنَّ: تَوَقَّعَ جُونُ أَنْ يُغَادِرَ بِلَ John expected that-Bill Leaves تصِيرُ هَكَذَا: تَوَقَّعَ جُونُ لِبِلَ أَنْ يُغَادِرَ John expected-Bill-to Leave). وَدَعَيْنَا نَأْخُذُ جُمْلَةً أُخْرَى، تُشَبِّهُ ظَاهِرِيًّا John expected Bill to Leave، وَهِيَ: أَقْنَعَ جُونُ بِلَ بِأَنْ يُغَادِرَ John persuaded Bill to Leave. وَفِي مُسْتَطَاعِ تَجَارِبِ الْقَعْقَعَةِ هَذِهِ، مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ، أَنْ تُعَرِّفَنَا مَا إِنْ كَانَ لِهَا تَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ الْبَنِيَّةُ نَفْسُهَا. هَبِي أَنْ قَعْقَعَةً إِبَّانَ تَسْجِيلِ الْجُمْلَتَيْنِ تَدْخُلُ فَوْقَ كَلِمَةِ Bill. فَإِذَا مَا أُدْرِكْتَ الْقَعْقَعَةُ قَبْلَ Bill فِي حَالِ expected، وَبَعْدَ Bill فِي حَالِ persuaded، وَإِذَا مَا أُثْبِتَ أَنَّ الْإِنْزِيَاخَ الْإِدْرَاكِيَّ لِلْقَعْقَعَاتِ يَعْتَمِدُ عَلَى الْبَنِيَّةِ التَّرَكِيبِيَّةِ السَّطْحِيَّةِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسْتَطِيعُ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَسْتَنْتِجَ أَنَّ الْبَنِيَّاتِ الَّتِي يُحَسَّبُ حِسَابُهَا هِيَ: (John expected (Bill to Leave)) (*).

و((John (persuaded Bill) (to Leave))) (**).

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ مِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، إِنَّهُ إِنْ أَظْهَرْتَ التَّجَارِبُ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَنَّ الْإِنْزِيَاخَ الْإِدْرَاكِيَّ لِلْقَعْقَعَاتِ هُوَ نَفْسُهُ فِي الْحَالَيْنِ كِلْتَاهُمَا، أَيْ إِنْ أُزِيحَتْ الْقَعْقَعَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فَوْقَ Bill إِدْرَاكِيًّا إِلَى الْيَمِينِ (أَيْ، بَعْدَ Bill)، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ «الرَّفْعَ Raising» قَدْ حَدَثَ، وَأَنَّ فَاعِلَ الْجُمْلَةِ الْمُنْدَمِجَةِ قَدْ صَارَ مَفْعُولًا بِهِ لـ expect.

*- (جُونُ تَوَقَّعَ (أَنْ يُغَادِرَ بِلَ)).

** - (جُونُ (أَقْنَعَ بِلَ) (بِأَنْ يُغَادِرَ)).

وقد يُسهمُ مثُلُ هذه التَّنائجِ في حلِّ مشكلةٍ ما، إن كان «الرَّفْعُ» يَحْدُثُ في هذه البِنَى. ولا رَيْبَ في أَنَّهُ مِنَ السَّابِقِ كَثِيرًا لِأَوَانِهِ أَنْ نَأْمَلَ بِإِجاباتٍ حاسِمَةٍ مِنْ تَجَارِبِ كهذه. لكنَّ مَنْطِقَ الموقعِ واضحٌ تمامًا. وسيكونُ ممكنًا أَنْ نُوضِحَ العلاقاتِ المُهمَّةَ بَيْنَ الإدراكِ وَبِنِيَّةِ الجُمْلَةِ عَلَى نحوِ تجريبيٍّ. والحقُّ أَنَّ أيَّ إنسانٍ مُهْتَمٍّ بِبِنِيَّةِ اللُّغَةِ، سيأْمَلُ بِتَطَوُّرِ مثُلِ هذه التَّقْنِيَّاتِ التَّجْرِبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ سيكونُ بَيْنَ يَدَيِ الإنسانِ عِنْدَئِذٍ أداةٌ لِاخْتِبَارِ نَظَرِيَّاتِ البِنِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ تَجْرِبِيًّا بِدِرَاسَةِ نَمَاجِ الإدراكِ، والعكسُ بِالْعَكْسِ. وإِضافةً إِلَى ذلك، يَمَكُنُ أَنْ نَتَوَقَّعَ أَنَّ أيَّ تَقْدُّمٍ يُحَقِّقُ فِي عِلْمِ نَفْسِ اللُّغَةِ، سيوفُرُ نَمَاجٌ جَلِيَّةٌ لِجَوَانِبِ أُخَرَ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الإدراكيِّ (مِنْ مِثْلِ الإدراكِ المَرْتَبِيِّ، تَكْوِينِ نَظَرِيَّاتٍ عَنِ العَالَمِ الخَارِجِيِّ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مِنْ نَظَرِيَّاتِ الحِسِّ العامِّ أَمْ مِنْ نَظَرِيَّاتِ البَحْثِ العِلْمِيِّ، إلخ)، نَمَاجٌ يَمَكُنُ أَنْ تُدْرَسَ عَلَى نَحْوِ مُفِيدٍ بِطَرِيقَةٍ مُمَاطِلَةٍ: أَيِ بَتحديدِ الخَاصِيَّاتِ الأَسَاسِيَّةِ لِلأنْظِمَةِ الإدراكيَّةِ المُكْتَسَبَةِ، وَبِتَوْظِيفِ عَمَلِيَّاتِ الاكْتِسَابِ لِهذه الأنْظِمَةِ.

وهكذا سَيَدْرُسُ عِلْمُ نَفْسِ الإدراكِ كُلَّ نِظامٍ إدراكيٍّ يَوْصِفُهُ «عُضْوًا عَقْلِيًّا» خَاصًّا يَمْتَلِكُ بِنِيَّتَهُ الخَاصَّةَ، وَيَسْتَقْصِي مِنْ نَمِّ أَشْكَالٍ تَفَاعُلِهَا. وَلِأَنَّ مِثْلَ هذه الأشْكَالِ مِنَ التَّفَاعُلِ مَوْجُودٌ، فَإِنَّا حِينَ نَرى شَيْئًا نَكُونُ، عَلَى الجُمْلَةِ، قَادِرِينَ عَلَى الكَلَامِ عَلَيْهِ، وَمُتَمَلِّكِينَ الْمُصْطَلَحَاتِ المُنَاسِبَةِ الَّتِي يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ مَا فِي تَقْوِيَةِ الإدراكِ البَصْرِيِّ. وَهناكُ إمكانيَّةٌ لِنَوْعٍ مِنَ «التَّرْجَمَةِ» بَيْنَ التَّمثِيلِ البَصْرِيِّ واللُّغَةِ المنطوقة. وَيَتَطَبَّقُ هذا عَلَى أَنْظِمَةٍ أُخَرَ. وَعِلْمُ اللُّغَةِ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ عِلْمِ نَفْسِ الإدراكِ: جُزْءٌ يَسْهُلُ فَضْلُهُ نَسْبِيًّا. اللُّغَةُ نِظامٌ (ولا رَيْبَ فِي أَنَّهُ نِظامٌ ثَرِيٌّ جَدًّا)، لَكِنَّهُ يَسْهُلُ فَضْلُهُ، مِنْ بَيْنِ المَلَكَاتِ العَقْلِيَّةِ.

م. ر.: وَاضِحٌ أَنَّ عِلْمَ النَّفْسِ الَّذِي أَوْجَدْتَهُ، مِنْ خِلَالِ رَدَمِ «الهُوَّةِ» المَفْهُومِيَّةِ الَّتِي تُلازِمُ عُلُومَ السَّلُوكِ بِنَظَرِيَّةِ النُّحُو التَّوَلِيدِيِّ، مُخْتَلَفٌ جَدًّا عَنِ

عِلْمُ النَّفْسِ التَّجْرِبِيِّ الَّذِي قُدِّمَ لَنَا لِأَمَدٍ طَوِيلٍ، سَوَاءً لَدَى (سكندر Skinner) أَوْ (بياجيه Piaget). وقد أُبْعِدْنَا كَثِيرًا عَنْ حَاصِلِ الذِّكَاةِ وَالْإِيمَانِ الْأَعْمَى بِالْاِخْتِبَارَاتِ.

ن. ت.: يَمِيلُ كَثِيرُونَ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ بِلُغَةٍ اخْتِبَارَاتِهِ وَمَنَاهَجِهِ التَّجْرِبِيَّةِ. لَكِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَدَّدَ التَّخَصُّصُ مِنْ خِلَالِ إِجْرَاءَاتِهِ. يَنْبَغِي أَنْ تُحَدَّدَهُ، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، غَايَةُ بَحْثِهِ. وَالْإِجْرَاءَاتُ التَّجْرِبِيَّةُ أَوْ التَّحْلِيلِيَّةُ، يَنْبَغِي أَنْ تُبْتَكَرَ لِلِقَاءِ الضُّوءِ عَلَى هَذِهِ الْغَايَةِ. وَيَمْتَازُ عِلْمُ النَّفْسِ السَّلُوكِيِّ، مَثَلًا، بِتَقْنِيَّاتِهِ التَّجْرِبِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُحَدَّدْ بِدَقَّةٍ غَايَتَهُ مِنَ الْبَحْثِ، فِيمَا أَحْسَبُ. وَهَكَذَا فَإِنَّ لَدَيْهِ أَدَوَاتٍ جَيِّدَةً جَدًّا... لَكِنْ لَيْسَ لَدَيْهِ الْكَثِيرُ الْكَثِيرُ الَّذِي يَدْرُسُهُ بِهَذِهِ الْأَدَوَاتِ.

م. ر.: بهذا التَّقْدِ لِلْسَّلُوكِيَّةِ **Behaviorism**، بَدَأَتْ عَمَلُكَ الْفَلَسْفِي.

وَفِي مَقَالِكَ التَّقْدِي عَنْ سَكْنَرِ، الَّذِي ظَهَرَ فِي مَجَلَّةِ **Language** عَامَ ١٩٥٩م، رَفَضْتَ الْمُبَرَّرَاتِ الْعِلْمِيَّةَ لِلْمَنَاهَجِ التَّجْرِبِيَّةِ، الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ تَقْوِيَةِ اسْتِجَابَةِ الْمُثَبِّهِ وَالْإِشْرَاطِ الْفَعَّالِ **Operant Conditioning** (*)، الْمُسْتَعْمَلَيْنِ فِي دِرَاسَةِ السَّلُوكِ الْحَيَوَانِيِّ. وَنُحَظُّ، مَثَلًا، أَنَّ سَكْنَرِ يَجْعَلُ مِنَ الْمُهْمِّ أَنْ نَسْأَلَ عَدَدًا مِمَّنْ يَخْضَعُونَ لِلتَّجْرِبَةِ: مَاذَا تُثِيرُ لَدَيْهِمْ لَوْحَةٌ زَيْتِيَّةٌ مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْفَلَمَنْكِيَّةِ **Flemish School**؟ أَمَّا الْإِجَابَةُ الْمُنْتَرَعَةُ الَّتِي سَيَحْكُمُ عَلَيْهَا سَكْنَرُ بِأَنَّهَا «جَيِّدَةٌ» فَهِيَ:

«تُثِيرُ عِنْدِي ذِكْرَى هَوْلَنْدَا». وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّكَ قَدْ أَشْرَتْ إِلَى أَنَّهُ فِي مَقْدُورِ الْمَرْءِ أَنْ يُجِيبَ: «أَشْعُرُ بِأَنَّ اللَّوْحَةَ مُعَلَّقَةٌ أَسْفَلَ كَثِيرًا»، أَوْ: «أَرَى أَنَّ اللَّوْحَةَ تَتَعَارَضُ وَوَرَقَ الْجِدْرَانِ الْمُرْهَرَّ». وَكَتَبْتَ تَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ التَّجَارِبَ بَسِيطَةٌ وَفَارِغَةٌ.

*- يَعْنِي الْإِشْرَاطُ عَمَلِيَّةَ رِبْطِ مُثْبِرٍ أَوْ مُثَبِّهِ stimulus باستجابة response لم يَكُنْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ذَلِكَ الْمُثْبِرِ صِلَةٌ فِي الْأَصْلِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ التَّدَاعِي [الْمُتَرْجِمُ عَنِ الْمَوْرِدِ الْأَكْبَرِ لِلْبَعْلَبَكِيِّ].

ن. ت.: عَلَيَّ أَنْ أَضِيفَ أَنَّ انتقاداتٍ مُماثِلَةً تماماً صدرتُ عن (ولفغانغ كوهلر Wolfgang Köhler) وعُلماءِ نَفْسٍ آخَرِينَ مِنْ مَدْرَسَةِ الجَشْتالْت قَبْلَ عِدَّةِ أَعوامٍ، وَإِنْ يَكُنْ بِتَأْثِيرٍ ضئِيلٍ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسَى، كَمَا أَسْلَفْتُ مِنْذُ قَلِيلٍ، أَنَّ كَثِيرًا مِنَ التَّجَارِبِ الَّتِي طُوِّرَتْ تُظْهَرُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْأَنَاقَةِ وَالْبَرَاعَةِ. وَلَا مِرَاءَ فِي أَنَّ الْمَرْءَ يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْحُنْكَةِ التَّجْرِبِيَّةِ لِعِلْمِ النَّفْسِ السُّلُوكِيِّ، لَكِنْ ابْتِغَاءَ اسْتِعْمَالِهِ عَقْلِيًّا. الشَّيْءُ نَفْسُهُ فِي مِيدَانِ الْفِيزِيَاءِ: رُبَّمَا تَكُونُ هُنَاكَ تَقْنِيَّاتٌ تَجْرِبِيَّةٌ أَكْثَرُ بَرَاعَةً مِنْ تِلْكَ الَّتِي ابْتَدَعَهَا الْفِيزِيَاءِيُّونَ لِلِإِجَابَةِ عَنْ مَسَائِلَ مُثِيرَةٍ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ وَثِيقَةٌ الصَّلَةِ بِمَسَائِلَ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ. وَسَيَكُونُ هُورَاءً عِنْدُنَا أَنَّ نُحَدِّدَ الْفِيزِيَاءِ بِعِبَارَاتٍ هَذِهِ التَّقَانَةِ technology فِي التَّجْرِبِ. وَلَيْسَ لِهَذِهِ التَّقَانَةِ قِيَمَةٌ فِي نَفْسِهَا، بَعِيدًا عَنْ صِلَتِهَا الْقَوِيَّةِ الْمُحْتَمَلَةِ بِالمَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ.

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ أَيْضًا، لَيْسَ لِلتَّجَارِبِ «السَّيْكُولُوجِيَّةِ» أَهْمِيَّةٌ، إِلَّا حِينَ يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهَا فِي تَنْمِيَةٍ فَهْمِنَا لِلنَّظَرِيَّاتِ الْمُهِمَّةِ، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُطَوَّرَ فِيهَا يَتَّصِلُ بِهَدَفٍ مُهِمٍّ لِلدَّرْسِ.

م. ر.: هَلْ هُنَاكَ عُلمَاءُ نَفْسٍ كَثِيرُونَ يَعْمَلُونَ فِي الاتِّجَاهِ الَّذِي حَدَدْتَهُ مِنْذُ قَلِيلٍ، مِمَّنْ يَهْتَمُّونَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ بِالنِّظَامِ اللُّغَوِيِّ وَبِمَبَادِيهِ اِكْتِسَابِهِ؟

ن. ت.: نَقَرُّ مَحْدُودٌ فِي هَذَا الْبَلَدِ. فِي فَرَنْسَا عِنْدَكَ (جَاك مَهْلَر Jacques Mehler) فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ. وَهُوَ يَصِيرُ حَقْلًا مُهِمًّا، وَأَمَلُ أَنْ أَبْقَى عَلَى صِلَةٍ وَثِيقَةٍ بِهِ.

م. ر.: وَلَكِنْ، هَلْ يُسْتَفَادُ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ النَّفْسِيِّ التَّجْرِبِيِّ دَائِمًا فِي التَّحْقِيقِ مِنْ فَرِضِيَّاتِ اللُّغَوِيِّينَ فَحَسْبُ، أَمْ هَلْ تَعُدُّهُ أَنْتَ مِيدَانًا لَهُ أَهْدَافُهُ الْخَاصَّةُ؟

ن. ت.: عَلَى غِرَارِ مَا ذَكَرْتُ قَبْلُ، ثَمَّةَ مَبْدِئًا تَفَاعُلَ بَيْنَ دِرَاسَةِ بِنْيَةِ اللُّغَةِ (ذَلِكَ الشَّطْرُ مِنْ عِلْمِ النَّفْسِ الَّذِي يُدْعَى «عِلْمُ اللُّغَةِ Linguistics»)، وَعِلْمِ

اللُّغَةُ النَّفْسِيَّ التَّجْرِبِيَّ Experimental Psycholinguistics، الذي يَهْتَمُّ كثيراً بِنَمَازِجِ الإدراكِ والإنتاجِ. أنا شخصيًّا مُهْتَمٌّ بِإِمْكَانِيَّةِ اخْتِبَارِ الفَرَضِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ. وَإِنَّ بَعْضَ الْمَسَائِلِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُحَلَّ اعْتِمَادًا عَلَى الْمَنَهِجِ الْعَادِيَّةِ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ وَحَدَهَا. خُذِي مَثَلًا: دِرَاسَةَ الْعَمَلِيَّاتِ الْمُزَامِنَةِ، مُحَدَّدَاتِ الذَّاكِرَةِ، التَّفَاعُلَاتِ بَيْنَ الْأَنْظِمَةِ الإدْرَاقِيَّةِ. زِيدِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الدَّرْسَ النَّظَرِيَّ فِي النَّحْوِ، وَأَنْوَاعِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا عُلَمَاءُ اللُّغَةِ، غَيْرُ كَافِيَةٍ حَقًّا لِحَلِّ بَعْضِ الْإِشْكَالِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ. وَيَسْتَطِيعُ عِلْمُ اللُّغَةِ أَنْ يَأْمَلَ بِتَشْخِصِ صِنْفِ الْقَوَاعِدِ الْمُمَكِّنَةِ، أَيْ يُحَدِّدَ الْخَاصِّيَّاتِ التَّجْرِيدِيَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُلَبِّيَ حَاجَاتِ كُلِّ لُغَةٍ. وَمِثْلُ ذَلِكَ أَيْضًا دِرَاسَةُ لُغَةٍ خَاصَّةٍ تَسْتَطِيعُ فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ أَنْ تُحَدِّدَ الْخَاصِّيَّاتِ التَّجْرِيدِيَّةَ لِنَحْوِهَا. وَهِيَ دِرَاسَةُ تُمَائِلٍ نَسْبِيًّا دِرَاسَةَ الْجَبْرِ: إِنَّ كُلَّ جَبْرٍ تَجْرِيدِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يُحَقَّقَ مِنْ خِلَالِ أَنْظِمَةٍ تَحْقِيقِيَّةٍ مُخْتَلَفَةٍ. فَنَظَرِيَّةُ الْمَجْمُوعَاتِ، يُمْكِنُ أَنْ تُحَقَّقَ بِنِظَامِ الْعَدَدِ، أَوْ بِدَوْرَانِ الْأَشْيَاءِ. وَعَلَى نَحْوِ مُمَائِلٍ، يُمْكِنُ الْأَنْظِمَةُ الشَّكْلِيَّةُ عِنْدَ اللُّغَوِيِّينَ أَنْ تُقَابَلَ أَنْظِمَةُ حَقِيقِيَّةً مُخْتَلَفَةً ...

م. ر.: وَمِثْلَمَا هِيَ الْحَالُ فِي عِلْمِ الْعَرُوضِ، عِنْدَ مَوْرِيسِ هَالِي، يُمْكِنُ

التَّمَثِيلُ التَّجْرِيدِيَّ نَفْسَهُ - XXXXXX، مَثَلًا - أَنْ يُقَابَلَ سِتَّةَ أَحْرَفٍ

صَائِتَةٍ لَدَى الشَّاعِرِ، وَسِتَّ زَهْرَاتٍ لَدَى الْبُسْتَانِيِّ، أَوْ سِتَّ خُطُواتٍ

لَدَى الرَّاقِصِ ...

ن. ت.: أَمَّا حِينَ يَكُونُ اللَّغَوِيُّ مُهْتَمًّا بِالطَّبِيعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةِ

- وَهُوَ مَا أَفْتَرَضُهُ أَنَا - فَإِنَّهُ سَيَبْحَثُ عَنْ اكْتِشَافِ النَّظَامِ الَّذِي يُمْكِنُ تَطْبِيقُهُ

حَقِيقَةً. إِنَّ مُعْطِيَّاتِ عِلْمِ اللُّغَةِ لَيْسَتْ ثَرِيَّةً إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَكْفِي لِلْإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ

الْأَسْئَلَةَ السَّاحِرَةَ أَعْدَدَ مِنْ نَقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ. وَمِنْ ثَمَّ، عَلَى اللَّغَوِيِّ أَنْ يَرَجُوَ تَبَصُّرًا أَعْدَدَ

مِنْ دِرَاسَةِ نَمَازِجِ الْعَمَلِ وَالْبِنَى الْعَصَبِيَّةِ.

م. ر.: إِنَّ النَّمُودَجَ اللُّغَوِيَّ، هُوَ نَمُودَجٌ لِمَا يُصْطَلَحُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِـ «الكِفاية Competence». وقد ذَكَرْتُ مِنْذُ قَلِيلٍ نَمَازَجَ الْعَمَلِ أَوْ نَمَازَجِ الْأَدَاءِ. هَذَا التَّقَابُلُ، الْكِفَايَةُ - الْأَدَاءُ، قُرَّرَ بوضوحٍ أَوَّلًا فِي حُدُودِ ١٩٦٤-١٩٦٥ م. وَحَدَّدَتْ أَنْتَ الْكِفَايَةُ اللُّغَوِيَّةَ بِأَنَّهَا تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي يَخْتَزِنُهَا مُتَكَلِّمٌ لُغَةً مَا بِحَيْثُ إِنَّهَا، مَتَى تَعَلَّمَهَا وَامْتَلَكَهَا، تَسْمَحُ لَهُ عَفْوِيًّا بِأَنْ يَفْهَمَ وَأَنْ يُنْتِجَ عَدَدًا غَيْرَ مَحْدُودٍ مِنَ الْجُمَلِ الْجَدِيدَةِ. وَالنَّحْوُ التَّوْلِيدِيُّ **Generative Grammar**، هُوَ النَّظَرِيَّةُ الْوَاضِحَةُ الْمُقْتَرَحَةُ لِتَفْسِيرِ تِلْكَ الْكِفَايَةِ. وَفِي الْأَدَاءِ **Performance** تَتَدَخَّلُ أَجْهَرَةٌ إِدْرَاكِيَّةٌ أُخْرَى، إِضَافَةً إِلَى الْكِفَايَةِ (الذَّاكِرَةُ، إلخ).

وَفِي كِتَابِكَ «اللُّغَةُ وَالْعَقْل **Language and Mind**»، تُشِيرُ إِلَى أَنَّ فُرُوعًا أُخَرَ لِعِلْمِ النَّفْسِ - تُعَالِجُ التَّخِيلَ، وَالذَّاكِرَةَ، وَهَلُمَّ جَرًّا - يَنْبَغِي أَنْ تُحَدَّدَ مَفْهُومًا لِلْكِفَايَةِ مُسَاوِيًّا، فِي سَبِيلِ أَنْ تَصِيرَ عِلْمِيَّةً. وَجَلِيَّ الْآنَ أَنَّ جَمْعَهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ يَعَارِضُونَ تَمَامًا ذَلِكَ الْمَفْهُومَ.

ن. ت.: أَرَى أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ لَدَيْهِمْ تَحْدِيدٌ غَرِيبٌ لِتَخَصُّصِهِمْ. تَحْدِيدٌ مُدْمِرٌ، وَقَاتِلٌ. هَدَفٌ مَيِّتٌ. فَهَمُ يَرِيدُونَ أَنْ يَقْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى دِرَاسَةِ الْأَدَاءِ فَحَسْبُ، السَّلُوكِ، مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْهَرَاءِ، كَمَا أَسْلَفْتُ، أَنْ نَنْشِئَ تَخَصُّصًا يَدْرُسُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يُكْتَسَبُ بِهَا نِظَامٌ أَوْ يُسْتَعْمَلُ، لَكِنَّهُ يَرْفُضُ بَحْثَ طَبِيعَةِ هَذَا النِّظَامِ. وَأَرَى أَنَّهُ ابْتِغَاءً تَأْسِيسَ عِلْمِ نَفْسٍ جَيِّدٍ، عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَحْدِيدِ الْحَقْلِ الْإِدْرَاكِيِّ - التَّخِيلِ، مَثَلًا - أَيْ الْحَقْلِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُدْرَسَ بِوَصْفِهِ نِظَامًا، أَوْ عُضْوًا عَقْلِيًّا مُتَكَامِلًا تَقْرِيبًا. وَمَا إِنْ يُحَدَّدَ ذَلِكَ النِّظَامُ، حَتَّى يَكُونَ فِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ أَنْ يُحَدَّدَ طَبِيعَتُهُ، وَأَنْ يَبْحَثَ النَّظَرِيَّاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِبَنِيَّتِهِ. وَإِلَى الْمَدَى الَّذِي يُمْكِنُ فِيهِ لِمِثْلِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ أَنْ تُصَاغَ، يَكُونُ مُمْكِنًا أَنْ نَسْأَلَ: عَلَى أَيِّ أَاسٍ يُكْتَسَبُ النِّظَامُ، وَمَا الْمُمَازِلَاتُ فِيهِ لِلنَّحْوِ الْعَامِّ، وَمَا مِبَادُئُهُ الْمُفْتَرَضَةُ

حيويًا؟. وَعَلَى نَحْوِ مُمَائِلٍ ، تَقْتَضِي دِرَاسَةُ الْأَدَاءِ فَهْمًا لِطَبِيعَةِ النَّظَامِ الْإِدْرَاكِيِّ
الَّذِي يُعَدُّ لِلتَّطْبِيقِ ، وَحِينَ يَكُونُ لَدِينَا مُسْتَوًى مَا مِنَ الْفَهْمِ النَّظَرِيِّ لِنَظَامٍ إِدْرَاكِيٍّ
مَا ، رُبَّمَا نَأْمَلُ بِأَنْ نَدْرُسَ عَلَى نَحْوِ مُثْمَرِ كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ النَّظَامِ ، وَكَيْفِيَّةِ دُخُولِهِ فِي
تَفَاعُلٍ مَعَ أَنْظِمَةٍ إِدْرَاكِيَّةٍ أُخْرَى . إِنَّ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ هُوَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
نَمُودَجًا لِعِلْمِ النَّفْسِ ، فِيمَا أَحْسَبُ . وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ هَذَا تَبْسِيطٌ مُسْرِفٌ . وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِ
الْمَرْءِ أَنْ يَسُنَّ «أَمَرَ الْاِكْتِشَافِ» . لَكِنَّ هَذَا النَّمُودَجَ يَبْدُو لِي صَحِيحًا فِي جَوْهَرِهِ .

م . ر .: ذَلِكَ هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي ظَلَلْتُ تَنْتَهِجُهُ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ . فَقَدْ عَيَّنْتَ النَّظَامَ:

الْكِفَايَةِ - وَاقْتَرَحْتَ نَظْرِيَّةً ، هِيَ نَظْرِيَّةُ «النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ» . النَّحْوُ الْعَامُّ

Universal grammar ، هُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْفَرْضِيَّاتِ تَتَّصِلُ بِاِكْتِسَابِ

النَّظَامِ ، وَهَلُمَّ جَرًّا . لَكِنَّ مِثْلَ هَذَا لَيْسَ السَّبِيلَ الْعَادِيَّةَ لِعِلْمِ النَّفْسِ .

ن . ت .: لَا ، لِأَنَّهُ حَتَّى وَقْتُ مَتَأَخَّرٍ تَمَامًا ، حَاوَلَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ تَخْطِيَّ

الْمَرَاكِزِ السَّابِقَةِ ؛ وَحِينَ انْطَلَقُوا مَبَاشَرَةً إِلَى الْمَرَاكِزِ الْآخِرَةِ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنْ

الْإِنْجَازِ قَدَرٍ مَا اسْتَطَاعُوا . لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَدْرُسِي اِكْتِسَابَ لُغَةٍ أَوْ

اسْتِعْمَالَهَا عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ مَا عَنْ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي

تُكْتَسَبُ أَوْ تُسْتَعْمَلُ . وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَا تَعْرِفِيهِ عَنْ لُغَةٍ مَا أَنَّهَا تَتَأَلَّفُ مِنْ كَلِمَاتٍ ، أَوْ

إِنْ كَانَ لَدَيْكَ نَظْرِيَّةٌ مِنَ الطَّرَازِ السَّوْسِيرِيِّ تَقُولُ لَكَ : «هَهْنَا سِلْسِلَةٌ مِنَ الْإِشَارَاتِ ،

لِكُلِّ مِنْهَا صَوْتُ وَمَعْنَى» ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ كَثِيرًا نَمَطَ نَمُودَجِ الْعَمَلِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ

تَبْحِثِيهِ . عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْمِلِي نَمَازَجَ أَدَاءٍ تُنتِجُ سَلَاسِلَ مِنَ الْكَلِمِ الْمَرْصُوفَةِ ، مِنْ

دُونِ بَنِيَّةٍ عَالِيَةٍ . لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْمَلِي إِلَّا بِنَمَازَجِ الْاِكْتِسَابِ ، الَّتِي تَكْتَسِبُ نِظَامًا

مِنَ الْمَفْهُومَاتِ وَالْأَصْوَاتِ ، وَبِعِلَاقَاتٍ بَيْنَ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ . وَسَيَكُونُ ذَلِكَ عِلْمَ نَفْسٍ

أَوَّلِيًّا ، يَرَسُمُ حُدُودَهُ تَصَوُّرُ اللُّغَةِ ، الَّذِي كَانَ نَقْطَةَ الْاِنْتِلَاقِ . وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يَظَلُّ

صَحِيحًا ، عَلَى الْجُمْلَةِ .

وكثيراً ما يقول علماء النفس إنهم لا يفترضون مُقدِّماً نموذجاً للكفاية، أي نظرية للغة. غير أن ذلك غير صحيح؛ فليس في مقدورهم فعل شيء من دون أن يكون لديهم تصوّر لطبيعة اللغة، وفي الحد الأدنى يفترض كل عالم نفس مُقدِّماً أن اللغة نظام للكلمات: أي نموذج للكفاية. نموذج سيئ جداً للكفاية، لكنه يظل نموذجاً. وإن هم شأوا أحداث علم نفس أفضل، فإن عليهم أن يختاروا نموذج كفاية أفضل.

لماذا يكره كثير من علماء النفس دراسة نماذج كفاية أغنى وأكثر تجريداً؟- وكذا كثير من اللغويين. إن أردت الحق، يُخيل إليّ أن ذلك راجع إلى أنهم ما يزالون تحت تأثير المذاهب التجريبية التي تُقصر على نماذج كفاية أولية تماماً. وتؤكد هذه المذاهب أن التعلّم كله، بما فيه اكتساب اللغة، يبدأ بتجميع مفردات خاصة ويتنمية التداعيات، وتعميم مواز لحجم مُنبّه ما، وتجريد خاصيات مُحددة من مُركّب الخاصيات. وإذا كانت الحال كذلك، فإن نماذج الكفاية ليست بذات شأن، حيث يمكن تجاهلها.

م. ر.: حين يُنظر إلى نظام الإشارات عند سوسير بهذه الطريقة، ويُتصوّر بوصفه مخزوناً يُودع شيئاً فشيئاً في الذاكرة، يكون مُماثلاً تماماً للنموذج التجريبي الذي لا قيمة له. أتعرف تجارب (غريغوري Gregory) - تُثبت تلك التجارب أن الرؤية تنشأ عن تفاعل بين جهاز خلقي وتجربة.

ن. ت.: غريغوري أحد أولئك الذين يُحاولون إنشاء نموذج كفاية للرؤية. ذلك عملٌ مُثير، وتبدو مُعالجة هذه المسائل طريقة منطقيّة. والظاهر أن القشرة البصرية لدى الثدييات تُحددها نسبياً نهاية من اللاّتحديد. هناك، مثلاً، خلايا في القشرة البصرية مُصمّمة لإدراك خطوط في زاوية مُحددة، وآخر في زاوية أخرى؛

أَمَّا نُمُوُّ هَذِهِ الْمُدْرِكَاتِ، كَثَافَتُهَا خَاصَّةً، أَوْ تَوَجُّيْهُهَا الدَّقِيقُ دَاخِلَ نِطَاقِ مُحَدَّدٍ مُقَدَّمًا مِنَ التَّوَجُّيهِ الْمُحْتَمَلِ، هَذَا كُلُّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْمُحِيطِ الْبَصَرِيِّ، فِيمَا يَبْدُو.

م. ر.: الرُّؤْيَةُ إِذَنْ تَرْكِيْبٌ، مِثْلُ النَّحْوِ؟

ن. ت.: يَبْدُو أَنَّ الْبِنِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْجِهَازِ الْبَصَرِيِّ ثَابِتَةٌ، أَمَّا الْإِدْرَاكُ الْمَفْصَلُ الدَّقِيقُ فَيُظَلُّ مُفْتَوَحًا. إِذْ يُمْكِنُ مِثْلًا افْتِرَاضُ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْنَا إِيجَادُ تَنْسِيقٍ دَقِيقٍ بَيْنَ عَيْنَيْنِ اثْنَتَيْنِ مِنْ جِهَةِ الْمَوْرَثَاتِ. وَيَبْدُو أَنَّ تَجْرِبَةَ الرُّؤْيَةِ لَا بَدْ مِنْهَا لِحَلِّ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ الْهَنْدَسِيَّةِ عَلَى نَحْوٍ دَقِيقٍ، مَعَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ بِالْعَيْنَيْنِ تُحَدِّدُهَا الْمَوْرَثَاتِ.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، إِنَّ عِلْمَ نَفْسٍ جَادًّا سَيَكُونُ مَهْتَمًّا أَوَّلًا بِمِيَادِينَ تَمْتَازُ بِهَا الْكَائِنَاتُ الْبَشَرِيَّةُ، حَيْثُ تَكُونُ قُدْرَاتُهَا فِيهَا اسْتِثْنَائِيَّةً. وَاللُّغَةُ إِحْدَى هَذِهِ الْحَالَاتِ، حَيْثُ يَكُونُ الْمَرْءُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّ يَجِدَ بَنَى غَنِيَّةً لِلدِّرَاسَةِ. وَنَجِدُ فِي مِيدَانِ الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ، مِثْلًا، أَنَّ إِحْدَى الْقُدْرَاتِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ جَدًّا، إِنَّمَا هِيَ تَحْدِيدُ الْوُجُوهِ. كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ، بَعْدَ رُؤْيَةٍ وَجْهِ مِنْ زَاوِيَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَنْ يُمَيِّزَهُ مِنْ زَاوِيَةٍ أُخْرَى؟- يَتَضَمَّنُ ذَلِكَ تَحْوِيلًا هَنْدَسِيًّا جَدِيرًا بِالْمُلَاحَظَةِ. وَلَكِي تُمَيِّزِي بَيْنَ وَجْهَيْنِ! لَنْ يَكُونَ مُهِمَّةً سَهْلَةً أَنْ تُصَمِّمِي أَدَاةً لِتُجَارِيَ الْأَدَاءَ الْإِنْسَانِيَّ فِي هَذِهِ التَّوَاحِي. وَمِنْ الْجَائِزِ أَنَّ نَظْرِيَّةَ إِدْرَاكِ الْوُجْهِ تُمَاقِلُ النَّحْوَ التَّوْلِيدِيَّ. وَمِثْلَمَا يَحْدُثُ فِي اللُّغَةِ تَمَامًا، إِنْ أَنْتِ افْتَرَضْتِ أَنَّ ثَمَّةَ بَنَى أُسَاسِيَّةً وَبَنَى مُتَحَوِّلَةً، أُمْكِنَ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَتَخَيَّلَ الْمَرْءُ نَمُودَجًا يُمْكِنُ أَنْ يُولَّدَ الْوُجُوهُ الْبَشَرِيَّةُ الْمُمْكِنَةُ، وَالتَّحْوِيلَاتِ الَّتِي سَتَبِينُ لَكَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي سَيَبْدُو كُلُّ وَجْهِ مُمَاقِلًا لَهَا مِنَ الزَّوَايَا كُلِّهَا. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ النِّظَرِيَّاتِ الشَّكْلِيَّةَ سَتَكُونُ مُخْتَلَفَةً كَثِيرًا عَنْ نَظَرِيَّاتِ اللُّغَةِ...

م. ر.: ... لِأَنَّا نَنْتَقِلُ مِنْ سِلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ إِلَى كُنْثَلَةٍ.

ن. ت.: هُنَاكَ أَيْضًا كِتَابٌ مُثِيرٌ جَدًّا صَدَرَ حَدِيثًا حَوْلَ جِهَازِ الْإِدْرَاكِ عِنْدَ الْأَطْفَالِ. وَخِلَالَ الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ اسْتَنْبَطَتِ الْمَنَاحِجُ التَّجْرِبِيَّةُ، مِمَّا يَأْذَنُ

لِلْمَرْءِ بِأَنْ يُجْرِيَ عَمَلَهُ عَلَى صَغَارِ الْأَطْفَالِ، حَتَّى الَّذِينَ عَمُرُهُمْ عِدَّةُ أَيَّامٍ، أَوْ عِدَّةُ أَسابيعٍ، وَأَنْ يُحَدِّدَ بَعْضَ الْمَظَاهِرِ لِأَجْهَظَتِهِمُ الْإِدْرَاكِيَّةِ، مِمَّا يَجْرِي بَوْضُوحَ قَبْلَ التَّجَرُّبَةِ الْمُنَاسِبَةِ. وَقَدْ أُعْلِنَ مَثَلًا أَنَّ الْأَطْفَالَ يُمَيِّزُونَ الْفَنَاتِ الصَّوْتِيَّةَ P، وَ T، وَ K، الَّتِي تُشَكِّلُ صَوْتِيًّا سِلْسِلَةً مُتَّصِلَةً Continuum: لَيْسَ هُنَاكَ خَطٌّ فَاصِلٌ بَيْنَ هَذِهِ الْفَنَاتِ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ ضَرُورَةٍ فِيزِيَايَّةٍ لِتَقْسِيمِ السِّلْسِلَةِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْإِدْرَاكُ، فَإِنَّهَا لَا تُشَكِّلُ سِلْسِلَةً مُتَّصِلَةً. وَالْمُنْبَهُ الْخَاصُّ الْمُوَازِي لِهَذَا الْبُعْدِ سَيُدرَكُ بِوَصْفِهِ P أَوْ T أَوْ K. وَيَبْدُو أَنَّ الْأَطْفَالَ يَقُومُونَ بِهَذَا التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْفَنَاتِ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْكَسَ جُزْءًا مِنَ النِّظَامِ الْإِدْرَاكِيِّ الْبَشَرِيِّ لَا يُتَعَلَّمُ، بَلْ هُوَ قُدْرَةٌ فِطْرِيَّةٌ رُبَّمَا تَرْتَبِطُ نَوْعِيًّا بِاللُّغَةِ، مَعَ أَنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْاقَشَ.

وَهُنَاكَ عَمَلٌ آخَرُ حَوْلَ انْعِكَاسَاتِ الْمَفَاجَأَةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا: أَنَّكَ إِنْ قَدَّمْتَ إِلَى طِفْلِ صَغِيرٍ دَائِرَةً صَغِيرَةً تَنْدَاحُ فَتَعْدُو دَائِرَةً كَبِيرَةً، فَسَيَرْتَاغُ الطِّفْلُ. أَمَّا إِنْ قَدَّمْتَ لَهُ دَائِرَةً يَتَضَاعَلُ اتِّسَاعُهَا، فَلَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ اسْتِجَابَةٍ خَوْفٍ. لَمْ تُقَرَّرْ هَذِهِ النَّتَائِجُ رَسْمِيًّا، لَكِنِّي غَيْرُ مُتَّكِدٍ مِنْ أَنَّهَا قَدْ نُشِرَتْ فِيمَا مَضَى أَوْ كَمْ هِيَ ثَابِتَةٌ. وَإِذَا مَا كَانَتْ صَحِيحَةً، فَإِنَّهَا تُوحِي بِوُجُودِ آلِيَّةٍ مَا، فِطْرِيَّةٍ فِي الْحَقِيقَةِ، لِإِدْرَاكِ شَيْءٍ مُقَدَّمٍ، وَلَيْسَ لِهَذَا الْفِعْلِ الْمُنْعَكِسِ الْآنَ أَيُّ عَمَلٍ:

فَالصَّغِيرُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بَعِيدًا فِي آيَةِ صُورَةٍ. وَسَيُرَكَّبُ ذَلِكَ الْفِعْلُ الْمُنْعَكِسُ فِي الْجِهَازِ الْإِدْرَاكِيِّ الْبَشَرِيِّ، وَابْتِغَاءَ إِيجَادِ تَفْسِيرٍ وَظِيفِيٍّ لَهُ، رُبَّمَا يَكُونُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَرْجِعَ مَلَائِينَ السَّنِينَ، لِيُظْفَرَ بِتَفْسِيرٍ تَطَوُّرِيٍّ.

م. ر.: هَلْ يَسْتَطِيعُ الْأَطْفَالُ أَنْ يَرَوْا حِينَ يَكُونُونَ ذَلِكَ الصَّغِيرُ؟

ن. ت.: حَتَّى وَقْتُ تَأَخُّرٍ، لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا إِلَى أَيِّ مَدَى يَسْتَطِيعُ الصَّغَارُ أَنْ يَرَوْا. لَيْسَ فِي يَدِ الْإِنْسَانِ آيَةُ وَسِيلَةٍ لِلتَّحَقُّقِ مِنْ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ ثَمَّةَ إِدْرَاكًا

بَصَرِيًّا مُعَقَّدًا حَقًّا قَبْلَ أَنْ يَسْتَطِيعَ الصَّغِيرُ الْحَرَكَةَ. فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فِي وَقْتِ مُبَكَّرٍ جَدًّا! وَقَدْ يَكُونُ فِي مَقْدُورِ الْمَرْءِ أَيْضًا دِرَاسَةُ الْقُدْرَاتِ اللَّغَوِيَّةِ - وَكَذَا الْعَجْزُ وَالْحُبْسَةُ، وَهَلَمْ جَرًّا - بِطَرَأَتٍ مُمِثِّلَةٍ.

وَهَنَّاكَ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنْ دِرَاسَةٍ مُثِيرَةٍ حَوْلَ فِعْلِ الْأَعْصَابِ فِي اللُّغَةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا إِعْمَالُ الْجَانِبَيْنِ Lateralization أَوْ وَظَائِفُ نِصْفِي كُرَةِ الدِّمَاغِ. وَاللُّغَةُ فِي الْحَالِ الْعَادِيَّةِ وَظِيفَةٌ لِنِصْفِ كُرَةِ الدِّمَاغِ الْأَيْسَرِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَهْدَفُ الْعَمَلُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدِّهِ إِلَى إِضْاحِ الْوُظَائِفِ الْخَاصَّةِ لِنِصْفِي كُرَةِ الدِّمَاغِ. وَقَدْ أَعْلَنَ (بِيفَر Bever) عَنْ دِرَاسَةٍ تَقْتَرِحُ أَنَّ التَّحْلِيلَ الْمَوْسِيقِيَّ يُنْفِذُهُ الْجَانِبُ الْأَيْسَرُ مِنَ الدِّمَاغِ، الَّذِي يَهْتَمُّ بِالْعَمَلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ، فِي حِينٍ أَنَّ الْجَانِبَ الْأَيْمَنَ يَلْتَزِمُ نَوْعًا مِنَ التَّقْدِيرِ الْحِسِّيِّ. وَسَيَكُونُ ذَلِكَ مُثِيرًا إِنْ قِيَّضَ لَهُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا. مَعَ أَنَّ ظَاهِرَةَ lateralization لَا تَحْدُثُ بَيْنَ الْبَشَرِ وَحَدَهُمْ، هِيَ عِنْدَ الْبَشَرِ مُوسَّعَةٌ جَدًّا.

هَذِهِ الْخَطُوطُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الْبَحْثِ يَدْعُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَفِي الْأَعْوَامِ الْمُقْبِلَةِ رُبَّمَا تُشَكَّلُ أَحَدُ أَقْسَامِ الْعِلْمِ الْأَكْثَرِ إِثَارَةً.

م. ر.: لَا تَذَكَّرُ عِلْمَ الْاجْتِمَاعِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيَّ يَبْدُو مَقْبُولًا عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ. وَيَنْشُدُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الدَّرْسِ النَّظَرَ إِلَى حَقَائِقِ اللُّغَةِ بِوَصْفِهَا حَقَائِقَ تُنتِجُهَا الْفَنَاءُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ. وَاتَذَكَّرْ هُنَا خَاصَّةً دِرَاسَةَ (لَابُوف Labov)^(١) عَنْ إِنْجِلِيزِيَّةِ الْغَيْتِ ghetto^(*)

١- وَلِيْمُ لَابُوف، اللُّغَةُ فِي قَلْبِ الْمَدِينَةِ Language in the Inner City - دِرَاسَاتُ فِي الْعَامِيَّةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ عِنْدَ السُّود (فِيلَادَلْفِيَا: مَطْبَعَةُ جَامِعَةِ بِنْسَلْفَانِيَا، ١٩٧٢م)؛ وَكَذَا «دِرَاسَةٌ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ غَيْرِ الْقِيَاسِيَّةِ (أَرَبَانَا، إِلِينُوي: مَطْبَعَةُ جَامِعَةِ إِلِينُوي، ١٩٧٥م).

*- حَيٌّ فِي مَدِينَةٍ مَعزُولٍ عَنْ سَائِرِ أَحْيَائِهَا، يَقِيمُ فِيهِ أَفْرَادٌ لِاحْدَى الْأَقْلِيَّاتِ [الْمُتَرَجِمُ].

غيرِ الفَصِيحةِ . وأرى أَنَّ ذلكَ عِلْمٌ لُغَةٌ أَيْضًا .

ن . ت .: إِنَّ دِرَاسَةَ لَهْجَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَقَعُ لَا مُحَالَةً فِي صَمِيمِ عِلْمِ اللُّغَةِ .
لَكِنِّي لَا أَرَى وَجْهًا تَخْتَلِفُ فِيهِ دِرَاسَةُ لَهْجَاتِ الْغَيْتِ عَنْ دِرَاسَةِ لَهْجَاتِ
الْمُتَحَدِّثِينَ الْمُدَرِّبِينَ فِي الْجَامِعَةِ ، مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ لُغَوِيَّةٍ صِرْفَةٍ . وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ
الشَّيْءُ نَفْسُهُ عَلَى الْمَسْتَوَى النَّظَرِيِّ . وَالْحَقُّ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَزْعُمُ أحيانًا وَجُودَ بَعْضِ
النَّظَرِيَّاتِ بِشَأْنِ دِرَاسَةِ اللُّغَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ . وَرَبَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، لَكِنِّي لَمْ أَرِ
حَتَّى الْآنَ مِثْلَ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ ، أَوْ أَيِّ وَصْفٍ خَاصٍّ لِلْمَبَادِئِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا . وَمَا
أَعِدَّ حَوْلَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ مُقْتَرَحَاتٍ نَظَرِيَّةٍ نَزَرْتُ يَسِيرًا ، فِيمَا أَعْلَمُ .

صَحِيحٌ حَقًّا أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ شَخْصٍ يَتَكَلَّمُ لُغَةً مُحَدَّدَةً جَيِّدًا . وَأَنَّ فِكْرَةَ اللُّغَةِ
نَفْسِهَا عَلَى مَسْتَوًى عَالٍ جَدًّا مِنَ التَّجْرِيدِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَسْتَعْمِلُ عِدَدًا
مِنَ الْأَنْظِمَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي التَّكَلُّمِ . كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَصِفَ مَزِيَجًا كَهَذَا؟ - وَقَدْ
تَقَدَّمَ لِلُّغَوِيَّونَ عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَعَلَى نَحْوٍ مُنَاسِبٍ تَمَامًا ، فِي لُغَةِ اعْتِمَادِ الْمِثَالِ أَوْ
الْأَمْثَلَةِ Idealization: يَقُولُونَ دَعْنَا نَتَّبِعَ فِكْرَةَ الْجَمَاعَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُتَجَانِسَةِ .
وَحَتَّى إِنْ هُمْ لَمْ يَعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ . فاعْتِمَادُ لُغَةٍ مِثَالِيَّةٍ هُوَ الْأَدَاةُ
الْوَحِيدَةُ لِلتَّقَدُّمِ فِي الْمِيدَانِ الْعَقْلِيِّ ، فِيمَا يَبْدُو لِي . فَأَنْتِ تَدْرُسِينَ أَنْظِمَةً مِثَالِيَّةً ،
وَتَسْتَطِيعِينَ بَعْدَئِذٍ أَنْ تَسْأَلِي نَفْسَكَ: فِي أَيَّةِ طَرِيقَةٍ تُمَثِّلُ هَذِهِ الْأَنْظِمَةُ الْمِثَالِيَّةُ
وَتَتَفَاعَلُ فِي الْأَشْخَاصِ الْحَقِيقِيِّينَ؟ . وَقَدْ يَصِلُ عِلْمُ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيِّ إِلَى نَوْعٍ مِنَ
الْمَبْدَأِ فِيمَا يَتَّصِلُ بِتَنَوُّعِ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ ، مَعَ أَنَّي لَا أَعْرِفُ نَتَائِجَ لِهَذَا النَّوْعِ . وَقَدْ
افْتَرَحَ أَنَّ النِّظَامَ اللُّغَوِيَّ لِشَخْصٍ ، لَا يَكْمُنُ فِي تَفَاعُلِ الْأَنْظِمَةِ الْمِثَالِيَّةِ ، بَلْ فِي
نِظَامٍ مُفْرَدٍ لَهُ هَامِشٌ مِنَ التَّنَوُّعِ . وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُثِيرٍ عِنْدَكَ . وَأَنَا
مُؤَافِقٌ عَلَى مَا تَقُولِينَ: ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ عِلْمٍ لِلُّغَةِ يَقْتَرِبُ بِعَمَلِيَّةٍ «أَمْثَلَةٍ
Idealization» عِلْمِ اللُّغَةِ الْعَادِيَّةِ خُطْوَةً إِضَافِيَّةً نَحْوَ تَعْقِيدِ الْوَاقِعِ ، حَقًّا .

م. ر.: أَحَسَبُ أَنَّهُ مُهَمٌّ جَدًّا بِالنَّسْبَةِ إِلَى (لابوف Labov) أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ لُغَةَ
الْغَيْتِ لَهَا نَحْوُهَا الْخَاصُّ بِهَا، وَهُوَ نَحْوُ لَا يُحَدِّدُ بِوَصْفِهِ مَجْمُوعَةً مِنْ
الْأَخْطَاءِ أَوْ الْمُخَالَفَاتِ لِلْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْفَصِيحَةِ.

ن. ت.: ... وَلَكِنْ، مَنْ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَشْكَّ فِي ذَلِكَ؟ - لَيْسَ ثَمَّةَ لُغَوِيٍّ
قَادِرٍ فِي آيَةٍ حَالٍ عَلَى أَنْ يَشْكَّ فِي ذَلِكَ.

م. ر.: حَقًّا، لِأَنَّ اللُّغَوِيِّينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا مَبْدَأُ لُغَوِيٍّ. أَمَّا (لابوف Labov)
فِيُخَاطَبُ أَسَاسًا الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُدَرِّسِينَ الَّذِينَ لَا يُدْرِكُونَ، عَلَى الْجُمْلَةِ،
مَشْرُوعِيَّةَ اللُّغَةِ الْمَنْطُوقَةِ، وَكَذَا مَنْ فِي أَيْدِيهِمُ الْمُهْمَّةُ الْإِدْيُولُوجِيَّةُ فِي
عَرَسِ الشُّعُورِ لَدَى أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ اللَّهْجَةَ الْفُصْحَى.

ن. ت.: هُوَ يَفْعَلُ شَيْئًا مُفِيدًا جَدًّا عَلَى مَسْتَوَى الْمُمَارَسَةِ الثَّقَافِيَّةِ، فِي
مُحَاوَلَةِ مُقَاوَمَةِ إِجْحَافَاتِ الْمَجْتَمَعِ، عَلَى الْجُمْلَةِ - وَذَلِكَ عَمَلٌ مُمْتَاز. أَمَّا عَلَى
الْمَسْتَوَى اللُّغَوِيِّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بَيِّنَةٌ وَعَادِيَّةٌ. وَإِنْسَانُ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ يَتَكَلَّمُ
لُغَةً شَبِيهَةً بِلُغَتِنَا، بِحَسَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عَلُمُنَا حَتَّى الْآنَ. وَجَلِيٌّ أَنَّ لُغَةَ الْغَيْتَاتِ
ghettos لَهَا نِظَامٌ لُغَةٍ الضَّوَاحِي نَفْسُهُ. وَأَنَّ دِرَاسَةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ السُّودَاءِ، مِنْ
وَجْهَةِ نَظَرٍ لُغَوِيَّةٍ، عَلَى نَفْسِ مُسْتَوَى دِرَاسَةِ اللُّغَةِ الْكُورِيَّةِ أَوْ دِرَاسَةِ اللُّغَاتِ الْهِنْدِيَّةِ
الْأَمْرِيكِيَّةِ، أَوْ دِرَاسَةِ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ إِنْجِلِيزِيَّةِ كِيمْبَرْدِجِ إِنْجِلْتَرَا، وَكِيمْبَرْدِجِ
ماسوشوسِتس. وَذَلِكَ عَمَلٌ نَافِعٌ جَدًّا. أَمَّا مَا يُزْعَجُنِي، فَهُوَ الْإِدْعَاءُ النَّظَرِيَّةُ.
عِنْدَنَا هُنَا عِلْمُ لُغَةٍ وَصَفِيٍّ جَيِّدٌ، لَكِنَّهُ لَا يَتَبَنَّى الْحُنْكَةَ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ لِتَثْبِيتِ النَّتِيجَةِ
الْمُهْمَّةِ اجْتِمَاعِيًّا. وَيُوصَلُّ إِلَى الْهَدَفِ الْإِدْيُولُوجِيِّ نَفْسِهِ مِنْ خِلَالِ عَمَلِ (تِيودور
روزِنجَارْتِن Theodore Rosengarten) فِي كِتَابِهِ All God's Dangers،
الَّذِي هُوَ سِيرَةُ ذَاتِيَّةٍ لـ (نَيْت شو Nate Shaw). نَقَلَ رُوزِنجَارْتِن قِصَّةَ زَنْجِيٍّ
طَاعِنٍ فِي السَّنِّ، كَانَ أُمِّيًّا وَقَدْ أُوتِيَ تَذَكُّرًا مُدْهِشًا لِحَيَاتِهِ كُلِّهَا. وَكَانَ قَاصًّا مَفْطُورًا

عَلَى الْقَصِّ، أَمَّا حَيَاتُهُ الْحَافِلَةُ بِالصَّرَاعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ خَلَابَةً. وَكَثِيرًا مَا يَقُولُ رُوزَنْجَارْتَن، وَهُوَ يَنْقُلُ الْقِصَّةَ الْمُحْكِيَّةَ لِهَذَا الشَّيْخِ، الشَّيْءَ نَفْسَهُ الَّذِي تَنْسِبِيْنَهُ إِلَى لَابُوف: هَذَا الْإِنْسَانُ هُوَ أَيْضًا كَائِنٌ بَشَرِيٌّ، كَائِنٌ بَشَرِيٌّ كَانَ حَقًّا غَيْرَ عَادِيٍّ الْبَتَّةَ.

وَقَدْ يَنْشَأُ بَعْضُ اللَّبْسِ عَنْ أَحَدِ تَصْرِيحَاتِي، الَّتِي كَانَتْ قَدْ أَثَارَتْ جَدَلًا أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ قَدْ تَوَقَّعْتُ: تَكَلَّمْتُ عَلَى ضَرُورَةِ التَّفَكُّيرِ بِجَمَاعَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُتَجَانِسَةٍ...

م. ر.: ... بِوَضْفِهِ أَمَثَلَةٌ لَا مَحِيدَ عَنْهَا فِي الْعَمَلِ الْعِلْمِيِّ. وَهِيَ أَمَثَلَةٌ لَا تَعْنِي، كَمَا كَتَبْتَ تَقُولُ، أَنَّ الْوَاقِعَ مُتَجَانِسٌ، لَكِنَّ أَمَثَلَةً كَهَذِهِ ضَرُورِيَّةٌ، وَالْحَقُّ، أَلَيْتَ حَتَّى حِينَ يَدْرُسُ الْمَرْءُ لُغَةَ الْغِيَتَاتِ.

ن. ت.: هَذَا طَبِيعِيٌّ. وَلِللَّهْجَاتِ جَمِيعًا. وَأَرَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْعَقْلَانِيَّةُ لِمُعَالَجَةِ دِرَاسَةِ التَّغْيِيرَاتِ اللَّهْجِيَّةِ: مَا نَزَالَ نَتَكَلَّمُ دَائِمًا عَلَى أَنْظِمَةٍ اعْتُمِدَتْ فِيهَا الْأَمَثَلَةُ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ فَحَسْبُ تَتَمَتَّعُ بِخَاصِّيَّاتٍ مُثِيرَةٍ. أَمَّا تَجْمِيعَاتُ الْأَنْظِمَةِ فَقَلَّمَا كَانَ لَهَا خَاصِّيَّاتٌ مُثِيرَةٌ. دَعِينَا نَأْخُذُ مِثَالًا: مَعَ أَنَّ صَدِيقِي مُورِيسَ هَالِي كَانَ طِفْلًا صَغِيرًا، تَكَلَّمَ خَمْسَ لُغَاتٍ. وَحِينَ تُوْخَذُ هَذِهِ اللُّغَاتُ الْخَمْسُ مَعًا لَا تَكُونُ لَهَا خَاصِّيَّاتٌ مُثِيرَةٌ. أَمَّا فُرَادَى، فَإِنَّ لَهَا مِثْلَ هَذِهِ الْخَاصِّيَّاتِ. وَعَلَى هَذَا التَّحْوِ، إِذَا مَا تَكَلَّمَ إِنْسَانٌ مَجْمُوعَةً مِنَ اللَّهْجَاتِ فَسَتَكْتَشِفِينَ لَبْسًا كَبِيرًا فَحَسْبُ إِنْ لَمْ تَفْصِلِي بَيْنَ الْعُنَاصِرِ الَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ.

م. ر.: يَبْدُو لِي مُهِمًّا، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ نَوَاجِةَ عَمَلِ لَابُوفِ التَّقَدِّمِيِّ بِمَوْقِفٍ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ النَّفْسِيِّ لِشَخْصٍ مِنْ قَبِيلِ (بِيرْنشتاين Bernstein)^(١)، الَّذِي يَدْعُمُ وَيَسُوِّغُ التَّمْيِيزَ الْاجْتِمَاعِيَّ.

١ - انظر باسيل بيرنشتاين، Langages et classes sociales (باريس: إديشن دي مينويت، ١٩٧٥م).

ن. ت.: رُبَّمَا يَكُونُ عَمَلُ بِيرِنْشْتَاينَ رَجْعِيًّا حَقًّا فِي مَضْمُونَاتِهِ، وَرُبَّمَا لَا يَكَادُ يَسْتَحِقُّ الْمُنَاقَشَةَ بِوَصْفِهِ نَمُودَجًا لِلدِّرَاسَةِ الْعَقْلَانِيَّةِ لِلُّغَةِ. وَقَدْ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ ضَرُورِيًّا أَنْ نَقُولَ إِنَّ اللُّغَةَ الْمَحْكِيَّةَ فِي غَيْتِ مَدِينَةٍ مِنَ الْمُدُنِ هِيَ لُغَةٌ حَقِيقِيَّةٌ. لَكِنَّهُ رُبَّمَا لَا تَكُونُ تِلْكَ هِيَ الْحَالُ. وَيَبْدُو أَنَّ بَعْضَ الْمُرَبِّينَ، وَالْأَشْخَاصِ الْآخَرِينَ، يَنْظُرُونَ بِجِدِّيَّةٍ إِلَى فَرْضِيَّةِ التَّحْدِيَّاتِ الصَّارِمَةِ لِلْكَفَايَةِ بَيْنَ أَطْفَالِ «الطَّبَقَاتِ الدُّنْيَا». أَمَّا وَجُودُ تَخْصُّصٍ يُدْعَى «عِلْمُ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيِّ»، فَيُظَلُّ أَمْرًا غَامِضًا عِنْدِي.

م. ر.: وَعَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ تَعْمِيمًا، مَاذَا يَعْنِي لَدَيْكَ عِلْمُ الْاجْتِمَاعِ الْيَوْمَ؟
 ن. ت.: أَكْرَرُ الْقَوْلَ إِنَّ أَيَّ تَخْصُّصٍ دِرَاسِيٍّ يُحَدَّدُ بِلُغَةٍ هَدَفُهُ وَنَتَائِجُهُ. وَعِلْمُ الْاجْتِمَاعِ هُوَ دِرَاسَةُ الْمَجْتَمَعِ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَتَائِجِهِ، فَيَبْدُو أَنَّ ثَمَّةَ أَشْيَاءَ قَلِيلَةً فِي مَقْدُورِ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَهَا بِشَأْنِ ذَلِكَ، وَعَلَى الْأَقْلَ عَلَى مَسْتَوَى عَامٍّ تَمَامًا. يَجِدُ الْمَرْءُ مُلَاحَظَاتٍ، وَحُدُوسًا، وَانْطِبَاعَاتٍ، وَرُبَّمَا بَعْضَ التَّعْمِيمَاتِ الْمَشْرُوعَةِ. وَكُلُّهَا قِيَمَةٌ جَدًّا، مِنْ دُونِ رَيْبٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى مَسْتَوَى الْمَبَادِئِ التَّحْلِيلِيَّةِ. وَلَدَى النَّقْدِ الْأَدْبِيِّ أَيْضًا أَشْيَاءٌ يَقُولُهَا، لَكِنَّهُ لَا يَمْتَلِكُ الْمَبَادِئَ التَّحْلِيلِيَّةَ. وَطَبِيعِيٌّ أَنَّهُ مِنْذُ عَهْدِ الْإِغْرِيقِ الْقَدَمَاءِ، كَانَ النَّاسُ يَحَاوِلُونَ إِيجَادَ الْأُسُسِ الْعَامَّةِ الَّتِي يُقِيمُونَ فَوْقَهَا صَرَحَ النَّقْدِ الْأَدْبِيِّ، لَكِنِّي، مَعَ بُعْدِي عَنِ الْأَهْلِيَّةِ فِي هَذَا الْمِيدَانِ، أَعِيشُ تَحْتَ وَطْأَةِ انْطِبَاعٍ أَنَّهُ لَا أَحَدَ نَجَحَ حَتَّى الْآنَ فِي تَثْبِيتِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ. وَهُمْ كَثِيرُونَ جَدًّا مِثْلَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْآخَرَى. وَلَيْسَ ذَلِكَ انْتِقَاصًا، إِنَّهُ تَمَيِّزٌ، يَبْدُو لِي صَحِيحًا. وَأَفْتَرِضُ أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيِّ Sociolinguistics فَرَعٌ دِرَاسِيٌّ يُحَاوَلُ تَطْبِيقَ مَبَادِئِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ فِي الدَّرْسِ اللِّغَوِيِّ؛ لَكِنِّي أَشْكُ فِي أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفِيدَ شَيْئًا ضئيلاً مِنْ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ، وَأَسْتَغْرِبُ تَرْجِيحَ أَنْ يُضِيفَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ إِلَيْهِ.

م. ر.: عَلَى الْجُمْلَةِ، يَرِبُطُ الْمَرْءُ فِتَّةً اجْتِمَاعِيَّةً بِمَنْظُومَةٍ مِنَ الْأَشْكَالِ اللَّغَوِيَّةِ فِي طَرِيقَةِ فَذَّةٍ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ **bi-unique** تَقْرِيبًا.

ن. ت.: وَتَسْتَطِيعِينَ أَيْضًا أَنْ تَجْمَعِي فَرَاشَاتٍ وَتُجْرِي عِدَّةَ مُلَاحَظَاتٍ. وَإِذَا مَا كُنْتَ تُحَبِّينَ الْفَرَاشَ فَهَذَا أَحْسَنُ؛ لَكِنَّ عَمَلًا كَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّخَذَ لَبُوسَ الْبَحْثِ، الَّذِي يَهْتَمُّ بِاكتشافِ مَبَادِئِ تَفْسِيرِيَّةٍ لَهَا بَعْضُ الْعُمَمِ، وَهُوَ يُخَفِّقُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ كَذَلِكَ.

م. ر.: يَهْتَمُّ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْاجْتِمَاعِ عِلْمَ اللُّغَةِ بِالْمُشَارَكَةِ فِي إِجَازَةِ اللُّغَةِ السَّائِدَةِ، خَاصَّةً بِسَبَبِ مَفْهُومِ «الْكِفَايَةِ»، الَّذِي كَثِيرًا مَا يَلْتَبَسُ بِالْمَهَارَةِ فِي مُعَالَجَةِ اللُّغَةِ. لَكِنَّهُمْ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، يَنَالُونَ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ لِاعْتِمَادِهِ الْأُمَثَلَةَ، الْأَمْرُ الَّذِي يَنَاقِشُ بِهِ عَنِ الْوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

ن. ت.: الْاعْتِرَاضُ عَلَى الْأُمَثَلَةِ اعْتِرَاضٌ عَلَى الْعَقْلَانِيَّةِ حَقًّا؛ وَلَيْسَ هُوَ إِلَّا الْإِصْرَارُ عَلَى الْأَلَّا يَكُونُ لَدَيْنَا عَمَلٌ عَقْلِيٌّ مُهِمٌّ. وَإِنَّ الظَّاهِرَاتِ الَّتِي تُعَقَّدُ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلِيقَةً بِالْدَّرْسِ تَسْتَلْزِمُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، تَفَاعُلَ أَنْظُمَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَمِنْ هُنَا، عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَخْلَصِي هَدَفًا مَا لِلدَّرَاسَةِ، عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَبْعِدِي تِلْكَ الْعَوَامِلَ الضَّعِيفَةَ الصَّلَةَ بِالْمَوْضُوعِ. عَلَى الْأَقْلَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُجْرِي بَحْثًا ذَا شَأْنٍ. وَفِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، لَا يُنَاقَشُ هَذَا الْبَتَّةَ؛ فَهُوَ أَمْرٌ جَلِيٌّ فِي ذَاتِهِ. أَمَّا فِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَيُظَلُّ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُ. وَذَلِكَ يُؤَسِّفُ لَهُ. وَإِنَّكَ حِينَ تَعْمَلِينَ فِي إِطَارٍ مِنَ الْمِثَالِيَّةِ رُبَّمَا تُهْمِلِينَ شَيْئًا مُهِمًّا جَدًّا. ذَلِكَ اِحْتِمَالٌ لِلتَّحْقُقِ الْعَقْلَانِيِّ كَانَ يُفْهَمُ دَائِمًا. وَلَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَضِيقَ بِهِ كَثِيرًا. عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُوَاجِهَ هَذِهِ الْمَشْكَالَةَ وَيُحَاوِلَ مُعَالَجَتَهَا، وَأَنْ يُكَيِّفَ نَفْسَهُ وَفَقًّا لَهَا. وَلَا مَحِيدَ عَنْ ذَلِكَ الْبَتَّةَ.

لَيْسَ هُنَاكَ مَعَايِيرُ وَاضِحَةٌ تَقُومُ الْأُمَثَلَةُ الصَّحِيحَةُ، خَلَا مِغْيَارِ الْحُصُولِ عَلَى نَتَائِجٍ مُهِمَّةٍ. فَإِنْ حَصَلَتْ عَلَى نَتَائِجٍ جَيِّدَةٍ، فَلَدَيْكَ عِنْدَئِذٍ مُبَرَّرٌ لِلْاعْتِقَادِ بِأَنَّكَ غَيْرُ

بعيدة عن أمثلة جيدة. إن أنت ظفرت بنتائج جيدة بتغيير وجهة نظرك، فإنك تكونين عندئذ قد حسنت أمثلتك. هناك تفاعل دائم بين تحديد ميدان البحث واكتشاف المبادئ المهمة - أما رفض الأمثلة فعمل صبياني. وإنه مُستغرب جداً أن تسمعي مثل هذا الانتقاص من جانب اليسار. إذ يُقدّم الاقتصاد السياسي الماركسي مثلاً رائعاً ومألوفاً، بمثاليته وتجرباته البعيدة المدى.

م. ر.: ألا يحاول علماء الاجتماع التزام المناهج التي يستعملونها في الوقت الزاكن، استباراتهم، إحصائياتهم، وغير ذلك، مما يحتل مكان الممارسة العلمية؟

ن. ت.: نقول مرة أخرى، إن هذا النموذج من التناول بما هو كذلك ليس جيداً ولا سيئاً. ونعود إلى الاختلاف بين التاريخ الطبيعي والعلم الطبيعي. في التاريخ الطبيعي، كل ما تقومين به حسن. فإن شئت أن تجمعي الحجارة، يكن في مقدورك أن تصنفها تبعاً لألوانها، لمظهرها، وهلم جرا. لكل شيء قيمة مكافئة؛ لأنك لا تبحثين عن المبادئ. فأنت تشغلين نفسك، ولا أحد يستطيع الاعتراض على ذلك. أما في العلوم الطبيعية، فالأمر مختلف تماماً. ذلك أن مبعث البحث هناك اكتشاف بنية واضحة ومبادئ تفسيرية. في العلوم الطبيعية، ليس للحقائق أهمية في ذاتها، بل على قدر ما لها من تأثير في المبادئ التفسيرية والبنى الخفية التي لها أهمية عقلية فحسب. وأحسب أن هذه المناقشة كلها تؤول إلى خلط بين معنيين لكلمة مثير Interesting. فبعض الأشياء تكون مثيرة في نفسها، مثال ذلك: الفعل الإنساني. فحين يعالج روائي أفعالا إنسانية يكون ذلك مثيراً interesting؛ طيران عصفور، زهرة، ذلك كله مثير. وبهذا المعنى يكون التاريخ الطبيعي وعلم الاجتماع الوصفي مثيرين؛ كالرواية تماماً. إذ يعالج كلاهما ظاهرات مثيرة، ويعرضانها لرؤيتنا، وقد يُعطيان تبصراً فيها، على نحو ما.

لكن ثَمَّةَ معنىٍ آخَرَ لِكَلِمَةِ interesting، في الفيزياء، مثلاً. أمَّا الظَّاهِرَةُ
نفسُها فليس لها إثارةٌ لدى الفيزيائيِّ. والحقُّ أنَّ الفيزيائيِّينَ تُثيرُهُم، عَلَى الجُمْلَةِ،
عَلَى الأقلِّ في المرحَلَةِ الحاضرة، الظَّاهِرَةُ «الغريبةُ exotic» التي ليس لها فعلاً
إثارةٌ في نفسها، بِالمعنى الأولِ لِكَلِمَةِ interesting. إنَّ ما يَحْدُثُ في ظُروفِ
تَجْرِبَةٍ عِلْمِيَّةٍ، ليس له أَهمِّيَّةٌ في ذاتِهِ. وتكْمُنُ إثارتُهُ في عِلَاقَتِهِ بِأَيَّةِ مبادئٍ نظريَّةٍ
تكونُ في خَطَرٍ. والعِلْمُ الطَّبيعيُّ، مِنْ حَيْثُ هو مُختلفٌ عن التَّاريخِ الطَّبيعيِّ، لا
يَهْتَمُّ بِالظَّاهِرَاتِ في أَنفُسِها، بل بِالمبادئِ والتفسيراتِ التي لها تأثيرٌ ما فيها. وليس
هناك صوابٌ أو خطأٌ في اختيارِ واحدٍ مِنْ هذه التَّحديداتِ لِكَلِمَةِ interesting
(أو لِأَيِّ معنىٍ آخَرَ، مرتبطٍ بِالنَّفْعِيَّةِ مثلاً). فليس خطأً أن يُثارَ بِالأفعالِ الإنسانيَّةِ،
وليس صواباً أن يُثارَ بِالمُسَرَّعاتِ الجُسميَّةِ particle accelerators. هناك
حقاً شَيئانِ مُختلفانِ تماماً. ولا ينبغي لِجاذبيَّةِ عِلْمِ الاجتماعِ أن تُؤَسَّسَ عَلَى مَزْجِ
بينَ معنَيي الكلمة.

وتَجِدِينَ في دراسةِ اللُّغَةِ أيضاً ظاهراتٍ غريبةً. وفي الإنجليزِيَّةِ ليس في
مَقْدورِكَ أن تقولِي: John seems to the men to like each other. قاصِدةٌ أنَّ جونَ John يبدو لِكِلَا الرَّجُلَيْنِ كالأَخَرَيْنِ. لا شيءٌ خاطئٌ في المعنى
المُرَاد؛ وليس الأمرُ إِلَّا أنَّ هذه الجُمْلَةَ لا تعبِّرُ عنه. وليس لِذلك، عَلَى ما هو
عليه، أَيَّةُ إثارةٍ؛ ولا أَحَدٌ يَقولُهُ البتَّةَ، وتلك هي المسألةُ كُلُّها. لكنَّه يَحْدُثُ أن
تكونَ لِلظَّاهِرَةِ إثارةٌ عَقْلِيَّةٌ؛ لِأَنَّها مرتبطةٌ بِمبادئٍ مُهمَّةٍ في النِّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ.

النَّصَبُ في العُلُومِ الإنسانيَّةِ أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَى المُمَارِسِينَ أن يَجِدُوا أَنفُسَهُم في
مواقِفَ يَصِفُونَ فيها ظاهراتٍ قليلةَ الإثارة، وليس لديهم شيءٌ مُثيرٌ يَقولونَهُ عن
موضوعهم، ذلك هو الأسوأ؛ التَّقديمُ، وقولي أيضاً، التَّحليلاتِ الإحصائيَّةِ في
موضوعاتٍ لا إثارةَ لها... ولا شَكٌّ في أنَّ عِلْمَ الإناسَةِ «الأنثروبولوجي» وعِلْمَ

الاجتماع كثيرًا ما يُحَقِّقَانِ نَتَائِجَ مُثِيرَةً جَدًّا. خُذِي عَمَلِ زَمِيلِي (كينيث هيل Kenneth Hale) مَثَلًا، إِذْ كَانَ قَدْ دَرَسَ «الثَّرَاءَ الثَّقَافِيَّ» لِلثَّقَافَاتِ وَاللُّغَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ فِي أَسْتْرَالِيَا. وَيُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ هَؤُلَاءِ النَّاسُ بِأَنَّهُمْ بَيْنَ الشُّعُوبِ الْأَكْثَرِ «بِدَائِيَّةً» فِي الْعَالَمِ، عَلَى الْأَقْلَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الثَّقَانَةِ. لَكِنَّهُمْ طَوَّرُوا أَنْظِمَةً عَقْلِيَّةً مُعَقَّدَةً عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ، وَلَعَبًا لُغَوِيَّةً لَا تُضَاهَى...

م. ر.: أَتَذَكَّرُ قِرَاءَةَ دِرَاسَتِهِ لِلْعُبَّةِ فِي الطَّبَاقَاتِ **antonyms**، حَيْثُ يَكُونُ عَلَى كُلِّ مُتَكَلِّمٍ أَنْ يُحَلَّ كَلِمَاتٍ مَحَلٌّ أَضْدَادُهَا، وَفُقَّ قَوَاعِدَ مُعَيَّنَةٍ...

ن. ت.: نَعَمْ، فَذَلِكَ أَحَدُ الْأَمْثَلَةِ. وَمَا يَنْشَأُ عَنْ عَمَلِهِ مُثِيرٌ جَدًّا، وَلَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَلْعَابُ قَدْ اخْتَرَعَتْ لِتَرْجِيَةِ الْفَرَاغِ فَحَسْبُ: فَهِيَ تُلَبِّي حَاجَاتٍ عَقْلِيَّةً أَسَاسِيَّةً. وَقَدْ كَانَ مُقْتَرَحًا أَيْضًا أَنْ تَكْثِيرَ أَنْظِمَةِ الْقَرَابَةِ **systems of kinship** الْمُرَكَّبَةِ وَالْمُعَقَّدَةِ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ، رُبَّمَا لَا يَكُونُ لَهُ تَفْسِيرٌ بِلُغَةِ الْوُظُفَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ...

م. ر.: وَلِهَذَا، فَإِنَّهُ مُعَارِضٌ لِلْوُظُفِيَّةِ **Functionalism** عِنْدَ لِيْنِي شْتروس، الَّتِي تَرْبِطُ نِظَامَ الْقَرَابَةِ بِالتَّغْيِيرِ...

ن. ت.: رُبَّمَا تُلَبِّي أَنْظِمَةُ الْقَرَابَةِ هَذِهِ حَاجَةً عَقْلِيَّةً. وَقَدْ تَكُونُ نَوْعَ الرِّيَاضِيَّاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدِيهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ رِيَاضِيَّاتٌ شَكْلِيَّةٌ. اخْتَرَعَ الْإِغْرِيقُ نَظْرِيَّةَ الْعَدَدِ، وَيَخْتَرَعُ آخَرُونَ أَنْظِمَةَ الْقَرَابَةِ. وَيُرْوَى (هيل Hale) وَآخَرُونَ عَنْ رُؤَاةِ **informants** مُوَهِّبِينَ جَدًّا فِي أَنْظِمَةِ الْقَرَابَةِ، مِثْلَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الرِّيَاضِيُّونَ مُوَهِّبِينَ. وَتَنْتَمِي هَذِهِ الْاِكْتِشَافَاتُ إِلَى عِلْمِ الْإِنْسَانَةِ، وَطَبِيعِيٌّ أَنْ تَنْتَمِيَ إِلَى عِلْمِ النَّفْسِ أَيْضًا، وَهِيَ تُبَيِّنُ كَيْفَ تُبْدِعُ كَائِنَاتٌ بَشَرِيَّةً ثَرَاءً ثَقَافِيًّا تَحْتَ ظُرُوفِ الْجَذْبِ الْمَادِّيِّ. وَعَلَى قَدَرٍ مَا تَكُونُ هَذِهِ الْأَلْعَابُ اللَّغَوِيَّةُ مُهِمَّةً، يُقَالُ إِنَّ الْأَطْفَالَ لَا يَجِدُونَ صُعُوبَةً الْبَتَّةَ فِي تَعَلُّمِهَا. وَهِيَ تَبْدُو مُرْتَبِطَةً بِطُقُوسِ الْبُلُوغِ.

وَكُلُّهَا غَرِيبٌ جَدًّا وَسِحْرِيٌّ .

م. ر.: هذه الاكتشافات «مُثْبِرَةٌ interesting» جدًّا في معنَي الكلمة كِلَيْهِمَا.

وَيَلُوحُ لِي أَنَّ حَقَائِقَ اللُّغَةِ تُقَدِّمُ أَيْضًا هَاتَيْنِ الطَّرِيقَتَيْنِ فِي «الْإِثَارَةِ» .

ن. ت.: نعم. خُذِي نَحْوًا تَقْلِيدِيًّا مُقْنَعًا: فهو يُقَدِّمُ الظَّاهِرَاتِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِإِثَارَةِ «إِنْسَانِيَّةٍ» ؛ الْأَفْعَالُ الشَّاذَّةُ ، مَثَلًا . الْأَفْعَالُ الشَّاذَّةُ ، ذَلِكَ يُسَلِّي . لَكِنَّ النَّحْوَ التَّقْلِيدِيَّ لَا يُقِيمُ وَزْنَ لِمَا يُسَمِّيهِ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ التَّوْلِيدِيَّينَ «حَالَةَ الْفَاعِلِ الْمُحَدَّدِ» (*) ، لِأَنَّ الظَّاهِرَاتِ الَّتِي تَسْتَبَعُهَا هَذِهِ الْحَالَةُ لَيْسَ لَهَا «إِثَارَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ» .

فَالْجُمْلَةُ الَّتِي ذَكَرْتُهَا قَبْلُ مَثَلًا John seems to the men to like each other ، تَسْتَبَعُهَا حَالَةُ الْفَاعِلِ الْمُحَدَّدِ . لَكِنِّي أَشْكُ فِي مَسْأَلَةٍ أَنَّ أَيَّ نَحْوٍ تَقْلِيدِيٍّ ، حَتَّى النَّحْوُ الْأَكْثَرُ عُمُومًا ، سَيُضْطَرُّ فِي مُلَاخَظَةٍ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَبَعَدَ . وَذَلِكَ مَشْرُوعٌ تَمَامًا ، عَلَى قَدْرِ مَا يُهْتَمُّ بِالْقَوَاعِدِ التَّقْلِيدِيَّةِ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ؛ وَتَحْتَكِمُ هَذِهِ الْقَوَاعِدُ إِلَى عَقْلِ الْقَارِئِ بَدَلًا مِنْ السَّعْيِ بِوُضُوحٍ إِلَى تَمْيِيزِ خُصَائِصِ هَذَا «الْعَقْلِ» . وَفِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ أَنْ يَفْتَرِضَ أَنَّ حَالَةَ الْفَاعِلِ الْمُحَدَّدِ

*- هذه حالة تمنع انتزاع عنصر ينتمي إلى جملة مركبة ، أو ربطه بعنصر خارج هذه العبارة ، إن تضمنت العبارة المركبة فاعلاً «مُحَدَّدًا» - وتعني «مُحَدَّد» ما ينبغي أن يُبينَ عَلَى نَحْوٍ دَقِيقٍ . ففِي جُمْلَةِ «We expected John to like each other» ، مَثَلًا ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تُرْبَطَ عبارة We بـ each other السَّابِقَةِ ، بِحَيْثُ إِنَّ الْجُمْلَةَ لَا تَعْبُرُ عَنْ مَعْنَى العبارة Each of us expected that John would like the other . . . وتَمَتَّعُ حَالَةُ الْفَاعِلِ الْمُحَدَّدِ هَذَا الرِّبْطَ لِوُجُودِ الْفَاعِلِ John فِي العبارة الْمُرَكَّبَةِ «John to like each other» . وَتَعْمَلُ هَذِهِ الْحَالَةُ نَفْسُهَا عَمَلَهَا فِي الْمِثَالِ الْمُتَقَدِّمِ: John seems to the men to like each other . ففَاعِلُ Like غَيْرُ مَوْجُودٍ صَوْتِيًّا هُنَا ، لَكِنْ «يُفْهَمُ» أَنَّهُ John . انْظُرْ بِشَأْنِ مُنَاقَشَةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: تشومسكي: تأملات فِي اللُّغَةِ Reflections on Language (نيويورك: بانثيون ، ١٩٧٥م) ، الْفَصْلُ الثَّالِثُ . [الْمُؤَلَّفُ] .

- أو أيّ مبدأ آخر يستبعد هذه العبارة - هي فعلاً مظهرٌ لعقل المتكلم، مظهرٌ لنحو عام؛ ومن ثم، لا تتطلب تعليماً واضحاً للشخص الذي يقرأ نحواً تقليدياً.

أما عند اللغوي، فالعكس صحيح. إذ يهتم اللغوي بما لا تقوله القواعد التقليدية؛ يهتم بالمبادئ، أو، على الأقل، ذلك ما ينبغي أن يشغله، فيما أرى.

م. ر.: إن ردّ الفعل النموذجي على مبدأ الأمثلة **idealization** الذي

يواجهه المرء في العلوم الإنسانية يبدو مرتبطاً، إذن، بحقيقة أن

الناس لا يثأرون بما هو مشترك بينهم، بل...

ن. ت.: ... بل بما يُميّز بينهم، نعم. والشئ نفسه ينبغي أن يصدق على الضفادع. إذ لا شك في أنها لن تُثار بما يجعلها ضفادع، بل بما يجعل كلاً منها متميّزاً بين أقرانه: ما إن كان أحدها يقفز إلى مسافة أبعد، إلخ. كل شيء يجعل ضفدعاً متميّزاً بالنسبة إلى الضفادع الأخرى. وتفترض الضفادع أنه طبيعي تماماً أن تكون ضفادع. لا تشغلها قضية «الصفدية».

م. ر.: بين الأمريكيين، تُستعمل كلمة «ضفادع» للدلالة على الشعب الفرنسي.

ن. ت.: ما قصدت ذلك.

الفصل الثالث، فلسفة اللغة

م. ر.: قادتكَ اكتشافاتُك اللُّغويَّةُ إلى أن تَحْتَلَّ مواقعَ في فِلْسَفَةِ اللُّغَةِ،
وفيما يُدْعَى «فِلْسَفَةُ المَعْرِفَةِ». وفي كِتَابِكَ الأخيرِ (تأملات في اللُّغَةِ
Reflections on Language)، خاصَّةً، كُنْتَ مُغْرَى بِتَقْرِيرِ
حُدُودِ ما يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ بالفِكرِ؛ ونتيجةً لذلك، تَحَوَّلَتِ التَّأْمَلَاتُ فِي
اللُّغَةِ فِعْلاً إلى فِلْسَفَةِ العِلْمِ...

ن. ت.: طَبِيعِيٌّ أَلَّا تَكُونَ دِرَاسَةَ اللُّغَةِ هِيَ الَّتِي تُقَرَّرُ ما يُمْكِنُ أن يُعَدَّ طَرِيقًا
عِلْمِيًّا فِي البَحْثِ، بَلِ الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ تُقَدِّمُ نَمُودَجًا يُمْكِنُ أن يَرْجَعَ إِلَيْهِ
المرءُ فِي بَحْثِ المَعْرِفَةِ الإنْسَانِيَّةِ.

وفي حَالِ اللُّغَةِ، عَلَى المرءِ أن يُبَيِّنَ كَيْفَ يُطَوِّرُ شَخْصٌ مُزَوَّدٌ بِمُعْطَيَاتٍ
مَحْدُودَةٍ تَمَامًا، نِظَامًا لِلْمَعْرِفَةِ ثَرِيًّا إِلَى حَدِّ مُسْرِفٍ. وَالطِّفْلُ الَّذِي يُوَضَّعُ فِي
جَمَاعَةٍ لُغَوِيَّةٍ يُزَوَّدُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجُمَلِ مَحْدُودَةٍ وَنَاقِصَةٍ، وَمُجَزَّاءَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا.
وَمَعَ هَذَا، يُفْلِحُ فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ فِي «التَّرْكِيبِ» وَفِي وَعْيِ نَحْوِ لُغَتِهِ، وَفِي تَطْوِيرِ
مَعْرِفَةٍ مُعَقَّدَةٍ جَدًّا، وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أن يُحْصَلَ عَلَيْهِ مِنَ خِلَالِ الاسْتِقْرَاءِ أَوْ التَّجْرِيدِ
مِمَّا تُقَدِّمُهُ التَّجَرُّبَةُ. وَنَسْتَخْلِصُ أَنَّ المَعْرِفَةَ الَّتِي تُوعَى يَنْبَغِي أن تُحَدَّدَ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ
مِنْ خِلَالِ خَاصِّيَّةِ حَيَوِيَّةِ «بِيُولُوجِيَّةِ». وَكَلِّمًا وَاجْهَنًا حَالًا مُمَازِلَةً، حَيْثُ تُرَكَّبُ
المَعْرِفَةُ مِنْ مُعْطَيَاتٍ مُحَدَّدَةٍ وَنَاقِصَةٍ عَلَى نَحْوِ مُتَمَاثِلٍ وَمُتَجَانِسٍ بَيْنَ الْأَفْرَادِ

جميعاً، استطعنا أن نستخلص أن مجموعة من القيود الأولية، تقوم بفعلٍ مهم في تحديد النظام الإدراكي الذي يُركّبه العقل.

نجد أنفسنا أمام ما يمكن أن يبدو مفارقةً، مع أنها حقاً ليست مفارقةً البتة: حيث المعرفة الفنية والمعقدة يمكن أن تُركّب بطريقةً متماثلة، مثلما هي الحال في معرفة اللغة، ينبغي أن توجد ثمة قيود، تحديدات تفرضها موهبة حيوية على الأنظمة الإدراكية التي يمكن أن يُطوّرها العقل. إن مجال المعرفة التي يمكن الحصول عليها، مرتبطٌ جوهرياً بحدودها.

م. ر.: لو كانت كل أنواع القواعد النحوية ممكنة، لعدا اكتساب هذه القواعد مستحيلاً؛ ولو كانت كل تركيبات «الفونيمات» ممكنة، لما وُجدت ثمة لغة. ويظهر الدرس اللغوي، خلافاً لذلك، إلى أي مدى تُحدّد التركيبات اللاحقة من الكلمات و«الفونيمات»، ذلك أن هذه التركيبات، لا تُشكّل إلا منظومة جزئية صغيرة من منظومة التركيبات التي يمكن تصوّرها. وعلى علم اللغة أن يوضح القواعد التي تُحدّد هذه التركيبات. لكنّه على أساس هذه الحدود، يحصل المرء على عدد لا متناهٍ من أشكال اللغة...

ن. ت.: لو أن القيود الحادة على المعرفة التي يمكن الحصول عليها لم تكن موجودة، لما كان في مقدورنا امتلاك معرفة واسعة كمعرفة اللغة. لسبب بسيط هو أنه من دون هذه التحددات السابقة نستطيع أن نركّب عدداً هائلاً من الأنظمة المعرفية الممكنة، التي تنسجم كلها مع ما تقدّمه التجربة. وهكذا فإن التحقيق المتماثل لنظام معرفي مُحدّد يتجاوز آفاق التجربة سيكون مستحيلاً: فقد نتبنى أنظمة إدراكية مختلفة، من دون إمكانية تحديد النظام الصحيح حقاً بين هذه الأنظمة. وإذا ما توافر بين أيدينا عدد كبير من النظريات المتماثلة في درجة

الاطمئنان إليها ، فإنّ ذلك يعني فعلياً عدم امتلاكنا نظريّة البتّة .

هَبِي أَنّا نكتشف ميدانَ العقلِ الذي تمتازُ به الكائناتُ البشريّةُ . إن حَدَثَ أَنَّ أَحَدًا طَوَّرَ نظريّةَ تفسيريّةَ غنيّةٍ مع وجودِ تحديداتِ الدليلِ الذي يمكنُ الحصولُ عليه ، فإنّه يكونُ مشروعاً أن نَسألَ: ما الإجراءُ العامُّ الذي سَمَحَ بهذا الانتقالِ مِنَ التَّجربةِ إلى المعرفة - ما نظامُ التّقييداتِ الذي جَعَلَ مِثْلَ هذه الوُثْبَةِ العقليةِ أمراً ممكنًا ؟

ورُبّما يُقدِّمُ تاريخُ العِلْمِ بعضَ الأمثلةِ الوثيقةِ الصّلةِ بالموضوع . وقد حَدَثَ أحياناً أن أُقيمتَ نظريّاتٌ علميّةٌ غنيّةٌ على أساسِ حقائقٍ مُحدّدةٍ ، نظريّاتٌ كانت واضحةً للآخرين ، ومؤلّفةً مِنْ قضايا مرتبطةٍ على نحوٍ ما بِطبيعةِ العقلِ البشريِّ . ونَحْنُ ، وقد قُدِّمَتْ إلينا هذه الحالاتُ ، رُبّما نُحاولُ اكتشافَ التّقييداتِ الأوّليّةِ التي تُميّزُ هذه النّظريّاتِ . ويعودُ بنا ذلك إلى عَرَضِ السّؤالِ: ما النّحوُ العامُّ Universal grammar بالنّسبةِ إلى نظريّاتٍ واضحةٍ ؛ ما منظومةُ التّقييداتِ المُقدّمةِ حيويّاً «بيولوجيًّا» ؟

هَبِي أَنّا نَسْتَطِيعُ الإجابةَ عن هذا السّؤال - ولعلّ ذلك ممكنٌ ، مِنْ حَيْثُ المبدأ . نَسْتَطِيعُ مِنْ ثَمَّ ، وقد أُعْطِيتِ التّقييداتُ ، أن نبحثَ أنواعَ النّظريّاتِ التي يمكنُ الحصولُ عليها مبدئيّاً . وهذا مُماثِلٌ لِأن نَسألَ ، في حالِ اللّغة: على افتراضِ نظريّةِ النّحوِ العامِّ ، أيّةُ أنماطٍ مِنَ اللّغاتِ ممكنةٌ مِنْ حَيْثُ المبدأ ؟

دَعِينَا نُشِرْ إلى صِنْفِ النّظريّاتِ التي تُوفِّرها لنا التّقييداتُ الحيويّةُ بِأنّها نظريّاتٌ سهّلةُ المَنالِ accessible theories . ليس لِزاماً أن يكونَ هذا الصّنفُ مُتجانساً ، فربّما يكونُ ثَمّةُ دَرَجَاتٍ مِنْ سهّولةِ المَنالِ accessibility ، سهّولةُ مَنالٍ بالنّسبةِ إلى نظريّاتٍ أُخرى ، إلخ . بِتعبيرٍ آخَرٍ ، رُبّما تكونُ نظريّةُ سهّولةِ المَنالِ مُركّبةً تقريباً . فالنّحوُ العامُّ بالنّسبةِ إلى إنشاءِ النّظريّةِ ، هو إذن نظريّةُ

لِلتَّرْكِيبِ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ يُمْكِنُ الْوَصُولُ إِلَيْهَا. وَلَوْ كَانَ هَذَا النَّحْوُ الْعَامُّ جُزْءًا مِنْ الْمَوْهَبَةِ الْحَيَوِيَّةِ لِشَخْصٍ مَا، ثُمَّ يُعْطَى الدَّلِيلَ اللَّائِقَ، فَسَيَكُونُ لَدَى هَذَا الشَّخْصِ، فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ عَلَى الْأَقْلَ، بَعْضُ نَظَرِيَّاتٍ مِنَ الطَّرَازِ السَّهْلِ الْمَنَالِ. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّي أَبَسَّطُ كَثِيرًا.

تَأْمَلِي بَعْدَئِذٍ صِنْفَ النِّظَرِيَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ true theories. فِي مَقْدُورِنَا تَصَوُّرٌ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الصَّنْفِ يُوجَدُ، وَيُعَبَّرُ عَنْهُ، دَعِينَا نَقُلْ، بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الرَّمُوزِ مَتَيْسَّرَةٍ لَنَا. فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَسْأَلَ بَعْدَئِذٍ: مَا نُقْطَةُ تَقَاطُعِ صِنْفِ النِّظَرِيَّاتِ السَّهْلَةِ الْمَنَالِ وَصِنْفِ النِّظَرِيَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ؟ أَيُّ مَا النِّظَرِيَّاتُ الَّتِي تَنْتَمِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ إِلَى صِنْفِ النِّظَرِيَّاتِ السَّهْلَةِ الْمَنَالِ وَإِلَى صِنْفِ النِّظَرِيَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ؟ (أَوْ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُثِيرَ أَسْئَلَةً أَكْثَرَ تَعْقِيدًا حَوْلَ دَرَجَةِ سُهُولَةِ الْمَنَالِ وَسُهُولَةِ الْمَنَالِ النَّسْبِيَّةِ). فَحَيْثُ تُوْجَدُ نُقْطَةُ التَّقَاطُعِ هَذِهِ، يَسْتَطِيعُ الْكَائِنُ الْإِنْسَانِيُّ الْحَصُولَ عَلَى مَعْرِفَةٍ حَقِيقِيَّةٍ. وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، لَا يَسْتَطِيعُ الْحَصُولَ عَلَى مَعْرِفَةٍ حَقِيقِيَّةٍ وَرَاءَ هَذَا التَّقَاطُعِ.

طَبِيعِيٌّ أَنَّ هَذَا يَحْصُلُ عَلَى افْتِرَاضٍ أَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ جُزْءٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ، أَعْنِي جِهَازًا حَيَوِيًّا كَالْأَجْهَازَةِ الْأُخْرَى، قَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا وَتَرْكِيبًا مِنَ الْأَجْهَازَةِ الْأُخْرَى، لِأَنَّنَا لَا نَعْرِفُ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ سِوَى أَنَّهُ جِهَازٌ حَيَوِيٌّ، لَهُ مَجَالُهُ الْمُمْكِنُ وَحُدُودُهُ الدَّاخِلِيَّةُ الَّتِي تُحَدِّدُهَا الْعَوَامِلُ نَفْسُهَا الَّتِي تُعْطِي مَجَالَهُ. وَالْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ، عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، لَيْسَ الْأَدَاةُ الشَّامِلَةُ الَّتِي رَأَى دِيكَارْتُ أَنَّهَا جِهَازٌ حَيَوِيٌّ مُتَمَيِّزٌ نَسْبِيًّا.

م. ر.: نَعُودُ إِلَى الْفِكْرَةِ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ النِّشَاطَ الْعِلْمِيَّ غَيْرُ مُمَكِنٍ إِلَّا ضِمْنَ الْحُدُودِ الْحَيَوِيَّةِ «الْبِيُولُوجِيَّةِ» لِلْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ.

ن. ت.: لَكِنْ لَا حِظِي عَدَمَ وُجُودِ سَبَبٍ حَيَوِيٍّ خَاصٍّ يُفَسِّرُ لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يُوجَدَ تَقَاطُعٌ كَهَذَا. إِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى اخْتِرَاعِ فِيزِيَاءٍ نَوَوِيَّةٍ، تُقَدِّمُ مُتَعَضِّيًا

organism مِن دُونِ أَفْضَلِيَّةِ اخْتِيَارٍ، وَلَمْ تَكُنْ عَامِلًا فِي ارْتِقَاءِ الْإِنْسَانِ، وَمِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ نَفْتَرِضَ هَذَا. وَإِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى حَلِّ مُعْضِلَاتِ الْجَبْرِ لَيْسَتْ عَامِلًا فِي التَّكَاثُرِ التَّفَاضُلِيِّ. لَيْسَ هُنَاكَ، بِحَسَبِ عِلْمِي، رِوَايَةٌ مُوثِقَةٌ لِفِكْرَةٍ أَنَّ هَذِهِ الْقُدْرَاتِ الْخَاصَّةَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى نَحْوِ مَا بِإِمْكَانِيَّاتٍ عَمَلِيَّةٍ، صِنَاعَةِ الْأَدَوَاتِ وَمَا شَابَهَهَا - مِمَّا لَا يَنْفِي، طَبْعًا، الْقَوْلَ بِتَطَوُّرِ هَذِهِ الْقُدْرَاتِ الْخَاصَّةِ لِأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ بِوَصْفِهَا مُلَازِمَةً لِتَطَوُّرِ الدِّمَاغِ، الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَضَعَ لِضُغُوطٍ انْتِقَائِيَّةٍ.

وَيَجُوزُ الْقَوْلُ عَلَى نَحْوِ مِنَ الْأَنْحَاءِ، إِنَّ وُجُودَ التَّقَاطُعِ بَيْنَ صِنْفِ النَّظَرِيَّاتِ السَّهْلَةِ الْمَنَالِ وَصِنْفِ النَّظَرِيَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْحَيَوِيَّةِ. وَيَلُوحُ أَنَّ هَذِهِ الْمُعْجِزَةَ حَدَثَتْ، عَلَى الْأَقْلَى، فِي مِيدَانٍ وَاحِدٍ، هُوَ الْفِيزِيَاءُ، وَالْعُلُومُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي رُبَّمَا يَتَصَوَّرُهَا الْمَرْءُ، بِشَيْءٍ مِنَ التَّرْخُّصِ، نَوْعًا مِنَ «الامتداد» لِلْفِيزِيَاءِ: الْكِيمِيَاءُ الْحَيَوِيَّةُ، الْأَحْيَاءُ الْجَزِيئِيَّةُ. وَقَدْ كَانَ التَّقَدُّمُ فِي هَذِهِ الْمِيَادِينِ سَرِيعًا جَدًّا عَلَى أَسَاسِ مُعْطَيَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وَفِي طَرِيقَةٍ مَفْهُومَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ. وَقَدْ يُوَاجِهُنَا هُنَا حَدَثٌ قَدْ فُيِّدَ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ: لَيْسَ ثَمَّةُ مَا يَحْمِلُ الْمَرْءَ عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّنَا كَائِنٌ حَيٌّ عَامٌّ. فَنَحْنُ، إِلَى حَدٍّ مَا، خَاضِعُونَ لِتَقْيِيدَاتٍ حَيَوِيَّةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَخْتَرَعَهَا وَنَفْهَمَهَا، وَنَحْنُ مُحْظُوظُونَ فِي امْتِلَاكِ هَذِهِ التَّقْنِيَّاتِ؛ لِأَنَّنا مِنْ دُونِ ذَلِكَ، لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُرَكِّبَ أَنْظِمَةً غَنِيَّةً لِلْمَعْرِفَةِ وَالْفَهْمِ الْبَتَّةَ. لَكِنَّ هَذِهِ التَّقْيِيدَاتِ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَبْعِدَ، عَلَى التَّمَامِ، مِيَادِينَ، لَدِينَا تَوَقُّ شَدِيدٌ إِلَى أَنْ نَعْرِفَ شَيْئًا عَنْهَا. وَذَلِكَ سَيِّئٌ جَدًّا. قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ كَائِنٌ حَيٌّ آخَرٌ لَهُ عَقْلٌ مُنَظَّمٌ مُنَظَّمًا مُخْتَلَفًا، سَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى مَا نَحْنُ عَاجِزُونَ عَنْهُ. وَهَذَا بِوَصْفِهِ تَقْرِيبًا، أَوَّلًا، وَهُوَ تَقْرِيبٌ مَعْقُولٌ فِيمَا أَحْسَبُ، سَبِيلٌ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي قَضِيَّةِ اكْتِسَابِ مَعْرِفَةٍ وَاعِيَةٍ.

وَنَمْضِي خُطْوَةً أُخْرَى فَنَقُولُ إِنَّهُ يُمْكِنُ تَصَوُّرُ أَنْ كَائِنًا حَيًّا خَاصًّا يُمْكِنُ أَنْ

يَتَفَحَّصُ جِهَازَهُ الْخَاصَّ لِاِكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ؛ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ ثَمَّ قَادِرًا عَلَى تَحْدِيدِ صِنْفِ النَّظَرِيَّاتِ الْمَفْهُومَةِ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَصُولُ عَلَيْهِ. وَلَا أَرَى أَيْ تَنَاقُضٍ فِي ذَلِكَ. فَالنَّظَرِيَّةُ الَّتِي تُوَلَّدُ غَامِضَةً «النَّظَرِيَّةُ الْعَسِيرَةُ الْمَنَالُ»، فِي الْمَعْنَى الَّتِي قَدَّمْنَاهُ مِنْذُ قَلِيلٍ، لَا يُمْكِنُ، لِذَلِكَ، أَنْ تَغْدُوَ مَفْهُومَةً أَوْ سَهْلَةً الْمَنَالِ.

سَتُمَيِّزُ فِعْلًا. وَإِنْ حَدَثَ فِي مِيدَانٍ فِكْرِيٍّ مَا أَنْ تَغْدُوَ النَّظَرِيَّاتُ السَّهْلَةُ الْمَنَالُ بَعِيدَةً عَنِ النَّظَرِيَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُّءٌ جَدًّا. إِذْ ذَاكَ تَسْتَطِيعُ الْكَائِنَاتُ الْبَشَرِيَّةُ، فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ، أَنْ تُطَوَّرَ نَوْعًا مِنَ التَّقَانَةِ الْعَقْلِيَّةِ، يَتَنَبَّأُ لِأَسْبَابٍ يَعْزُرُ إِيْضَاحُهَا بَعْضَ الْأَشْيَاءِ فِي هَذِهِ الْمِيَادِينِ. لَكِنَّهُمْ لَنْ يَفْهَمُوا فَهْمًا صَاحِبًا لِمَاذَا تَعْمَلُ التَّقَانَةُ. لَنْ تَكُونَ فِي أَيْدِيهِمْ نَظَرِيَّةٌ مَفْهُومَةٌ بِمَعْنَى أَنَّ عِلْمًا مُثِيرًا يَكُونُ مَفْهُومًا. وَسَتَكُونُ نَظَرِيَّاتُهُمْ، مَعَ إِمْكَانِيَّةِ أَنْ تَكُونَ مُثِيرَةً، غَيْرَ مُقْنِعَةٍ عَقْلِيًّا.

وَحِينَ نَتَأَمَّلُ تَارِيخَ السَّعْيِ الْعَقْلِيِّ لِلْبَشَرِ مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ، نَجِدُ أَشْيَاءَ غَرِيبَةً، أَشْيَاءَ مَدْهُشَةً. وَفِي الرِّيَاضِيَّاتِ، تَبْدُو بَعْضُ الْمَجَالَاتِ مُطَابِقَةً لِقَابِلِيَّاتِ إِنْسَانِيَّةٍ خَارِقَةٍ لَدَى الْبَشَرِ: نَظَرِيَّةُ الْعَدَدِ، الْحَدْسُ الْخَيْرِيُّ. وَقَدْ حَدَّدْتُ مُتَابِعَةَ هَذِهِ الْحُدُوسِ الْخَطِّ الْأَسَاسِيِّ لِلتَّقَدُّمِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ، حَتَّى نِهَائِهِ الْقَرْنَ التَّاسِعَ عَشَرَ، عَلَى الْأَقْل. وَعَقَلْنَا قَادِرٌ ظَاهِرِيًّا عَلَى مُعَالَجَةِ الْخَاصِّيَّاتِ التَّجْرِيدِيَّةِ لِأَنْظِمَةِ الْعَدَدِ، وَالْهَنْدَسَةِ التَّجْرِيدِيَّةِ، وَرِيَاضِيَّاتِ السَّلْسِلَةِ الْمُتَّصِلَةِ. وَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْحُدُودُ النَّهَائِيَّةُ، لَكِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نَقْتَصِرَ عَلَى أَفْرُعٍ مُحَدَّدَةٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ.

وَيُمْكِنُ افْتِرَاضُ أَنَّ كُلَّ مَا قُلْتُهُ نَوًّا سِيرَفُضُهُ تَجْرِبِيٌّ مُتَشَدِّدٌ، وَقَدْ يَعُدُّهُ تَافَهًا.

م. ر.: أَيِ يَرَفُضُهُ إِنْسَانٌ يَعْتَقِدُ بِالْفَرَضِيَّةِ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَقَدَّمُ

بِفِعْلِ الْاِسْتِنْتَاكِجِ وَالتَّعْمِيمِ فِي اِكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ، بَدْءًا مِنْ عَقُولِ

«فَارَغَةٍ» أَوْ «جَوْفَاءٍ»، مِنْ دُونِ تَقْيِيدَاتٍ حَيَوِيَّةٍ اِسْتِنْتَاكِجِيَّةٍ. وَضِمْنَ

ذَلِكَ الْإِطَارِ، لَا تُحَدَّدُ بِنِيَّةِ الْعَقْلِ الْمَعْرِفَةِ، أَكْثَرَ مِمَّا تُحَدِّدُ لَوْحَةُ شَمْعٍ

شَكْلَ تَصْمِيمٍ فَنِّي ...

ن. ت.: نعم. إِنَّ لِهَذِهِ الْفَرَضِيَّاتِ التَّجْرِييَّةِ أَثَارَةً مِنْ مَعْقُولِيَّةٍ ظَاهِرِيَّةٍ، فِيمَا أَحْسَبُ؛ إِذْ لَا يَبْدُو مُمَكِّنًا أَنْ نُفَسِّرَ التَّطَوُّرَ الْحَاصِلَ فِي الْفَهْمِ الْفَطْرِيِّ لِلْعَالَمِ الْمَادِّيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ، أَوْ الْعِلْمِ، بِلُغَةٍ عَمَلِيَّاتِ الْاسْتِقْرَاءِ، وَالتَّعْمِيمِ، وَالتَّجْرِيدِ، وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ. لَيْسَ ثَمَّةَ ذَلِكَ الطَّرِيقُ الْمُبَاشِرُ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي تُغَطِّي إِلَى النَّظَرِيَّاتِ الْمَفْهُومَةِ.

وَيَصْدُقُ الشَّيْءُ نَفْسُهُ عَلَى مَيَادِينِ أُخَرَ، كَالْمُوسِيقَا، مَثَلًا. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ فِي مَقْدُورِكَ دَائِمًا أَنْ تَتَخَيَّلِي أَنْظِمَةً مُوسِيقِيَّةً لَا تُحْصَى، سَيَبْدُو مُعْظَمُهَا لِلْأُذُنِ الْبَشَرِيَّةِ مُجَرَّدَ صَخَبٍ. وَهَنَّاكُ أَيْضًا عَوَامِلُ حَيَوِيَّةٌ تُحَدِّدُ صِنْفَ الْأَنْظِمَةِ الْمُوسِيقِيَّةِ الْمُمَكِّنَةِ عِنْدَ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الْمَاهِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِهَذَا الصَّنْفِ، تَظَلُّ مَسْأَلَةً مَفْتُوحَةً، وَتُنَاقَشُ الْآنَ.

وَفِي هَذِهِ الْحَالِ أَيْضًا، لَا يَبْدُو التَّفْسِيرُ الْوُظَيْفِيُّ الْمُبَاشِرُ أَمْرًا مَيَسُورًا. وَلَيْسَتْ الْقُدْرَةُ الْمُوسِيقِيَّةُ عَامِلًا فِي إِعَادَةِ الْإِنْتَاكِجِ. فَالْمُوسِيقَا لَا تُحَسِّنُ الرِّفَافَةَ الْمَادِّيَّةَ، وَلَا تُجِيزُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْمَلَ أَفْضَلَ فِي الْمَجْتَمَعِ، إلخ. وَيَمَكُنُ الْقَوْلُ بَوْضُوحٍ تَامًا، إِنَّ الْمُوسِيقَا تُلَبِّي حَاجَةَ الْإِنْسَانِ إِلَى تَعْبِيرٍ جَمَالِيٍّ. وَإِنْ دَرَسْنَا الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ، فَقَدْ نَكْتَشِفُ أَنَّ أَنْظِمَةً مُوسِيقِيَّةً مُحَدَّدَةً هِيَ الَّتِي تُلَبِّي تِلْكَ الْحَاجَةَ، بَيْنَمَا لَا تُلَبِّي أَنْظِمَةٌ أُخَرُ تِلْكَ الْحَاجَةَ.

م. ر.: بَيْنَ تِلْكَ الْمَيَادِينِ الَّتِي لَمْ يُحَقِّقِ التَّنَاوُلُ الْعِلْمِيُّ فِيهَا أَيَّ تَقَدُّمٍ خِلَالَ أَلْفِي عَامٍ تَضَعُ دِرَاسَةَ السُّلُوكِ الْبَشَرِيِّ؟

ن. ت.: السُّلُوكُ، نَعَمْ، حَالٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وَوَضِعَتِ الْمَسَائِلُ الْأَسَاسِيَّةُ مِنْذُ فَجَرِ الذَّاكِرَةِ التَّارِيخِيَّةِ: تَبْدُو مَسْأَلَةُ تَعْلِيلِ السُّلُوكِ أَبْسَطَ مِنْ أَنْ تُعْرَضَ؛ أَمَّا فِعْلِيًّا، فَإِنَّهُ لَمْ يُحَقِّقْ تَقَدُّمٌ نَظَرِيٌّ فِي الْإِجَابَةِ عَنْهَا. وَقَدْ يَصُوغُ الْمَرْءُ السُّؤَالَ

الأساسيَّ عَلَى النُّحُوِّ الْآتِي: تَأْمَلِي وَظِيفَةً ذَاتَ مَتَغَيِّرَاتٍ مُحَدَّدَةٍ كَتَلِكْ، أُعْطِيَتْ قِيَمَ الْمَتَغَيِّرَاتِ، سَتُعْطِينَا الْوِظِيفَةَ السَّلُوكَ الَّذِي يَنْشَأُ تَحْتَ ظُرُوفٍ تُحَدِّدُهَا هَذِهِ الْقِيَمُ، أَوْ رُبَّمَا بَعْضَ التَّوَزُّعِ عَلَى ضُرُوبِ السَّلُوكِ الْمُمَكِّنَةِ. لَكِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ وَظِيفَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ اقْتَرَحَتْ جَدِيًّا، حَتَّى ابْتِغَاءَ تَقْرِيْبٍ مُحَدَّدٍ، وَقَدْ ظَلَّتِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ دُونِ عَرْضٍ. وَالْحَقُّ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ آيَةَ طَرِيقَةٍ مَعْقُولَةٍ لِنَتَنَاوَلَ الْمُشْكِلَةَ. وَقَدْ نَحْتَسِلُ أَنَّ هَذَا الْإِخْفَاقَ الْمُتَوَالِيَّ يُعْلَلُ بِمَنْطِقٍ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْسَّلُوكِ وَرَاءَ مُتَنَاوَلٍ إِدْرَاكِنا، وَمِنْ ثَمَّ، لَيْسَ فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ. وَيَلُوحُ الْأَمْرُ كَأَنَّنَا حَاوَلْنَا أَنْ نُعَلِّمَ قِرْدًا أَنْ يَتَذَوَّقَ مُوسِيْقًا بَاخ. وَهَذَا مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ...

م. ر.: إِذْ ذَاكَ سَتَكُونُ مَسْأَلَةُ السَّلُوكِ مُخْتَلِفَةً عَنْ مَسْأَلَةِ النُّحُوِّ: فِتْلِكَ أَيْضًا لَمْ تُعْرَضْ قَبْلَ تَطَوُّرِ النُّحُوِّ التَّوَلِيدِيِّ.

ن. ت.: لَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، مَتَى يُعْرَضُ السُّؤَالُ يُعْرَضُ كُلُّ إِنْسَانٍ إِجَابَاتٍ مُتَشَابِهَةً أَوْ مُتَمَاثِلَةً. وَحِينَ تُعْرَضُ بَعْضُ الْأَسْئَلَةِ يَسْتَحِيلُ تَصَوُّرُ الْإِجَابَةِ أحيانًا، وَتَكْثُرُ الْإِجَابَاتُ كَثْرَةً بِالْغَةِ أحيانًا.

وَإِنْ اقْتَرَحَتْ إِجَابَةً، فَإِنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ إِدْرَاكٌ كَافٍ لِلْمَسْأَلَةِ أَيْضًا سَيُعْدُونَ تِلْكَ الْإِجَابَةَ مَفْهُومَةً. وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْحَالُ أَنَّهُ يَصْعَبُ حَتَّى عَرْضُ السُّؤَالِ بِدِقَّةٍ، أَوْ أَنَّهُ يُعْرَضُ بِالْقَدْرِ اللَّازِمِ مِنَ الْبَرَاعَةِ؛ لَكِنَّهُ عِنْدَئِذٍ قَدْ يُعْرَضُ أحيانًا بِدِقَّةٍ، وَيَظَلُّ يَبْدُو وَرَاءَ مُتَنَاوَلٍ الْإِدْرَاكِ الْعَقْلِيِّ.

وَلَعَلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ نَظِيرًا لِحَالِ اللُّغَةِ، إِدْرَاكُنَا لِلْبَنَى الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي نَعِيشُ فِيهَا، وَنَحْنُ نَمْتَلِكُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ الضَّمْنِيَّةِ وَالْمُعَقَّدَةِ بِشَأْنِ عِلَاقَاتِنَا بِالْآخَرِينَ. وَرُبَّمَا يَكُونُ لَدِينَا ضَرْبٌ مِنَ «النُّحُوِّ الْعَامِّ» فِي الصُّوَرِ الْمُحْتَمَلَةِ لِلتَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَإِنَّ هَذَا النِّظَامَ، هُوَ الَّذِي يُسَاعِدُنَا فِي أَنْ نُنْظِمَ حَدْسِيًّا إِدْرَاكَاتِنَا النَّاقِصَةَ لِلْوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ لِزِمَامًا أَنْ نَكُونَ قَادِرِينَ

عَلَى تَطْوِيرِ نَظَرِيَّاتٍ وَاعِيَةٍ فِي هَذَا الْمِيدَانِ ، مِنْ خِلَالِ مُمَارَسَةِ «قُدْرَاتِنَا فِي تَشْكِيلِ الْعِلْمِ». وَإِنْ نَحْنُ نَجْحُنَا فِي أَنْ نَجِدَ مَكَانَنَا دَاخِلَ مُجْتَمَعِنَا ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ تَمْتَلِكُ الْبُنْيَةَ الَّتِي نُهَيَّا نَحْنُ لِأَنْ نَبْحَثَ عَنْهَا. وَبِأَثَارِهِ مِنْ تَخِيلٍ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخْتَرَعَ مُجْتَمَعًا مُصْطَنَعًا لَا أَحَدَ فِيهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ مَكَانَهُ ...

م. ر.: وَإِذَا ذَلِكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَارَنَ إِخْفَاقَ اللُّغَةِ الْمُصْطَنَعَةِ بِإِخْفَاقِ الْمُجْتَمَعَاتِ الطُّبَاوِيَّةِ ؟

ن. ت.: رُبَّمَا. وَلَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَعَلَّمَ لُغَةً مُصْطَنَعَةً مُرَكَّبَةً لِانْتِهَاكِ النَّحْوِ الْعَامِّ ، بِالسَّهُولَةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا لُغَةً طَبِيعِيَّةً ، وَلِنَقُلْ بِبَسَاطَةٍ: بِالْانْغِمَاسِ فِيهَا. وَعَلَى الْأَكْثَرِ ، يُمَكِّنُ أَنْ يَعُدَّ الْمَرْءُ لُغَةً كَهَذِهِ لُغَةً ، لُغَةً ... وَعَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَخَيَّلَ مُجْتَمَعًا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ فِيهِ أَنْ يَبْقَى حَيًّا بِوَصْفِهِ كَائِنًا اجْتِمَاعِيًّا ، لِأَنَّهُ لَا يَتَوَافَقُ مَعَ الْإِدْرَاكَاتِ الْمُحَدَّدَةِ حَيَوِيًّا وَمَعَ حَاجَاتِ الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ. وَلِأَسْبَابٍ تَارِيخِيَّةٍ ، يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الْقَائِمَةِ خَاصِّيَّاتٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، تَقْوُدُ إِلَى أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ .

إِنَّ أَيْ عِلْمٍ اجْتِمَاعِيٍّ جَدِّيٍّ أَوْ آيَةٍ نَظَرِيَّةٍ لِلتَّفْسِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، يَنْبَغِي أَنْ يُقَامَ عَلَى مَفْهُومِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ. وَإِنْ مُنْظَرًا لِلْبِيرَالِيَّةِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ مِثْلَ آدَمِ سَمِيثَ ، يَبْدَأُ بِتَأْكِيدِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ يُحَدِّدُهَا مِثْلُ إِلَى التَّبَادُلِ وَالْمُقَايَظَةِ ، مِثْلُ إِلَى تَبَادُلِ الْبُضَائِعِ ؛ وَيَنْسَجِمُ ذَلِكَ الْإِفْتِرَاضُ تَمَامَ الْإِنْسِجَامِ مَعَ النَّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ. وَإِنْ أَنْتِ سَلَّمْتِ بِتِلْكَ الْمُقَدِّمَةِ الْمَنْطِيقِيَّةِ (الَّتِي يَعْزُّ تَصْدِيقُهَا) ، ثَبَتَ لَكَ فِي النِّهَايَةِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ تُطَابِقُ مُجْتَمَعًا رَاسِمَالِيًّا مُبَكَّرًا مِثَالِيًّا ، لَا احْتِكَارَ فِيهِ ، وَلَا تَدْخُلَ لِلدَّوْلَةِ ، وَلَا تَوْجِيهَ اجْتِمَاعِيًّا لِلْإِنْتِاجِ .

وَإِنْ كُنْتُ ، خِلَافًا لِمَا تَقَدَّمَ ، تَعْتَقِدِينَ مَعَ مَارْكِسَ أَوِ الرُّومَانْسِيِّينَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالْأَلْمَانِ أَنَّ التَّعَاوُنَ الْاجْتِمَاعِيَّ وَحْدَهُ يَسْمَحُ بِنُمُوِّ تَامٍّ لِلْقُدْرَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَسَيَكُونُ

لديكَ عندئذِ صُورَةٌ مُختلفةٌ تمامًا لِلمُجتمعِ مُنتظرٌ . فهناك دائماً تصوُّرٌ ما لِلطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ ، ضِمْنِيٌّ أَوْ عَلَنِيٌّ ، يُشكِّلُ أساساً لِمبدأِ النِّظامِ الاجتماعيِّ أَوْ التَّفْسيرِ الاجتماعيِّ .

م . ر .: إلى آيَةِ دَرَجَةٍ تَسْتَطِيعُ اكْتِشافاتُكَ في مِيدانِ اللُّغَةِ وتحديداتُكَ لِحُقُولِ المعرفةِ ، أَنْ تقوِّدَ إلى ظُهورِ مسائلِ فلسفيَّةٍ جديدةٍ؟ - إلى آيَةِ فلسفةٍ تَشْعُرُ أَنَّكَ أَقْرَبُ ؟

ن . ت .: أَمَّا بِشأنِ المسائلِ التي كُنَّا قد ناقشناها تَوَّاهُ ، فَإِنَّ الفيلسوفَ الذي أَشْعُرُ بِأَنِّي أَقْرَبُ إِلَيْهِ والذي أُعيدُ صِياغَةَ عباراتِهِ تقريباً هو (تشارلز ساندروز بيرس Charles Sanders Pierce) . وقد اقترحَ مُخطَّطاً تمهيدياً مُثيراً ، بعيداً جداً عن أَنْ يَكُونَ كامِلاً ، لِمَا سَمَّاهُ «الْخَطْفُ أَوْ الإِبْعَادُ عَنِ المَرَكِزِ الأَصْلِيِّ abduction» .

م . ر .: أَحَسَبُ أَنَّ الْخَطْفَ شَكْلٌ مِنَ الاستدلالِ ، لَا يَعْتَمِدُ عَلَى مبادئِ استنتاجيَّةٍ (كالاستنتاج) فَحَسَبُ ، وَلَا عَلَى المُلَاحَظَةِ التَّجْرِبِيَّةِ وَحْدَهَا (كالاستقراء) . لَكِنَّ ذَلِكَ الجانِبَ عِنْدَ بيرسٍ غَيْرُ معروفٍ في فرنسا إِلَّا عَلَى نَحْوِ ضَيْلٍ .

ن . ت .: أَوْ هُنَا فِي الوِلايَاتِ المُتَّحِدَةِ أَيضاً . وَقَدْ ذَهَبَ بيرسُ إِلَى أَنَّهُ لِكَي يُفسِّرَ المَرءُ نُمُوَّ المعرفةِ ، عَلَيْهِ أَنْ يَفترضَ أَنَّ «عَقْلَ الإنسانِ يَمْتَلِكُ تَكْيِفاً طَبِيعِيًّا لِتَخْيِيلِ نظَريَّاتٍ صَحيحةٍ مِنْ بَعْضِ الأنواعِ» ، مَبْدَأُ لِ «الْخَطْفِ» «يَضَعُ قَيْداً عَلَى فَرَضِيَّةٍ مَسْمُوحٍ بِهَا» ، نَوْعاً مِنَ «الغريزةِ» تَتَطوَّرُ عَبْرَ الارتقاء . كَانَتْ فِكْرُ بيرسٍ فِي «الْخَطْفِ» غامِضَةً نَسِيباً ، وَأَمَّا اقترَاحُهُ أَنَّ البِنْيَةَ التي تُعطينا إِيَّاهَا الحِياةُ تقومُ بِفِعْلٍ أَساسِيٍّ فِي تَخْيِيرِ الفَرَضِيَّاتِ العِلْمِيَّةِ ، فيبدو ذا تأثيرٍ ضَيْلٍ جداً . وَبِحَسَبِ عِلْمِي ، لَيْسَ هُنَاكَ تَقريباً مَنْ حاولَ تَطوِيرَ هذه الفِكرِ ، مَعَ أَنَّ فِكْراً مُماثِلاً قد طُوِّرتْ عَلَى نَحْوِ مُستَقِلٍّ فِي مُناسباتٍ مُختلفةٍ . وَقَدْ كانَ لبيرسِ تأثيرٌ هائلٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِهَذَا السَّبَبِ الخَاصِّ .

م. ر.: والتأثير الأكثر في ميدانِ عِلْمِ العَلَامَاتِ **Semiology**.

ن. ت.: نعم، في ذلك المَجَالِ العام. وقد طَوَّرَتْ فِكْرَهُ في الخَطْفِ فِكْرَ كانط التي لم تكن الفلسفة الأنجلوأمريكية الحديثة سريعةً إلى تقبُّلها. وفيما أعلَمُ، لم يُتَابَعِ منهجُه في نَظَرِيَّةِ المعرفة، حتَّى إِنَّه كان هناك انتقادٌ كثيرٌ للمناهج الاستقرائية - بوبر Popper، مثلاً.

كان (راسل Russel) نَفْسُهُ منشغلاً كثيراً في كتابه الأخير المُسمَّى «المعرفة الإنسانية Human knowledge»، بِعَدَمِ كِفَايَةِ المنهج التجريبيِّ لِاكتسابِ المعرفة. لكنَّ هذا الكتابَ قد أَهْمَلَ، عَلَى الجُمْلَةِ. واقترح مبادئَ مختلفةً لِلاستدلالِ غير البرهانيِّ nondemonstrative inference، بِهَدَفِ تعليلِ المعرفة التي نَمْتَلِكُهَا في الواقع.

م. ر.: الاستدلالُ غيرُ البرهانيِّ يَخْتَلِفُ عن استنتاجاتِ المنطقِ الرِّياضيِّ في أَنَّ صِحَّةَ النَّتَاجِ، مَعَ صِحَّةِ المُقَدِّمَاتِ المنطقيَّةِ والخاصَّةِ الصَّارِمةِ لِلاستنتاج المنطقيِّ، غيرُ مضمونة، إذ تُصَدَّرُ مُعْتَمِدةً عَلَى الاحتمالِ فَحَسْبُ. هَلِ الأمرُ كذلك؟

ن. ت.: جوهرياً، نعم: ففي مُسْتَطَاعِ المرءِ أَنْ يَقُولَ إِنَّ منهجَه هنا كان كانطياً إلى دَرَجَةٍ ما، مَعَ وجودِ اختلافاتٍ أساسية. وقد ظَلَّ راسل، عَلَى نحوِ ما، تجريبياً. ومبادئُه في الاستدلالِ غيرِ البرهانيِّ أُلْحِقَتْ واحِداً إِثْرَ الآخرِ بِالمبدأِ الأساسيِّ المُتمثِّلِ في الاستقراء، وهي لا تُقدِّمُ تَغْيِيراً جَذَريّاً في المنظور. لكنَّ المُشكِلةَ لَيْسَتْ كَمِيَّةً، بل نوعيَّةً. إِنَّ مبادئِ الاستنتاجِ غيرِ البرهانيِّ لا تُحَقِّقُ المطلوبَ. وَأَحْسَبُ أَنَّهُ لا بدَّ مِنْ منهجٍ مختلفٍ تماماً، يَتَّخِذُ نقطةَ انطلاقٍ بعيدةً تماماً عن الافتراضاتِ القَبْلِيَّةِ التجريبية. ولا يَنْطَبِقُ هذا عَلَى المعرفةِ العِلْمِيَّةِ فَحَسْبُ، حَيْثُ هو مقبولُ اليومَ عَلَى الجُمْلَةِ، بل يَنْطَبِقُ أَيضاً عَلَى ما يُمْكِنُ أَنْ

نُسَمِّيهِ تَرْكِيبَاتِ إدْرَاكِ الحِسِّ العامِّ السَّلِيمِ؛ أعني، بِالنَّسْبَةِ إِلَى انطِبَاعَاتِنَا العَادِيَةِ عَنْ طَبِيعَةِ الْعَالَمِ المَادِّيِّ والاجتماعيِّ، الإدْرَاكِ الحَدْسِيِّ لِلْأَعْمَالِ البَشَرِيَّةِ: غَايَاتِهَا، وَمُبَرَّرَاتِهَا، وَأَسْبَابُهَا، إلخ.

هذه مَسَائِلُ مُهِمَّةٌ جَدًّا، وَتَتَطَلَّبُ تَحْلِيلًا أَكْثَرَ مِمَّا فِي مَقْدُورِي أَنْ أَقْدِمَ هُنَا. وَلَكِنْ لِنَعُدْ إِلَى سُؤَالِكِ، إِذْ إِنَّ قَدْرًا كَبِيرًا مِنْ عَمَلِ الفلاسفةِ المُعَاصِرِينَ فِي اللُّغَةِ وَطَبِيعَةِ البَحْثِ العِلْمِيِّ كَانَ مُحَفِّزًا كَثِيرًا بِالنَّسْبَةِ إِلَيَّ. وَقَدْ كَانَ عَمَلِي مِنْذُ الْبَدْءِ مُتَأَثِّرًا كَثِيرًا بِالتَّطَوُّرَاتِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي مِيْدَانِ الفِلسَفَةِ (كَمَا تُدَلِّلُ عَلَى ذَلِكَ اعْتِرَافَاتِي الْمُنشُورَةُ بِأَفْضَالِ الْآخَرِينَ عَلَيَّ؛ خَاصَّةً نِلْسُون جُودْمَان Nelson Goodman، وَو.ف. كُوَاين W.V. Quine)، وَيَسْتَمِرُّ ذَلِكَ فِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا. وَلِأَذْكُرْ بَضْعَةً أَمْثَلَةً فَحَسْبُ، فَعَمَلُ (جون أَوْسْتِن John Austen) حَوْلَ أَفْعَالِ الْكَلَامِ أَثْبَتَ أَنَّهُ مُثْمَرٌ جَدًّا، وَكَذَا عَمَلُ (بول جَرَايس Paul Grice) حَوْلَ مَنْطِقِ الْمُحَادَثَةِ. أَمَّا فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ، فَإِنَّ عَمَلًا مُثِيرًا جَدًّا لَا يَزَالُ يُتَابَعُ حَوْلَ نَظَرِيَّةِ الْمَعْنَى فِي اتِّجَاهَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ. وَفِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ أَنْ يَذْكُرَ إِسْهَامَاتِ (سُول كَرِيْبِك Saul Kripke) وَ(هِيلَارِي بْتْنَام Hilary Putnam)، وَ(جِيرُولْد كَاتَز Jerrold Katz) وَ(مِيخَائِيل دُومِيْت Michael Dummett) وَ(يُولْيُوس مُورَاڤَكْسِيك Julius Moravcsik) وَ(دُونَالْد دَاڤِيدْسُون Donald Davidson)، وَآخَرِينَ كَثِيرِينَ. وَيَبْدُو بَعْضُ الْعَمَلِ فِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ مِمَّا يَتَّصِلُ بِنَظَرِيَّةِ التَّمُودِجِ Model-theoretic - دَرَاْسَةُ «الْحَقِيقَةِ فِي عَوَالِمَ مُمْكِنَةٍ truth in possible worlds» - وَاعِدًا بِنَتَائِجٍ طَيِّبَةٍ. وَإِنْ أُنْسَ فَلَا أُنْسِي عَمَلَ (جَاكُو هَنْتِكَا Jaakko Hintikka) وَزُمَلَائِهِ، الَّذِي يُعَالِجُ مَسَائِلَ أَسَاسِيَّةً فِي عِدَدٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ فِي النَّحْوِ وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ فِي اللُّغَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَّصِلُ بِتَسْوِيرِ الْقَضَايَا الْمُنطَقِيَّةِ quantification. وَقَدْ وُسِّعَ نِطَاقُ مِثْلِ هَذَا

العمل إلى «التداولية Pragmatics»؛ أي إلى دراسة الطريقة التي تُستعمل فيها اللغة لتحقيق بعض المقاصد البشرية، ومن تلك، عمل الفيلسوف اليهودي (آسا كاشر Asa Kasher). وكما تدل هذه الإشارات الموجزة القليلة، يُنفذ هذا العمل على نطاقٍ دوليٍّ وليس أنجلوأمريكيٍّ فحسب.

وعليّ أن أذكر أيضاً عملاً في تاريخ العلم وفلسفته، بدأ يُقدّم فهماً أثيري وأكثر دقة للطريقة التي تتطور فيها الفكر وتتعمق في العلوم الطبيعية. وقد تجاوز هذا العمل - أعني عمل (توماس كوهن Thomas Kuhn) أو (إمري لاکاتوس Imre Lakatos) مثلاً - نماذج التحقيق والتزييف المتكلفة غالباً، التي كانت سائدة لأمَدٍ طويلٍ ومارست تأثيراً مشكوكاً فيه في «العلوم الهشة»، عندما لم تعتمد هذه الأخيرة على أسس تقليدٍ فكريٍّ سليمٍ يمكن أن يوجّه تطورها. وأرى أنه من المفيد، بالنسبة إلى الناس الذين يعملون في هذه الميادين، أن يكونوا مُطلعين على الوسائل التي استطاعت بها العلوم الطبيعية أن تتقدم، خاصة أن يُدرّكوا كيف أن هذه العلوم، في لحظات حاسمة من تطورها، قادتها مثاليّةٌ مُسرّفة، اهتمامٌ بعُمقِ التبصّر والقوّة المُفسّرة، أكثر من أن يقودها اهتمامٌ بتكييف «الحقائق كلّها» - الفكرة التي تُوشك أن تكون عبثاً - حتّى إنّها تُهمَل أحياناً مثاليّةً مُضادةً ظاهرةً على أملٍ (لم يُثبت أحياناً أنه مُبرّرٌ إلّا بعد أعوامٍ عديدةٍ أو حتّى قرونٍ)، وهو أن تُفسّر لها التّبصّرات اللاحقة. وهذه دروسٌ مُفيدةٌ أُسدِل الستارُ عليها في جزءٍ كبيرٍ من النقاش حول نظرية المعرفة وفلسفة العلم.

م. ر.: ماذا تعتقد بشأن الفلسفة الأوروبيّين، الفرنسيّين خاصة؟

ن. ت.: أمّا خارج نطاق الفلسفة الأنجلوأمريكيّة، فلا أعرف ما يكفي عن الفلاسفة المعاصرين لِنناقشهم بجديّة.

م. ر.: هل حدّث أن لقيت أيّ فيلسوفٍ ماركسيٍّ فرنسيٍّ؟

ن. ت.: نادراً ما حَدَثَ ذلك. وهنا لا مَحِيدَ عن بعضِ التَّمييزات. إذ ارتبطَتِ الفلسفةُ الماركسيَّةُ المُعاصرةُ عَلَى نطاقٍ واسعٍ بالعقيدةِ اللَّيْنِيَّةِ، عَلَى الأقلِّ حَتَّى وقتٍ مُتأخِّر. وقد طَوَّرَتِ الماركسيَّةُ الأوروپيَّةُ بعدَ الحربِ العالَميَّةِ الأولى نَزَعَاتٍ مَشْؤومَةً، في رأيي: تلكَ النَزَعَاتُ المُرتبطةُ بِالْبُلْشَفِيَّةِ التي بدَتْ لي دائماً تَيَّاراً استبدادياً وَرَجْعِيّاً. وقد أَصْبَحَتِ الأخيرةُ سائدةً في التَّقْلِيدِ الماركسيِّ الأوروپيِّ بعدَ الثَّوْرَةِ الرُّوسِيَّةِ. وأدْهَى مِنْ ذلكَ بكثيْرٍ، فيما أَحْسَبُ عَلَى الأقلِّ، نَزَعَاتٌ مُتبايِنَةٌ تماماً، وَمِنْ ذلكَ مثلاً تَيَّارُ الرَّأْيِ المُمتدُّ تقريباً مِنْ روزا لوكسمبورغ Rosa Luxemburg والماركسيِّ الأَلمانيِّ أَنتون بانيكويك، وبول ماتيك، إِلَى النِّقَابِيِّ - الفوضويِّ رودلف روكر وآخرين.

لم يُضِفْ هُؤَلاءِ المُفَكِّرونَ إِلَى الفلسفةِ بِالمَعْنَى الذي نَعْتَمِدُهُ في مُناقَشتنا؛ لكنَّهم امتلكوا الكَثِيرَ بِشأنِ المُجْتَمَعِ، والتَّغْيِيرِ الاجتماعيِّ، والمُشْكِلَاتِ الأساسِيَّةِ في الحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ. وَمَعَ ذلكَ لَيْسَ بِشأنِ مُشْكِلَاتٍ مِنَ النُّوعِ الذي نُنَاقِشُهُ، مثلاً. وكثيراً ما غَدَتِ الماركسيَّةُ نَفْسُهَا نوعاً مِنَ الكِنِيسَةِ، اللّاهوت.

وطبيعيُّ أَنِّي أَمْضِي بعيداً جَدّاً في التَّعْميم. وَأَنَّ عَمَلًا ذا قِيَمَةٍ قامَ بِهِ أُولَئِكَ الذينَ يَعُدُّونَ أَنفُسَهُمْ ماركسيِّين، لكنَّهُ إِلَى حَدٍّ ما يُبَرِّرُ هَذَا الانْتِقَادَ، وَلَسْتُ مطمئناً. ومهما يَكُنْ، فَإِنِّي لَا أَظُنُّ أَنَّ فلسفةَ ماركسيَّةٍ، مِنْ أَيِّ اتِّجَاهٍ، قد قَدَّمتْ إِسهاماً جوهريّاً لِنوعِ المَسَائِلِ التي نُنَاقِشُهَا.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الفِلسَفَاتِ الأُخْرَى، فَإِنَّ ما أَعْرِفُهُ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيَّ كَثِيراً، وَلَمْ يُشَجِّعْنِي عَلَى طَلَبِ مَعْرِفَةِ المَزِيد.

م. ر.: لَكِنَّكَ لَقِيتَ (ميشيل فوكو Michel Foucault)، فيما أَظُنُّ، في

برنامجٍ مَرْنِيِّ (تلفزيونيِّ) في أَمَسْتَرْدَام؟

ن. ت.: نعم، وكان لنا بعضُ النقاشاتِ المُمتازةِ قَبْلَ البرنامجِ وخِلاله. وفي المَرَيَّةِ الألمانِيَّةِ، تكلَّمنا عِدَّةَ ساعاتٍ، هو بالفرنسيَّةِ وأنا بالإنجليزيَّةِ؛ ولستُ أَعْرِفُ ما فعلَ مُشاهدو المَرَيَّةِ الألمانِيَّةِ بِذلك كُلِّه. وَجَدنا نفسينا مُتَّفَقِينَ جزئِيًّا عَلَى الأقلِّ، فيما بدا لي، في مسألةِ «الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ»، ورُبَّما ليس كثيرًا في السِّيَاسَةِ (التَّقْطِانِ الأساسِيَّانِ اللَّتانِ حاورنا فونز إدرز بِشأنهما).

وعَلَى قَدْرِ ما كان مفهومُ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ وعَلاقَتُها بِالتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ مُهمًّا، بدا أَنَّا كُنَّا «نَصْعَدُ الجبلَ نَفْسَه، مُنْطَلِقِينَ مِنْ اتِّجَاهَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ»، وأنا هنا أُعِيدُ التَّشْبِيهَ الَّذِي اقترحَه إدرز. وأرى أَنَّ الإبداعَ العِلْمِيَّ يَعْتَمِدُ عَلَى حَقِيقَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ هُما: خاصِيَّةٌ جَوْهَرِيَّةٌ فِي العَقْلِ مِنْ جِهَةٍ، ومجموعةٌ مِنَ الشُّرُوطِ الاجتماعيَّةِ والعقليَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. ولا مجالَ لِلتَّخْيِيرِ مِنْ بَيْنَهُما. وابتغَاءَ فَهْمِ الاكتشافِ العِلْمِيِّ، لا مَحِيدَ عَنْ فَهْمِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ هَذَيْنِ العَامِلَيْنِ. أمَّا عَلَى المَستَوى الشَّخْصِيِّ فَأنا أَكْثَرُ اِهْتِمَامًا بِالْأَوَّلِ، فِي حِينِ أَنَّ فوكو يُوَكِّدُ الثَّانِي.

يَعُدُّ فوكو المَعْرِفَةَ العِلْمِيَّةَ فِي عَهْدِ ما، شَبَكَةً مِنَ الظُّرُوفِ الاجتماعيَّةِ والعقليَّةِ، نِظامًا تَسمَحُ قَوَاعِدُهُ بِإبداعِ مَعْرِفَةٍ جَدِيدَةٍ. وهو يَرى، إِنْ كُنْتُ قد فَهَمْتُهُ جَيِّدًا، أَنَّ المَعْرِفَةَ البَشَرِيَّةَ تُغَيَّرُ وَفَقًا لِظُرُوفِ اجتماعِيَّةِ وصِراعاتِ اجتماعِيَّةِ، بِإِحْلالِ شَبَكَةٍ مَحَلِّ الشَّبَكاتِ الأُخْرَى، مِمَّا يُوفِّرُ إمكانيَّاتٍ جَدِيدَةً لِلْعِلْمِ. وأَحْسَبُ أَنَّهُ مُتَشَكِّكٌ بِشَأْنِ إمكانيَّةِ، أو مشروعِيَّةِ، السَّعْيِ إِلَى وَضْعِ مَصادِرٍ مُهمَّةٍ للمَعْرِفَةِ البَشَرِيَّةِ داخِلَ العَقْلِ الإنسانيِّ، متصوِّرةً بِطريقةٍ غيرِ تاريخِيَّةِ.

ويقتضي موقفُه أيضًا استعمالًا مُختلفًا لِمُصْطَلَحِ إبداعِ Creativity. وأنا حِينَ أَتَحَدَّثُ عَنِ الإبداعِ فِي هَذَا السِّياقِ، لا أَصْدِرُ حُكْمَ قِيَمَةٍ: فالإبداعُ وَجْهٌ مِنْ وجوهِ الاستعمالِ العاديِّ واليوميِّ لِلُّغَةِ والفِعْلِ البَشَرِيِّ، عَلَى الجُمْلَةِ. وَمَهْمَا

يَكُنْ، فَإِنَّ فُوكُو حِينَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِبْدَاعِ يُفَكِّرُ كَثِيرًا بِإِنْجَازَاتِ شَخْصٍ مِنْ قَبِيلِ نيوتن، مثلاً - معَ أَنَّهُ يُؤَكِّدُ الْأَسَاسَ الْاجْتِمَاعِيَّ وَالْعَقْلِيَّ الْمَشْتَرَكِ فِي إِبْدَاعَاتِ الْخِيَالِ الْعِلْمِيِّ، بَدَلًا مِنْ إِنْجَازَاتِ عِبْقَرِيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ - أَعْنِي أَنَّهُ يُفَكِّرُ بِلُغَةٍ الْإِبْتِكَارِ الْجَذْرِيِّ.. وَاسْتِعْمَالُهُ لِلْمُصْطَلَحِ أَكْثَرَ عَادِيَّةً مِنْ اسْتِعْمَالِي. لَكِنَّهُ حَتَّى إِنْ وَجَدَ الْعِلْمُ الْمُعَاصِرُ حَلًّا لِلْمُشْكِلَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْإِبْدَاعِ الْمَأْلُوفِ، الْعَادِيَّ - وَأَنَا أَشْكُكَ نِسْبِيًّا حَتَّى بِشَأْنِ هَذَا - فَإِنَّهُ يَظَلُّ بَعِيدًا عَنْ أَنْ يَأْمَلَ حَقًّا بِأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِدْرَاكِ الْإِبْدَاعِ الْحَقِيقِيِّ بِالْمَعْنَى الْأَكْثَرِ اسْتِعْمَالًا لِلْكَلِمَةِ، أَوْ، قَوْلِي، التَّنَبُّؤِ بِإِنْجَازَاتِ الْفَنَّانِينَ الْكِبَارِ أَوْ الْاِكْتِشَافَاتِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ فِي مَيْدَانِ الْعِلْمِ. وَيَبْدُو ذَلِكَ بَحْثًا لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ. وَأَرَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّتِي أُتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ «الْإِبْدَاعِ الْعَادِيَّ»، لَا يَخْتَلِفُ عَمَّا كَانَ دِيكَارْتِ يُفَكِّرُ فِيهِ حِينَ أَقَامَ تَمْيِيزًا بَيْنَ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْبَبْغَاءِ. وَفِي الْمَنْظُورِ التَّارِيخِيِّ لِفُوكُو، لَمْ يَعُدِ الْمَرْءُ يَنْشُدُ تَحْدِيدَ هُويَّةِ الْمُبْدِعِينَ وَإِنْجَازِهِمِ الْمُمَيِّزَ أَوْ الْعَقَبَاتِ الَّتِي وَقَفَتْ فِي طَرِيقِ ظُهُورِ الْحَقِيقَةِ، بَلْ يَنْشُدُ تَحْدِيدَ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي تُعَدَّلُ بِهَا الْمَعْرِفَةُ، مِنْ حَيْثُ هِيَ نِظَامٌ مُسْتَقِلٌّ عَنِ الْأَشْخَاصِ، قَوَاعِدَ تَكُونِهَا.

م. ر.: فِي تَحْدِيدِ فُوكُو مَعْرِفَةَ عَصْرِ مَا بَأَنَهَا شَبَكَةٌ أَوْ نِظَامٌ، أَلَا يَقْتَرِبُ فُوكُو

مِنْ الْفِكْرِ الْبِنْيَوِيِّ، الَّذِي يَعُدُّ أَيْضًا اللُّغَةَ نِظَامًا؟

ن. ت.: إِنَّ الْإِجَابَةَ الدَّقِيقَةَ تَقْتَضِي دِرَاسَةً هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَعْمَقٍ. وَمَهْمَا يَكُنْ،

فَإِنَّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَتَحَدَّثُ عَنْ التَّقْيِيدَاتِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى صِنْفِ النَّظَرِيَّاتِ السَّهْلَةِ الْمَنَالِ - تِلْكَ الْمُرْتَبِطَةُ بِتَقْيِيدَاتِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَتَسْمَحُ بِإِنْشَاءِ نَظَرِيَّاتٍ غَنِيَّةٍ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ - كَانَ هُوَ أَكْثَرَ انْشَغَالًا بِتَوَالِدِ الْاِحْتِمَالَاتِ النَّظَرِيَّةِ، النَّاتِجِ عَنْ تَبَايُنِ الظُّرُوفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، الَّتِي يَسْتَطِيعُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ أَنْ يَزْدَهَرَ فِيهَا.

م. ر.: وَعَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ، يُؤَكِّدُ عِلْمُ اللُّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ الْاِخْتِلَافَاتِ بَيْنَ اللُّغَاتِ.

ن. ت.: عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ حَذِرًا فِي الْإِجَابَةِ، لِأَنَّ تَعْبِيرَ «عِلْمِ اللُّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ»،
يُمْكِنُ أَنْ يُضْمَّ تَحْتَ جَنَاحِيهِ تَنَوُّعًا كَبِيرًا فِي الْمَوَاقِفِ. إِذْ مِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ اللُّغَوِيِّينَ
الْأَمْرِيكِيِّينَ مِنْ ذَوِي الْإِتِّجَاهِ «الْبُلُومْفِيلْدِيِّ»^(*) الْجَدِيدِ، الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ
أَحْيَانًا «بِنْيَوِيِّينَ»، قَدْ تَأَثَّرُوا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ، مِثْلَ
مَارْتِنِ جُوزِ، قَدْ مَضَى إِلَى حَدِّ يُعْلَنُ فِيهِ، فِي صُورَةِ اقْتِرَاحِ عَامٍّ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، أَنَّ
اللُّغَاتِ قَدْ تَتَبَايَنُ فِيمَا بَيْنَهَا عَلَى نَحْوِ اعْتِبَاطِيٍّ، وَحِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ «الْكَلِّيَّاتِ»،
يَقْتَضِي ذَلِكَ تَمَيِّزًا لِطَبِيعَةٍ مُحَدَّدَةٍ جَدًّا، رَبَّمَا بَعْضَ الْمُلَاحَظَاتِ الْإِحْصَائِيَّةِ. وَمِنْ
وَجْهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا التَّمْيِيزِ، سَيَكُونُ عَامًّا جَدًّا فِي مُلَاحَظَتِهِ فِي حَالِ
مَدَارِسَ أُخْرَى فِي عِلْمِ اللُّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ؛ مِنْ ذَلِكَ مَثَلًا عَمَلُ رُومَانَ جَاكُوبْسُونِ،
الَّذِي كَانَ دَائِمًا مُنْهَمِكًا فِي الْكَلِّيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تُفِيدُ بِدِقَّةٍ صِنْفَ اللُّغَاتِ
الْمُمْكِنَةِ، خَاصَّةً فِي عِلْمِ الْأَصْوَاتِ الْكَلَامِيَّةِ.

وَعَلَى قَدْرِ مَا كَانَ فُوكُو مَهْتَمًا، كَمَا أَسْلَفْتُ، يَبْدُو مَرْتَبًا بِشَأْنِ إِمْكَانِيَّةِ تَطْوِيرِ
مَفْهُومِ «الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ» الْمُسْتَقِلِّ عَنِ الظُّرُوفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، بِوَصْفِهِ
مَفْهُومًا حَيَوِيًّا مُحَدَّدًا جَيِّدًا. وَلَسْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ سَيَصِفُ مِنْهَجَهُ بِأَنَّهُ «بِنْيَوِيٌّ». وَلَا
أَشْرَكَهُ ارْتِيَابَهُ. وَسَأَكُونُ عَلَى وِفَاقٍ مَعَهُ فِي قَوْلِهِ إِنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ لَيْسَتْ حَتَّى
الْآنَ ضِمْنَ نِطاقِ الْعِلْمِ. حَتَّى الْآنَ، تَأَبَّتْ عَلَى الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ؛ لَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّهُ
فِي مَيَادِينِ مُحَدَّدَةٍ كِدِرَاسَةِ اللُّغَةِ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبْدَأَ بِصِيَاغَةِ مَفْهُومٍ مُهِمٍّ لِـ «الطَّبِيعَةِ
الْبَشَرِيَّةِ»، فِي وَجْهَيْهَا الْعَقْلِيِّ وَالْإِدْرَاكِيِّ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنِّي لَنْ أَتَرَدَّدَ فِي اعْتِدَادِ
الْمَقْدَرَةِ اللُّغَوِيَّةِ جِزَاءً مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

م. ر.: هَلْ تَحَدَّثْتَ أَنْتَ وَفُوكُو عَنِ النَّحْوِ الْعَامِّ لِلْبُورْتِ رُوبَالِ Port-

. Royal grammire Generale

*- نِسْبَةً إِلَى بُلُومْفِيلْدِ [الْمُتَرَجِمِ].

ن. ت.: عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ دِقَّةٍ، تَحَدَّثْنَا عَنْ صِلَتِي بِالْعَمَلِ فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ.
وهناك عَدَدٌ مِنْ صُورِ سُوءِ الْفَهْمِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

وهذه المسائلُ يمكنُ أَنْ تُتَنَاولَ بِطَرَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ. فَتَنَاولِي لِلتَّقْلِيدِ الْعَقْلَانِيَّ الْحَدِيثِ الْمُبَكَّرِ، مَثَلًا، لَيْسَ تَنَاولَ مُؤَرِّخٍ لِلْعِلْمِ أَوْ الْفَلَسَفَةِ. فَلَمْ أُحَاوِلْ أَنْ أُبْنِيَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى نَحْوِ شَامِلٍ مَا اعْتَقَدَهُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، بَلْ حَاوَلْتُ أَنْ أُضِيءَ بَعْضَ التَّبَصُّرَاتِ الْمُهِمَّةِ فِي الْمَرَحَلَةِ مِمَّا كَانَ قَدْ أُهْمِلَ، وَكَثِيرًا مَا شُوِّهَ عَلَى نَحْوِ خَطِيرٍ، فِي الثَّقَافَةِ الْحَدِيثَةِ، وَأَنْ أُظْهِرَ كَيْفَ أَنَّ بَعْضَ الْأَشْخَاصِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ اسْتَبَانُوا أَشْيَاءَ مُهِمَّةً، رُبَّمَا مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونُوا مُتَبَيِّنِينَ إِلَى ذَلِكَ تَمَامًا. وَتُفْهَمُ هَذِهِ الْمَقَاصِدُ الْمُحَدَّدَةُ بِجَلَاءٍ تَامٍّ فِي كِتَابِي «اللُّغَوِيَّاتُ الدِّيْكَارْتِيَّةُ Cartesian Linguistics» مَثَلًا.

شَغَلَتْنِي مَرَاكِلُ مُبَكَّرَةٍ مِنَ التَّفَكِيرِ وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا يَتَّصِلُ بِمَسَائِلِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ. وَحَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَ فِي آيَةِ طَرَائِقَ، وَإِلَى أَيِّ مَدَى، أُضِيفَتْ فِكْرٌ مُمَاطِلَةٌ، وَتَوَقَّعْتُ لِتَطَوُّرَاتٍ لَاحِقَةٍ، رُبَّمَا مِنْ مَنظُورَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ نَسْبِيًّا. وَأَحْسَبُ أَنَّاسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْ وَجْهَةٍ مَصْلَحَتِنَا الْحَالِيَّةِ فِي تَقَدُّمِ الْفَهْمِ، كَيْفَ كَانَ مُفَكَّرُ الْمَاضِي يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ نَحْوَ فِكْرِ مُهِمَّةٍ جَدًّا، عَلَى نَحْوِ مُتَكَرِّرٍ وَبَنَاءٍ وَرَائِعٍ، وَرُبَّمَا بَوَعِيٍّ جَزْئِيٍّ فَحَسْبُ لِطَبِيعَةِ بَحْثِهِ.

دَعَيْنِي أَقْدَمُ تَمَثُّيلًا. أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ بِطَرِيقَةِ مُؤَرِّخٍ لِلْفَنِّ بِقَدْرِ مَا هِيَ طَرِيقَةُ مُحِبِّ لِلْفَنِّ، شَخْصٍ يَبْحَثُ عَمَّا لَهُ أَهْمِيَّةٌ عِنْدَهُ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، مَثَلًا، تِلْكَ الْقِيَمَةُ الْمُسْتَمَدَّةُ عَلَى نَطاقٍ وَاسِعٍ مِنَ الْمَنظُورِ الْمُعَاصِرِ، الَّذِي يَتَنَاولُ بِهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ. وَكِلَا النَّمَطَيْنِ مِنَ التَّنَاولِ مُشْرُوعٌ. وَأَحْسَبُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ نُنِمِّمَ شَطْرَ مَرَاكِلِ مُبَكَّرَةٍ لِلْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ، بِفَضْلِ مَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ، لِنُضِيءَ الْإِسْهَامَاتِ الْمُهِمَّةَ

لِلْمَرْحَلَةِ، عَلَى نَحْوِ عَجَزَ عَنْهُ الْعَبَاقِرَةُ الْأَكْثَرُ إِبْدَاعًا بِسَبَبِ حَوَاجِزِ عَصْرِهِمْ. هَذِهِ كَانَتْ طَبِيعَةً اهْتِمَامِي بِدِيكَارْت، مَثَلًا، وَبِالتَّقْلِيدِ الْفَلَسَفِيِّ الَّذِي تَأَثَّرَ بِهِ، وَكَذَا بِهَمْبُولْدت Humboldt، الَّذِي لَمْ يُعَدِّ نَفْسَهُ دِيكَارْتِيًّا: كُنْتُ مَهْتَمًّا بِمُحَاوَلَتِهِ الْإِفَادَةَ مِنْ مَفْهُومِ الْإِبْدَاعِ الْحُرِّ الْقَائِمِ عَلَى نِظَامِ الْقَوَاعِدِ الْمُتَمَثِّلَةِ internalized rules، وَهِيَ فِكْرَةٌ لَهَا بَعْضُ الْجُذُورِ فِي التَّفَكِيرِ الدِّيكَارْتِيِّ، فِيمَا أَحْسَبُ.

وَقَدْ انْتَقَدَ نَوْعُ الْمَنْهَجِ الَّذِي كُنْتُ أَتْبَنَاهُ، لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَتِمَّ عَلَى آيَةٍ أُسِّسَ عَقْلَانِيَّةً، عَلَى قَدَرٍ مَا أُوتِيتُ مِنْ فَهْمٍ. وَرُبَّمَا يَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أُنَاقِشَ طَبِيعَةَ مِثْلِ هَذَا التَّنَاولِ وَمَشْرُوعِيَّتَهُ بِتَفْصِيلٍ أَكْثَرَ، مَعَ أَنَّهُمَا بَدَتَا لِي (وَمَا تَرَالَانِ تَبْدَوَانِ لِي) وَاضِحَتَيْنِ. وَمَا قُلْتُهِ مَأْلُوفٌ تَمَامًا فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ. إِذْ يُبَيِّنُ دِيكْسْتَرْهَيْسُ Dijksterhuis مَثَلًا، فِي عَمَلِهِ الرَّئِيسِ عَنْ أُصُولِ الْمِيكَانِيكََا الْكَلَّاسِيكِيَّةِ، مُشِيرًا إِلَى نِيُوتِن، أَنَّهُ «يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِدِقَّةٍ إِنَّ النِّظَامَ كُلَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ فِي ضَوْءِ التَّطَوُّرِ الْآلِاحِقِ فِي الْعِلْمِ فَحَسْبُ»^(١). هَبِي أَنْ تَبْصُرَاتِ الْمِيكَانِيكََا الْكَلَّاسِيكِيَّةِ قَدْ ضَاعَتْ، وَكَانَ ثَمَّةَ عَوْدَةٍ إِلَى شَيْءٍ أَقْرَبَ إِلَى «التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ» - تَكْدِيسِ كَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْمُلاحَظَاتِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ وَتَنْظِيمِهَا، رُبَّمَا نَوْعٍ مِنْ عِلْمِ الْفَلَكَ عِنْدَ الْبَابِلِيِّينَ (مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْإِشَارَةَ نَفْسَهَا قَدْ تَكُونُ غَيْرَ مُنْصِفَةٍ). ثُمَّ افْتَرَضِي أَنَّهُ فِي رِدَاءٍ جَدِيدٍ مِنَ الْعِلْمِ، ظَهَرَتْ ثَانِيَةً أَسْئَلَةٌ مُمَاثِلَةٌ لِأَسْئَلَةِ مَرْحَلَةِ الْمِيكَانِيكََا الْكَلَّاسِيكِيَّةِ، سَيَكُونُ مُنَاسِبًا تَمَامًا إِذْ ذَاكَ، وَمُهِمًّا تَمَامًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَنْ نُحَاوَلَ اكْتِشَافَ التَّبْصُرَاتِ الْمَهْمَةِ لِمَرْحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ، وَأَنْ نُحَدِّدَ فِي آيَةٍ طَرَائِقَ كَانَتْ تِلْكَ تَوَقَّعَاتٍ لِلْعَمَلِ الْحَاضِرِ، رُبَّمَا لِنُفْهَمِ كَمَا يَنْبَغِي فِي ضَوْءِ التَّطَوُّرَاتِ الْآلِاحِقَةِ. وَيُلَوِّحُ لِي، أَنَّ هَذَا تَقْرِيبًا مَا حَدَّثَ فِي دَرْسِ اللِّغَةِ وَالْعَقْلِ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُثِيرٌ تَمَامًا

١- ي. ج. دِيكْسْتَرْهَيْس، مَكْنَنُهُ صُورَةُ الْعَالَمِ The Mechanization of the World

Picture (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦١م)، ص ٤٦٦.

أَنْ نَعُودَ إِلَى التَّبَصُّرَاتِ الَّتِي أَهْمِلْتُ مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، وَنَتَنَاوَلَ الْأَعْمَالَ الْأُولَى (التي كثيراً ما شُوِّهَتْ بِقَسْوَةٍ، كَمَا بَيَّنْتُ) مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْاهْتِمَامَاتِ الْحَالِيَّةِ، وَنُحَاوَلَ أَنْ نَرَى كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُفْهَمَ مَسَائِلُ نُوقِشْتُ فِي عَهْدٍ مُبَكَّرٍ، وَيُعَادَ تَفْسِيرُهَا أحياناً، فِي ضَوْءِ فَهْمٍ أَكْثَرَ حَدَاثَةً، لَا لِكَيْ تُمَزَجَ بِجُهودٍ (كجُهودِ Dijksterhuis في الفيزياء) لِيُعَادَ مِنْ جَدِيدٍ بِنَاءُ كَيْفِيَّةِ ظُهُورِ الْمَسَائِلِ وَكَيْفِيَّةِ نُشُوءِ الْفِكْرِ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ. وَطَبِيعِي أَنْ الْمَرْءُ يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَ تَزْيِيفَ مُنَاقَشَةٍ سَابِقَةٍ، لَكِنِّي غَيْرُ مُطَّلِعٍ عَلَى تَحْلِيلِ انتقاديِّ لِعَمَلِي، يُبَيِّنُ أَنَّ الْحَالَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ. وَأَجِدُنِي آسِفًا لِلْقَوْلِ إِنَّ هُنَاكَ قَدْرًا مِنَ التَّشْوِيهِ الصَّرِيحِ لِمَا كَتَبْتُهُ، فِيمَا يُسَمَّى ثَقَافَةُ الْعَالَمِ The scholarly literature، وَلَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي أَنْ أَجِدَ انْتِقَاصًا حَادًّا لِأَرَائِي الَّتِي أَتَبَنَّاها، حَتَّى فِي مَوْضُوعَاتٍ لَمْ أَعْرِضْ لَهَا الْبَتَّةَ. وَقَدْ عَلَّقْتُ أحياناً عَلَى بَعْضِ هَذِهِ التَّزْيِيفَاتِ، كَمَا يَفْعَلُ الْآخَرُونَ، لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى نَحْوِ إِجْمَالِيٍّ، فِي آيَةِ حَالٍ، وَلَنْ أَوَاصَلَ ذَلِكَ هُنَا.

إِنَّ كُلَّ مَنْ يَجْعَلُ دَابَّةَ الْعَمَلِ الْعَقْلِيَّ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ بِنَفْسِهِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ: تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُحَاوِلِي مُعَاوَدَةَ النَّظَرِ فِيمَا فَهَمَّتِهِ مِنْذُ عَشْرِينَ عَامًا، ثُمَّ تَبَيَّنِي أَنَّكَ كُنْتَ تُنَاضِلِينَ لِلْمُضِيِّ فِي وَجْهَةٍ مَا عَلَى نَحْوِ مُضْطَرَبٍ، نَحْوَ هَدَفٍ مَا رُبَّمَا لَمْ يَغْدُ وَاضِحًا وَمَفْهُومًا إِلَّا فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ كَثِيرًا.

م. ر.: وَمَاذَا كَانَتِ الْخِلَافَاتُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ فُوكُو؟

ن. ت.: أَمَّا بِشَأْنِي فَأُمِيرٌ بَيْنَ مُهِمَّتَيْنِ عَقْلِيَّتَيْنِ: الْأُولَى أَنْ أَتَخَيَّلَ مُجْتَمَعًا مُسْتَقْبَلِيًّا يَسْتَجِيبُ لِضُرُورَاتِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فِي أَفْضَلِ مَا نَفْهَمُهَا. وَالثَّانِيَّةُ أَنْ نُحَلِّلَ طَبِيعَةَ السُّلْطَةِ وَالْاضْطِهَادِ فِي مُجْتَمَعَاتِنَا الْحَالِيَّةِ. وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ كُنْتُ فَهَمَّتُهُ عَلَى نَحْوِ سَدِيدٍ، فَإِنَّ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَخَيَّلَهُ الْآنَ لَيْسَ إِلَّا نِتَاجًا لِلْمُجْتَمَعِ الْبُورْجُوازِيِّ فِي الْعَهْدِ الْحَدِيثِ: فَفَكَّرُ الْعَدَالَةِ أَوْ «تَحْقِيقِ الْجَوْهَرِ الْإِنْسَانِيِّ»،

لَيْسَتْ إِلَّا اختراعاتٍ لِحَضَارَتِنَا ونتاجاتٍ لِنِظَامِنَا الطَّبَقِيِّ. وهكذا، فَإِنَّ مفهومَ الْعَدَالَةِ يُحوَّلُ إلى ذريعةٍ تُقدِّمُهَا الطَّبَقَةُ التي تَمْلِكُ الوصولَ إلى السَّلْطَةِ أو تريدُ أَنْ تَمْلِكَ ذلكَ. ومُهمَّةُ الْمُصْلِحِ أو الثَّوْرِيِّ أَنْ يظْفَرَ بِالسَّلْطَةِ، لا أَنْ يُوجِدَ مُجْتَمَعًا أَكْثَرَ عَدَالَةً. والأسئلةُ عن الْعَدَالَةِ الْمُجَرَّدَةِ لا تُعْرَضُ، ورُبَّمَا لا يُمْكِنُ أَنْ تُعْرَضَ، عَلَى نَحْوِ وَاضِحٍ. ويقولُ فوكو، وأقولُ ثَانِيَةً إِنَّ كُنْتُ فهِمْتُهُ عَلَى نَحْوِ سَدِيدٍ، إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخْوضُ غِمَارَ الصَّرَاعِ الطَّبَقِيِّ لِيَرِيحَ، وليسَ لِأَنَّ ذلكَ سيؤدِّي إلى مُجْتَمَعٍ أَكْثَرَ عَدَالَةً. وفي هذا الصَّدَدِ، لَدَيَّ رَأْيٌ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا. فالصَّرَاعُ الاجتماعيُّ، في اعتقادي، لا يُمْكِنُ أَنْ يُبَرَّرَ إِلَّا إذا أُيِّدَهُ البرهانُ - حتَّى إِنْ كانَ برهانًا غَيْرَ مُبَاشِرٍ وقائِمًا عَلَى مَسَائِلِ الْحَقِيقَةِ وَالْقِيَمَةِ التي تُفْهَمُ جَيِّدًا - والتي ترمي إلى إظهارِ أَنَّ نَتَاجَ هذا الصَّرَاعِ ستَكُونُ خَيْرَةً لِلْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَستُحَدِّثُ مُجْتَمَعًا أَكْثَرَ تَهْذِيبًا. دَعِينَا نَأْخُذُ حَالَةَ الْعَنْفِ. أنا لَسْتُ سَلَامِيًّا مُلتَزِمًا، وَمِنْ ثَمَّ، لا أَقولُ إِنَّهُ مِنَ الْخَطَأِ استعمَالُ الْعَنْفِ في كُلِّ الظُّرُوفِ، كالدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ. لكنَّ أَيَّ لُجُوءٍ إلى الْعَنْفِ يَنْبَغِي أَنْ يُبَرَّرَ، رُبَّمَا بِحُجَّةٍ أَنَّهُ ضَرُورِيٌّ لِمُعَالَجَةِ الظُّلْمِ - ولو قُدِّرَ لِانْتِصَارِ ثَوْرِيٍّ لِلبروليتاريا أَنْ يُوَدِّيَ إلى وَضْعِ بَقِيَّةِ الْعَالَمِ في الْمَحَارِقِ، فَإِنَّ الصَّرَاعَ الطَّبَقِيَّ مِنْ ثَمَّ لا يُبَرَّرُ. لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُبَرَّرًا إِلَّا بِإِثْبَاتٍ أَنَّهُ سَيُنْهِي الاضطهادَ الطَّبَقِيَّ، وَيُحَقِّقُ ذلكَ عَلَى نَحْوِ يَنْسَجِمُ وَحُقُوقُ الْإِنْسَانِ الْأَسَاسِيَّةِ. وَتَبَرُّرُ هُنَا تَسْأُلاتٌ مُعَقَّدَةٌ، مِنْ دُونِ رَيْبٍ، لَكِنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُوجَّهَ. كُنَّا مُخْتَلَفَيْنِ اخْتِلَافًا بَيِّنًا؛ لِأَنَّنِي حِينَما كُنْتُ أَتَحَدَّثُ عَنِ الْعَدَالَةِ، كانَ هُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّلْطَةِ. ذلكَ، عَلَى الْأَقْلَى، ما بدا لي أَنَّهُ الاختلافُ بَيْنَ وَجْهَتَيْ نَظَرِنَا^(١).

١- يظهرُ النَّصُّ في Fons Elders، طبعة رفلكسف ووترز (لندن، مطبعة ساوفنير، ١٩٧٤م).

الفصل الرابع التجريبية والعقلانية

م. ر.: في عدّة مناسباتٍ كُنْتُ انتقدتِ التجريبيةَ الفلسفيةَ والعلميةَ. فهل لك

أن توضحَ اعتراضاتك على نحوٍ أكثرَ دقةً؟

ن. ت.: يمكن القول على نحوٍ من الأنحاء، إنّ التجربة قد طوّرت نوعاً من ثنائية العقل والجسد، من النموذج غير المقبول البتّة، في الوقت الذي رفضت فيه مثل هذه الثنائية من وجهة نظرٍ أخرى. وضمن إطارٍ تجريبيّ، يتناول المرءُ دراسةَ الجسدِ بوصفه موضوعاً في العلوم الطبيعية، مُستنتجاً أنّ الجسدَ مُركَّبٌ من أعضاءٍ مُتنوّعةٍ ومُتخصّصةٍ، وهي مُعقّدةٌ جدّاً ومُحدّدةٌ وراثيّاً في خاصيّتها الأساسية، وأنّ هذه الأعضاء تتفاعل على نحوٍ تُحدّده أيضاً حيويّة «بيولوجيّة» الإنسان. ومن وجهةٍ أخرى، تُصوّرُ التجربة على أنّ الدماغَ لوحٌ أملسٌ *a tabula rasa* (*) فارغٌ، بسيطٌ، مُنظَّمٌ على الأقلّ على قدرٍ ما تقتضي البنية الإدراكية. ولا أرى أيّ داعٍ لتصورٍ ذلك؛ لا أرى أيّ سببٍ لتصورٍ أنّ الإصبعَ الصغيرةَ عضوٌ أكثرُ تعقيداً من أجزاء الدماغ البشريّ المُستعملة في القُدّراتِ العقلية العليا؛ بل على التّقيض من ذلك، من غيرِ المُستبعد أن تكون هذه بينَ البنى الأكثرِ تعقيداً في الكون. ليس ثمةَ مُبرّرٍ لتصورٍ أنّ القُدّراتِ العقلية العليا هي، على نحوٍ ما، بعيدةٌ عن تعقيدِ التّنظيم هذا.

*- عبارة لاتينية تعني العقل قبل تلقّيه انطباعات خارجية. [المترجم: انظر المورد].

وفي مقدور المرء أن يذهب إلى القول إنَّ الثَّنَائِيَّةَ التي يُقدِّمها المبدأُ التجريبيُّ منهجيَّةٌ أكثر منها واقعيَّةٌ؛ أريدُ أنه يُسلمُ فيها بأنَّ الجَسَدَ ينبغي أن يُدرَسَ من خلالِ المناهجِ المألوفةِ في العِلْمِ، أمَّا في حالِ العَقْلِ، فإنَّ بعضَ التَّصَوُّراتِ القَبْلِيَّةِ قد فُرِضَتْ ممَّا أبعدَ هذه الدِّرَاسَةَ فَعَلِيًّا عن ميدانِ البَحْثِ العِلْمِيِّ. والحقُّ أنَّ هذه المَبْدَئِيَّةَ «الدَّوْغماطِيَّةَ» تبدو أيضًا جَذَابَةً في العهدِ القريبِ. فهيوم، مثلاً، فَعَلَ ما بوسِعِهِ حقًّا لإظهارِ أنَّ مبادئه الأولىَّ بِشأنِ اكتسابِ المعرفةِ الإنسانيَّةِ، كانتْ كافيةً لِتغطيةِ صِنْفٍ مُثِيرٍ من الحالاتِ، وتحدَّى خُصُومَه في أن يأتوا بِـ «فِكْرَةٍ» مَنْطِيقِيَّةٍ غيرِ مُستَمَدَّةٍ من انطباعِ الحِسِّ بِمبادئه. وثَمَّةَ ضَرْبٍ من الغُمُوضِ في إجرائه هنا، منذُ أن بدا نِسْبِيًّا مُنْشَغَلًا بنوعٍ من البَحْثِ العِلْمِيِّ، مُحاولًا أن يُبيِّنَ أنَّ بعضَ المبادئِ التي اقترحها كانتْ كافيةً حقًّا لِتغطيةِ الحالاتِ الخطيرةِ، في حينَ أنَّه في أوقاتٍ أُخرى، يَعْتَمِدُ عَلَى هذه المبادئِ في إظهارِ أنَّ فِكْرَةً ما «غيرُ مَنْطِيقِيَّةٍ»، لِأَنَّها لا يمكنُ أن يُوَصَلَ إليها من خلالِ هذه المبادئِ - وذلكمُ بُرْهانٌ أساسُه تَسْلِيمُنَا بِمبادئه غيرِ المعقولةِ ظاهريًّا، بِشأنِ طَبِيعَةِ العَقْلِ. ويَعُدُّ هيوم مبدأَ الاستنتاجِ الاستقرائيِّ ضَرْبًا من «الغَرِيزَةِ الحَيَوَانِيَّةِ»، التي سيظهرُ أَنَّها افتراضٌ تجريبيٌّ. وفي الرِّوَايَاتِ الحديثةِ، كثيرًا ما حُوِّلتِ افتراضاتُه إلى مبدأ dogma مُفْتَرَضٍ مُقَدِّمًا، من دُونِ مُحاولَةٍ جادَّةٍ لإظهارِها مَشْرُوعَةً، أو لِلرَّدِّ عَلَى الانتقاداتِ الكلاسيكيَّةِ التي أُثِيرَتْ إِزاءَ هذه المبادئِ.

وليس هناك مُبرِّرٌ اليومَ لِتَصَوُّرِ أنَّ مبادئَ هيوم، أو أيِّ شيءٍ آخَرَ مُماثِلٍ لها، كافيةٌ لِتفسيرِ «فِكْرِنَا» أو معرفتنا واعتقاداتنا، ولا لِتَصَوُّرِ أنَّ لها أيَّةَ أَهمِّيَّةٍ خاصَّةٍ. ولا مجالٌ لِأَيِّ مذهبٍ استنتاجيِّ بِشأنِ تَعْقِيدِ الدِّماغِ أو اتِّساقِهِ تَبَعًا لِأَهمِّيَّةِ الوظائفِ العقلِيَّةِ العليا. وعلينا أن نَشْرَعَ بِبَحْثِ البِنَى الإدراكيَّةِ المختلفةِ التي تُطَوِّرُها الكائناتُ البشريَّةُ عَلَى نحوٍ عاديٍّ عندَ نُضْجِها واتِّصالِها بِالْمُحِيطِ الماديِّ

والاجتماعي، مُحاولين أن نُحدّد، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، المبادئ التي تحكم هذه البنى الإدراكية. ومتى يُظفَر بِفَهْمٍ ما لطبيعة هذه الأنظمة يَكُنْ في المُستطاع، على نحوٍ معقول، دراسةُ أساسِ اكتسابها. ويُخيلُ إليّ أن القليل الذي نَعْرِفُه عن هذه المسائل يُوحِي بأنّ العقل، كالجسد، هو حقاً منظومةٌ من الأعضاء - يمكنُ أن ندعوها «الأعضاء العقلية» بالتمثيل - ويعني ذلك أجهزةً مُتميّزةً جداً ومُنظمةً وَفْقَ برنامجٍ وراثيٍّ يُحدّدُ وظيفتها، وبنيتها، وعمليةَ تطوُّرها، على نحوٍ مُفصّلٍ تماماً. ويعتمدُ التحقيقُ الخاصُّ لهذه المبادئ الأساسية طبعاً على تفاعلها مع المحيط، كما هي الحالُ في الجهازِ البصريِّ الذي ذكرناه قَبْلُ. وإن صحَّ ذلك، فإنّ العقلَ جهازٌ مُعقّدٌ ذو قُدْرَاتٍ مُتفاعلة، لا تتطوّرُ بِفِعْلِ المبادئ المُتساوقةِ لِـ «العقل العام»؛ وهو مُؤلّفٌ من «أعضاءٍ عقليةٍ» مُخصّصةٍ ومُتميّزةٍ كأعضاءِ الجسد تماماً.

م. ر.: لا شكّ في أنّ ذلك هو مبعثُ إلحاحك على استقلالِ النحو، وعلى حقيقة أنّ البنى النحوية لا تعتمدُ على أجهزةٍ إدراكيةٍ أُخر. فهل يبدو مستحيلاً أن تُفكّرَ أنت في اللغةِ والبنى المعرفيةِ بلُغةٍ من النّمودجِ نفسه؟

ن. ت.: ليس لَدَيّ اعتراضٌ على المُقارَنةِ، لكنني أَسْتَغْرِبُ أن يكونَ مُرجّحاً لنا أن نتعلّمَ الكثيرَ من خلالِ المُضيِّ في هذه الوجهة. لاحِظي عَدَمَ مِثْلِ المرءِ إلى ذلك الضُّربِ من الاقتراحِ في «عِلْمِ وظائف الأعضاء»؛ ولا أحدٌ يقترحُ أن ندرُسَ تركيبَ العينِ والقلبِ، ثمّ نبَحَثَ عن تشابهِ بينهما. ولا يتوقّعُ المرءُ أن يُظفَرُ بِتشابُهاتٍ مُهمّة. وإن كان العقلُ مُؤلّفاً من منظومةٍ من «الأعضاء العقلية» المُتفاعلة، حقّاً، والمُتباينةِ أساساً في بِنيتها، فلَسْنا في حاجةٍ إلى أن نجدَ تشابُهاتٍ مفيدةً بينها.

ولمزيدِ إيضاحٍ أقولُ: لستُ في سياقِ اقتراحِ هذا كُلِّهِ ليكونَ مبدأً جديداً

a new dogma، يَحُلُّ محلَّ المبدأ التجريبيّ. بل الأمرُ على العكس، إذ علينا فعلاً، أن نتسلَّح بعقلٍ متفتِّحٍ في هذا الموضوع، مثلما هي الحال في دراسة الجسد. ونحنُ نعرفُ القليلَ عن عددٍ من أجهزة الإدراك، وتُشكِّلُ اللُّغةُ الحالَ الأكثرَ إثارةً في الوقتِ الرَّاهن. ويلوحُ لي أنَّ تلكَ الدَّرَجَةَ الصَّغيرةَ مِنَ التَّبَصُّرِ، تصدُّرُ عن النتائجِ السابقة. وطبيعيٌّ أنَّ الشَّيءَ المُهمَّ هو أن نُحدِّدَ المبادئَ العميقةَ والبنيةَ المُفصَّلةَ لأجهزة الإدراكِ المختلفة، وصيغَ تفاعلِها، والظُّروفَ العامَّةَ التي يستلزمُها كُلُّ جهازٍ. وإنَّ وَجَدَ المرءُ أنَّ هذه الأنظمةَ تُكتسبُ بِطريقةٍ مُنظمةٍ معَ تركيبٍ دَقِيقٍ جدًّا، فذلكُ مُستحسنٌ تماماً. أمَّا الآنَ على الأقلِّ، فتبدو لي ملامحُ نتائجٍ مختلفةٍ تماماً. ذلكُ ما أقصدُ إليه حينَ أقولُ إنَّ المرءَ ليس في حاجةٍ إلى أن يتوقَّعَ أن يظفَرَ بِتشابُهاتٍ.

م. ر.: ولا بظاهراتٍ توافِقُ (*) **interdependence**. ومهما يكنُ، فإنَّ بعضَ علَماءِ النَّفسِ يُؤكِّدونَ أنَّ الإدراكَ يُؤثِّرُ في البنيةِ المُحتمَلةِ لِلْجَمَلِ. وجانبٌ كبيرٌ من انتقادِكَ لِلتَّجريبِيةِ، هو الفَرَضِيةُ العقلانيَّةُ؛ إنَّ بنيةَ الدِّماغِ تُحدِّدُها، استدلالياً، مجموعةُ الرَّموزِ الوراثيةِ، والدِّماغُ مُبرمجٌ لِتحليلِ التجربةِ وإنشاءِ المعرفةِ من تلكِ التجربة. وقد يبدو ذلكُ صادماً.

ن. ت.: لا أرى ما هو صادِّمٌ في ذلكَ الاقتراح. وليس هناكُ مَنْ يُسلِّمُ في عِلْمِ وظائفِ الأعضاءِ بأيِّ شيءٍ مُماثلٍ لِلْمبدأِ التَّجريبِيةِ فيما يتَّصلُ بِالْعَقْلِ. ولا أَحَدٌ يَسْتَغْرِبُ أن يُسألَ هذا السَّوألُ: أيُّ عِلْمٍ وراثَةٍ يُفسِّرُ نُمُوَ ذِرَاعَيْنِ بَدَلًا من جناحَيْنِ؟- لِمَ ينبغي أن يكونَ صادِّمًا أن نُشيرَ أسئلةً مُماثلةً بِشأنِ الدِّماغِ والقُدَّراتِ العقليةِ؟- ونحنُ راجعونُ إلى الثَّنائيةِ المنهجيةِ عندَ التَّجريبِيينِ.

م. ر.: ذلكَ الموقفُ لا يُلائمُ «الْعُلومَ الإنسانيَّةَ» المُعاصرةَ.

*- تعبيرٌ أردنا مِنْهُ توقُّفَ كُلِّ من شَيْئَيْنِ أو ظاهرتَيْنِ واعتمادَهُ على صاحِبِهِ في وجودِهِ [المترجم].

ن. ت.: خاصةً عِلْمُ النَّفْسِ السَّلُوكِيِّ، أو رُبَّمَا حَتَّى (بياجي Piaget)،
مَعَ أَنَّ مَوْقِفَهُ يَبْدُو لِي غَامِضًا فِي قَضَايَا خَطِيرَةٍ. يُعَدُّ بِيَاجِيه نَفْسَهُ مُضَادًّا لِلتَّجْرِبِيَّةِ ؛
لَكِنَّ شَطْرًا مِنْ كِتَابَاتِهِ يُوحِي إِلَيَّ أَنَّهُ مُخْطِئٌ فِي هَذَا الِاسْتِنْتَاجِ. وَيُطَوِّرُ بِيَاجِيه
ضَرْبًا مِنْ «تَفَاعُلِيَّةٍ بِنَائِيَّةٍ Constructive interactionism» تَبْنِي الْمَعْرِفَةَ
الْجَدِيدَةَ مِنْ خِلَالِ تَفَاعُلٍ مَعَ الْمَحِيطِ. لَكِنَّ السَّؤَالَ الْأَسَاسِيَّ يَفْرُ مِنْهُ وَهُوَ: كَيْفَ
تُبْنَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ، وَلَمْ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ فَحَسْبُ وَلَيْسَ نَوْعًا آخَرَ؟- لَا يُقَدِّمُ
بِيَاجِيه آيَةَ إِجَابَةٍ وَاضِحَةٍ، فِيمَا أَفْهَمُ. الْإِجَابَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَخَيَّلَهَا،
هِيَ افْتِرَاضُ بَنِيَّةٍ وَرَائِيَّةٍ خَلْقِيَّةٍ تُحَدِّدُ عَمَلِيَّةَ التَّنْضِجِ. وَعَلَى قَدَرٍ مَا يُعَدُّ إِعْطَاءُ
الْإِجَابَةِ خَطَأً، يَتَقَهَّقُرُ إِلَى شَيْءٍ يُشْبِهُ التَّجْرِبِيَّةَ الَّتِي يَهْمُ بِأَنْ يَرْفُضَهَا. وَمَا يُفْتَرَضُ
أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْكَافِي فِي كُلِّ مَكَانٍ يَبْدُو لِي يُفَسِّرُ الْمَسِيرَةَ الْمَتَمِّيزَةَ لِلتَّطَوُّرِ الْإِدْرَاكِيِّ.

وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ الْأَهْمِيَّةَ الْعَظِيمَةَ لِلْبَحْثِ الَّذِي أَجْرَاهُ بِيَاجِيه وَمَجْمُوعَتُهُ فِي
جَنِيفَ؛ فَقَدْ كَشَفَ مَنْظُورَاتٍ جَدِيدَةً كُلَّ الْجِدَّةِ فِي دِرَاسَةِ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَهُوَ
قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ تَفْسِيرٌ لِنَتَائِجِهِمُ الَّتِي تَبْدُو لِي مُرِيبةً جَدًّا، خَاصَّةً مَوْقِفَهُمْ إِزَاءَ مَا
يُسَمِّيهِ بِيَاجِيه «فِطْرَانِيَّةً innéisme» الَّتِي تَبْدُو لِي خَاطِئَةً تَمَامًا.

وَفِي مِيدَانِ الْفَلَسَفَةِ، تَظْهَرُ الْمُشْكِلَاتُ نَفْسُهَا فِي جِزءٍ مِنْ عَمَلٍ لـ (كواين
Quine)^(١)، مَثَلًا. وَهُوَ يُوَكِّدُ أحيانًا أَنَّ التَّطَرِّيَّاتِ يُطَوِّرُهَا الْحَثُّ induction،
الَّذِي يُحَدِّدُهُ بِالْإِشْرَاطِ Conditioning^(*). وَفِي أحيانٍ أُخْرَى يَقُولُ الْعَكْسَ:

١- انْظُرْ خَاصَّةً World and Object (كيمبريدج، ماسوشوستس: مطبعة معهد ماسوشوستس
لِلتَّكْنُولُوجِيَا MIT ١٩٦٠م).

*- يَعْنِي الْحَثُّ أَوِ التَّأثيرُ فِي الْأَصْلِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَسْتَطِيعُ جِسْمٌ ذُو خَصَائِصٍ كَهَرَبَائِيَّةٍ أَوْ
مَغْنَطِيسِيَّةٍ، أَنْ يُحْدِثَ خَصَائِصَ مِمَّاثِلَةً فِي جِسْمٍ مُجَاوِرٍ مِنْ غَيْرِ اتِّصَالٍ بَيْنَهُمَا. أَمَّا الْإِشْرَاطُ
فَعَمَلِيَّةٌ رَبطُ مُنبَهٍ بِرَجْعٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْمُنْبَهِ صِلَةٌ فِي الْأَصْلِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ
التَّدَاعِي [الْمُتَرَجِّم، عَنْ الْمُورِد].

النَّظَرِيَّاتُ لَا يُحَدِّدُهَا الْإِشْرَاطُ أَوْ الْحَثُّ فَحَسْبُ، بَلْ تَسْتَلْزِمُ فَرَضِيَّاتٍ تَجْرِيدِيَّةً مُنْبَثِقَةً أُسَاسًا مِنْ قُدْرَةِ فِطْرِيَّةٍ مَا.

وَنَجِدُهُ فِي الْأَعْوَامِ الْأَخِيرَةِ يَتَأَرَّجَحُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ^(١).

الوظيفية Functionanlism

م. ر.: إِنَّ اتِّجَاهَ الْفِكْرِ الَّذِي قَاوَمَ بِضَرَاوَةِ اسْتِقْلَالِ النَّحْوِ بَوَصْفِهِ «عُضْوًا عَقْلِيًّا **mental organ**»، هُوَ الْوُظُفِيَّةُ مِنْ دُونِ شَكٍّ. وَهِيَ تَمِيلُ إِلَى تَفْسِيرِ شَكْلِ اللَّغَةِ بِأَنْ تَعَزَّوْا إِلَى وَظِيفَتِهِ فِعْلًا حَاسِمًا. وَهَذِهِ الْوُظُفِيَّةُ يُفْتَرَضُ أَنْ تَكُونَ التَّوَصِيلُ **Communication**: كُلُّ شَيْءٍ فِي اللَّغَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُسَهَّمُ فِي التَّوَصِيلِ، فِي تَوْصِيلِ أَفْضَلِ، وَعَكْسُ ذَلِكَ مُمْكِنٌ؛ إِذْ لَيْسَ بِلُغَوِيٍّ مَا لَا يُسَهَّمُ فِي التَّوَصِيلِ. أَلَيْسَتْ تِلْكَ صُورَةً صَحِيحَةً تَمَامًا؟

ن. ت.: تَذَهَبُ الْوُظُفِيَّةُ إِلَى أَنَّ اسْتِعْمَالَ اللَّغَةِ يُوَثِّرُ فِي شَكْلِهَا. وَرُبَّمَا يُفْهَمُ هَذَا بِوَصْفِهِ مُتَغَيِّرًا فِي مَبْدَأٍ تَجْرِبِيٍّ حَوْلَ تَعَلُّمِ اللَّغَةِ، مِمَّا لَا يَعْنِي الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، عَلَى قَدَرٍ مَا أَفْهَمُ. لَكِنَّا قَدْ نَفْهَمُ الْفِكْرَ الْأَسَاسِيَّةَ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلَفٍ تَمَامًا. فَقَدْ اقْتَرَحْتُ، وَجُورْجِ مِيلَرِ، مِنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا، مَثَلًا، أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ «تَفْسِيرٌ وَظِيفِيٌّ» لِتَنْظِيمِ اللَّغَةِ فِي تَحْوِيلَاتٍ نَحْوِيَّةٍ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نِظَامًا جَيِّدَ التَّصْمِيمِ مُطَابِقًا لِتَنْظِيمٍ مُحَدَّدٍ فِي التَّذَكُّرِ الْقَصِيرِ الْأَمَدِ وَالطَّوِيلِ الْأَمَدِ، مَثَلًا.

وَلَوْ اسْتَطَاعَ الْمَرْءُ أَنْ يُبَيِّنَ ذَلِكَ، لَكَانَ مُثِيرًا. وَلَكِنْ مَاذَا يَعْنِي ذَلِكَ أُسَاسًا؟—
مَاذَا سَتَعْنِي الْمُلَاحَظَةُ الْمُمَازِلَةُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى عُضْوٍ بَدَنِيٍّ مَا، كَالْقَلْبِ مَثَلًا؟ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْقَلْبَ لَهُ وَظِيفَةٌ: صَخُّ الدَّمِ. وَفِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ عَلَى نَحْوٍ مَقْبُولٍ

١- انْظُرْ لِمَزِيدٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ: تَشُومُسْكِ، تَأْمَلَاتٌ فِي اللَّغَةِ Reflections on Language.

عقليًا إنَّ بنية القلب تُحدِّدُها تلك الوظيفة. ولكنَّ هَبِي أَنَّا نَسْأَلُ السَّوَالِ المتعلِّقَ بِتَطَوُّرِ الكائن: كَيْفَ يَغْدُو قَلْبُنَا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ؟ - كَيْفَ يَنْمُو فِي الشَّخْصِ مِنَ الْجَنِينِ إِلَى صُورَتِهِ النَّهَائِيَّةِ فِي الكائنِ الْحَيِّ النَّاصِحِ؟ وَليستِ الإِجَابَةُ وَظيفيَّةً: لَا يَتَطَوَّرُ قَلْبُ الشَّخْصِ لِأَنَّهُ سَيَكُونُ مُفيدًا فِي أَدَاءِ وَظيفَةٍ مُحدَّدة، بَلْ لِأَنَّ البرنامجَ الوراثيَّ يُحدِّدُ مَا يَطَوِّرُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

إِنَّ لِكُلِّ عَضْوٍ وَظَائِفَ مُعَيَّنَةً، لَكِنَّ هَذِهِ الْوَظَائِفَ لَا تُحدِّدُ التَّطَوُّرَ الْوَراثِيَّ الْكَيْنُونِيَّ لِلْكَائِنِ الْحَيِّ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ سَيَقْتَرِحُ أَنَّ مَجْمُوعَةً مِنَ الْخَلَايَا، تُقَرَّرُ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِكْرَةً جَيِّدَةً أَنْ تَصِيرَ قَلْبًا لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْعَضْوِ ضَرُورِيٌّ لِضَخِّ الدَّمِّ. وَإِنْ تَغْدُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ مِنَ الْخَلَايَا قَلْبًا، فَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعْلُومَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي «السَّيْفِرَةِ» الْوَراثِيَّةِ، الَّتِي تُقَرَّرُ بِنِيَّةِ الْكَائِنِ الْحَيِّ.

وَتَمَّةَ مَجَالٍ لِنَتَفَسَّرِ وَظيفيًّا، وَلَكِنَّهُ عَلَى مَسْتَوَى التَّطَوُّرِ. وَمِنْ الْمُمَكِّنِ أَنَّ الْقَلْبَ يَتَطَوَّرُ فِي مَسِيرَةِ التَّطَوُّرِ؛ لَكِي يُؤَدِّيَ وَظيفَةً مِنَ الْوَظَائِفِ. لَكِنَّ هَذِهِ نَقْطَةٌ مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَتَذَكَّرَهَا: لَا يَرْتَبِطُ التَّفْسِيرُ الْوظيفيُّ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَتَطَوَّرُ فِيهَا الْأَعْضَاءُ عِنْدَ الشَّخْصِ.

دَعِينَا نَعُدُّ إِلَى عِلْمِ اللُّغَةِ: فَهَهُنَا يُمْكِنُ أَنْ تُوَضَّعَ مُمَاحِظَاتٌ مُمَاطِلَةٌ. وَفِي حُدُودِ مَا أُوتِيَتْ مِنْ عِلْمٍ، لَمَّا يُقْتَرَحُ أَيُّ مَبْدَأٍ وَظيفيٍّ ذِي حَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الْمَعْقُولِيَّةِ الظَّاهِرِيَّةِ حَتَّى الْآنَ. وَلَكِنَّ هَبِي أَنْ أَحَدًا يَفْتَرِضُ مَبْدَأًا يَقُولُ: إِنَّ شَكْلَ اللُّغَةِ هُوَ كَذَا وَكَذَا لِأَنَّ امْتِلَاقَ ذَلِكَ الشَّكْلِ يَسْمَحُ بِأَدَاءِ وَظيفَةٍ - إِنَّ اقْتِرَاحًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، سَيَكُونُ مُنَاسِبًا عَلَى مَسْتَوَى التَّطَوُّرِ (تَطَوُّرِ الْأَنْوَاعِ، أَوْ تَطَوُّرِ اللُّغَةِ)، وَلَيْسَ عَلَى مَسْتَوَى اكْتِسَابِ اللُّغَةِ لَدَى شَخْصٍ؛ سَيَفْتَرِضُ الْمَرْءُ مِثْلَ ذَلِكَ.

م. ر.: وَفِي الْمُحْصَلَةِ، فَإِنَّهُ عَلَى قَدَرٍ مَا يَكُونُ عِلْمُ اللُّغَةِ عِنْدَكَ نَظَرِيَّةً فِي اللُّغَةِ وَفِي اكْتِسَابِ اللُّغَةِ لَدَى الْأَفْرَادِ، يَعْزُزُ تَبَنِّيَ الْوظيفِيَّةِ بِوَصْفِهَا مَبْدَأًا

أساسياً. وخِلافًا لذلك، يكونُ في مقدورِ المرءِ أن يَلَحَظَ أنَّ مشروعِيَّةَ العلاقةِ التَّوافُقيَّةِ بَيْنَ الوظيفةِ والبنيةِ ليستْ مُشكِلةً حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الوظيفيينَ، لِأَنَّ مُرَادَهُم وَصْفُ مادَّةِ اللُّغَةِ، وليس تفسِيرَ اكتسابِ اللُّغَةِ.

ن. ت.: أشكُّ في أَنَّ اللُّغَوِيِّينَ الوظيفيينَ سَيَقَرُّونَ هَذَا التَّمييزَ. وَإِنْ كَانُوا يَقْصِدُونَ أَنَّ التَّطَوُّرَ الْوَرَاثِيَّ الْكَيْنُونِيَّ تُوجِّهُهُ حِسَابَاتُ وَظِيفِيَّةٌ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْدُو لِي مَعْقُولًا ظَاهِرِيًّا كَمَعْقُولِيَّةِ اقْتِرَاحِ أَنَّ تَطَوُّرَ الْقَلْبِ عِنْدَ الشَّخْصِ تُوجِّهُهُ الْفَائِدَةُ فِي امْتِلَاكِ عَضْوٍ يَضْحُ الدَّمُ، وَيُوشِكُ أَيْضًا أَنْ يُؤَيِّدَهُ الدَّلِيلُ الْوَاقِعِي. أَوْ قَدْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمَسَائِلَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِأَسَاسِ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ لَا تُهْمُهُمْ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ النِّقْطَةَ الْحَاسِمَةَ تَتِمُّثَلُ لِي فِي أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ نِقَاشٌ حَقِيقِيٌّ بِشَأْنِ مَشْرُوعِيَّةِ الْوِظِيفِيَّةِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْغَامِضِ عَمُومًا، الَّذِي نُنَاقِشُ وَفَقًا لَهُ التَّطَوُّرَ الْإِفْتِرَاضِيَّ لِلْأَنْوَاعِ، أَوْ فِي دِرَاسَةِ التَّحَوُّلِ اللَّغَوِيِّ؛ وَلَيْسَ ثَمَّةَ طَرِيقَةٍ مَعْقُولَةٍ لِإِثَارَةِ الْفِكْرِ الْوِظِيفِيَّةِ بِوَصْفِهَا مَفْهُومَاتٍ تَفْسِيرِيَّةً عَلَى الْمُسْتَوَى التَّزَامُنِيِّ أَوْ الْوَرَاثِيِّ الْكَيْنُونِيِّ، عَلَى قَدَرِ مَا أَفْهَمُ.

وَيَلُوحُ لِي مُهِمًّا أَيْضًا أَنَّ نَتَافَادَى بَعْضَ التَّبْسِيطِ بِشَأْنِ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ. وَلَا مُسَوِّغَ لِلِإِعْتِقَادِ - وَأُكْرِرُ مَا أَرَاهُ ثَانِيَّةً - بِأَنَّ اللُّغَةَ «جَوْهَرِيًّا» تَخْدُمُ أَهْدَافًا وَسِيلِيَّةً^(*)، أَوْ أَنَّ «الْهَدَفَ الْجَوْهَرِيَّ» لِلُّغَةِ هُوَ «التَّوْصِيلُ»، عَلَى غِرَارِ مَا يُقَالُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، عَلَى الْأَقْلَى إِنْ نَحْنُ قَصَدْنَا بِِ «التَّوْصِيلِ» شَيْئًا مِنْ قَبِيلِ نَقْلِ مَعْلُومَاتٍ أَوْ إِقْنَاعٍ بِإِعْتِقَادٍ. وَمَنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْهَدَفُ الْأَسَاسِيُّ لِلُّغَةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ تَمَامًا مَاذَا يَقْصِدُ بِهِ، وَلِمَاذَا يُؤْمَنُ بِأَنَّ هَذِهِ الْوِظِيفَةَ، وَلَيْسَ سِوَاهَا، مُهِمَّةٌ عَلَى نَحْوِ قَدْ. وَتُسْتَعْمَلُ اللُّغَةُ بِطَرَائِقَ كَثِيرَةٍ مُتَبَايِنَةٍ. فَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي نَقْلِ الْمَعْلُومَاتِ، لَكِنَّهَا تُحَقِّقُ أَيْضًا أَهْدَافًا أُخَرَ: إِقَامَةَ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّعْبِيرَ أَوْ إِضْحَاحَ الْفِكْرِ،

*- يريد تشومسكي أهدافًا هي نفسها وسائل لغايات أخرى [المترجم].

وفي اللَّعِبِ، وفي التَّشَاطِ العَقْلِيِّ المُبَدِّعِ، وفي الإدراكِ، وهَلُمَّ جَرًّا. وأَحْسَبُ أَنَّهُ ليس ثَمَّةَ دَاعٍ لِمُوَافَقَةٍ وَضَعِ مُمْتَازٍ لِوَاحِدٍ أو أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْكَالِ. وَإِنْ أُرْغِمْتُ عَلَى التَّخْيِيرِ، فسيكونُ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا تَقْلِيدِيًّا تَمَامًا وَفَارِغًا نِسْبِيًّا. تُسْتَعْمَلُ اللُّغَةُ أَسَاسًا لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْفِكْرِ.

ولا أَعْرِفُ سَبَبًا لِإِفْتِرَاضِ أَنَّ الْأَهْدَافَ الْوَسِيلِيَّةَ، أو نُقْلَ مَعَارِفَ حَوْلَ اعتقاداتِ الإنسانِ، أو أفعالًا أُخَرَ، يُعَقَّلُ أَنْ تُدْعَى «تَوْصِيلًا» (يُسْتَشَى مِنْ هَذَا طَبَعًا أَنْ يُسْتَعْمَلَ الْمُصْطَلَحُ عَلَى نَحْوِ فَارِغٍ)، لَهَا أَهْمِيَّةٌ فَدَّةٌ مُقَارَنَةً بِاسْتِعْمَالِ مُمَيِّزَةٍ أُخَرَ لِلُّغَةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ مَا يُقْصَدُ إِلَيْهِ حِينَ يُوكَّدُ أَنَّ كَذَا وَكَذَا هُوَ هَدَفٌ لِلُّغَةِ، أو هَدَفُهَا الْأَسَاسِيُّ، بَعِيدٌ عَنِ الْوَضُوحِ.

ونَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى إِنَّ هَذَا التَّعَدُّدَ فِي الْأَشْكَالِ مُمَيِّزٌ لِاسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ الْأَكْثَرِ ابْتِدَاءً وَعَادِيَّةً.

وَمِنْ الْعَسِيرِ أَنْ نَعْرِفَ بِدِقَّةٍ مَا يُرِيدُ النَّاسُ حِينَ يَقُولُونَ إِنَّ اللُّغَةَ «جَوْهَرِيًّا» وَسَبِيلَةٌ لِلتَّوْصِيلِ. وَإِنْ أَنْتِ أَلْحَحْتِ عَلَيْهِمْ أَمَدًا قَصِيرًا ثُمَّ سَأَلْتِهِمْ لِتَكُونِي أَكْثَرَ دِقَّةً، فَسَتَجِدِينَ، مَثَلًا، أَنَّهُمْ يُضْمِنُونَ «التَّوْصِيلَ» نَجْوَى النَّفْسِ. وَمَتَى تُسَلِّمِي بِذَلِكَ، تَفْقِدُ فِكْرَةَ التَّوْصِيلِ مَضْمُونَهَا كُلَّهُ؛ إِذْ يَغْدُو التَّعْبِيرُ عَنِ الْفِكْرِ نَوْعًا مِنَ التَّوْصِيلِ. وَتَبْدُو هَذِهِ الْاِقْتِرَاحَاتُ إِمَّا زَانِفَةً وَإِمَّا فَارِغَةً تَمَامًا، مُعْتَمِدَةً عَلَى التَّفْسِيرِ الْمُقَدَّمِ، حَتَّى فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ. وَإِنَّهُ لَغَامِضٌ تَمَامًا أَنْ تَظَلَّ تِلْكَ الْمُنَاقَشَةُ مُبْهَمَةً. وَلَيْسَ لَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَبْعَثِ أَنْ يُصَاغَ مِثْلُ هَذِهِ الْاِقْتِرَاحَاتِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ غَالِبًا، وَبِمِثْلِ هَذِهِ الْحَمَاسَةِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، أَوْ: إِلَامٌ يُفْتَرَضُ أَنْ تُشِيرَ فِي أَرْضِ الْوَاقِعِ. وَالسَّوَالُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ: كَيْفَ يَعْمَلُ هَذَا الْكَائِنُ الْحَيُّ، وَمَا بَنِيَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْبَدَنِيَّةُ؟

م. ر.: حَظِيَّتِ التَّجْرِبِيَّةُ (وخاصَّةً الوظيفيَّة) بِنَجَاحٍ هائلٍ . ومعَ كُلِّ البراهينِ التي قُدِّمَتْ لِإثباتِ أخطائها، ما تزالُ اليومُ الفلسفةُ السَّائدةُ . فإِلامَ تعزو ذلكَ النِّجَاحَ ، تلكَ القُدرةَ عَلى البقاء ؟- إلى اقترانِ الإيديولوجيا والسِّياسة ؟

ن. ت.: عندَ هذه النِّقطةِ عَلينا أن نكونَ يَقْظينَ ، لِأَنَّا ههنا نَدْخُلُ مَجالَ التَّأَمُّلِ ، وَحينَ تكونُ بعضُ الفِكرِ هي السَّائدةُ يكونُ معقولاً جدًّا أن نتساءَلَ عن السَّبَبِ . قد يكونُ السَّبَبُ أَنَّها تُعَدُّ صَحيحةً ظاهريًّا ، وَأَنَّها قد مُحَصَّصَتْ ، إلخ . أمَّا حينَ تكونُ مِن دُونِ أُسُسٍ تجريبيةٍ ، وَحينَ تتمتَّعُ بِقَدْرِ ضئيلٍ مِن معقوليَّةٍ ظاهريَّةٍ أوَّليَّةٍ ، فَإِنَّ السَّوْالَ يَبْرُزُ عَلى نَحْوِ أَكْثَرِ دِقَّةٍ : رُبَّما تَقَعُ الإِجابةُ حَقًّا في مِيدانِ الإيديولوجيا . طبعيًّا أَنَّ المُنابَشةَ هنا يَنبغي أن تكونَ غيرَ مُباشرةٍ ، لِأَنَّهُ ليسَ بَينَ أيدينا أيُّهُ وَسيلةٌ مُباشرةٌ لِتَحديدِ الأساسِ الإيديولوجيِّ لِلقَبولِ الذي يُوَصِّلُنا إِلَيهِ مَبْدأً مُعَيَّنَ .

رُبَّما يَرْتَبِطُ التَّصَوُّرُ الوَسيلِيُّ لِللُّغَةِ بِالاعتقادِ العامِّ في أَنَّ الفِعلَ الإنسانيَّ ومُبدَعاتِهِ ، إِضافةً إلى البَنيةِ العَقليَّةِ لِلكائناتِ البَشَريَّةِ ، مُصمَّمةٌ لِتَلْبِيَةِ مَطالِبِ جَسَدِيَّةٍ مُعَيَّنة (الغذاء ، الرِّفاهةُ ، الأمان ، إلخ .) فَلِمَ نَحاولُ إخضاعَ إنْجَازِ عَقليِّ وَفَنِّي إلى حاجاتِ أوَّليَّةٍ ؟

هل جاذبيَّةُ المُتغيِّراتِ المُتعدِّدةِ في المذهبِ التجريبيِّ قائِمةٌ عَلى التَّحَقُّقِ التجريبيِّ ؟ بِصُعوبةٍ بالغةٍ . فليسَ ثَمَّةَ تَحَقُّقٍ كهذا . هل هي مُستَمَدَّةٌ مِن الطَّاقةِ التَّفسيريةِ لِهذه المُتغيِّراتِ ؟- لا ، لِأَنَّها تَستطيعُ أن تُفسَّرَ تَفسيرًا ضئيلًا . هل تَرجِعُ إلى مُشابَهةٍ ما لِأنْظِمَةٍ أُخَرُ نَعْرِفُ عنها أَكْثَرُ ؟- لا . نَقولُ ثانيةً إِنَّ الأنْظِمَةَ المَعروفةَ في عِلْمِ الأَحْياءِ مُختلفةٌ كُلِّيًّا . ويبدو ذِكاؤُ الحَيوانِ مُختلفًا تامًّا . وكذا أَيْضًا البَني الجَسَدِيَّةُ لِلكائنِ الحَيِّ البَشَريِّ . أمَّا الفَرَضياتُ العَقْلانيَّةُ التي في مَقْدارِنا أن نَقترَحَها لِتَفسيرِ سِيادةِ المَذهَبِ التجريبيِّ ، فلا تُطَبَّقُ .

يَنبغي أن يُلْحَظَ أَنَّ المذهبَ التجريبيِّ لم يَكُنْ قد «سَلَّمَ به» لِأَمَدٍ طَويلٍ

فحسب، فقد شكك فيه بقوة، لكنه اتخذ، حقاً، على نحو ضمني، إطاراً ينبغي أن يتقدم فيه التفكير والبحث.

ولعله يمكن بعدئذ أن يُفسر عاملٌ نفسي ما بطريقةٍ طبيعيةٍ مبعث تَبَنِي وجهه النظر هذه على نطاقٍ واسع. وفي مقدورنا أن نسأل أنفسنا: مَنْ يقبل هذه المذهب وينشرها؟ - المثقفون - أساساً - ومنهم العلماء وغير العلماء. ما الدور الاجتماعي للمُثَقِّفِينَ؟ على غرار ما أسلفْتُ، هم يمتلكون جيّداً المُعالِجةَ البارعَ والتَّوجيهَ الاجتماعيَّ في صوره المتنوعةِ جميعاً. ويمكن القول، مثلاً، إنه في تلك الأنظمة التي تُدعى «اشتراكية»، ينتمي المُثَقِّفُونَ التَّقْنِيُّونَ إلى العِلْيَةِ التي تُصمِّمُ النظامَ الإيديولوجي، وتقوم بالدعاية له، وتُنظِّم وتوجّه المجتمع، وتلك حقيقةٌ كثيراً ما لحظها اليسار غير البلشفي. وقد أشار (ولتر كندال Walter Kendal)، مثلاً، إلى أن لينين في كُتَيْبَاتٍ مِنْ قَبِيلِ «ماذا يمكن أن يفعل What Is To Be Done» تخيل «البروليتاريا» لوحاً أُمْلَسَ a tabula rasa ينبغي أن يطبع فيه المُثَقِّفُونَ «الرايديكاليون» وعياً اجتماعياً. والمجاز هنا مجازٌ مُوفِّق. ويرى البلاشفة أن المُثَقِّفِينَ «الرايديكاليين» ينبغي أن يَجْلِبُوا وعياً اجتماعياً لِلْجَمَاهِيرِ مِنَ الخارج، ولأن المُثَقِّفِينَ أعضاء في الحزب، عليهم أن يُنظِّمُوا المجتمع ويوجهوه ابتغاء إظهار «البنى الاجتماعية» في عالم الواقع.

هذه المنظومة من الاعتقادات تُوافق تماماً مَطَالِبَ المُثَقِّفِينَ المُتَحَكِّمِينَ بِالْمِيدَانِ التَّقْنِيِّ: إذ تُعطيهم نصيباً كبيراً في الفعل الاجتماعي. وابتغاء تبريرٍ مثل هذه الممارسات، يكون مفيداً أن نعتقد أن الكائنات البشرية كائناتٌ حَيَّةٌ خاوية الوفاض، مُنْقَادَةٌ، مُيسَّرٌ توجيُّهها، سهَّلَ حُكْمُها، وهَلَمَّ جَرّاً، وليس بها حاجة حقيقةً إلى أن تُقاتِلَ لِتَجِدَ طريقها الخاص ولتُحدِّد مصيرها. ولذلك تكون التجريبية مناسبةً تماماً. ومن ثم قد يكون غير مُثيرٍ للدهشة من وجهة النظر هذه، أن إنكار

أَيَّ «طَبْعِ بَشَرِيٍّ جَوْهَرِيٍّ» ظاهرةً بارزةً جدًّا في جزءٍ كبيرٍ من عقيدة اليسار .
وعلى نحوٍ مماثلٍ ، يَتَمَتَّعُ الْمُثَقَّفُونَ الْمُعَاصِرُونَ في مجتمعٍ رَأْسِمَالِيٍّ - كُمُجْتَمَعِ
الولاياتِ المتَّحدةِ ، مثلاً - بِحَقِّ معلومٍ من الاعتبارِ والتَّفَوُّذِ مِنْ خِلَالِ خِدْمَةِ
الدَّولةِ . وكذا فَإِنَّ الشَّيْءَ نَفْسَهُ يَكَادُ يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُثَقَّفِينَ اللَّيْبَرَالِيِّينَ في الغربِ .
وَتَتَضَمَّنُ خِدْمَةُ الدَّولةِ المُناوَرَةَ في الميدانِ الاجتماعيِّ ، والحِفاظَ عَلَى الإيديولوجيا
الرَّأْسِمَالِيَّةِ والأعرافِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ ، ضِمْنَ إِطارِ رَأْسِمَالِيَّةِ الدَّولةِ . وفي هذه الحالِ
أَيْضًا ، يَكُونُ مفهومُ كائِنٍ حَيٍّ مُفَرَّغٌ مُفيدًا . ويبدو قَرِيبًا مِنْ الصَّوابِ أَنَّ الَّذِينَ
يَتَبَنَّوْنَ إيديولوجيا الدَّولةِ وَالَّذِينَ يُدِيرُونَ أَعْمَالَهَا يَرَوُفُهُمْ هَذَا المبدأُ ؛ لِأَنَّهُ مُناسِبٌ
جَدًّا لَهُمْ في إِزالةِ كُلِّ عائقٍ أخلاقيٍّ أَمَامَ المُناوَرَةِ والتَّسلُّطِ .

وَتَنْطَبِقُ هذه المُلَاحَظَاتُ عَلَى القَرْنِ الماضيِ فَحَسْبُ ، قَرِيبًا . أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ
فَإِنَّ الوَضْعَ مُخْتَلِفٌ نِسْبِيًّا . ولا رَيْبَ في أَنَّ التَّجْرِبِيَّةَ في عهدِ مُبَكَّرِ كَانَتْ مُصْحوبَةً
بِمبدأٍ اجتماعيٍّ تَقَدِّمِيٍّ ، خَاصَّةً بِاللَّيْبَرَالِيَّةِ الكلاسيكيَّةِ ؛ مَعَ أَنَّ الحالَ لم تَكُنْ
كذلكَ دائِمًا ، عَلَى غِرارِ ما أَسْلَفْنَا . ويمكنُ أَنْ يَذْكُرَ المرءُ فَكْرَ الشَّابِّ ماركس ،
الذي كان بعيدًا عن المبدأِ التَّجْرِبِيِّ في الرُّوحِ . فَلِمَ هذا الرِّبْطُ بَيْنَ الفِكرِ
الاجتماعيِّ التَّقَدِّمِيِّ والمبدأِ التَّجْرِبِيِّ ؟ . رُبَّمَا لِأَنَّ التَّجْرِبِيَّةَ بَدَتْ تَمْتَلِكُ - وقد
امْتَلَكَتْ عَلَى نحوٍ ما - مضموناتٍ اجتماعيَّةً تَقَدِّمِيَّةً ، خِلَافًا لِلرَّجَعِيَّةِ والمبادئِ
الجَبْرِيَّةِ التي أُقِيمَتْ وَفَقًّا لَهَا البِنَى الاجتماعيَّةُ الموجودةُ ، والعُبُودِيَّةُ والحُكْمُ
الفَرْدِيُّ والسُّلْطَةُ الإِقطاعيَّةُ ، عَلَى طَبِيعَةِ بَشَرِيَّةٍ ثابتةٍ . وفي مُقابِلِ ذلكَ المبدأِ ،
ظَهَرَتْ فِكْرَةُ كَوْنِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ نِتَاجًا تاريخيًّا ذا مضمونٍ تَقَدِّمِيٍّ ، عَلَى غِرارِ ما
فَعَلْتُ أَيْضًا طَوَالَ المرحَلَةِ الأولى مِنَ التَّصْنِيعِ الرَّأْسِمَالِيِّ .

وقد ذهبَتِ المبادئُ الجَبْرِيَّةُ التي نَحْنُ بِصَدَدِهَا إِلَى أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ وَلَدَتْهُمْ
أُمَّهَاتُهُمْ لِيَكُونُوا عِبِيدًا ، بِفِعْلِ طَبِيعَتِهِمُ الخَاصَّةِ . أو تَأْمَلِي اضْطِهَادَ المَرْأَةِ ، الذي

بُنِيَ أَيْضًا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَفْهُومَاتِ . أَوِ الْعَمَلِ الْمَاجُورِ: يُعَدُّ الْإِسْتِعْدَادُ لِتَأْجِيرِ النَّفْسِ فِي السُّوقِ ، إِحْدَى الْخَاصِّيَّاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ وَالثَّابِتَةِ ، فِي تَعْدِيلِ لِ «الْجَوْهَرِ الْبَشَرِيِّ» مُمَيِّزٍ لِعَصْرِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ .

وَأَمَّا مَبَادِئُ كَهَذِهِ ، يَكُونُ طَبِيعِيًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُدَافِعِينَ عَنِ التَّغْيِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَتَبَنَّوْا الْمَوْقِفَ الْمُتَطَرِّفَ ، الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ «الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ» أَسْطُورَةٌ ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا هُوَ نَتَاجُ لِلتَّارِيخِ . لَكِنَّ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ غَيْرُ صَحِيحٍ . إِذْ تُوجَدُ طَبِيعَةُ بَشَرِيَّةٌ ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ ، خِلَا تَغْيِيرَاتٍ حَيَوِيَّةٍ فِي الْأَنْوَاعِ .

م . ر : غير أن ذلك ليس تحديد الطَّبيعة الْبَشَرِيَّةِ نَفْسَهُ ، إِذْ لَمْ تُعَدِ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةً تَحْدِيدِ «سِيكُولُوجِيَّةِ» الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ .

ن . ت : مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ نَظَرِيَّاتٍ تُحَدِّدُ وَضْعًا اجْتِمَاعِيًّا مُحَدَّدًا لِأَفْرَادٍ أَوْ جَمَاعَاتٍ خَاصَّةٍ بِفِعْلِ طَبِيعَتِهِمُ الْجَوْهَرِيَّةِ الْمَزْعُومَةِ (كَأَنَّ يُقَالُ إِنَّ بَعْضَهُمْ يُوَلَّدُونَ لِيَكُونُوا عَبِيدًا) ، وَنَظَرِيَّاتٍ تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ بَعْضِ الثَّوَابِتِ الْحَيَوِيَّةِ الْمُمَيَّزَةِ لِلْأَنْوَاعِ ، الَّتِي يُمَكِّنُ طَبْعًا أَنْ تَتَّخِذَ أَشْكَالًا مُتَبَايِنَةً جَدًّا حِينَ يَتَغَيَّرُ الْمُحِيطُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْمَادِّي .

هَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ بِشَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ جَمِيعًا . وَيُلَوِّحُ لِي أَنَّهُ فِي مُسْتَطَاعِ الْمَرءِ أَنْ يَقْتَرَحَ ، فِي أَسْلُوبٍ تَأْمَلِيٍّ قَوِيٍّ ، أَنَّ عَوَامِلَ كَالْعَوَامِلِ الَّتِي أُتِيَتْ عَلَى ذِكْرِهَا تَدْخَلَتْ فِي نَجَاحِ التَّجْرِبِيَّةِ بَيْنَ الْمُتَقَفِّينَ . وَقَدْ نَاقَشْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى عَجَلٍ فِي كِتَابِي «تَأْمَلَاتُ فِي اللُّغَةِ Reflections on Language» ، حَيْثُ أَكَّدْتُ النِّقْطَةَ الْخَطِيرَةَ وَالْمُهْمَلَةَ أحيانًا فِي أَنَّ التَّفَكُّرَ فِي مَسَائِلِ الْإِيدِيُولُوجِيَا مُسْتَقَلٌّ تَمَامًا عَنِ مَشْرُوعِيَّةِ الْمَبَادِئِ الْمُحَدَّدَةِ ، الَّتِي نَحْنُ فِي صَدْدِهَا ؛ وَحِينَ تَحْظَى مَبَادِئُ ضَيْلَةُ الْقِيَمَةِ بِثِقَةٍ كَبِيرَةٍ وَمُطْلَقَةٍ ، تَغْدُو التَّأْمَلَاتُ الَّتِي مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مُنَاسِبَةً جَدًّا .

وفي «التأملات» ذَكَرْتُ أَيْضًا أَنَّهُ حَتَّى فِي الْمَرَاكِحِ الْأُولَى لَيْسَ وَاضِحًا مَا إِنْ كَانَتْ التَّجْرِبِيَّةُ مَبْدَأً «تَقْدِيمِيًّا» حَقًّا مِنْ وَجْهَةٍ تَأْثِيرِهَا الْاجْتِمَاعِيَّ، كَمَا هُوَ الْمُفْتَرَضُ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ جَدًّا. وَهَنَّاكَ، مَثَلًا، جُهْدٌ مُثِيرٌ نِسْبِيًّا فِي الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ حَوْلَ الْأُصُولِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِلْعِرْقِيَّةِ، خَاصَّةً لَدَى (هَارِي بْرَاكِن Harry Bracken)، وَهُوَ يُوجِي بِتَارِيخٍ مُعَقَّدٍ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمَبْدَأَ الْعِرْقِيَّ تَطَوَّرَ جَزْئِيًّا بِوَصْفِهِ شَيْئًا مُلَازِمًا لِلنِّظَامِ الْاِسْتِعْمَارِيِّ، لِأَسْبَابٍ جَلِيَّةٍ تَمَامًا. وَإِنَّهَا لِحَقِيقَةُ أَنَّ بَعْضَ الْفَلَاسِفَةِ التَّجْرِبِيِّينَ الْكِبَارِ (مِنْ مِثْلِ لُوك)، كَانُوا مُرْتَبِطِينَ بِالنِّظَامِ الْاِسْتِعْمَارِيِّ فِي حَيَوَاتِهِمُ الْحَرْفِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَوَاقِفَ الْعِرْقِيَّةَ تَقَدَّمَتْ، عَلَى الْجُمْلَةِ، فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ بِتَأْثِيرِ فِلَاسِفَةِ كِبَارٍ، بَيْنَ آخَرِينَ. وَرُبَّمَا يَكُونُ مَعْقُولًا التَّفَكُّيرُ فِي أَنَّ نَجَاحَ الْعَقَائِدِ التَّجْرِبِيَّةِ، فِي بَعْضِ الدَّوَائِرِ عَلَى الْأَقْل، يُمَكِّنُ أَنْ تُرَافِقَهُ حَقِيقَةُ أَنَّهَا تُقَدِّمُ إِمْكَانِيَّةً مَا لِصِيَاعَةِ الْمَبْدَأِ الْعِرْقِيِّ فِي طَرِيقَةٍ يَعْزُ أَنْ تَتَأَلَّفَ مَعَ الْمَفْهُومَاتِ الثَّنَائِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ عَنْ «الْجَوْهَرِ الْبَشَرِيِّ».

وَقَدْ مَضَى بْرَاكِن، عَلَى نَحْوٍ يَبْدُو لِي مَقْبُولًا، إِلَى الْقَوْلِ إِنَّ الْمَبْدَأَ الْعِرْقِيَّ يُثِيرُ مُشْكَلَاتٍ تَتَّصِلُ بِالْمَفْهُومَاتِ فِي إِطَارِ الْعَقَائِدِ الثَّنَائِيَّةِ، أَعْنِي، إِنْ هِيَ أُخِذَتْ بِجِدِّيَّةٍ. وَتُثِيرُ الثَّنَائِيَّةُ الدِّيْكَارْتِيَّةُ مَا سَمَّاهُ «عَائِقًا مَفْهُومِيًّا مُعْتَدِلًا» لِلْمَبْدَأِ الْعِرْقِيِّ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ بَسِيطٌ، إِذْ يُمَيِّزُ الْمَبْدَأُ الدِّيْكَارْتِيُّ الْبَشَرَ بِوَصْفِهِمْ كَائِنَاتٍ مُفَكَّرَةٍ: إِذْ هُمْ مُتَمَيِّزُونَ «مِيتَافِزِيْقِيًّا» عَنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، وَيَمْتَلِكُونَ جَوْهَرًا مُفَكَّرًا (res cogitans)، وَهُوَ جَوْهَرٌ مُتَكَامِلٌ وَثَابِتٌ - لَيْسَ لَهُ لَوْنٌ، مَثَلًا. وَلَيْسَ هُنَاكَ «عُقُولٌ سُودٌ» أَوْ «عُقُولٌ بَيْضٌ». إِمَّا أَنْ تَكُونَ آلَهٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ كَائِنٌ بَشَرِيٌّ، كَأَيِّ كَائِنٍ بَشَرِيٍّ آخَرَ فِي التَّكْوِينِ الْأَسَاسِيِّ. وَالْاِخْتِلَافَاتُ سَطْحِيَّةٌ، وَغَامِضَةٌ: لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي الْجَوْهَرِ الْإِنْسَانِيِّ الثَّابِتِ.

وَأَحْسَبُ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُبَالِغَةِ أَنْ نَرَى فِي الْمَبْدَأِ الدِّيْكَارْتِيَّ عَائِقًا مَفْهُومِيًّا -

وهو عائقٌ مُعتدلٌ، كما يُبينُ براكن بِحذرٍ - أمامَ العِرقِيَّةِ . ومنَ وَجْهَةٍ أُخرى ، فإنَّ الإطارَ التجريبيَّ لا يُقدِّمُ تَمييزًا تمثيليًّا لِلجَوْهَرِ البَشَرِيِّ ، والشَّخْصُ مجموعةٌ خاصَّياتٍ عارِضةٍ ، واللَّونُ إحداها . ومنَ ثَمَّ يكونُ سَهْلًا ، نَسبيًّا ، أنَ نَصوغَ العقائدَ العِرقِيَّةَ في هذا الإطارِ ، معَ أنَ ذلكَ غيرُ مُحتمَمٍ .

لا أريدُ أنَ أضخَمَ أهميَّةَ هذه التأمُّلاتِ ، لكنَّ ما هو جديرٌ بالبحثِ ، هو مسألةُ كَوْنِ الإيديولوجيا الاستعماريَّةِ استغلَّتْ حَقًّا الإمكانيَّاتِ التي وفَّرها المبدأُ التجريبيُّ لِتَصوغَ ، بِسُهولةٍ كبيرةٍ ، نوعًا منَ العقائدِ العِرقِيَّةِ التي استُعْمِلَتْ لِتبريرِ الاستعمارِ والاضطهادِ . ومنَ المؤكَّدِ أنَّ التأمُّلاتِ الموصوفةَ بِعِنايةٍ التي اقترَحَتْ لِلبحثِ ، قد أثارتِ استجابةً هستيريَّةً نَسبيًّا ، وتزييفًا صريحًا ، عندَ قِسْمٍ منَ مجموعةٍ منَ الفلاسفةِ - ممَّن هم ، كما لاحظَ براكن ، مُستعدُّونَ تمامًا لِلبحثِ ، وحتَّى تقديمِ ، مُقترَحاتٍ واضحةٍ جدًّا بِشأنِ علاقةٍ مُحتمَلةٍ بينَ العقلانيَّةِ وعقائدِ اضطهاديَّةٍ مختلفةٍ ، منها العِرقِيَّةُ ، ممَّا يَشِي بِأنَّ هؤلاءَ الفلاسفةَ قد ضاقوا بِهَدَفِ البحثِ وليس بِطبيعتهِ .

وعَلَيَّ أنَ أوكدَ ثانيةً أنَّ هذه التأمُّلاتِ ، أو آيَّة تأمُّلاتٍ أُخرَ بِشأنِ العواملِ الإيديولوجيَّةِ أو الاجتماعيَّةِ التي تُسهمُ في نجاحِ أيِّ مبدأٍ ، ينبغي أنَ تُقدَّرَ لِما هي عليه: تأمُّلاتٌ هي في أحسنِّ الأحوالِ مُوجِيةٌ . ونقولُ ثانيةً إنَّ المسائلَ التي منَ هذا الصَّنَفِ ، تَظْهَرُ خاصَّةً حينَ يحظى مبدأٌ ما بِقدَرٍ كبيرٍ منَ الجاذبيَّةِ والنَّجاحِ بينَ المُثَقِّفينَ معَ ضالَّةِ التأييدِ الواقعيِّ أو القِيمةِ التفسيرِيَّةِ . وتلكم حالُ التجريبِيَّةِ ، فيما أرى .

م . ر .: وهكذا تلقى التجريبِيَّةُ الدَّعمَ منَ كُلِّ منَ اليمينِ واليسارِ ... وُوضِحَ

ذلكَ مبعثُ الهُجومِ الذي كثيرًا ما يَتعرَّضُ له التَّحَوُّ التوليديُّ منَ

جانِبِ المُثَقِّفينَ التَّقدِّميِّينَ ، وعلى نحوٍ دقيقٍ بِسببِ إشارَتِكَ إلى

فَرُضِيَّةِ «الفِكرِ الفِطْرِيَّةِ innate ideas» كما تُسمَّى ، أي التقييداتِ

الْخَلْقِيَّةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى اللُّغَةِ . وَتُتَّهَمُ هَذِهِ الْفَرْضِيَّةُ بِالْمِثَالِيَّةِ .

ن . ت .: ذلكَ صَحِيحٌ ، كَمَا تَقُولِينَ أَنْتِ . أَمَّا التَّمْيِيزُ فغَيْرُ عَقْلَانِيٍّ الْبَتَّةَ . وَسَيَرَى الْمَادِّيُّ الْأَمِينُ لِمَبْدِئِهِ بَدَاهَةً ، أَنْ يَكُونَ لِلْعَقْلِ بِنْيُ فِطْرِيَّةٌ مُهِمَّةٌ جَدًّا ، تُحَقِّقُ مَادِّيًّا عَلَى نَحْوِ مِنَ الْأَنْحَاءِ . وَلِمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُخْتَلِفًا؟ - وَعَلَى غِرَارِ مَا أَسْلَفْتُ ، إِنْ افْتَرَضْنَا أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةَ تَنْتَمِي إِلَى الْعَالَمِ الْحَيَوِيِّ ، كَانَ عَلَيْنَا مِنْ ثَمَّ أَنْ نَتَوَقَّعَ أَنَّهَا مُمَثِّلَةٌ لِلْعَالَمِ الْحَيَوِيِّ كُلِّهِ . وَتَكُونُهَا الْبَدَنِيُّ ، وَأَعْضَاؤُهَا ، وَمَبَادِيُّ النَّضْجِ ، تُحَدِّدُ وَرَائِثًا ، وَلَا مُبَرَّرَ لِافْتِرَاضِ أَنَّ الْعَالَمَ الْعَقْلِيَّ اسْتِثْنَاءً مِنْ هَذَا الْمَبْدَأِ . وَالْفَرْضِيَّةُ الَّتِي تَأْتِي إِلَى الذَّهْنِ طَبِيعِيًّا هِيَ أَنَّ هَذِهِ الْأَجْهَزةَ الْعَقْلِيَّةَ ، غَيْرَ الْمَأْلُوفَةِ فِي الْعَالَمِ الْحَيَوِيِّ بِسَبَبِ تَعْقِيدِهَا الْمُفْرِطِ ، تُبَرِّزُ الْخَاصِّيَّاتِ الْعَامَّةَ لِلْأَجْهَزةِ الْحَيَوِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ .

وَسَأُوكِّدُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّهُ حَتَّى الْبُحُوثُ النَّوْعِيَّةُ مِنَ الطَّرَازِ الْأَكْثَرِ وَضُوحًا ، تَذْهَبُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ: مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَرَى تَفْسِيرًا آخَرَ لِحَقِيقَةِ أَنَّ الْبِنْيَ الْبَالِغَةَ التَّرْكِيبَ وَالتَّعْقِيدَ تُكَتَسَبُ بِطَرِيقَةٍ مُتَمَثِّلَةٍ بَيْنَ الْأَفْرَادِ جَمِيعًا ، عَلَى أَسَاسِ مُعْطَيَّاتٍ مُحَدَّدَةٍ جَدًّا وَنَاقِصَةٍ غَالِبًا .

م . ر .: مَا يَزَالُ بَعْضُ عُلَمَاءِ النَّفْسِ يُحَاوِلُونَ جَعْلَ الْقُرُودِ تَتَكَلَّمُ ؛ وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ يُنْكِرُونَ الْاِخْتِلَافَ النَّوْعِيَّ بَيْنَ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ ، ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ مِنَ الْمَذْهَبِ الدِّيْكَارْتِي وَأَقْرَزْتَهُ ثَانِيَةً فِي صَوِّ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ الْحَدِيثِ . هَلْ يَتَّخِذُ أَوْلَئِكَ الْمُعَارِضُونَ لِـ «الْفِطْرَانِيَّةِ» **Innéisme** الْمَوْقِفَ نَفْسَهُ كَعُلَمَاءِ النَّفْسِ هَؤُلَاءِ ؟

ن . ت .: لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ نِيَابَةً عَنِ الْآخَرِينَ ، وَدَعَيْنَا نَبَحْثَ مَسْأَلَةِ الْفَرَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ هَذِهِ . تَخِيلِي عَالِمًا مِنَ الْمَرِيخِ يَدْرُسُ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الْخَارِجِ ، مِنْ دُونِ أَيِّ تَحَاوُلٍ . هَبِي أَنْ لَدَيْهِ مَقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ الْوَقْتِ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ ، وَلِيَكُنْ آلَافُ

الأعوام. سيلحظ مباشرةً أنه يوجد على الأرض كائن حيٌّ فذ، تتغير ظروف حياته تغيراً كبيراً دونما تغيراتٍ مُرافقةٍ في تكوينه، أي، إنسانٌ حديث. القردة والسعادين تعيش كما عاشت منذ ملايين الأعوام، بينما تتغير حياة الإنسان على نحوٍ مُفَرِّطٍ وسريع جداً. فقد تنوعت تنوعاً هائلاً، مع أنه ليس ثمة تنوعٌ مُرافقٌ ضمن الأنواع البشرية. خُذي طفلاً من العصر الحجريّ وربّيه في نيويورك: سيغدو نيويوركياً. ربّي طفلاً أمريكياً في غينيا الجديدة، سيغدو وطنياً بابواً^(*) Papuan native، فالاختلافات الوراثية يجدها المرء سطحيةً وليست ذات شأن، إلا أن الكائنات البشرية تمتلك خاصيةً استثنائيةً تتمثل في أنها قادرة على أن تحيا بطرائق مختلفة جداً. والكائنات البشرية تمتلك تاريخاً، ونشأة حضاريةً، وتحيزاً ثقافياً. وإن أيّ عالمٍ نزيهٍ ينبغي أن تُثيره الاختلافات النوعية بين الكائنات البشرية والكائنات الحية الأخرى، على قدرٍ ما يُثيره الاختلاف بين الحشرات والفقاريات. وإلا، فسيكون لا عقلانياً حقاً. خُذي معياراً أولياً: التكاثر. في هذا المنحى تكون الكائنات البشرية نوعاً ذا تفوقٍ حيويٍّ ملحوظ. ربّما إن لم تُقارنِها بالحشرات - أو الدجاج (لكنّ التكاثر هنا ينشأ في الواقع عن تدخل الإنسان) - أما مُقارنته بكائنات حيةٍ عُليا، كالقردة أو الشمبانزي مثلاً، فإنها أكثرُ تكاثراً. وهكذا فإن الكائنات البشرية، في الاعتبار الأكثر بدائيةً، مختلفةٌ تماماً. وليس ثمة عالمٌ يمكن أن يُخفّق في إدراك ذلك.

وحتى الملاحظة العابرة جداً تكفي لإظهار أن هناك اختلافاتٍ نوعيةً بين البشر وكائنات حيةٍ مُعقّدةٍ أُخرى، وينبغي أن توضح. وإن يبحث مُراقِبنا المريخيُّ المُفترَض أكثر قليلاً، فسيجد أن الكائنات البشرية فذةٌ في اعتباراتٍ عديدة،

*- نسبةً إلى بابوا Papua، وهي مُقاطعةٌ في الجزء الجنوبي الشرقي من غينيا الجديدة [المترجم].

أَحَدُهَا قُدْرَتُهَا عَلَى اكْتِسَابِ نِظَامٍ لُغَوِيٍّ غَنِيٍّ وَمَتَنَوِّعٍ، وَيُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ بِحُرِّيَّةٍ، وَبِطَرَائِقَ بِالْغَةِ الدَّقَّةِ وَالتَّعْقِيدِ، وَلَا يُكَلِّفُ ذَلِكَ سِوَى الدَّخُولِ فِي الْجَمَاعَةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا النِّظَامُ. وَيَبْدُو لِي أَنَّ الْمُلَاحِظَ الرَّاشِدَ سَيَسْتَنْجِ أَنَّهُ يَنْبَغِي افْتِرَاضُ أَنَّ خَاصِّيَّاتٍ مُحَدَّدَةً لِ «العَقْلِ» مُنَاسِبَةٌ لِهَذَا النَّوعِ. وَإِنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ مُدَقِّقٍ وَمَيَّالٍ إِلَى الْكَشْفِ، فَإِنَّهُ سَيُحَاوَلُ تَحْدِيدَ الْبَنَى الْعَقْلِيَّةِ الثَّابِتَةِ وَرَاثِيَّاتِهَا، الَّتِي تُشَكِّلُ أَسَاسَ الْمَآثِرِ الْغَذَّةِ لِهَذَا النَّوعِ.

م. ر.: أَحَسَبُ أَنَّ رَفُضَ «الفِكْرِ الْفِطْرِيَّةِ» يَنْشَأُ أَيْضًا عَنْ ارْتِبَاطِهَا بِالْفِكْرِ الدِّيكَارِيَّةِ فِي النَّفْسِ (âme)...

ن. ت.: قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ صَحِيحًا حَقًّا، وَلَكِنْ تَأْمَلِي مُشْكَلَةَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ هَذِهِ فِي سِيَاقِهَا التَّارِيخِيِّ. فَعِنْدَ دِيكَارْتِ، مَثَلًا، يُفْتَرَضُ وُجُودُ النَّفْسِ عَلَى نَحْوِ عَقْلَانِيٍّ تَمَامًا بِوَصْفِهِ مَبْدَأٌ عِلْمِيًّا. وَفِي بَعْضِ الْإِعْتِبَارَاتِ، لَا يَكُونُ بُرْهَانُهُ عَلَى وُجُودِ النَّفْسِ مُخْتَلِفًا كَثِيرًا عَنْ بُرْهَانِ نِيوتنِ عَلَى الْجَازِبِيَّةِ، بِوَصْفِهَا قُوَّةً لِلطَّبِيعَةِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ دِيكَارْتِ كَانَ مَخْطِئًا، أَمَّا إِجْرَاؤُهُ فِي ذَاتِهِ فَلَمْ يَكُنِ الْبَتَّةَ غَيْرَ مَعْقُولٍ.

وَابْتِغَاءَ فَهْمٍ هَذَا، يَكْفِي أَنْ نَتَقَدَّمَ فِي إِدْرَاكِ وَجُوهِ الشَّبَهِ مَعَ نِيوتنِ، مَعَ أَنَّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَبَالِغَ فِي أَهْمِيَّتِهِ. وَأَعْلَنَ نِيوتنِ أَنَّ التَّقْنِيَّةَ الدِّيكَارِيَّةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُفَسَّرَ حَرَكَةَ الْأَجْسَامِ الثَّقِيلَةِ. وَابْتِغَاءَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ افْتَرَضَ قُوَّةً جَدِيدَةً: الْجَازِبِيَّةَ، الْإِنْجَذَابَ مِنْ بُعْدٍ؛ أَيْ، قُوَّةً عُدَّتْ فِي مَعَايِيرِ زَمَانِهِ خَفِيَّةً، غَامِضَةً، لِأَنَّ التَّأثيرَ مِنْ بُعْدٍ خَرَقَ الْإِفْتِرَاضَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْمِيكَانِيكََا. وَأَكَّدَ نِيوتنِ أَنَّهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَلَ الْمَرءُ الْحَوَادِثَ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُرْتَاحًا تَمَامًا أَيْضًا لِ «القُوَّةِ الْخَفِيَّةِ» الَّتِي كَانَ قَدْ افْتَرَضَهَا. وَهَذِهِ الْفَرَضِيَّةُ غَدَّتْ مَبْدَأَ الْحِسِّ الْعَامِّ

Common sense للأجيال اللاحقة، عند (لابلاس Laplace) (*) وآخرين. فكرة يصعب تخيلها في الفيزياء قبل نيوتن، غدت فيما بعد جزءاً من العلم بسبب طاقتها التفسيرية الاستثنائية.

أما ديكارت نفسه، فقد أخطأ في اعتقاد أن ميكانيكا «الدفع والجذب» يمكن أن تفسر كل ظواهر العالم الطبيعي، ما خلا أشياء كالوعى والإبداع الإنساني. ثم إنه، ابتغاء تفسير ما كان وراء نطاق الميكانيكا لديه، افترض جوهرًا آخر؛ شيئاً آخر صغيراً كان واضحاً له، مُضَفًى عليه ميتافيزيقا المادة والمصادفة التي كان مُلتزماً بها. ويستطيع المرء الآن أن يتخيل كل أنواع الأشياء الأخرى، التي ليست جزءاً من الميكانيكا لديه. ولكن دعينا نفترض أن ديكارت أو الديكارتيين، يمكن أن يكونوا قد تقدموا أكثر وابتدعوا رياضيات عقلية، نظرية تفسيرية ناجحة. إذ ذاك، سيصير اعتقادهم جزءاً من علم الأجيال اللاحقة، على غرار فيزياء نيوتن.

لنقل مرةً أخرى، إن وجود النفس، الجوهر الثاني عند ديكارت، افتراضٌ علمي، وهو خاطئ لكنه عقلائي. هل وسع نظريته في النفس إلى نظرية تفسيرية، رُبما يكون أوجد علماً جديداً لإكمال علم وظائف الأعضاء التأملي لديه. كان على حق تام في اقتراح مبادئ جديدة، والبحث عن نتائجها.

ويمكن أن يقول المرء إن اعتقاد ديكارت أن النفس جوهرٌ بسيطٌ عصبي على التحليل أوجد عائقاً أمام تطور نظرية تفسيرية للعقل، نظرية يمكن مبدئياً أن تُشبه بفيزياء مُحددة كما ينبغي - لكن تلك مسألة مختلفة تماماً.

*- المركيز دو لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧م): عالمُ فلك ورياضيات فرنسي، درس حركة القمر، والمشتري، وزحل.

وإنَّ رَفْضًا مُقْنِعًا لِثَنَائِيَّتِهِ، يَقْتَضِي البرهنة عَلَى أَنَّ فَرَضِيَّتَهُ عَدِيمَةُ النِّفْعِ، أَوْ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ فِي مُسْتَطَاعِنَا أَنَّ نَفْسَ خَاصِّيَّاتِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ بِطَرَأَتٍ مُخْتَلِفَةٍ. ثُمَّ دَعَيْنَا نَبْحَثُ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّفْسِيرِ... وَقَدْ يَثْبُتُ فِي النِّهَايَةِ أَنَّنَا مُوَجَّهُونَ نَحْوَ مَبَادِيٍّ جَدِيدَةٍ حِينَ نَبْحَثُ فِي طَبِيعَةِ الْعَقْلِ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَخَيَّلَ، مَعَ غِيَابِ الْبَرَهَانِ، أَنَّ مَبَادِيٍّ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا عَنْ مَبَادِيٍّ الْفِيزِيَاءِ الْمُعَاصِرَةِ تَتَدَخَّلُ فِي تَفْسِيرِ الظَّاهِرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ. وَفِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ جَمِيعًا عَلَى الْمَرءِ أَنْ يُحَازِرَ الْمَبْدِئِيَّةَ «الدَّوْغْمَاطِيَّةَّة».

م. ر.: وَابْتِغَاءَ تَحْدِيدٍ دَقِيقٍ لِمَبْلَغِ مُعَارَضَتِكَ لِلتَّجْرِيَّةِ، أَحْسَبُ أَنَّهُ مُهِمٌّ أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّ الْعُضْوَ الْعَقْلِيَّ هُوَ - بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ - مَا يُقَابَلُ النَّحْوِ وَلَيْسَ اللَّغَةُ. وَيَعْتَقِدُ الْبَشَرِيُّونَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَظْهَرُ جُمْلًا مُطَوَّلَةً، أَيْ، الْلِّسَانَ (Langue عند دُو سُوْسِير)، وَأَنَّ هَذَا يُمَثِّلُ النَّحْوَ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ، فَإِنَّ مَا يَنْشَأُ فِي الذَّاكِرَةِ بِوَصْفِهِ النَّحْوِ شَيْءٌ آخَرٌ تَمَامًا. وَلَا بَدَّ مِنَ الْإِلْحَاحِ عَلَى هَذَا الْاِخْتِلَافِ، لِأَنَّ مَنْظُومَةَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي تَجْعَلُ جُمْلَ لُغَةٍ مَا مُمْكِنَةً، كَثِيرًا مَا تَلْتَبَسُ بِاللُّغَةِ بِوَصْفِهَا مَنْظُومَةً مِنَ الْمُتَتَابِعَاتِ الْمُسْتَظْهَرَةِ.

وَالْأَمْرُ خِلَافُ ذَلِكَ عِنْدَ دُو سُوْسِير، حَيْثُ إِنَّ الْلِّسَانَ Langue هُوَ الَّذِي أُودِعَ فِي الذَّاكِرَةِ. وَلَمْ يَسْتَطِعِ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الذَّاكِرَةِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَوِّنَهَا مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُتَمَتِّةِ أَوْ تِلْكَ، وَ«الذَّاكِرَةِ» الَّتِي لَهَا صُورَةُ النَّحْوِ. وَالْوَضْعُ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا هُنَا. وَنَوْعَا الذَّاكِرَةِ مُخْتَلِفَانِ. إِنَّ إِنْشَاءَ النَّحْوِ يَرْجِعُ إِلَى الْمَقْدَرَةِ اللَّغَوِيَّةِ. وَلَكِنْ أَلَا تَحْسَبُ أَنَّ التَّبَاسًا آخَرَ يُمَكِّنُ أَنْ يَظْهَرَ بِسَبَبِ غُمُوضِ الْكَلِمَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ Language (كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ Langue و Language؟) وَهَكَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْهَمَ الْمَرءُ أَنَّ اللَّغَةَ language بِوَصْفِهَا لِسَانًا Langue هِيَ الَّتِي تَكُونُ فِطْرِيَّةً...

ن. ت.: مِمَّا سَيَكُونُ مُضْحِكًا، طبعًا؛ حَيْثُ لو قُدِّرَ أَنْ تَكُونَ الْفَرَنْسِيَّةُ فِطْرِيَّةً، لَتَكَلَّمْتُهَا... إِنَّ آيَةَ اكْتِسَابِ اللِّغَةِ هِيَ الْفِطْرِيَّةُ. ففِي جَمَاعَةٍ لُغَوِيَّةٍ مَا، يَصِلُ أَطْفَالٌ لَهُمْ تَجَرِبَةٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا إِلَى قَوَاعِدَ مُثَابَهَةٍ، وَفِي الْحَقِيقَةِ قَوَاعِدَ مُتطَابِقَةٍ تَقْرِيبًا، حَتَّى الْآنَ كَمَا نَعْلَمُ. وَذَلِكَ مَا يَسْتَلْزِمُ التَّفْسِيرَ. وَحَتَّى ضِمْنَ جَمَاعَةٍ مَحْدُودَةٍ جَدًّا - وَلِتَكُنِ النُّخْبَةُ فِي بَارِيسَ - تَكُونُ التَّجَارِبُ مُخْتَلِفَةً. وَيَتَمَتَّعُ كُلُّ طِفْلِ بِتَجَرِبَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتُوجَّهُ كُلُّ طِفْلِ حَقَائِقُ مُخْتَلِفَةٌ - أَمَّا فِي النِّهَايَةِ، فَإِنَّ النِّظَامَ هُوَ نَفْسُهُ جَوْهَرِيًّا. وَبِمُؤَدَى ذَلِكَ، عَلَيْنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ الْأَطْفَالَ جَمِيعًا يَشْتَرِكُونَ فِي التَّقْيِيدَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ نَفْسِهَا الَّتِي تُمَيِّزُ عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ تِلْكَ الْقَوَاعِدَ الَّتِي سَيَكُونُونَهَا.

م. ر.: إِنَّ هَذِهِ الْفَرَضِيَّةَ تُفَسِّرُ لِمَاذَا لَا يَعُودُ مُمَكِّنًا - حِينَ تُتَجَاوَزُ مَرَحَلَةُ النُّضْجِ، الْمُرَاقَبَةُ - تَعْلَمُ لُغَةً مِنَ اللِّغَاتِ؛ فَجِرَاءُ الذَّنْبِ لَا تَعْلَمُ الْكَلَامَ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ الْأَجْنِبِيَّةَ الَّتِي كُنَّا قَدْ تَعَلَّمْنَاهَا فِي آخِرَةِ مِنْ حَيَاتِنَا بِسَبْرَةٍ خَاصَّةٍ. وَمِنْ دُونِ هَذِهِ التَّقْيِيدَاتِ الْحَيَوِيَّةِ، سَتَكُونُ النَّبْرَةُ الْأَجْنِبِيَّةُ عَصِيَّةً عَلَى التَّفْسِيرِ.

ن. ت.: نعم، إِنَّهُ يَلُوحُ أَنَّ هُنَاكَ سِنًّا خَطِيرَةً لِتَعْلَمَ اللُّغَةَ، عَلَى غِرَارِ مَا يَصْدُقُ ذَلِكَ إجمالًا عَلَى نُمُوِّ الْجِسْمِ الْبَشَرِيِّ. وَتُحَدَّدُ أَنْمَاطُ النَّمُوِّ وَرَائِيًّا، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي النُّضْجِ الْجِنْسِيِّ، وَمِثَالُنَا هُنَا حَالَةُ تَحَدُّثٍ بَعْدَ الْوِلَادَةِ بِأَمْدٍ طَوِيلٍ. وَسَيَكُونُ مِنَ السُّخْفِ الْبَيِّنِ تَأْكِيدُ أَنَّ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ، هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُحَدَّدُ وَرَائِيًّا.

حَتَّى الْمَوْتُ، إِلَى دَرَجَةٍ مَا، يُحَدَّدُ وَرَائِيًّا. وَالْقَوْلُ إِنَّ الْخَاصِّيَّاتِ الْمُحَدَّدَةَ وَرَائِيًّا لِلْكَائِنِ الْحَيِّ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُظْهَرَ نَفْسُهَا قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ الشَّرُوطُ الْمُنَاسِبَةُ، وَأَنَّ الْبَرْنَامَجَ الْوَرَائِيَّ عَلَى الْجُمْلَةِ يُوضَحُ بِطَرِيقَةٍ تُحَدَّدُ قَبْلِيًّا فِي جُزْءٍ مِنْهَا وَبِفِعْلٍ

العواملِ المُحيطةِ في جزءٍ آخَرَ ، هو الحقيقةُ البدهيَّةُ التي لا يأتيها الباطلُ . وهو أمرٌ عاديٌّ في دراسةِ التطوُّرِ البدنيِّ . ويُمكنُ القولُ ثانيةً إنَّه إن أُهْمِلَتِ الشَّائِئَةُ المنهجيةُ في المبدأِ التجريبيِّ ، فلا يكونُ ثَمَّةُ مُبرِّرٍ لِّلاندهاشِ بِاكتشافِ ظاهراتٍ مُشابهةٍ في دراسةِ الوظائفِ العقليةِ العليا .



القِسْمُ الثَّانِي النَّحْوُ التَّوْلِيدِي

الفصل الحائمين ولادة النحو التوليدي

إن موضوع هذا الفصل هو الذي يُميزُ جوهرياً منهج تشومسكي عن البنيوية Structuralism. ولكن دعنا نستعد بإيجاز شديد - وعلى نحو مبسّط جداً - بعض خاصيّات نموذجِ النحويّ. يقول تشومسكي إنّ نحواً توليدياً A Generative Grammar ينبغي أن يُظهر المعرفة الضمنية للمتكلّم، أو «عقل» القارئ (تتخذ كلمة عقل Intelligence هنا تحديداً خاصاً). وحتى القواعد النحوية التقليدية الأكثر اكتمالاً «تفضل» ذكر أبسط التّمييزات. وعلى سبيل المثال، فإنّه من خلال تعليمات هذه القواعد بوصفها الإيضاح الوحيد، سيكون الإنسان عاجزاً عن توليد أيّ من الجمل السابقة. أمّا في الفرنسية، فلا شيء سيمنع بدهة إنتاج المُتتالية La grammaire est très générative (النحو مُولدٌ جداً)، على غرار المُتتالية La grammaire est très intéressante (النحو مُثيرٌ جداً)، إنّ نحنُ بدأنا بالتّحديدات التي يُعطيها النحو الفرنسيّ التقليديّ، كالذي عند غريفيس Grevisse مثلاً، لِلصّفة. ولم يُحدّد غريفيس هذا لأنّ مُتحدّث الفرنسية «يعرف» حدسيّاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يقول هذا. ومن وجهة أخرى، ينبغي على مُتحدّث الفرنسية أن يحفظَ عن ظهَر قلبٍ شكل الجَمع الذي يُميزُ Loyal/Loyaux من navals/maval؛ فتلك أشياء شاذّة.

وإضافةً إلى ذلك، يقترح تشومسكي إنشاء نموذج شكليّ. وانطلاقاً من

فَرَضِيَّةٍ وَمَجْمُوعَةٍ قَوَاعِدَ مُحَدَّدَةٍ جَيِّدًا تُؤَلِّدُ الْمُتَتَالِيَّاتِ الْمُرَادَةُ «أَيًّا». وما سُمِّيَ
 الْمُكَوَّنَ الْأَسَاسِيَّ The base component في النِّحْوِ، كان يُتَخَيَّلُ في الْبَدْءِ
 أَنَّهُ مَنْظُومَةٌ مُحَدَّدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ rewriting، أعني قَوَاعِدَ لَهَا شَكْلُ
 $\varphi \rightarrow \Psi$ ، الذي يُمكنُ تَرْجَمَتُهُ عَلَى هذا النِّحْوِ: في كُلِّ مَرَّةٍ تُصَادَفُ فِيهَا الْعُنْصُرُ
 φ ، الذي هو عَلَى يَسَارِ السَّهْمِ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضَعَ مَكَانَهُ Ψ ، الذي هو عَلَى يَمِينِ
 السَّهْمِ. ولنْ أَمْضِيَ فِي تَفْصِيلِ أَكْثَرِ هُنَا، وَلَكِنْ انْظُرْ أَدْرِيانَ أَكْمَجِيانَ Adrian
 Akmajian وفرانك هني Frank Heny: مدخُلٌ إِلَى مَبَادِي النِّحْوِ التَّحْوِيلِيِّ
 Introduction to the Principles of Transformational Syntax،
 أو سي. ل. بيكر C. L. Baker: مدخُلٌ إِلَى النِّحْوِ التَّحْوِيلِيِّ التَّوْلِيدِيِّ
 Indroduction to Generative Transformational Syntax^(١).

ومهما يَكُنْ، فَإِنِّي سَأَقْدِمُ فِكْرَةً عَنِ الْمُكَوَّنِ الْأَسَاسِيِّ فِي نَحْوِ مَا، بِمِثَالِ
 مُبَسَّطٍ جَدًّا.

تَخَيَّلْ لُغَةً لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ: قَيْسٌ، لَيْلَى، يُحِبُّ (*). يَعْرِفُ
 مُتَكَلِّمُو هَذِهِ اللَّغَةِ «تِلْقَائِيًّا» أَنَّ تَرَاكِيْبَ مُحَدَّدَةً (دُونَمَا تَكَرَّرَ) مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
 الثَّلَاثِ تَنْتَمِي إِلَى اللَّغَةِ، بَيْنَمَا لَا تَنْتَمِي تَرَاكِيْبُ أُخَرُ؛ مِثْلًا:

* قَيْسٌ لَيْلَى يُحِبُّ

ok قَيْسٌ يُحِبُّ لَيْلَى

١- (كيمبردج، ماسوشوستس: مطبعة معهد ماسوشوستس للتكنولوجيا، ١٩٧٥م) و(إنجلوود

كليفر، ن. ج. برنتس - هيل، ١٩٧٧م)، تباعاً.

*- وضعنا الاسمين العربيَّين قيساً وليلى مكان الاسمين الأعجميين اللذين اعتمدهما المؤلف.
 [المترجم إلى العربية].

* يُحِبُّ قيس ليلي

ok ليلي تُحِبُّ قيساً

* ليلي قيس يُحِبُّ.

حيثُ إنّ * = لا تنتمي إلى اللغة؛

=ok تنتمي إلى اللغة.

والمُشكلة هي أن نجعل هذه «المعرفة» واضحة. وفي مقدور المرء أن يقترح النحو الآتي:

$$\left\{ \begin{array}{l} \{G\} \mid S \rightarrow NVP \\ \\ N \rightarrow \left\{ \begin{array}{l} \text{قيس} \\ \text{ليلى} \end{array} \right. \\ V \rightarrow \text{يُحِبُّ} \end{array} \right\} = \left\{ \begin{array}{l} \text{Grammar} = G \text{ النحو} \\ \text{Sentence (الجملة)} \text{ « تُكْتَبُ ثانية: noun} \\ \text{(اسم) + Verb phrase (عبارة فعلية)} \\ \text{Verb phrase (V P) تُكْتَبُ ثانية:} \\ \text{Verb (فعل) + noun (اسم)} \\ \text{Noun يُكْتَبُ ثانية: قيس أو ليلي} \\ \text{Verb يُكْتَبُ ثانية: يُحِبُّ.} \end{array} \right.$$

وإن يُتابع المرء هذه «الاستنتاجات» آلياً (S، ثم VP + N، إلخ)، فسَيَصِلُ إلى المُتتاليات المرغوب فيها؛ وأكثر من ذلك، ليس في وَسع المرء أن يستنتج مُتتاليات غير مرغوب فيها. دَعْنَا نُنشِئَ استنتاجاً:

S يُوضَعُ مكانها: VP N

VP يُوضَعُ مكانها: N V N: N V

N الأولى يُوضَعُ مكانها «قيس» N V

V يُوَضَّعُ مَكَانَهَا «يُحِبُّ»: قَيْسٌ يُحِبُّ N

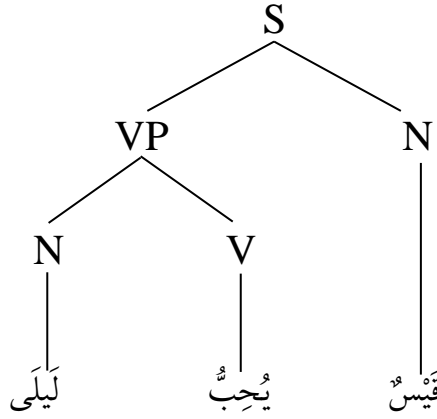
N الثَّانِيَةُ يُوَضَّعُ مَكَانَهَا «لَيْلَى»: قَيْسٌ يُحِبُّ لَيْلَى .

(ليس في وَسْعِ المرءِ أن يذهبَ إلى أبعدَ ، فالمجموعةُ محدودةٌ) .

وَنَسْتَطِيعُ عَلَى نَحْوِ مُسَاوٍ تَمَامًا أَنْ نُثَمِّلَ الاسْتِنَاجَ بِمُشَجَّرِ a tree أو واسِمِ

العِبَارَةِ phrase marker . وَيَصِفُ الْمُشَجَّرُ بِنْيَةَ الْعُنَاصِرِ النَّهَائِيَّةِ لِلْجُمْلَةِ .

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ عِلَاقَةَ قَيْسٍ وَعِلَاقَةَ لَيْلَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفِعْلِ لَيْسَتْ مُتَمَاثِلَتَيْنِ .



وَلَا يَكَادُ الْمَرْءُ يَشْكُ فِي أَنَّ النَّحْوَ فِي لُغَةٍ طَبِيعِيَّةٍ ، أَكْثَرُ تَعْقِيدًا عَلَى نَحْوِ

تَعَزُّزٍ مَعَهُ الْمُقَارَنَةُ . وَقَدْ أَكَّدَ تَشَوْمَسْكِ أَنَّ قَوَاعِدَ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ ، مَهْمَا يُمَكِّنُ أَنْ

تَكُونَ دَرَجَةً تَعْقِيدِيًّا ، لَيْسَتْ كَافِيَةً لَوْصِفِ اللُّغَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ .

إِنَّ نَحْوَ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ هُوَ ، مِنْ ثَمَّ ، نَمُودَجٌّ يَنْبَغِي أَنْ يَتَضَمَّنَ عِدَّةَ مُكَوِّنَاتٍ

أُخَرِ ، إِضَافَةً إِلَى قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ لِلْمُكَوِّنِ الْأَسَاسِيِّ . وَقَدْ أَكَّدَ تَشَوْمَسْكِ فِي

كِتَابَاتِهِ الْأُولَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ نُدْمِجَ فِي النَّحْوِ مُسْتَوِيَيْنِ آخَرَيْنِ عَلَى الْأَقْلَى . وَتُقَدَّمُ

قَوَاعِدُ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ بِنْيَةً لِلْمُتَتَالِيَّاتِ مِنَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَلَا بَدَّ مِنْ إِضَافَةِ مُكَوِّنِ صَوْتِيٍّ

صَرَفِيٍّ وَمُكَوِّنِ تَحْوِيلِيٍّ . وَالْقَوَاعِدُ التَّحْوِيلِيَّةُ قَوَاعِدُ ذَاتِ نَمُودَجٍ مُخْتَلِفٍ ، حَيْثُ

تُحوّلُ البنى التَّحويلية التي تولّدُها قواعدُ الكتابةِ الثانيةِ إلى بنى أُخرى، وَفَقاً لِمَبَادِئٍ دقيقة. ويُستشهدُ عادةً بِالعلاقةِ بينَ المبنيِّ لِلْمَعْلُومِ active والمبنيِّ لِلْمَجْهُولِ passive بِوَضْفِهَا مثلاً يَسْتَلْزِمُ التَّحْوِيلَ (*).

وقد آلَ تطوّرُ هذه النّظريّةِ إلى تعقيدِ النّمودجِ في بعضِ النّقاطِ، وإلى تبسيطه في نِقَاطٍ أُخرى. وسأشيرُ فيما بعدُ، إلى المواضعِ التي تطوّرَ عندها النّمودجُ.

ويبدو أنّ تاريخَ النحوِ التّوليديّ مرَّ بِثلاثِ مَراحِلَ أساسيّة، وَضَعَتْ في المُقدّمةِ على نحوٍ مُتتالٍ أَحَدَ الجَوَانِبِ الأساسيّةِ لِلنّظريّةِ الجديدة. حاولتِ الأولى، التي استمرّت من بدايةِ الخَمْسِينيّاتِ إلى مُنتَصَفِ السِّتّينيّاتِ [من القرنِ العشرين]، جَعَلَ اللّغويّاتِ عِلْماً: وقد بدّتِ الفيزياءُ نَمودجاً لِلْمَرْجِعِ في هذا. وهذه هي مرحلةُ البنيةِ المنطقيّةِ لِلنّظريّةِ اللّغويّةِ The Logical Structure of Linguistic Theory (أو LSLT، كما ستُذكر).

بعدَ ذلك (من عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٠م)، غَدَتْ مسألةُ عِلْمِ الدّلالةِ semantics أكثرَ أهميّةً: أينبغي أن يُفسّرَ معنى الكلماتِ والجُمَلِ بِالنحو، وإن كان الأمرُ كذلكِ فبأيّةِ طريقةٍ؟ وإنّ جدلاً مُثيراً جدّاً رافقَ الإجاباتِ المختلفةَ المُقدّمة.

وأخيراً، بعدَ عام ١٩٧٠م، صارَ البحثُ أكثرَ توجُّهاً نحوَ المُشكِلاتِ التي عَرَضَها النّحوُ العامُّ. واستجابةً لِلضّروراتِ الشّكليّةِ لِهذه المُناقشاتِ، سألْتُ نَومَ تشومسكي أن يأخذَ بِهذا التّقسيمِ الزّمنيِّ لِلْمَوْضُوعِ.

٠٠م

*- مثالٌ في الفرنسيّةِ هو التّحويلُ الذي حَوَّلَ tous في Tous Les garçons sont partis إلى: Les garçons sont tous partis. انظرُ ريتشارد كاين Richard Kayne في: النّحو الفرنسيّ French Syntax (كيمبردج، ماسوشوستس، مطبعة MIT، ١٩٧٥م).

تاريخ النحو التوليديّ معارضة البنيوية

م. ر.: يُولَدُ النَّحْوُ التَّوَلِيدِيُّ مِنَ الْخُصُومَةِ مَعَ الْبِنْيَوِيَّةِ وَالْمُعَارَضَةِ لَهَا. وَتَعُدُّ الْبِنْيَوِيَّةُ عِلْمَ اللُّغَةِ، عَلَى الْجُمْلَةِ، نَشَاطًا تَصْنِيفِيًّا. وَقَدْ أُعْطِيَتْ أَنْتَ هَذَا التَّخَصُّصَ بِنِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ **a logical structure**، بِنِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ..

ن. ت.: رُبَّمَا تَكُونُ كَلِمَةُ «عِلْمٍ» تَشْرِيفِيَّةً. وَرَغْبَتِي الْخَاصَّةُ هِيَ أَنْ أُعْلَقَ عَلَى الْوَصْفِ الدَّقِيقِ لِمِيدَانٍ مَا مِنْ الْمُعْطَيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ قَدَرًا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ أَقَلَّ مِنْهُ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْعُمُقِ التَّفْسِيرِيِّ لِلْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ.

وَأُسَلِّمُ بِأَنَّهُ فِي شَيْءٍ مُعَقَّدٍ، كَالِاسْتِعْمَالِ الْعَمَلِيِّ لِلُّغَةِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى اللُّغَةِ، تَدْخُلُ عِدَّةُ أَنْظِمَةٍ فِي التَّفَاعُلِ. وَأَيًّا كَانَتْ دَرَجَةُ التَّنَبُّهِ فِي مُلَاحَظَاتِنَا، وَالْمَوْضُوعِيَّةِ فِي مَنَاجِنَا، وَالدَّقَّةِ فِي تَجَارِبِنَا، فَإِنَّ الْحَقَائِقَ الْمُقَدِّمَةَ نَفْسَهَا، فِيمَا أَرَى، ذَاتُ أَهْمِيَّةٍ ضَمِيلَةٍ. أَمَّا الْمُهِمُّ، فَهُوَ تَأْثِيرُهَا فِي النَّظَرِيَّاتِ التَّفْسِيرِيَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ صِيَاغَةَ الْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْمَقْدِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ. وَحِينَ أَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِي فَحَسْبُ، أَقُولُ إِنَّ تَنْظِيمَ «حَقَائِقِ اللُّغَةِ» لَا يُهْمُنِي كَثِيرًا. وَفِكْرَةُ «الْحَقَائِقِ اللُّغَوِيَّةِ» لَا تَحْمِلُ إِلَّا مَدْلُولًا ضَمِيلًا خَارِجَ نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ ضَمْنِيَّةٍ عَلَى الْأَقْل. وَفِي مَقْدُورِ الْمَرءِ بِمَشْرُوعِيَّةٍ تَامَةٍ أَنْ يَمْتَلِكَ اهْتِمَامَاتٍ مُخْتَلَفَةً؛ وَأُحَاوِلُ بِبَسَاطَةٍ أَنْ أُوضَحَ مَا يُهْمُنِي. وَأَقُولُ عَلَانِيَةً إِنَّنِي لَا أَحْسَبُ أَنَّ مُحَاوَلَةَ تَفْسِيرِ «كُلِّ الْحَقَائِقِ» تُشَكِّلُ هَدَفًا مَعْقُولًا. بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، فَمَا يَبْدُو لِي مُهِمًّا هُوَ اكْتِشَافُ الْحَقَائِقِ الْحَاسِمَةِ فِي تَحْدِيدِ الْبِنْيَةِ الْأَسَاسِيَّةِ وَالْمَبَادِئِ الْخَفِيَّةِ التَّجْرِيدِيَّةِ. وَإِنْ تَكُنْ مِثْلُ هَذِهِ الْمَبَادِئِ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ، فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ لَا يَسْتَحِقُّ الْمُبَاشَرَةَ. أَمَّا حِينَ تَكُونُ مَوْجُودَةً، فَإِنَّ الْحَقَائِقَ تَكُونُ

مُثيرةً (بالنسبة إلَيَّ عَلَى الأقل)، بِقَدْرٍ ما يكونُ لها مِن تأثيرٍ في حقيقةِ هذه المبادئ. إِنَّ اكتشافَ مِثْلِ هذه الحقائق، كثيراً ما يكونُ إنجازاً إبداعياً في نفسه، و«مرتبطاً بِنظريّةٍ» عَلَى نطاقٍ واسع. و«الحقائق»، في أيِّ معنىٍ مُثيرٍ لهذه الفكرة، لا تُقدَّمُ إلينا بِبساطة، وليس مُهمّاً، في اعتقادي، أن تُقدَّم الحقائق عَلَى نحوٍ دَقِيق، وهذا طبعاً معَ أَنَّ الحقائق الوثيقة الصّلةِ بِالموضوع (وهي أيضاً فكرةٌ مرتبطةٌ بِالنّظريّة) ينبغي أن تُقدَّم عَلَى أدقِّ نحوٍ مُمكن.

م. ر.: مثلاً هي الحال في الفيزياء.

ن. ت.: كما تُريدين. فتلك هي الكيفيّة التي تبدو لي فيها. وفي كُلِّ مرحلةٍ في تطوّر الفيزياء تكونُ هناك «حقائق» غامضةٌ لا حَصَرَ لها، أو حقائقٌ بدَتْ لا تَنسَجِمُ البتّة معَ نظريّاتٍ تُتَابِعُ بِقُوّة. وَلِنَتَنَاوَلَ مثلاً تقليديّاً، تأملي «حقائق» السّحرِ أو حقائق التّنجيم، التي بدَتْ ثابتةٌ تماماً في معاييرِ البَحْثِ التّجريبيّ، في الوقتِ الذي غَدَتْ فيه فيزياءُ جاليلو الكلاسيكيّة تُشكّلُ مبدأً عِلْميّاً. أو لِنَتَنَاوَلَ مثلاً أَقلَّ غَرابةً، تأملي المُشكِلاتِ التي واجهَتْها الفيزياءُ في القَرْنِ السّابِعِ عَشَرَ في مُعالَجةِ المُلاحَظَاتِ بِوساطَةِ المِقْرَابِ telescope، إذ لم يُفْهَمْ كثيرٌ منها إلّا حديثاً جدّاً. أو بِبساطةٍ، تأملي مُشكلةَ تفسيرِ لِماذا لم يَتَغَيَّرِ الحَجْمُ الظّاهِرُ لِلْكَواكِبِ. أو تأملي عَجَزَ جاليلو عن تفسيرِ لِماذا لا تَطِيرُ الأشياءُ عن الأرض، إن كانتِ الأرضُ تَدُورُ حَقّاً عَلَى مَحْوَرِها - فلم يَأْتِ التّفسيرُ إلّا أخيراً. ودُونما دُخُولِ في نِقاشٍ مُفَصَّلٍ، يَمَكُنُ القولُ إِنَّه صَحِيحٌ تماماً أَنَّ تاريخَ العُلُومِ الخَطِيرةُ شَهِدَ إِرْجاءَ مُشكِلاتٍ كثيرةٍ في تفسيرِ الحقائق، عَلَى أَمَلٍ أَنْ تُفَسَّرَ في آتٍ مِنَ الأَيّامِ. وإنّ تفسيرَ «كُلِّ الحقائق» في العالَمِ المادّيّ، لن يكونَ هَدَفَ الفيزياءِ في العصرِ الحديث، في معنىٍ أَنْ بعضَ اللّغويّينَ يَحْسَبُونَ أَنَّ النّحوَ ينبغي أَنْ يُفَسَّرَ «كُلِّ حَقَائِقِ» اللّغةِ واستعمالِ اللّغةِ. وَيَرْجِعُ النّجَاحُ الكَبِيرُ في الفيزياءِ في جزءٍ مِنْهُ إلى الاستعدادِ لِتركيزِ الانتباهِ عَلَى

الحَقَائِقِ التي تبدو حاسِمةً عَلَى مستَوَى خاصٍّ مِنَ الإدراك، ورُبَّما إلى البحثِ عن الحَقَائِقِ الغريبةِ تماماً التي ستكونُ حاسِمةً بِالنَّسْبَةِ إلى النِّظَرِيَّةِ، مِنْ دُونِ حِسَابٍ حَتَّى لِلْحَقَائِقِ الواضحةِ حِينَ لا تبدو هذه وثيقة الاتِّصالِ بِالنِّظَرِيَّةِ الفيزيائيةِ (واستجابةً لِداِعي الإخلاصِ نقولُ إِنَّ ذلكَ يَحْدُثُ حَتَّى حِينَ تبدو مُتضاربةً مَعَهَا).

أما تلك التَّنَوُّعاتُ في «البِنْيَوِيَّةِ» أو في «عِلْمِ اللُّغَةِ الوَصْفِيِّ» التي تَهْتَمُّ أساساً بِترتيبِ «الحَقَائِقِ»، فَإِنَّ المرءَ يَسْتَطِيعُ حقاً أَنْ يقولَ إِنَّ أهدافي الخاصةَ غَيْرُ مُتَنافِرَةٍ لِزاماً مَعَ أهدافِها، لكنَّنا نَتعاملُ مَعَ مشروعاتٍ عَقْلِيَّةٍ مختلفةٍ. وفي كِتَابِي «البِنْيَةُ المَنْطَاقِيَّةُ لِلنِّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ Logical Structure of Linguistic theory»، الذي يَشْمَلُ بحثي لِلدُّكتوراهِ، حاولْتُ أَنْ أناقشَ هذه المسائلَ.

اقتَرَحْتُ هناك أَنَّهُ فيما يَتَّصِلُ بِأغراضِ النِّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، عَلَيْنَا أَنْ نَهْتَمَّ بِظَاهِرَاتٍ مُحدَّدةٍ كَانَتْ مُستَبَعَةً تقريباً مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ الوَصْفِيِّ لِذلكَ العهدِ: تلكَ الحَقَائِقُ المُرتَبِطَةُ بِما يُسَمَّى أحياناً الاستعمالَ «الإبداعِيَّ» لِلُّغَةِ، تَمَّ تَصَوُّرُها بِوَصْفِها استعمالاً عادِيّاً لِلُّغَةِ. وهذه الحَقَائِقُ لم تُكُنْ قد عُولِجَتْ عَلَى نَحْوِ مُنظَمٍ مِنْ خِلالِ النِّحْوِ التَّقْلِيدِيِّ أو اللُّغَوِيَّاتِ البِنْيَوِيَّةِ، مَعَ أَنَّها، عَلَى غِرارِ ما كُنْتُ أَشْرْتُ مِراراً، كَانَتْ اِهْتِمَاماً أَصِيلاً، مثلاً، في أَعْمَالِ (هَمبُولد Humboldt) و(بول Pall)، و(جِسْبِرْسِن Jespersen)، وآخَرِينَ.

وَإِنَّ القَوَاعِدَ النِّحْوِيَّةَ التَّقْلِيدِيَّةَ، حَتَّى تلكَ التي تَحْتَلُّ حَيِّزاً فسيحاً كَنَحْوِ جِسْبِرْسِن^(١)، تُقَدِّمُ أمثلةً لا تُحْصَى لِلبِنْيِ المُعَقَّدةِ، لكنَّها لا تُعْطِي مبادئَ واضحةً لِتَقْرِيرِ أَنَّ هذه البِنْيَ - وَبِنْيَ أُخْرَى «تُمَثِّلُها» عَلَى نَحْوِ ما - تنتمي إلى اللُّغَةِ، في

١- أوتو جِسْبِرْسِن، نَحْوُ إنْجِلِيزِي حَديثٌ عَلَى أُسُسٍ تاريخِيَّةٍ A Modern English Grammar on Historical Principles (هيدلبرغ: ١٩٠٩-١٩٤٩م).

حِينَ أَنْ بَنَى مُتَخِيلَةً أُخْرَى تُقَدِّمُ هَذِهِ الْمَبَادِئَ .

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَمْ تُثَرَّ حَقًّا . وَأَفْتَرِضُ أَنَّ جُسْبِرْسَنَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ انْطِبَاعٌ بِأَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ أَصْلِيٍّ مَفْقُودٍ فِي تَقْدِيمِهِ ، مَعَ إِقْرَارِهِ بِأَهْمِيَّةِ مَا سَمَّاهُ «تَعْبِيرَاتٍ حُرَّةً Free expressions» . وَفِي تَقْدِيمِ أَمْثَلِهِ الْكَثِيرَةِ ، ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَعْطَى وَصْفًا لِلْغَةِ ، هَكَذَا يَبْدُو ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ تَعْلِيْقَاتِهِ لَمْ تَكُنْ كَافِيَةً ؛ لِأَنَّهَا تَحْتَكِمُ ضِمْنِيًّا إِلَى «ذِكَاةِ» الْقَارِئِ - وَلِفَهْمِهَا وَلَا اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ وَتَعْلِيْقِهِ الصَّائِبِ غَالِبًا فِي إِيجَادِ أَشْكَالٍ جَدِيدَةٍ وَفَهْمِهَا ، يَجِبُ عَلَى الْقَارِئِ أَنْ يُضَيِّفَ مَعْرِفَتَهُ الْحَدْسِيَّةَ لِلْغَةِ .

وَلَمْ تَتَوَلَّ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ الْبَنِيَوِيَّةُ مُهِمَّةَ دِرَاسَةِ مَجَالٍ مِنَ الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ الْعَالِيَةِ التَّعْقِيدِ ، كَمَا فَعَلَتِ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ .

وَهَذَا الْإِسْهَامُ لِلْقَارِئِ الذَّكِيِّ ، الَّذِي تَفْتَرِضُهُ قَبْلِيًّا الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ السَّابِقَةُ ، يَنْبَغِي أَنْ يُوَضَّحَ إِنْ نَحْنُ أَمَلْنَا بِاِكْتِشَافِ الْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْغَةِ . وَهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الْأَوَّلُ لِلنَّحْوِ التَّقْلِيدِيِّ ، وَبِلُغَةِ عِلْمِ النَّفْسِ : مَا طَبِيعَةُ الْمَعْرِفَةِ الْحَدْسِيَّةِ غَيْرِ الْوَاعِيَةِ ، الَّتِي تُهَيِّئُ لِلْمَتَكَلِّمِ اسْتِعْمَالَ لُغَتِهِ ؟

أَمَّا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، فَإِنَّ تِلْكَ الْقَضِيَّةَ لَمْ تُوَاجَهْ بِقُوَّةٍ ، مَعَ أَنَّهَا قَدْ عُرِضَتْ أحيانًا ، وَتَظَلُّ مَسْأَلَةً خَطِيرَةً الْيَوْمَ ، مَسْأَلَةٌ دُونَ إِجَابَةٍ فِي عِدَّةِ اعْتِبَارَاتٍ حَاسِمَةٍ .

وِثَانِي الْأَهْدَافِ هُوَ إِنْشَاءُ نَظَرِيَّةٍ تَفْسِيرِيَّةٍ . وَلَدَيْنَا تَفْسِيرٌ اِحْتِمَالِيٌّ عَلَى الْأَقْلِّ حِينَ يَكُونُ فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ بَعْضَ الظَّاهِرَاتِ مِنَ الْمَبَادِئِ الْعَامَّةِ ، أَيْ حِينَ نَسْتَطِيعُ تَقْدِيمَ مَقْيَاسٍ اسْتِنْتَاجِيٍّ لِانْحِرَافِ التَّفْكِيرِ عَنْ هَذِهِ الْمَبَادِئِ ، حِينَ تُقَدِّمُ لَهُ بَعْضُ الْحَقَائِقِ الْخَاصَّةِ عَلَى أَنَّهَا «شُرُوطٌ مُقَيَّدَةٌ» .

وَابْتِغَاءَ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيضَاحِ ، دَعِينَا نَأْخُذُ مِثَالًا مَشْهُورًا ، هُوَ سُلُوكُ نِظَامِ الْفِعْلِ

المُساعد في الإنجليزِيَّة^(*). وأحسبُ أنَّ المرءَ يستطيعُ أن يُفسَّرَ بعضَ جوانبِ هذا النظامِ على أساسِ نظريَّةٍ ما في النَحْوِ التَّحويليِّ وبعضِ الحقائقِ المُقدَّمة: من بينها

*- إنَّ القواعدَ التي تُعالجُ سلوكَ الفعلِ المساعدِ في الإنجليزِيَّة معقَّدةٌ فعلاً، لكنَّها يمكنُ أن تُبسَّطَ باستعمالِ التَّحويلاتِ - انظرُ: «البِنَى التَّحويليَّة Syntactic Structures»، الفصل الخامس. انطلاقاً من قاعدةِ الكتابةِ الثانيَّة (انظر قبل، ص ١٣٦) التي تصفُ سلوكَ الجُملةِ الخبريَّة، يكونُ لدينا:

فعل ← فعل مساعد + فعل

فعل مساعد ← (en + be) (ing + be) (en + have) (M) C

حيثُ العناصرُ التي بينَ القوسينِ () اختياريةٌ؛

وحيثُ C تُقابلُ إمَّا عنصَرَ الصَّفَرِ التَّحويليِّ Φ ،

وإمَّا العنصرَ S الذي ينتمي إلى مفرد الشخص الثالث،

وإمَّا عنصَرَ الماضي؛

وحيثُ M تُقابلُ will، can، may، shall، must، أي الأفعالُ المُساعدة الصَّيغِيَّة التي

تُدخَلُ على أفعالٍ أُخرى لِلدَّلالةِ على بعضِ الفروقِ في الصَّيغة modals الإنجليزِيَّة.

(هناك أيضاً عملٌ حركةٍ اللاحقة الذي يربطُ اللواحقَ التَّحويليَّة s، -en، ing، Φ ، إلخ،

بالأفعالِ التي تأتي بعدها هذه اللواحقُ: مثلاً ذلك أنَّ مُتتاليَّة فعل مساعد + فعل تُكتَبُ ثانيةً

على هذا النحو: C + فعل، ثمَّ على هذا النحو: S + فعل، ونتيجةً لحركةٍ اللاحقةٍ يحصلُ

المرءُ على فعل S + ؛ ومن ثمَّ فإنَّ S + Leave تحوَّل إلى S + Leave + S، إلخ.)

ويُدخَلُ تحويلُ النفي العنصرَ not بعدَ العنصرِ الثاني في قاعدة الفعل المساعد. وإن لم يُحقَّقْ

M، فإنَّ التَّحويلَ يَدْخُلُ العنصرَ do، مُعطيّاً هذه الصَّيغة: He didn't leave، إلخ.

ويقلِّبُ التَّحويلُ الاستفهاميُّ الفاعلَ عبارةً اسميَّةً، والمُتتاليَّة (M) + C: Will he leave?

وإن أسقطتْ M، فإنَّ do يَدْخُلُ كالسابق: Did they leave?

وهكذا فإنَّ البنيةَ العميقةَ لِجُمَلِ النفي والاستفهام تُشبهُ البنيةَ العميقةَ لِجُمَلِ الخبريَّة،

والخاصيَّاتُ نفسها تظهَرُ في تركيباتٍ أُخرى أيضاً. وإن قُدِّرَ لنا أن نصفَ الظَّاهراتِ مباشرةً من

دُونِ قواعدِ كهذه، فسيكونُ لدينا نظامٌ معقَّدٌ جدّاً من قواعدِ الكتابةِ الثانيَّة، وستظلُّ الانتظاماتُ

الأساسيَّة غيرَ مُعبَّرٍ عنها [المؤلَّف].

الأمثلة الأولى لِنِظامِ الفِعْلِ المُساعِدِ في جُمْلٍ خَبَرِيَّةٍ بَسيطةٍ. وانطلاقاً مِنْ هَذهِ المبادئِ والحَقائِقِ التَّجريبِيَّةِ، حاولْتُ أنْ أُظهِرَ أنَّ المرءَ يَستطيعُ تَفسيرَ سُلوكِ الفِعْلِ المُساعِدِ في مَجموعةٍ مِنَ التراكيبِ: الاستفهام، والنَّفي، وغير ذلك.

وهدَفُ ثالثٌ لم يَظهِرَ جَلِيًّا إِلَّا أخيراً، في نِهايةِ الخَمسينياتِ (إذا لم يَكنَ ظاهراً قَبْلَ ذلكِ). وينبغِي أنْ يَكونَ ذا عَلاقَةٍ بِبَحثِ المبادئِ العامَّةِ لِللُّغَةِ بِوَصْفِها خاصِّياتِ لِنِظامِ مفروضٍ حَيَوِيًّا، يُشكِّلُ أساسَ اكتسابِ اللُّغَةِ، وَمِنْ وَجْهِهِ النَّظَرِ هَذهِ، يَمكنُ أنْ يَنظُرَ المرءُ إلى «الشُّروطِ التَّقْييديَّةِ» بِوَصْفِها الحَقائِقُ التي يُواجِهُها إنسانٌ يَتعلَّمُ لُغَةً. وما يُحاولُ المرءُ تَفسيرَهَ بعدئِذٍ، هو أساساً مَعرِفَةُ اللُّغَةِ التي يَحْصُلُ عَلَیْها مُتحدِّثٌ مُزوَّدٌ بِمِثْلِ هَذهِ الحَقائِقِ. وَلِنَعُدَّ إلى المِثالِ السَّابِقِ، فإذا افترضنا أنَّ المُتكلِّمَ يَمتلكُ المبادئَ العامَّةَ لِلنَّحوِ التَّحويليِّ بِوَصْفِها جزءاً مِنْ بَنيتهِ الحَيَوِيَّةِ، ثُمَّ يُقدِّمُ لَهَ عددٌ مِنَ أَشكالِ الأفعالِ المُساعِدةِ الإنجليزِيَّةِ، فَإِنَّه سيعرِفُ، استنتاجاً، سُلوكَ هَذهِ العنَاصِرِ في حالاتٍ أُخرى، أي إنَّ الحَالاتِ الأُخرى سَتُستنتِجُ منطقياً مِنْ أبسطِ قاعِدةٍ مَسموحٍ بِها مُنَسمِجةٍ مَعَ الحَالاتِ المُقدَّمةِ. وهذا، عَلى الأقلِّ، هو النَموذجُ العامُّ لِتَفسيرِ مَمكن.

وهكذا فَإِنَّ عَمَلِي حاولَ الإجابةَ عَن سُؤالَينِ: الأوَّلُ، ما نِظامُ المَعرِفَةِ اللُّغويَّةِ الذي اكتسَبَه، ويَتمثِّلُه ذَهنِيًّا، شَخْصٌ يَعْرِفُ لُغَةً ما؟- والثَّاني، كيفَ يَمكنُ أنْ نُفسِّرَ نُمُوَّ مِثْلِ هَذهِ المَعرِفَةِ والحَصولَ عَلَیْها؟- والسَّؤالُ الثَّاني يَمكنُ أنْ يُفكَّرَ فِيهِ بِلُغَةٍ عِلْمِ النَّفْسِ: كيفَ يَمكنُ أنْ تُكتسَبَ اللُّغَةُ؟- أو عَلى نَحوِ اختياريٍّ كالسَّؤالِ عَن كَيفِيَّةِ تَفسيرِنا ظاهِراتِ اللُّغَةِ.

م. ر.: متى فَكَّرْتُ أوَّلَ مرَّةٍ في اقترحِ نظَريَّةِ تَفسيرِيَّةٍ في عِلْمِ اللُّغَةِ؟

ن. ت.: كان ذلك ما شَغَلَنِي في عِلْمِ اللُّغَةِ في المَقامِ الأوَّلِ. وبِوَصْفِي طالِباً

في جامعة بنسلفانيا في أواخر الأربعينيات، أعددتُ بحثًا جامعيًا عنوانه «التَّحْلِيلُ الفُونِمِيّ الصَّرْفِيّ فِي الْعِبْرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ Morphophonemics of Modern Hebrew»، وسَّعَ بعدَ ذلكَ لِيَكُونَ بحثًا لِيَتَلَّ دَرَجَةَ الْمَاجِسْتِيرِ حَمَلَ الْعنوانَ نَفْسَهُ عامَ ١٩٥١م. ذلكَ الْعَمَلُ الَّذِي لَمْ يُنْشَرْ كَانَ «نَحْوًا تَوَلِيدِيًّا» فِي الْمَعْنَى الْمَعاصِرِ، وَكَانَ تَرْكِيزُهُ الْأَوَّلُ عَلَى مَا يُسَمَّى الْآنَ «عِلْمَ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ التَّوَلِيدِيّ generative phonology»، لَكِنَّهُ كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا نَحْوُ تَوَلِيدِيّ أَوَّلِيّ. وَأَحْسَبُ أَنَّ الْمَرَّةَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ «نَحْوٍ تَوَلِيدِيٍّ» بِالْمَعْنَى الْحَالِيّ لِلْعِبَارَةِ. وَطَبِيعِيٌّ أَنْ تُوجَدَ أَعْمَالٌ سَابِقَةٌ مِمْتَازَةٌ: «نَحْوُ السَّنْسَكْرِيتِيَّةِ» لِبانيني Panini هو الْحَالَةُ الْأَكْثَرُ شُهْرَةً وَأَهَمِّيَّةً، وَعَلَى مَسْتَوًى عِلْمِ الصَّرْفِ وَعِلْمِ الْأَصْوَاتِ هُنَاكَ عَمَلٌ بِلومفيلد Bloomfield الْمُسَمَّى Menomini Morphophonemics، الَّذِي نُشِرَ قَبْلَ أَعْوَامٍ فَحَسْبُ، مَعَ أَنَّي مَا عَلِمْتُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الْجُزْءَ الْأَسَاسِيَّ مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ، كَانَ مُحَاوَلَةً اعْتَمَدَتْ التَّفْصِيلَ الْمُتَنَاهِي لِإِثْبَاتِ أَنَّ النَّحْوَ التَّوَلِيدِيَّ الَّذِي قَدَّمْتُهُ كَانَ «أَبْسَطَ نَحْوٍ مُمْكِنٍ» بِالْمَعْنَى التَّقْنِي الدَّقِيقِ: أَيَّ إِنَّ هَذَا النَّحْوُ، الَّذِي أُعْطِيَ إِطَارًا لِصِيَاغَةِ الْقَوَاعِدِ وَتَحْدِيدًا دَقِيقًا لـ «الْبَسَاطَةِ simplicity»، كَانَ «الْأَفْضَلَ مَحَلِّيًّا». وَيَعْنِي ذَلِكَ، أَنَّ أَيَّ تَغْيِيرٍ لِتَرْتِيبِ نِظَامِ الْقَوَاعِدِ فِي نِظَامٍ مُرتَّبٍ بِأَحْكَامٍ مُؤَلَّفٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ سَوْفَ يُوَدِّي إِلَى نَحْوٍ أَقْلَ بَسَاطَةً. وَحِينَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَرَّةً أُخْرَى الْاهْتِمَامَاتِ الْوَاضِحَةَ لِمَرْحَلَةٍ تَالِيَةٍ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ عِنْدئذٍ إِنَّ الْهَدَفَ إِنَّمَا كَانَ إِظْهَارَ كَيْفَ أَنَّ هَذَا النَّحْوَ بِنَتَائِجِهِ التَّجْرِبِيَّةِ سَيُشْشُهُ إِنْسَانٌ مُزَوَّدٌ مَبْدئيًّا بِإِطَارٍ لِلْقَوَاعِدِ وَتَحْدِيدٍ لِلْبَسَاطَةِ (مِيعَارِ التَّقْيِيمِ)، وَمُزَوَّدٌ بِنَمُودَجٍ كَافٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ. وَقَدْ أُجْرِيَ هَذَا فِعْلًا بِتَفْصِيلٍ وَعَلَى نِطَاقٍ أَكْبَرَ كَثِيرًا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ قُمْتُ بِهِ فِيمَا مَضَى، وَكَانَ طَمُوحًا جَدًّا، فِيمَا أَحْسَبُ.

وقد انطوى ذلك النحو، كما أسلفت، على نحو توليدي بدائي. وقد جمَعَ النحو التمثيل الصوتي مع ما سنسميه الآن البنية النحوية «الوليدة الأساس base-generated». ويمكن أن نقول، على سبيل الجُملة الاعتراضية، إن هذا كان النحو قبل التوليدي. وكان عمل هارس Harris المبكر حول التحويلات transformations في طريقه إلى الظهور عندئذ، ولأنني كنت أحد طلابه كنت مطلعاً عليه، لكنني لم أفهم إذ ذاك كيف يمكن أن تُعاد صياغة هذا العمل داخل إطار النحو التوليدي، الذي كنت أحاول أن أرسمه. وبدلاً من التحويلات، كان لدى النحو نظامٌ مُعقّدٌ من الفهارس مُخصّصٌ للفئات النحوية، التي حدّدت علاقات نحوية لا يمكن التعبير عنها في إطار التجزيء والتصنيف الذي أنشئ أخيراً بوصفه، بتعبيرٍ مختلفٍ نسبياً، نظرية «نحو بنية العبارة phrase structure grammar».

ومنذ ذلك الحين، انصبَّ اهتمامي على تحديد المبادئ الأساسية التي تتدخل في معرفة اللغة التي اكتسبها المتكلّم - المُستمع؛ ثم بعد ذلك، على محاولة اكتشاف المبادئ النظرية العامة التي تُفسّر حقيقة أن هذا النظام المعرفي نفسه ينمو في العقل حين يُوضَع أحد الأشخاص في مُحيطٍ لغويٍّ ما. وعلى الجُملة، يمكن أن أقول إنني ما أزال أعمل كثيراً في إطار ذلك العمل المبكر غير المنشور. أي إنني أحسب أن التناول الصحيح للمسائل النظرية الأساسية هو التناول الذي يُحاول هناك: إحكام تصميم وخطة مُحدّدين للقواعد النحوية، وتقديم إجراء تقييمي (أو معيار بساطة) يُفضي إلى اختيار نظام خاص، نحو خاص من الشكّل المطلوب، أي الشكّل الأفضل the optional، نظام يُقيّم عالياً من الشكّل المطلوب، مُنسجمٌ والحقائق المقدّمة. وهكذا فإن ما سيعرفه «متعلّم اللغة»، هو ذلك النظام المُقيّم عالياً؛ إنه ذلك النظام الذي يُكوّن أساس

الاستعمال العملي للغة من جانب الشخص الذي أحرز هذه المعرفة. وسأعود إلى هذه النقطة.

واصلتُ هذا العمل المبكر في كتابي «البنية المنطقية للنظرية اللغوية (L.SL.T)» الذي نُشر جزءٌ منه فحسب عام ١٩٧٥م، بعدَ عشرين عاماً من اكتماله جوهرياً. ولم تبدأ وجهة نظر علم النفس بالظهور حتى نهاية الخمسينيات، خاصةً في مقال مُراجعةٍ مهمٍّ جداً كتبه (ليز Lees) لمجلة اللغة Language. وكان المقال مُراجعةً لكتاب «البنى النحوية Syntactic Structures» ظهرت عام ١٩٥٧م، أي في الوقت الذي ظهر فيه الكتاب تقريباً. وقد عرّض فيها (ليز) مسألة تعلّم اللغة للمناقشة.

كتبْتُ أنا في قضايا مُشابهةٍ في الأعوام التي تلت ذلك، لكننا كنّا قد فكّرنا في هذه القضايا بعض الوقت: مورييس هالي Morris Halle^(١) وإريك لنيبرغ Eric Lenneberg^(٢)، بين نفرٍ آخرين.

كان أحد الأشياء التي شغلّتنا كثيراً نقد العلوم السلوكية. كنّا نحاول إيجاد منهجٍ مختلفٍ نسبياً لعلم النفس الإدراكي. وتظهرُ شذراتٌ من هذا في كتابي LSLT؛ لأنّه بدا لي جريئاً جداً ومتسرّعاً. وهناك مناقشة أكثر تفصيلاً في مُقدمة طُبعت ١٩٧٥م لكتابي LSLT.

م. ر.: لقيتُ موافقك النظرية قبولاً مُتبايناً في الدوائر اللغوية... وأذكرُ قراءة مقالات مُراجعةٍ في أوّل مؤتمرٍ اشتركتُ فيه؛ مؤتمر تكساس. وكانت المناقشة مُواجهةً حامية الوطيس. وقد قارنتُ إجراءات التقييم (التقنيات

١- المُشارك الأوّل لتشومسكي، الذي كان له إسهامٌ كبير في تطوير علم وظائف الأصوات التوليديّ the generative phonology في الروسية والإنجليزية، وأخيراً نظرية توليديّة لبنية الشعر.

٢- متخصصٌ في علم نفس اللغة وأساسها الحيويّ.

التي سَتَبِينُ أَيَّ مِنْ نَوْعِي النَّحْوِ الْمُقْتَرَحِينَ لِتَفْسِيرِ الْحَقَائِقِ هُوَ الْأَفْضَلُ)
بِإِجْرَاءَاتِ الْكَشْفِ **discovery procedures** عِنْدَ الْبِنْيَوِيِّينَ ، الَّتِي
صُمِّمَتْ لِإِنْشَاءِ النَّحْوِ مُبَاشَرَةً مِنَ الْحَقَائِقِ .

ن . ت .: فِي هَذِهِ النَّقْطَةِ ، عَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يُمَيِّزَ بِحَذَرٍ بَيْنَ الْإِتْجَاهَاتِ
الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تُدْعَى «بِنْيَوِيَّةً» . وَعِلْمُ اللَّغَةِ الْوَصْفِيُّ الْأَمْرِيكِيُّ أَحَدُ هَذِهِ الْإِتْجَاهَاتِ .
أَمَّا إِسْهَامُهُ الرَّئِيسُ ، فِي رَأْيِي ، فَقَدْ كَانَ إِثَارَتُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُشْكِلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُفَسِّرَهَا
الْإِنْسَانُ بِسُهُولَةٍ كَمُشْكِلَةِ التَّفْسِيرِ ، أَوْ مُشْكِلَةِ اكْتِسَابِ اللَّغَةِ . وَمَا أَقْصِدُ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ
تَطَوَّرَ «إِجْرَاءَاتِ الْكَشْفِ» يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ بِوَصْفِهِ تَنَاوُلًا لِنَظَرِيَّةٍ فِي اكْتِسَابِ اللَّغَةِ ،
وَكَذَا بِوَصْفِهِ نَظَرِيَّةً تَفْسِيرِيَّةً ، انْطِلَاقًا مِنَ الْمَنْظُورِ الثَّنَائِيِّ لِعِلْمِ النَّفْسِ وَنَظَرِيَّةِ
الْمَعْرِفَةِ . وَمِنَ الْمُثِيرِ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ تِلْكَ لَمْ تَكُنِ الْحَالُ ؛ فَالْغَوِيَّونَ الَّذِينَ كَانُوا
يُطَوِّرُونَ إِجْرَاءَاتِ الْكَشْفِ لَمْ يَقُولُوا : «هَذَا الْمَادَّةُ الْكَامِلَةُ ، الشَّرُوطُ التَّجْرِبِيَّةُ الَّتِي
تَفْرُضُهَا الْمُعْطِيَّاتُ . وَإِجْرَاءَاتُ الْكَشْفِ لَدَيْنَا تُؤَلَّفُ النَّظَرِيَّةُ الَّتِي ، حِينَ تُطَبَّقُ عَلَى
الْمَادَّةِ الْكَامِلَةِ ، تُنْتِجُ النَّحْوَ . فَالنَّحْوُ يُمَثِّلُ الْمَعْرِفَةَ اللَّغَوِيَّةَ . وَفِي تَقْدِيمِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ
نَكُونُ قَدْ أُعْطِينَا تَفْسِيرًا لِحَقِيقَةِ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ الَّذِي تَعَلَّمَ لُغَةً مَا يَعْرِفُ هَذَا وَذَاكَ ؛
فَإِجْرَاءُ الْكَشْفِ جُزْءٌ مِنْ زَادِهِ الْوَرَاثِيِّ ، وَفِي تَطْبِيقِهِ عَلَى مُعْطِيَّاتِ التَّجَرِبَةِ يُنْشَأُ
هَذَا النَّحْوُ ، الَّذِي يُمَثِّلُ مَعْرِفَتَهُ لِلَّغَةِ» .

تَلَكُّمُ سَتَكُونُ سَبِيلًا مَعْقُولَةً لِتَفْسِيرِ مَا كَانُوا يَقُومُونَ بِهِ . لَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا مِثْلَ
هَذَا التَّفْسِيرِ ، لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ . وَمَهْمَا يَكُنْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ التَّنَاوُلَ ، الْمَفْهُومَ ضِمْنًا فِي
عَمَلِهِمْ ، يَبْدُو لِي الْإِسْهَامَ الْأَكْثَرَ أَهْمِيَّةً فِي التَّنَوُّعِ مِنَ الْبِنْيَوِيَّةِ . وَأُعِيدُ قَوْلَ إِنَّ هَذَا
لَيْسَ تَفْسِيرَهُمْ . لَكِنِّي أَوْمِنُ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ بِوَصْفِهِ إِعَادَةَ بِنَاءٍ ، مَعَ أَنَّهُ يَتَعَارَضُ وَمَا
يَتَذَكَّرُهُ مُعْظَمُ مَنْ قَامُوا بِهَذَا الْعَمَلِ فَعَلِيًّا ، فِيمَا أَعْلَمُ .

وَفِي الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَقُومُ بِإِعَادَتِهِ فِي أَوَاخِرِ الْأَرْبَعِينِيَّاتِ وَأَوَائِلِ

الخمسينيات، حاولت التَّغَلُّبَ عَلَى بعضِ أَوْجُهِ القُصُورِ الخطيرةِ في إجراءاتِ الكَشْفِ التي تطوَّرتْ، وأنَّ أجعلَ هذه الإجراءاتِ واضحةً، في الوقتِ الذي كُنْتُ أتبَّنى فيه في ذهني موقفاً بِشأنِ ما يُسمَّى الحقيقةَ النَّفسِيَّةَ لهذه الإجراءاتِ، مُخالفًا تمامًا للافتراضاتِ السَّائدةِ في السَّاحةِ، عَلَى غِرارِ ما فَهَّمْتُها، الافتراضاتِ التي يُمكنُ أن تُدعى «خياليَّةً». ويبدو مُفترَضًا، عَلَى الجُمْلَةِ، أنَّ إجراءاتِ الكَشْفِ لا يُمكنُ أن تُبرَّرَ إِلَّا بِلُغَةٍ «براغماتيَّة» بِوصفِها تقديمًا لِتنظيمِ لِلْمادَّةِ الكاملةِ سيكونُ مُفيدًا لِغَرَضٍ أو آخَر. كان ثَمَّةَ استثناءاتٍ مِثْلُ (تشارلز هوكِت Charles Hockett)، الذي عَرَضَ تفسيرًا «واقعيًّا» واضحًا لإجراءاتِ الكَشْفِ في مقالةٍ مُهمَّةٍ مُختصرة عام ١٩٤٨م، في المَجَلَّةِ الدَّولِيَّةِ لِعِلْمِ اللُّغَةِ الأمريكيِّ The International Journal of American Linguistics. وَكُنْتُ أُسَلِّمُ أيضًا بِأنَّ إجراءاتِ الكَشْفِ كانتْ صادقةً جوهريًّا؛ بِمعنى أنَّ المرءَ يُمكنُ أن يتصوَّرها تمثيلًا لِلإجراءاتِ التي اسْتُعْمِلَتْ فعليًّا في الحصولِ عَلَى المعرفةِ التي نَمْتَلِكُها مِنَ الحقائقِ التي تُقدِّمُ لَنَا. تصوَّرتُ طويلاً أنَّ إجراءاتِ الكَشْفِ التي تَظْهَرُ في الأدبِ كانتْ صَحِيحَةً في أَصُولِها - أي إنَّ المناهجَ التي يَسْتَعْمِلُها لُغَوِيَّونَ بَنِيَوِيَّونَ مِثْلُ (زلغ هارس Zellig Harris)^(١)، الذي كُنْتُ أدرُسُ مَعَهُ، كانتْ صَحِيحَةً مِنْ حَيْثُ المَبْدَأُ، وأنَّ بعضَ التَّهْذِيباتِ فَقَطْ كانتْ ضَرُورِيَّةً لِجَعْلِها عَمَلًا. وقد أَنْفَقْتُ قَدْرًا مِنَ الوقتِ والجُهدِ، في حُدُودِ خَمْسَةِ أعوامٍ أو سِتَّةِ فيما أَظُنُّ، مُحاولًا التَّغَلُّبَ عَلَى بعضِ النَّقائِصِ الواضحةِ في هذه الإجراءاتِ، لِكِي تَكُونَ قادِرَةً عَلَى تقديمِ نَحْوٍ صَحِيحٍ ذِي مَجَالٍ وَصْفِيٍّ لا مُتَنَاهٍ مِنْ مادَّةٍ لُغَوِيَّةٍ

١- انظُرْ مُؤلَّفَهُ «مناهج في عِلْمِ اللُّغَةِ البَنِيَوِيِّ Methods in Structural Linguistics» (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥١م)، وموجودٌ في مخطوط عام ١٩٤٧م. وكانتْ مُقدِّمَتِي لِعِلْمِ اللُّغَةِ، مِنْ خِلالِ تصحيحِ التَّجَرِبَةِ الطَّبَاعِيَّةِ (البُرُوفَةِ) لِهَذِهِ «المناهج» ١٩٤٧م.

محدودة. وجليّ أنّ ذلك هو الصياغة المناسبة للمهمة، إن كنا نعدّ هذه الإجراءات فعلاً «نظريّة لتعلّم» لغة البشر.

وكان هناك من ثمّ سؤالان مترابطان:

- هل من الصواب إعطاء تفسيرٍ لنفسيّ لهذه المناهج؟
- هل إجراءات الكشف هذه هي الإجراءات التي تُعبّر على نحوٍ دقيق عن المعطى الحيويّ الذي يجعل اكتساب اللغة ممكناً؟

لاحظي أننا لا نستطيع أن نعرض، كما ينبغي، السؤال الثاني حتّى نقبل إجابةً بالإيجاب للسؤال الأول. وليس في مقدورنا أن نبحت في «صحّة» المناهج من دون الاعتقاد بأنها تعبيرٌ على نحوٍ أكثر دقّة - تعبيرٌ مقصودٌ - عن حقيقةٍ نفسيّةٍ ما. وتحت هذا التفسير «الواقعي» فحسب، يظهر السؤال عن الصواب أو الصدق. لكنّه يمكن القول ثانيةً إنّ هذا التفسير الواقعيّ لم يكن تفسير هارس وجمهرة الآخرين الذين ابتكروا إجراءات التحليل الأكثر إحكاماً.

وقد بدأتُ أتحقّق تدريجيّاً من أنّ الإجابة عن السؤال الثاني كانت بالنفي. وتنطوي هذه الإجراءات على نقائص لا يمكن تجاوزها؛ فقد كانت خاطئة من حيث المبدأ. وظهر أنّ التناول الصحيح يستعمل المبادئ التي كانت أكثر تجرّداً، أكثر بُعداً. ومضيتُ ببطءٍ نحو الإيمان بأنّه كان لا بدّ من اتّخاذ المبادئ العامّة، المُخطّط التجريديّ العام، ذلك الذي حين يُقابل بالحقائق المعطاة سيُعطي نحواً يوضّح المعرفة اللغويّة، وفوق الخطوط التي ذكرتها قبل.

أمّا على المستوى النفسيّ، فإنّ إجراءات الكشف البنيويّة تتطابق جوهريّاً والرؤية التجريبيّة، التي يتطلّب اكتساب المعرفة، وفقاً لها، عمليّات تصنيف واستقراء.

م. ر.: وبهذا المعنى يرتبط علم اللغة البنيويّ بالتجريبية.

ن. ت.: في كُلِّ مِنَ النَّمُودَجِ الأوروپِيِّ (عند تروبتسكوي Troubetskoy^(١))، الذي كان مهتمًا حقًا بهذه المسائل) والنَّمُودَجِ الأمريكي تكون الإجراءات تصنيفية أساسًا، قائمة على تقنيات التجزئة والتصنيف التي تتقدم تدريجيًا نحو وحدات لغوية أوسع دائمًا.

أما المبادئ فينبغي أن تكون مختلفة كليًا - وأنا مقتنع بذلك، اليوم. ينبغي أن يبدأ المرء بتمييز الأنظمة المحتملة للمعرفة بمساعدة مبادئ تُعبر عن المعطى الحيوي. وهذه المبادئ تُحدد نموذج القواعد النحوية التي تُتيحها المبادئ - وهي مضموبة بإجراء تقييم يختار النحو الأمثل حين تُقدم له القواعد النحوية الممكنة. وإجراء التقييم هذا، هو أيضًا جزء من المعطى الحيوي. وهكذا فإن اكتساب اللغة هو عملية لاصطفاء أفضل نحو يتفق والحقائق المتاحة. وإن أمكن جعل المبادئ حصرية على نحو كافٍ، فسيكون هناك أيضًا ضرب من «إجراء الكشف» - ينبغي، بمعنى من المعاني، أن يكون هناك مثل هذا «الإجراء» ما دامت المعرفة تُكتسب - لكنه من نوع مختلف تمامًا عما كان يُفكر فيه في النظرية النيوية.

هذا التصور لطبيعة المعرفة البشرية، ولطبيعة اللغة خاصة، مختلف تمامًا عن التصور التجريبي؛ لأن المرء يفترض أن الشكل العام لنظام المعرفة الناتج يكون قد أُعطي مُقدمًا. حيث لا يُبنى النظام تدريجيًا، خطوة خطوة، بالاستقراء، والتجزئة، والتصنيف، والتعميم والتجريد، وهلم جرا.

ونتيجة لذلك، أحسب أننا يمكن أن نُحدد ثلاث مسائل أساسية تظهر لنا

١- كان تروبتسكوي مؤسسًا، مع رومان جاكوبسون، لحققة براغ. انظر كتابه: «مبادئ علم وظائف الأصوات Principles of Phonology»، ترجمة س. أ. م. بلتاكس (بيركلي، كاليفورنيا، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٩م).

في مُقارَنَةِ عِلْمِ اللُّغَةِ البِنْيَوِيِّ بِالنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ. الأولى، بِشأنِ هَدَفِ التَّمْيِيزِ الواضِحِ لِلْمَعْرِفَةِ اللُّغَوِيَّةِ المَكْتَسَبَةِ. والثَّانِيَّةُ، بِتَفْسِيرِ الإِجْرَاءَاتِ: هل إِجْرَاءَاتُ التَّحْلِيلِ عِنْدَ ب. بلوخ B. Bloch^(١)، وعند هارس، وتروبتسكوي^(٢)، طرائقُ لِتَنْظِيمِ المَادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ حَقًّا؟- أو هل تُشكِّلُ فَرَضِيَّاتٍ تَجْرِبِيَّةً قَوِيَّةً ومُثِيرَةً، فيما يَتَّصِلُ بِالحَقِيقَةِ النَّفْسِيَّةِ، وتَحْدِيدًا بِالبُنْيَةِ الخَلْقِيَّةِ حَيَوِيًّا «بيولوجيًا»؟

وفي هذه النِّقْطَةِ، اتَّخَذَ العَمَلُ في النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ عَلى نَحْوِ مُتَمَيِّزٍ مَوْقِفًا واضِحًا جَدًّا. نعم، نَقْتَرِحُ مِثْلَ هذه الفَرَضِيَّاتِ التَّجْرِبِيَّةِ. وَنَتِيجَةً لِذلك، نَعُدُّ كُلَّ الحَقَائِقِ الَّتِي لَهَا أَىُّ تَأْثِيرٍ في مَشْرُوعِيَّةِ هذه الفَرَضِيَّاتِ وَثِيقَةً الصَّلَةِ بالمَوْضُوعِ. وَقَدْ بَدَأَ واضِحًا دَائِمًا، في رَأْيِي عَلى الأَقْلَ، أَنَّ التَّفْسِيرَ «الوَاقِعِيَّ» لِلنَّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ وَحْدَهُ، سِوَاءِ أَكَانَ إِجْرَائِيًّا أَمْ لَمْ يَكُنْ، يُقَدِّمُ الأَسَاسَ لِفَرْعٍ دِرَاسِيٍّ مُهِمٍّ، فَرِيعٍ جَدِيرٍ بِالْمَتَابَعَةِ. وَقَدْ تَبَايَنَتِ الاتِّجَاهَاتُ في عِلْمِ اللُّغَةِ البِنْيَوِيِّ في هذه المَسْأَلَةِ، وَهناك أَيْضًا بَعْضُ المُشْكَلاتِ في التَّفْسِيرِ. وَأَحْسَبُ أَنَّ جَاكوبسون وتروبتسكوي اتَّخَذَا مَوْقِفًا قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ المَوْقِفِ المَتَبَنَّى أَخِيرًا في النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ. إِذْ يَتَحَدَّثَانِ عَن وَاقِعٍ نَفْسِيٍّ، فِيمَا يَبْدُو لِي، عَلى نَحْوِ مَا فَعَلَ (إِدْوَارْد سَابِر Edward Sapir)، مِثْلًا، بِوَضُوحٍ تَامٍ. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا، عَلى الأَقْلَ في عِلْمِ وَظَائِفِ الأصْوَاتِ، افْتَرَضَا مَبَادِئَ بِنْيَوِيَّةً شَامِلَةً، حَتَّى إِنَّهُمَا افْتَرَضَا، بِمَعْنَى مَا، إِجْرَاءَاتِ تَقْيِيمٍ في صُورَةٍ نَظَرَاتٍ في التَّسَاوُقِ، وَتَقْلِيلِ الإِسْهَابِ، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَقَدْ رَفَضَ هَارِس، خِلَافًا لِذلك، التَّفْسِيرَ النَّفْسِيَّ الوَاقِعِيَّ بِوَضُوحٍ تَامٍ، عَلى الأَقْلَ في عَمَلِهِ الأوَّلِ -

١- انظُرْ خَاصَّةً مَقَالَ: «منظومةُ شُرُوطِ أَساسِيَّةِ لِلتَّحْلِيلِ الفونيمِيَّ A Set of Postulates for

Phonemic Analysis، اللُّغَةُ Language، المَجْلَدُ ٣٧ (١٩٤٨م).

٢- انظُرْ لَهُ: Anleitung ZU Phonologischen Beschreibungen (غوتنجن:

فاندهوبك - روبرخت، ١٩٣٥م).

ولستُ مُستيقِناً مِنْ أَنَّ هذا أَيْضاً يَصْدُقُ عَلَى عَمَلِهِ الْأَكْثَرِ حَدَاثَةً مِنْذُ أَوَاخِرِ السِّتِينِيَّاتِ. وفي كتابِهِ «المناهج Methods» وأعمالٍ أُخَرِ حَتَّى أَوَائِلِ السِّتِينِيَّاتِ، قَدَمَ نظريَّتَهُ بِوَصْفِهَا تَقْدِيماً لِبَدَائِلِ مُخْتَلَفَةٍ لِتَنْظِيمِ الحَقَائِقِ. وَيَصْدُقُ الشَّيْءُ نَفْسُهُ عَلَى بلوخ Bloch وآخَرِينَ، مَعَ عَدَمِ انطباقٍ عَلَى هوكِت Hockett.

وأخيراً، تُعالِجُ المسألةُ الثَّالِثَةُ طَبِيعَةَ الإِجْرَاءِ الصَّحِيحَةِ. هل هذا إِجْرَاءٌ كَشَفٍ، اسْتِقْرَائِيٌّ وَتَصْنِيفِيٌّ؟ - أَهْوَى التَّنَاوُلُ الْمُنَاسِبُ لِشَيْءٍ مَا كَالنَّمُودَجِ العَقْلَانِيِّ، أَيْ تَمْيِيزٍ لِلشَّكْلِ العَامِّ لِلْمَعْرِفَةِ (مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ، فِي هَذِهِ الحَالِ)، مَعَ مَنَاهِجٍ لِلتَّخْيِيرِ بَيْنَ تَحَقُّقَاتٍ اخْتِيَارِيَّةٍ لِهَذَا النِّظَامِ العَامِّ تَحْتَ الشُّرُوطِ التَّجْرِبِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا التَّجْرِبَةُ؟ وَأَحْسَبُ أَنَّهُ مِنَ اللَّائِقِ أَنْ نَعُدَّ نظريَّةَ المَلاَمِحِ الْمُمَيِّزَةِ فِي عِلْمِ وَطَانِفِ الْأَصْوَاتِ وَالِاقْتِرَاحَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالتَّفْضِيلِ النَّسَبِيِّ («التَّمْيِيزِ»)، بَرَنَامِجاً لِنِظَامِ المَعْرِفَةِ - إِنْ لَمْ يَكُنْ نَمُودَجاً لِلاِكْتِسَابِ. وَمَعَ ذَلِكَ، يَجْدُرُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ تَرْوِبَتَسْكُوي، فِي عَمَلِهِ فِي الصَّوْتِيَّاتِ، حَاوَلَ أَنْ يُقَدِّمَ إِجْرَاءَاتٍ تَصْنِيفِيَّةً.

م. ر.: بِشَأْنِ النِّقْطَةِ الثَّانِيَةِ، لَاحِظْتُ أَنَّ هُنَاكَ تَشَعُّبَاتٍ كَثِيرَةً حَوْلَ التَّحْدِيدِ الْمُقَدِّمِ لِنِشَاطِ اللُّغَوِيِّينَ. هَلِ التَّحْلِيلَاتُ وَالنَّظَرِيَّاتُ الَّتِي يُقَدِّمُونَهَا لُغَبٌ عَقْلِيَّةٌ حَقًّا، أَوْ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ تَرْسِيخَ الحَقِيقَةِ (وَلَوْ جُزْئِيًّا) لِقَانُونٍ مَوْضُوعِيٍّ مَفْرُوضٍ عَلَى شَيْءٍ وَاقِعِيٍّ؟

ن. ت.: الْمَسْأَلَةُ هِيَ: كَيْفَ يُفَسِّرُ المرءُ إِجْرَاءَ كَشَفٍ؟ - هل هو تَنْظِيمٌ لِمُعْطَيَاتٍ لُغَوِيَّةٍ فَحَسْبُ، أَوْ طَرِيقَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ وَاقِعٍ نَفْسِيٍّ؟

وَمِنْ الْمُثْبِرِ أَنْ نَنْظُرَ عَنِ كَثَبٍ إِلَى مُمَارَسَةِ اللُّغَوِيِّينَ الَّذِينَ حَاوَلُوا أَنْ يُبْرَهِنُوا بِوَضُوحٍ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا حَقًّا يُقَدِّمُونَ تَقْنِيَّاتٍ لِتَنْظِيمِ مُحْكَمٍ لِلْمُعْطَيَاتِ. وَتِلْكَ الْمُمَارَسَةُ، تَرْتَكِزُ عَلَى إِيْمَانٍ ضِمْنِيٍّ بِالتَّقْيِضِ، وَيَتَنَظَّمُ هَذَا التَّطَوُّرُ الْكَامِلُ لِعِلْمِ اللُّغَةِ الْبَنِيَوِيِّ كُلِّهِ. وَقَدْ حَدَثَ دَائِماً أَنَّهُ كُلَّمَا اقْتَرَحَ إِنْسَانٌ مَنَهْجاً أَوْ إِجْرَاءً، أَشَارَ

شخص آخر إلى أن هذا الإجراء يُفضي إلى «نتائج غير مرضية». ومن ثم، افترحت بعض التصحيحات والتحسينات. وعلى هذا النحو، كانت الإجراءات تُهدَّب باستمرار.

ولكن ما المعنى الذي يمكن أن نُضيفه على فكرة «نتيجة غير مرضية»؟ - ليس هناك فكرة كهذه، على الأقل في أي معنى مثير، إن كان كل ذلك المُجازف به طريقة لتنظيم المُعطيات؛ ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك سوى نتائج ليست جيدة وليست سيئة، بصرف النظر عن آراء بسيطة في الغزارة أو التماسك. ولا يمكن أن يكون المرء مُصيباً أو مُخطئاً في تصنيف مُعطيات في فراغ نظري. ونتيجة لذلك يغدو واضحاً أن المرء، إلى حد أنه يعترف ضمناً بوجود فكرات من قبيل «نتائج جيدة» مقابل «نتائج غير مرضية»، يستنيم إلى فكرة ما عن الواقع النفسي، أي الحقيقة، بصرف النظر عن مبلغ إنكار هذه الاستنامة. ومهما يكن، فإن الرّفص الصريح لمثل هذه الاستنامة يجعل من العسير جداً الوصول إلى تفسير كهذا لجزء كبير من هذا العمل - يمكن أن يجد مُبرّره في هذا التفسير.

تحديدان للتحويل:

م. ر.: مفهوم «التحويل Transformation» أساسي في نظريتك. وهو أيضاً أحد مُستنبطاتها الرئيسة. وفي نموذجك يؤثر المُكوّن التحويلي في «مُحصلة» المُكوّن الأساسي (قواعد الكتابة الثانية): حيث يأخذ بنى عبارة (أشجار) ويحوّلها إلى بنى عبارة أخرى (أشجار). لكن اللغوي زلغ هارس كان استعمل سابقاً مُصطلح «التحويل». وكثيراً ما جاء فهم الاختلاف بين الاستعمالين للمُصطلح هزياً. هل لك أن تحدّده بدقة؟

ن. ت.: إِنَّ مفهومَ هارس لِـ «التَّحْوِيلِ» لم يَكُنْ، عَلَى نحوِ دقيقٍ، لَعُويَّ النَّشْأَةِ - أو، لِنَقْلِ عَلَى نحوِ أَكْثَرِ دِقَّةٍ، ليس مفهومًا ينتمي إلى النِّظَرِيَّةِ الْمُهِتَمَّةِ بِالْبِنْيَةِ التَّحْوِيلِيَّةِ لِلْجُمْلِ. وقد طَوَّرَ هارس هذا المفهومَ بِوَصْفِهِ جزءًا مِنْ دِرَاسَتِهِ لِلخِطَابِ فِي أَوَاخِرِ الأَرْبَعِيَّاتِ. أَمَّا النِّظَرِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ الَّتِي عَرَضَهَا فِي «المناهج Methods»، فلم تُقَدِّمِ سِوَى أَدَوَاتٍ لَوُصْفِ وَحَدَاتٍ لَمْ تَتَجَاوَزْ طُولَ جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَحِينَ حَاوَلَ بَسْطَ هَذِهِ الْمَنَاهِجِ لِتَشْمَلَ بِنْيَةَ الْخِطَابِ، لَاحَظَ حَالًا أَنَّ مَنَاهِجَ التَّجْزِيءِ وَالتَّصْنِيفِ اسْتَنْبَطَتْ لِأَجْلِ نَحْوِ جُمْلٍ لَمْ يُوَدِّ إِلَى آيَةٍ نَتِيجَةٍ مُفِيدَةٍ. وَمِنْ ثَمَّ بَحَثَ عَنْ طَرِيقَةٍ لِاخْتِرَالِ مَنْظُومَةٍ مِنَ الْجُمْلِ الْمُعَقَّدَةِ فِي الْخِطَابِ إِلَى شَكْلِ سَتَكُونُ فِيهِ قَابِلَةً لِلتَّحْلِيلِ بِوَسَاطَةِ الْمَنَاهِجِ الْمُسْتَنْبَطَةِ لِلْجُمْلِ وَأَجْزَائِهَا. وَاقْتَرَحَ اسْتِعْمَالَ بَعْضِ «التَّحْوِيلَاتِ» لِجَعْلِ الْخِطَابِ عَادِيًّا، لِتَحْوِيلِ الْجُمْلِ الْمُعَقَّدَةِ إِلَى بَنَى بَسِيطَةٍ مُتَسَاوِقَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُطَبَّقَ عَلَيْهَا مَنَاهِجُ عِلْمِ اللُّغَةِ الْبِنْيَوِيِّ: تَجْزِيءِ الْمُتَتَالِيَّاتِ، اسْتِبْدَالِ الْعُنَاصِرِ، التَّصْنِيفِ، غَيْرَ ذَلِكَ. وَعِنْدَ هَارِسَ كَانَتِ التَّحْوِيلَاتُ صِلَاتٍ مُنْتَظِمَةً بَيْنَ الْجُمْلِ، بَيْنَ «الْبِنَى السَّطْحِيَّةِ». أَمَّا تَقْنِيًّا، فَإِنَّ التَّحْوِيلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ثُنَائِيٌّ غَيْرُ مُنَظَّمٍ مِنَ الْبِنَى اللُّغَوِيَّةِ، يَتَّخَذُ مُتَكَافِئًا مِنْ حَيْثُ الْبِنْيَةُ بِمَعْنَى مَا. وَلِلْإِعْطَاءِ مِثَالٍ مَادِّيٍّ، تَأْمَلِي بِنْيَتَيْنِ لَعُويَّتَيْنِ، كُلُّ مِثْلِهِمَا فِي طَرَفِ سَهْمٍ مُزْدَوِجٍ، وَقَدْ وُصِفَتْ كُلُّ بِنْيَةٍ مِنْ خِلَالِ تَعَاقُبِ الْفَنَاتِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ كَيْفَ يَصَوِّغُ الْمَرْءُ عِلَاقَةَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ وَالْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ

active-passive relation في هذا الإطار: $N_x \vee N_y \leftrightarrow N_y \text{ is } V \text{ ed}$

by N_x التي تُقَرَأُ هَكَذَا:

الاسم X + فعل + الاسم Y مكافئٌ لِـ:

الاسم Y + is + فعل في صيغة اسم المفعول + by (من جانب) +
الاسم X. فَالْبِنْيَتَانِ فِي جَانِبِي السَّهْمِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الصِّغَةِ يُتَصَوَّرُ أَنَّهُمَا مُتَكَافِئَتَانِ

في المعنى الآتي: وإذا اخترنا اسماً ما (ولیکن أَحْمَد) لـ N_x ، واسماً ما (ولیکن لیلی) لـ N_y ، وفِعْلاً ما (ولیکن یرى) لـ V ، فإنَّ المِثَالَيْنِ البَدِیَئِیْنِ - أي: أَحْمَدُ یرى لیلی في اليسار، و: لیلی تُرى من جانبِ أَحْمَد في اليمين - یَحْظِیانِ بِالدرْجَةِ نَفْسِها مِنَ القَبُولِ بِوَصْفِهما جُمْلَتَیْنِ. ویمْکُنُ اسْتِعْمَالُ مِثْلِ هَذِهِ «التَّكَافُؤَاتِ» فِي جَعْلِ الخِطَابِ عَادِیًّا عَلَی النِّحْوِ الآتِی: لو قُدِّمَتْ إِلَینَا جُمْلَةٌ فِي خِطَابٍ فِي إِحْدَى صُورَتَیْنِ، لَا سَظْعُنَا أَنْ نَضَعَ مَكَانَهَا جُمْلَةً مُمَاطِلَةً فِي الصُّورَةِ الْأُخْرَى. وَبِمُوَاطَلَةِ اسْتِعْمَالِ تَحْوِیلاتِ التَّكَافُؤِ هَذِهِ فِي الخِطَابِ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَوِّلَ الجُمْلَ إِلَى صُورٍ مُمَاطِلَةٍ، یُمْکُنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا إِجْرَاءَاتُ الاسْتِبدَالِ الَّتِی أُنْشِئَتْ مِنْ أَجْلِ نَحْوِ الجُمْلِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُنْشِئَ أَصْنَافَ اسْتِبدَالٍ لِلْکَلِمَاتِ الَّتِی أَدَّتِ المِهمَّةَ نَفْسَها تَقْرِیبًا فِي الخِطَابِ. وَأَصْنَافُ الخِطَابِ هَذِهِ لَا یَنْبَغِ أَنْ تَلْتَمِسَ بِالْأَصْنَافِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالمُفْرَدَاتِ أَوْ أَصْنَافِ العبارةِ فِي اللُّغَةِ. وَهَذِهِ هِی الفِکْرَةُ الْأَسَاسِیَّةُ لِـ «تَحْلِیلِ الخِطَابِ»، کَمَا طَوَّرَهَا هَارِسٌ فِي منشوراتٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنْذُ عام ١٩٥٠م تَقْرِیبًا. وَما هُوَ مُنَاسِبٌ فِي هَذَا السِّیاقِ أَنْ عَلاَقَاتِ التَّحْوِیلِ فِي المَعْنَى الَّذِی أَرَادَهُ هَارِسٌ، طُوِّرَتْ إِبَّانَ مُحَاوَلَةٍ نَقَلَ المَنَاهِجَ البِنِیَوِیَّةَ إِلَى تَحْلِیلِ الخِطَابِ. أَمَّا عَلَی الْمُسْتَوَى النَّظَرِیِّ، فَإِنَّ المُمِیزَ الجَوْهَرِیَّ الْأَوَّلَ لِتَحْوِیلاتِ هَارِسٍ هُوَ أَنَّ کُلًّا مِنْها یُؤَسَّسُ بِاسْتِقْلالٍ عَنِ الجَوَانِبِ الْأُخْرَى لِلنَّحْوِ، عَلَی غِرَارِ ما أَکَّدَ هَارِسٌ، کُلُّ تَحْوِیلٍ یُؤَسَّسُ نِهَائِیًّا مِنْ المُلَاحَظَةِ والدَّلِیلِ، عَلَی أَساسِ شُرُوطِ التَّصْنِیفِ الَّتِی وَصَفْتُها تَوًّا؛ وَکُلُّ عَلاَقَةٍ تَحْوِیلِیَّةٍ تُوجَدُ بِاسْتِقْلالٍ عَمَّا هُوَ صَادِقٌ أَوْ زَائِفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَقِیَّةِ اللُّغَةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ التَّحْوِیلَ تَعْمِیمٌ بِشَأْنِ إِمکانِیَّةِ قَبُولِ أمِثْلَةٍ مِنْ شَکْلِ الجُمْلَةِ، وَأَنَّ التَّعْمِیمَ الواقِعِیَّ صَحِیحٌ أَوْ زَائِفٌ بِصَرَفِ النَّظَرِ تَمَامًا عَنِ أیِّ شِیءٍ یُمْکِنُ أَنْ نَکْشِفَهُ لَاحِقًا حَوْلَ اللُّغَةِ المَدْرُوسَةِ أَوْ نَظَرِیَّةِ اللُّغَةِ - أَوْ عَنِ أیِّ مَصْدَرٍ آخَرَ - کَالاخْتِبارِ التَّنْفِیسِ. وَهَذَا الوَصْفُ وَصْفٌ طَبِيعِیٌّ ضِمنَ التَّنَاولِ

العام لـ «مناهج» هارس - تصوّر غير نفسي للغة .

يرفض هارس فكرة أن لغة شخص ما أو جمهور ما، يمكن أن تُعدّ منظومةً محدّدة جيّداً من الجمل وذات بنى تميّزها المبادئ النحويّة الصحيحة أو الزائفة . وإنّ الوصف النحويّ الذي يبتغيه، على الأقلّ في إطار «مناهجه» (Methods) التي قدّمت خلفيّة لتطوّر فكرة «التحويل»، وصف مُحكّم لمجموعة من المُعطيات، وهكذا لا يمكن أن يكون خاطئاً إلّا نتيجةً للإهمال - كأن يُقرّر مثلاً أن عنصراً في مجموعة المُعطيات، ممّا يتمتّع بِخاصيّة ملحوظة، ليس له هذه الخاصيّة. وما التحليل التحويليّ، الذي يريده، سوى طريقة أخرى لوصف مجموعة الملاحظات المُقدّمة. وطبيعيّ تماماً بعد ذلك أن نصف التحويل بأنّه تعميم يُقرّر أن المُعطيات تُعرض خاصيّة ما، وهي في هذه الحال خاصيّة إمكانيّة قبول مُتساوية تحت استبدال مُنظّم، على غرار ما وُصِفَتْ قَبْلَ لَحَظَات. والوصف النحويّ في هذه الحال، مختلف تماماً عن نظريّة (مُنحازة) في أحد العلوم الطّبيعيّة، مثلاً. وفي العلوم الطّبيعيّة، يمكن أن تتصارع نظريتان حتّى حينَ تتفقان على مُعطيات مُتيسّرة، وسيبحث العالم عندئذٍ عن مُعطيات جديدة ليصطفي من بينها، مُعتمداً على الافتراض «الواقعي» لمسألة أن ما تدّعيه النظريتان بشأن الكينونات المُفترضة فيهما صحيح أو زائف، ومن ثمّ قابل لاختيار أكبر. لكنّ هارس، خاصّة في مطلع السّتينيات، ذهب إلى أن الأوصاف اللّغويّة التي تُتيح مجالاً للاختيار، لا يمكن أن تكون مُتعارضة في هذا المعنى . ذلك، على الأقلّ، ما أراه يُدافع عنه في عمله حتّى ظهور مقالهِ عن التحليل التحويليّ في مجلّة اللّغة Language^(١).

١- ز. س. هارس «النّظرية التّحويليّة Transformational Theory»، مجلّة اللّغة Language،

مجلّد ٤١ (١٩٦٥م).

أما في ال LSLT^(*)، وكذا في الأعمال اللاحقة في النحو التوليدي، فإن التحويلات تُحدّد على نحوٍ مختلفٍ تماماً: ربّما كان عليّ أن أستعمل مُصطلحاً مختلفاً بدلاً من إخضاع مُصطلح هارس للسياق المختلف تماماً في النحو التوليدي.

ففي ال LSLT، مثلاً، ليس التحويل علاقةً بين مجموعتين من الجمل أو بين بُنيّتين سطحيّتين^(**)؛ بل هو قاعدةٌ ضمن نظامٍ من القواعد يُحدّد أوصافاً بُنيويّةً لصنفٍ لا مُتناهٍ من الجمل. وفي اشتقاق جُملةٍ ما، تُطبّق قاعدةٌ تحويليّةٌ على تمثيلٍ تجريديٍّ لهذه الجُملة فتحوّله إلى تمثيلٍ تجريديٍّ آخر. والتمثيل الأوّل هو ما يُسمّى البنية العميقة، التي تُحوّل شيئاً فشيئاً إلى بنية نهائيّة (أو سطحيّة).

أما في إطار النحو التوليدي، فإنّ علاقات التكافؤ من النوع الذي يستعمله هارس في تأسيس التحويل تستطيع وحدها الإحياء بوجود تحويل، لكنها لا تُقيّمه. إذ صحيحٌ في الإنجليزية، مثلاً، أنّ علاقات الاستبدال المناسبة بين المبني للمعلوم The active والمبني للمجهول The passive تُدرّك جُملةً: فجُملة: «الإخلاص يُرعب زَيْداً»، جُملةٌ جيّدةٌ على غرار: «زَيْدٌ يُرعبُ بالإخلاص»، في حين أنّ: «زَيْدٌ يُرعبُ بالإخلاص» شاذّةٌ، على غرار «الإخلاص يُرعبُ بزيّد»^(***). لكنّ علاقات الاستبدال هذه، بصرف النظر عن كفيّة إدراكها على نحوٍ دقيق، لا تكفي لتثبيت وجود تحويلٍ فيما يتصلّ بأشكال المبني للمعلوم والمبني للمجهول. وإنّ البراهين التجريبية لا بدّ منها لإظهار أنّه ضمن تخطيط أنظمة القواعد المسموح بها يتضمّن النحو الأفضل مثل هذا التحويل. وحتى عند افتراض مثل

*- مختصر عنوان كتاب تشومسكي: «البنية المنطقية للنظرية اللغوية».

** - ينبغي أن يُفهم مُصطلح «سطحيّة» بوصفه مُصطلحاً تقنياً هنا. ولا يدلّ على أنّ هذه البنية لا يمكن أن تمتلك خاصيّات «عميقة عقلياً». انظر ص ١٥٦ من هذا الكتاب.

*** - تجدرّ ملاحظة أنّنا استبدلنا بالاسم الأعجميّ اسماً عربياً «زَيْد». [الترجم إلى العربية].

هذا التَّحْوِيلُ عَلَى أساسِ بُرْهَانٍ تَجْرِيبيٍّ مَا، لَنْ يُقِيمَ عِلَاقَةً بَيْنَ الْقَوْلِ: «الإِخْلَاصُ يُرَعَّبُ زَيْدًا»، وَالْقَوْلِ: «زَيْدٌ يُرَعَّبُ بِالإِخْلَاصِ». وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ التَّحْوِيلَ الْمُفْتَرَضَ لِلْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ سَيُظْهِرُ فِي اسْتِثْقَاقِ: «زَيْدٌ يُرَعَّبُ بِالإِخْلَاصِ» مِنْ بِنْيَتِهَا الْعَمِيقَةِ الْمُجَرَّدَةِ، وَلَا يَظْهَرُ فِي اسْتِثْقَاقِ: «الإِخْلَاصُ يُرَعَّبُ زَيْدًا» مِنْ بِنْيَتِهَا الْعَمِيقَةِ الْمُجَرَّدَةِ، فَالْبِنْيَتَانِ الْعَمِيقَتَانِ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَا مُتَشَابِهَتَيْنِ وَحَتَّى مُتَطَابِقَتَيْنِ، وَالِاسْتِثْقَاقَانِ مُتَطَابِقَانِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ هَذَا التَّحْوِيلِ، لَكِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْنَى الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ الْمَرْءُ إِنَّ الْجُمْلَتَيْنِ يَرِيطُهُمَا هَذَا التَّحْوِيلُ. وَهَكَذَا تَكُونُ فِكْرَةُ «التَّحْوِيلِ» مُخْتَلَفَةً تَمَامًا عَنْ تِلْكَ الَّتِي طَوَّرَهَا هَارِسُ.

وَكَذَا فَإِنَّ التَّحْوِيلَ ضَمَّنَ الْإِطَارَ النَّظَرِيَّ لِلنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ لَيْسَ «غَيْرَ قَابِلٍ لِلِإِصْلَاحِ» فِي مَفْهُومِ هَارِسِ.

وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنْ مَبْلَغِ قُوَّةِ الدَّلِيلِ التَّجْرِيبيِّ فِي نُصْرَةِ نَحْوٍ يَتَضَمَّنُ تَحْوِيلًا مَا، يُمْكِنُ الدَّلِيلُ اللَّاحِقُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَنَّ النَّحْوَ خَاطِئٌ وَأَنَّ نَحْوًا مَا آخَرَ تَسْمَحُ بِهِ النَّظَرِيَّةُ الْعَامَّةُ نَفْسُهَا صَاحِبٌ، أَوْ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الْعَامَّةَ خَاطِئَةٌ وَأَنَّ مَجْمُوعَةً مُخْتَلَفَةً مِنَ الْمَبَادِئِ لَهَا تَخْطِيطٌ مُخْتَلَفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّحْوِ، صَاحِبَةٌ. وَمِنْ غَيْرِ الْمُمَكِّنِ أَنْ نُحَدِّدَ بَدَاهَةً أَنْوَاعَ الْأَدْلَةِ الَّتِي سَيُثْبِتُ أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِاسْتِنْتِجَاتِ كَهَذِهِ. وَيُشَبِّهُ النَّحْوُ أَسَاسًا فَرَضِيَّةً فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ بِشَأْنِ مَوْضُوعٍ مَا لِلْبَحْثِ Subject matter - لَا تُثْبِتُ نَهَائِيًّا، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ مَبْلَغِ قُوَّةِ الدَّلِيلِ التَّجْرِيبيِّ - الشَّيْءُ نَفْسُهُ يَصَحُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فَرَضِيَّةٍ ثَانِيَّةٍ فِي النَّحْوِ نَظَرًا إِلَى أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ قَاعِدَةً تَحْوِيلِيَّةً مَا. وَآمَلُ أَنْ يُسَاعِدَ هَذَا فِي إِضْاحِ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ التَّصَوُّرَيْنِ.

الرِّيَاضِيَّاتُ وَعِلْمُ اللُّغَةِ:

م. ر.: وُلِدَتِ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ التَّوْلِيدِيَّةُ مِنْ تَلَاقٍ بَيْنَ الرِّيَاضِيَّاتِ وَعِلْمِ اللُّغَةِ.

هَلْ لَكَ أَنْ تُقَدِّمَ مَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ دِقَّةً عَنْ هَذِهِ الْوِلَادَةِ؟

ن. ت.: عليّ أن أُميّز بين مسألتين. تتصلّ أولاهما بمشكلة أُثيرت سابقاً: كيف يمكن أن تُميّز المعرفة اللغويّة على نحو واضح؟ والتّمييز الواضح ينبغي أن يكون، أساساً، نظريّة تتخذ شكلاً. وهذه الملاحظة يمكن أيضاً أن تُمدّ إلى مشكلة اكتساب اللّغة ومسألة النظريّة التفسيرية المرتبطة بها، في مفهوم مُناقشتنا الأولى. وتوجد التفسيرات إلى درجة أن المبادئ العامّة دقيقة، ومن حيث المبدأ، مُعطاة شكلاً؛ وعلى أساس مبادئ كهذه في مقدور المرء أن يُقيم برهاناً استنتاجياً يُفضي إلى الظاهرات التي يمكن أن تُفسّر.

وهكذا فإنّ شكلاً تعبيرياً شبه رياضيّ يُفترض قبليّاً في البرنامج الإجماليّ، إلّا أنّه شكّل تعبيريّ مُبسّط حقّاً. ونريد أن نصوغ مبادئ دقيقة وقواعد دقيقة ضمن نظام مُشكّل Formalized. ويثبتُ أخيراً أنّ الطريق إلى «التكلّم بدقّة» إنّما هو التّشكيل (أي إعطاء الشّكل) لكنّه لن يكون صحيحاً أن يُنظر إلى ذلك بوصفه رياضيات. ويمكن القول مثلاً إنّ نوعاً من نظريّة الوظيفة المُتكرّرة Recursive Function theory يُقدّم، مبدئياً، أداة للتعبير عن القواعد اللّغويّة. وحتى تلك النقطة، يظلّ هذا تشكيلاً، وليس رياضيات. ويبدأ علم اللّغة الرياضيّ حين يدرُس المرء خاصيّات تجريديّة للتّشكيل، مُستخلصاً إياها من تحقّقات خاصّة. ولا يظهر الموضوع بالمعنى الحاسم إلّا بقدر ما يمكن أن تُثبت قضايا مهمّة، أو على الأقل يُنظر فيها، ووجهة النظر مختلفة جدّاً.

م. ر.: إنّ بعض النظريات الرّياضيّة قد أغوت كثيراً من اللّغويين. وأفكّر في صداماتهم «التاريخيّة» مع مُهندسي الاتّصال عن بُعد...

ن. ت.: حقّاً، في نهاية الأربعينيّات وبداية الخمسينيّات كان ثمة تطوّرات مهمّة في النظريّة الرّياضيّة للاتّصال، ونظريّة المعلومات، ونظريّة العمل الآليّ.

أَمَّا تَقْنِيًّا، فَإِنَّ نَمَازَجَ مِنْ مِثْلِ مَصَادِرِ الْحَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ عِنْدَ مَارْكَوفِ Markov قد اقْتَرَحَتْ (*).

وما أَكْثَرَ مَا افْتَرَضَ أَنَّ هَذِهِ النَّمَاذِجَ كَانَتْ مَنَاسِبَةً لَوْصِفِ اللُّغَةِ. فَقَدْ أَشَارَ جَاكُوبْسُونُ إِلَى هَذَا عَلَى نَحْوِ مَبْهَمٍ، أَمَّا هُوَكَتْ فَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ تَمَامًا. وَفِي عَامِ ١٩٥٥م اقْتَرَحَ نَظْرِيَّةً فِي بَنِيَةِ اللُّغَةِ قَائِمَةً عَلَى نَمُودِجِ مَصَادِرِ مَارْكَوفِ الْمُسْتَعَارِ مِنَ النَّظْرِيَّةِ الرَّيَاضِيَّةِ فِي الْإِتِّصَالِ. وَقَدْ طُوِّرَتْ نَظَرِيَّاتٌ مُمَازِلَةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ، وَالْمُهَنْدِسِينَ، وَالرَّيَاضِيِّينَ.

وَكُلُّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ جَعَلَتْنِي شَكَّاكًا جَدًّا. وَأَصْبَحْتُ مُهْتَمًّا كَثِيرًا بِالرَّيَاضِيَّاتِ ذَاتِ الصَّلَةِ الْكَبِيرَةِ بِالْمَوْضُوعِ فِي الْبَدْءِ؛ لِأَنِّي أَرَدْتُ إِثْبَاتَ أَنَّ هَذِهِ النَّمَاذِجَ لَمْ تَكُنْ مَلَائِمَةً لِلنَّحْوِ فِي لُغَةٍ طَبِيعِيَّةٍ.

م. ر.: مَاذَا كَانَ السَّبَبُ الْإِفْتِرَاضِيُّ لِشَكِّكَ؟ - أَكَانَ الْحَدْسُ؟

ن. ت.: حَدْسٌ أَقِيمٌ ثَانِيَةً عَلَى النَّزْعَةِ الْمُضَادَّةِ لِلتَّجْرِبِ نَفْسِهَا. وَأَرَى أَنَّ نَمُودِجَ مَصْدَرِ الْحَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ يُمْكِنُ عَلَى نَحْوِ مَعْقُولٍ أَنْ يُعَدَّ تَمَيِّزًا لِشَيْءٍ مَا كَالْحُدُودِ الْخَارِجِيَّةِ لِنَظْرِيَّةِ التَّعْلُمِ التَّجْرِبِيَّةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ عَالِمَ النَّفْسِ الرَّيَاضِيِّ وَعَالِمَ الْمَنْطِقِ، بَاتْرِيك سُوْبِرِ Patrick Suppes، قَدَّمَ وَصْفًا دَقِيقًا لِهَذَا الْحَدْسِ، أَوْ رَوَايَةً مُعَدَّلَةً لَهُ، مِنْذُ عِدَّةِ أَعْوَامٍ. أَثْبَتَ الرَّجُلُ أَنَّ صُورَةً ثَرِيَّةً جَدًّا لِنَظْرِيَّةِ التَّعْلُمِ

* - باختصارٍ، هِيَ أَدَوَاتُ شَكْلِيَّةِ ذَاتِ عِدَدٍ مُتَنَاهٍ مِنَ الْهَيِّئَاتِ (الْحَالَاتِ) تُنتِجُ سِلَاسَلًا مِنَ الرَّمُوزِ؛ وَاحِدَةً إِثْرَ أُخْرَى، فِي تَرْتِيبٍ طُولِيٍّ، حَيْثُ الرَّمْزُ التَّالِي الْمُنْتِجُ يَعْتَمِدُ فَحَسْبُ عَلَى الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ وَرَبَّمَا عَلَى مَادَّةٍ مُعْطَاةٍ. وَفِي الْإِسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ، يُمْكِنُ أَنْ تُنْتِجَ الْأَدَاةُ جُمْلَةً مِنَ الْيَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ - أَوَّلًا the ال، ثُمَّ men (رِجَال)، ثُمَّ arrived (وَصَلُوا)، إلخ. - مُسْتَعْمِلَةٌ مُوَاردَ تَذَكُّرٍ مُحَدَّدَةٍ بِدَقَّةٍ فِي تَحْدِيدِ الرَّمْزِ الْآخِقِ. [المؤلف].

القائمة على الاستجابة للمُنْبَه، ينبغي أن تبقى ضمن حدود مصادر الحالة المُتناهية من الضرب الذي كُنّا قد عَرَضْنَا له.

عَدَّ هذا نتيجة إيجابية. أمّا أنا فقد بدا لي نتيجة سلبية. والسبب هو هذا. وعلى غرار ما هو معروف منذ القدم، حتى الأنظمة البدائية في المعرفة لا يمكن أن تُمثّل بلغة مصادر الحالة المُتناهية عند ماركوف - خُذِي، مثلاً، معرفتنا للإنجليزية، أو حتى أنظمة أكثر بساطة كحساب التفاضل والتكامل الافتراضي. وتبعاً لذلك، أظهرت نتيجة سوبز Suppes أن المعرفة التي نمتلكها لا يمكن حتى أن يُقترَب منها (على نحو أصح لا يُحصل عليها) بواسطة نظرية التعلم التي كان يراها. ويُشكّل هذا الخطوة الأخيرة في تفنيد كامل لنظرية التعلم هذه، ومن ثم، النظريات الأقل قوةً.

لم أثق بنظريات اللغة القائمة على نموذج المصدر عند ماركوف، الذي بدا لي أنه وِثَرَتْ نقائص نظرية التعلم التجريبية. ومهما يكن، فإنه ابتغاء معرفة ما إن كانت صحيحة أو لا، كان لا بد من الانتظار إلى أن تكون قدّمت على نحو مضبوط. وإذ ذاك يمكن أن يُوجّه السؤال الجوهري:

هل تُوجد خاصيّات للغات الطّبيعية، وأيٌّ منها يعزُّ التعبير عنه في أيٍّ من هذه الأنظمة؟

ومثّل هذه الخاصيّات موجودٌ.

م. ر.: متى برهنت على ذلك؟

ن. ت.: بعد إكمال كتاب ال LSLT. وقد تضمّنت النسخة الأولى من هذا المخطوط، التي اكتملت عام ١٩٥٥م، مقداراً كبيراً من التشكيل لا الرياضيات. وبعد أمدٍ قصيرٍ انتقلت من جمعية الرُّملاء Society of Fellows

في هارفارد إلى مُختَبَرِ أبحاثِ الإِلِكْترونيَّاتِ في MIT^(*). وكان هناك مقدارٌ كبيرٌ من الاهتمامِ المُبرَّرِ تماماً بِنَظَريَّةِ التَّوصيلِ الرِّياضيَّةِ، ومقدارٌ كبيرٌ أيضاً، وإن يَكُنْ أَقلَّ تبريراً، من الإيمانِ بِإِمكانِيَّةِ دِرَاسَةِ اللُّغَةِ قَدَمَتُها نماذجُ المصدِرِ عندَ ماركوف وما قاربَها، ممَّا أثارَ حَماسَةً كبيرةً بينَ المُهندسينَ، وعُلماءِ النَّفسِ الرِّياضيِّينَ، وبعضِ اللُّغويِّينَ. وما إن صِيغَتِ المسأَلَةُ بوضوحٍ، حتَّى صارَ واضحاً مباشرةً أنَّ هذه النِّماذجَ لم تَكُنْ كافِيَةً لِتمثيلِ اللُّغَةِ. وقد أُعلِنَ عن هذه المُلاحظةِ في «البِنَى النَّحويَّةِ Syntactic Structures» معَ مادَّةٍ أُخرى، في مقالةٍ أَكثَرَ تَقْنِيَّةً عامَ ١٩٥٦م.

وإثرَ ذلكَ تطوَّرَ فرعٌ مُحدَّدٌ منِ عِلْمِ اللُّغَةِ الرِّياضيِّ، شغَلَ نَفْسَهُ أَوَّلًا بِخاصِّيَّاتِ شَكْلِيَّةٍ لِلأنْظِمَةِ كانتْ أغنى كثيراً، وتُدعى «قَواعِدُ بِنْيَةِ العبارةِ phrase structure grammars». أمَّا الصَّنْفُ الأكثرُ إثارةً بينَ هذه الأنْظِمَةِ، فهو الذي أصبحَ يُدعى تَقْنِيًّا «قَواعِدُ بِنْيَةِ العبارةِ الحُرَّةِ السِّياقِ Context-free phrase structure grammars». ومنذُ نِهايَةِ الخَمسينيَّاتِ، كانَ ثَمَّةَ حَقًّا مقدارٌ منِ العَمَلِ حَولَ الخاصِّيَّاتِ الشَّكْلِيَّةِ لِأنْماطٍ مُختلفَةٍ منِ القَواعِدِ، حَولَ طاقتِها التَّوليديَّةِ، وخاصِّيَّاتِها وعلاقَتِها، وهَلُمَّ جَرًّا. أمَّا اليومَ، فإنَّ هذه الدِّرَاسَةَ تُؤَلَّفُ فَرَعًا صَغيرًا منِ الرِّياضيَّاتِ. وقد قَدَّمَ الرِّياضيُّ الفرنسيُّ م. ب. شوتزنبرغر M.P. Schützenberger مُساهماتٍ مُثيرةً حَقًّا في هذا المِيدانِ.

م. ر.: الذي تطوَّرَ مُستَقلاً عن عِلْمِ اللُّغَةِ...

*- اختصارٌ لمعهد ماسوشوستس لِلتَّقانةِ [المترجم العربي].

ن. ت.: نعم، وآمل أن تتواصل هذه الدراسات^(١)، ويتواصل البحث الرياضي في القواعد التحويلية. وقد كان ثمة عمل حديثٌ مُثيرٌ قام به (ستانلي بترز و روبرت رتكه Stanley Peters and Robert Ritchie) في هذا الموضوع الأخير.

وحين نعودُ إلى النقطة الأولى، يبدو واضحاً أن نظريات التعلم التجريبية أقلُّ كثيراً من أن تكون كافية؛ حتى إنه يمكن إظهار هذا إن نحن سلّمنا بافتراض أن مصادر الحالة المتناهية عند ماركوف هي الأنظمة الأغنى التي يمكن الحصول عليها من خلال نظريات كهذه، في أقصى ما يمكن. ولا يبدو هذا الاستنتاج غير

١- انظر ن. تشومسكي: «خاصيات شكلية للنحو Formal Models of Grammar»،
 وج. ١٠ ميلر و ن. تشومسكي: «نماذج متناهية لمستعملي اللغة Finitary Models of Language Users»، نُشرَ كلاهما في ر. د. ليوس و ر. بش، وي. غالانتر، كتيب علم النفس الرياضي، المجلد ٢ (نيويورك: وايلي، ١٩٦٣م)؛ و ن. تشومسكي و م. ب. شوتزنبرغر: «النظرية الجبرية في اللغات الحرة السياق The Algebraic Theory of Context-Free languages في ب. برافورت؛ و د. هرسكبيرغ: برمجة الحاسوب والأنظمة الشكلية: دراسات في المنطق Computer Programming and Formal Systems: Studies in Logic (أمستردام، نورث هولاند: ١٩٦٣)؛ و س. جنسبيرغ: «النظرية الرياضية في اللغات ذات السياق الحر The Mathematical Theory of Context-Free Languages (نيويورك: مكجراو - هل، ١٩٦٦م)؛ و ج. هوبكروفت و ج. د. ألمان: «اللغات الشكلانية وعلاقتها بالعمل الآلي Formal Languages and their Relation to Automata (كيمبردج، ماسوشوستس: مطبعة أديسون - ويرلي، ١٩٦٩م)؛ و ج. كيمبل: «النظرية الشكلية للنحو The Formal Theory of Grammar (إنجلوود كليفز، ن. ج.: برنتس - هيل، ١٩٧٣م)؛ و م. جروس و أ. لنتن: «مدخل إلى القواعد النحوية الشكلانية Introduction to Formal Grammars (نيويورك: سبرنجر-فيرلغ، ١٩٧٠م).

معقولٍ لَدَيَّ، مَعَ أَنَّهُ اسْتَنْتَاجٌ غَيْرٌ دَقِيقٍ طَبْعاً لِأَنَّ فِكْرَةَ «النَّظَرِيَّةِ التَّجْرِبِيَّةِ» غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ جَيِّدًا.

م. ر.: هل رَبطْتَ نَفْدَكَ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ مَبَاشَرَةً بِنَقْدِ عِلْمِ اللُّغَةِ الْبَنِيَوِيِّ؟

ن. ت.: حَقًّا، عَلَيَّ نَحْوٌ غَيْرٌ مُبَاشِرٍ. كَانَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ آنَذَاكَ دَارِجَةً جَدًّا، حَتَّى إِنَّهَا أَثَارَتْ دَرَجَةً مِنَ الشَّعُورِ بِالنَّشَاطِ وَالْخِفَّةِ euphoria، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ. وَفِي الْأَجْوَاءِ الْفِكْرِيَّةِ فِي كِيمْبَرْدِجْ كَانَ هُنَاكَ وَقَعٌ كَبِيرٌ لِلتَّطَوُّرَاتِ التَّقْنِيَّةِ الرَّائِعَةِ، الَّتِي وَاكْبَتِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الثَّانِيَّةُ. وَقَدْ رَاجَتْ رَوَاجًا كَبِيرًا الْحَاسِبَاتُ الْآلِيَّةُ، وَالْإِلِكْتَرُونِيَّاتُ، وَعِلْمُ الصَّوْتِ، وَالنَّظَرِيَّةُ الرَّيَاضِيَّةُ لِلاتِّصَالِ، وَعِلْمُ الضُّبْطِ cybernetics(*)، وَكُلُّ الطَّرَائِقِ التَّقْنِيَّةِ لِفَهْمِ السَّلُوكِ الْبَشَرِيِّ. وَأُعِيدَ بِنَاءُ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أُسَاسِ هَذِهِ الْمَفْهُومَاتِ. وَكَانَ ذَلِكَ مَتَّصِلًا تَمَامًا. وَلِأَنَّنِي كُنْتُ طَالِبًا فِي جَامِعَةِ هَارْفَارْدِ فِي مَطْلَعِ الْخَمْسِينِيَّاتِ، كَانَ لِهَذَا كُلِّهِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِيَّ. وَإِنَّ نَفَرًا مِنَ النَّاسِ، وَأَنَا مِنْهُمْ، كَانُوا مُهْتَمِّينَ حَقًّا بِهَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ، وَيَرْجِعُ بَعْضُ ذَلِكَ إِلَى أَسْبَابٍ سِيَاسِيَّةٍ، عَلَى الْأَقْلَ بِمِقْدَارٍ دَاوِفَعِي الشَّخْصِيَّةِ.

م. ر.: لِأَسْبَابٍ سِيَاسِيَّةٍ؟

ن. ت.: نَعَمْ، لِأَنَّ هَذَا الْمُرَكَّبَ الْكَامِلَ مِنَ الْفِكْرِ بَدَأَ مُرْتَبِطًا بِتَيَّارَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ يُتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ خَطَرَةً حَقًّا: مُنَاوَرَةٌ، وَمُرْتَبِطَةٌ بِالْمَفْهُومَاتِ السَّلُوكِيَّةِ لِلطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

م. ر.: وَهَكَذَا كَانَ لِشَكِّتِكَ أَسْبَابٌ سِيَاسِيَّةٌ...

ن. ت.: نَعَمْ، جَزْئِيًّا. لَكِنَّهُ طَبِيعِيٌّ أَنَّ هَذِهِ الدَّوَافِعَ لَمْ تَكُنْ وَثِيقَةً الصَّلَةِ بِإِبْثَابِ أَنَّ هَذَا كَانَ خَطَأً بِتَمَامِهِ، كَمَا اعْتَقَدْتُ. اعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ لَا يُمْكِنُ

*- يُرَادُ بِهِ الدَّرَاسَةُ النَّظَرِيَّةُ لِمَعْمَلِيَّاتِ الضُّبْطِ فِي الْأَجْهَزَةِ الْإِلِكْتَرُونِيَّةِ وَالْمِيكَانِيكِيَّةِ وَالْبِيُولُوجِيَّةِ. وَخَاصَّةً: التَّحْلِيلُ الرَّيَاضِيُّ لِانْتِقَالِ الْمَعْلُومَاتِ فِي هَذِهِ الْأَجْهَزَةِ [الْمُتَرْجِمُ الْعَرَبِيُّ].

حقاً أن تفني بما وعدت به. وحين حُللت بعناية تفككت، مع ما تركت من إسهامات ملموسة ومهمة.

م. ر.: وقد رأينا برامج كبيرة للبحث في الذكاء الاصطناعي تتطور، قائمة على القدرات غير المتناهية فيما يبدو للحواسيب...

ن. ت.: الذكاء الاصطناعي جاء في وقت متأخر نسبياً بوصفه نتيجة لما سُمي حينئذ بعلم الضبط Cybernetics...

م. ر.: الموقف في هذا الشأن ظاهري التناقض، ويمكن القول، على الجملة، إن الفيزياء والتقانة تمكّنان من إنماء القدرات والأداءات البشرية، وأحياناً بدغم أدوات بسيطة تماماً. وبالذكاء الاصطناعي تطوّر التقانة الأكثر تقدماً للحصول على النتائج الأكثر محدودية، التي تأتي حقاً تحت قدرة المخلوق الأكثر غباءً...

ن. ت.: أنا وجلّ من أن كثيراً من الجهد المبذول في هذا الميدان يُعوّل على فكرٍ أولية وسطحية جداً في إلقاء الضوء على مسألة الذكاء الاصطناعي. ولا يلزم أن تكون هذه هي الحال، وربما لن تكون هي الحال ذات يوم. لكن الأمر كذلك حتى الآن، على الجملة؛ وقد عانى الميدان أيضاً من مزاعم غير معقولة البتة. وينطلي هذا الحكم على العلوم السلوكية، ومن ذلك مثلاً عمل (سكنر Skinner) في السلوك الكلامي. وذلك العمل الذي نُشر عام ١٩٥٧م، كان قد قدّم قبل عشرة أعوام في شكل مُحاضرات وليّم جيمس. ثم كان له إثر ذلك مباشرة صدى كبير. حيثُ كتب عنه وتحدّث (و. ف. كواين W. V. Quine)، و(جورج ميلر George Miller)، وآخرون كثيرون، بحماسة كبيرة. كان حقاً البدعة الرائجة في الوقت الذي وفدت فيه على كيمبردج، عام ١٩٥١م، في هارفارد.

قد يعتقّد المرء - وقد اعتقد بعضهم فعلاً - أن الحواسيب ستسمحُ بأداء

آليَّ لإجراءاتِ الكَشْفِ في عِلْمِ اللُّغَةِ. ويمكنُ أن تُقدِّمَ الفِكرَةُ مادَّةً يُغذَى بها الحاسوبُ لِاستنباطِ النَحْوِ في هذا النِّصِّ، عَلى افتراضِ أنَّ الإجراءاتِ التَّصنيفِيَّةَ لِلتَّحْلِيلِ الَّتِي قد طُوِّرَتْ، كانتُ أساساً كافيةً ومُلائمةً لِتَحْدِيدِ بِنْيَةِ نَحْوِيَّةٍ. وقد افترضَ، عَلى الجُمْلَةِ، خاصَّةً في المُحيطِ الفِكرِيِّ هنا في كيمبردج، أنَّ نظريَّةَ سِكنر في السُّلوكِ قد قُتِلَتْ بحثاً، وأنَّ الفِكرَ الَّتِي أُحْكِمَتْ ضِمْنَ نظريَّةِ الاتِّصالِ، وخاصَّةً نموذجِ المصدِرِ عند ماركوف، قدَّمَتْ إطاراً عامّاً لِدَرْسِ اللُّغَةِ. لكنني حينَ شَرَعْتُ بِدِرَاسَةِ هذه الموضوعاتِ كُنْتُ مُقْتَنِعاً بِسُرْعَةٍ بِأنَّ الافتراضاتِ السَّائِدَةَ كانتُ خاطئةً، وأنَّ النَّمَاذِجَ الدَّارِجَةَ غَيْرَ كافيةٍ، لِأَسْبَابٍ لم يَكُنْ بَعْضُها منفصِلاً عن بعضٍ، بل لها رَوَابِطُ مُهمَّةٌ، كما أسلفْتُ، بِالمَبْدَأِ التَّجْرِبِيِّ.

الخطوات الأولى:

م. ر.: وماذا كانتِ صِلَاتُكَ المُباشِرَةُ بِجَمَاعَةِ اللُّغَوِيِّينَ؟ - عُدْوانِيَّةٌ؟ - مَفْعَمَةٌ بالنِّزاعِ؟

ن. ت.: ليس تماماً. في البَدْءِ تَجاهَلَ كُلُّ مِنَّا الآخَرَ. ويمكنُ القولُ مثلاً إنَّه لم يُعَزَّ أَحَدٌ تَقْرِيْباً أَيَّ اِهْتِمَامٍ لِذلكِ العَمَلِ الأوَّلِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ لَكَ، في النَحْوِ التَّوَلِيدِيِّ لِلْعِبْرِيَّةِ الحَدِيثَةِ. لكنَّ ذلكَ كانَ عَمَلِ طَالِبٍ، وما كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أنَّ أَحَدًا سَيَتَّبَعُهُ إِلَيْهِ. وَبِحَسَبِ عِلْمِي، فإنَّ لُغَوِيَّيْنِ اثْنَيْنِ فَحَسَبُ أَظهَرا كُلَّ اِهْتِمَامٍ بِهِ: (هنري هونيغزوالد Henri Hoenigswald)، وهو عالِمُ لُغاتٍ هنديةٍ أوروبِّيَّةَ دَرَسْتُ مَعَهُ في جامِعَةِ بِنْسَلَفَانِيَا، و(برنارد بلوخ Bernard Bloch)، وهو عالِمُ الأصواتِ المشهورُ في جامِعَةِ يِيلِ.

وفي آيَةٍ حالٍ، فإنَّه خَارجَ رِحابِ عِلْمِ اللُّغَةِ بِمعناه الضِّيقِ، أثَارَ العَمَلُ انتِباءَ (يهوشوا بار - Yehoshua Bar-Hillel)، الَّذِي كانَ آنذاك هنا في كيمبردج -

ثم صرنا صديقين حميمين. أعد الرجل اقتراحات ممتازة. ومن ذلك أنه اقترح على نحو مقنع جداً أن عليّ أن أكون متطرفاً جداً وعليّ أن أفترض تمثيلات أساسية أكثر تجريداً، مماثلة لتلك المفترضة لمرآحل أولى للغة، لتفسير الأشكال المعاصرة. وقد تأكد أن تلك فكرة رائعة. أما أهميته اقتراحه فقد غدت واضحة بعد ذلك بأميد طويل في علم الأصوات الكلامية التوليدي. وقد فكرت في أن أعيد صياغة النحو العبري بتمامه آخذاً بهذا الاقتراح، عام ١٩٥١م، حيث أدخل عليه تحسينات ملحوظة.

وقد أبدى كواين بعض الاهتمام في الجانب المنهجي، خاصة في مشكلة إنشاء معيار البساطة في النظرية اللغوية، وشجعتني على المضى أكثر في ذلك، مثلما كان شأن (نلسون جودمان Nelson Goodman). وإن كان ذلك حول جملة العمل. ولم يبد أحد من اللغويين اهتماماً بذلك الطراز من العمل.

لم أكن منزعاً أو مفاجئاً على نحو من الأنحاء: لم أفكر بأنني كنت أعمل في ميدان علم اللغة. وعلى نحو ما، كنت أعاني من انفصام في ذلك الوقت. إذ ظلت أعتقد أن منهج علم اللغة البنيوي الأمريكي كان صائباً في الجوهر. وعلى غرار ما قلت لك، أمضيت وقتاً طويلاً أحاول تحسين إجراءات الكشف وإعطاءها شكلاً، ابتغاء التغلب على نقائصها. لكنها ما إن ضبطت حتى أدت بجلاء إلى نتائج خاطئة. ومع ذلك، اعتقدت لأميد طويل حقاً أن الخطأ خطئي بسبب صياغات خاطئة. وفي عام ١٩٥٣م، نشرت مقالة في مجلة «المنطق الرمزي Journal of Symbolic Logic»، حاولت فيها أن أطور إجراءات كشف كان لدي أمل في أن يكون أساساً لشيء ما سيفعل فعله حقاً. وكان ذلك، عندي، علم لغة حقيقياً. وما كنت أقوم به - محاولاً إنشاء نظرية تفسيرية في النحو التوليدي - بدا لي من نواح أخرى ضرباً مختلفاً من العمل، إضافة إلى ذلك، إن جاز القول.

وبينَ مُعاصِرِيَّ كانَ ثَمَّةَ نَفَرٍ قَلِيلٍ وَجَدُوا ذَلِكَ الْعَمَلَ مُثِيرًا .
والوحيدُ الَّذِي اعتَقَدَ دائِمًا أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُواصِلَ هَذَا الْعَمَلَ وَأَتَخَلَّى عَنْ مَسْأَلَةِ
إِجْرَاءِ الْكَشْفِ بِرُمْتِهَا إِنَّمَا كَانَ مَوريسَ هالي ، كانَ آنَذاكَ طالِبَ دِرَاساتٍ عُلُيا في
هارفارد ، مِثْلِي ، وكانَ أيضًا يُعَلِّمُ في الوَقْتِ نَفسَهُ في الـ MIT . التَقينا عامَ
١٩٥١م ، وصِرنا صديقَينِ حَميمَينِ ، وكانَتْ لَنا نِقاشاتٌ لا تَنتَهِى . اعتَقَدَ هُوَ أَنَّ
إِجْرَاءاتِ الْكَشْفِ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مَفهومَةً . لَسْتُ أَتَذَكَّرُ حُجَجَهُ ، لَكِنِّي أَتَذَكَّرُ
الاختلافَ مَعَهُ في ذَلِكَ العَهدِ . وفي عامَ ١٩٥٣م انْتَهَيْتُ إلى النَتِيجَةِ نَفسِها : إنَّ
كانَتْ إِجْرَاءاتُ الْكَشْفِ لَمْ تَحُلْ المَسْأَلَةَ ، فَذلكَ لِأَنَّ المَناهجَ بِتامِها كانَ خاطِئًا ،
وليسَ لِأَنِّي أخَفَقْتُ في صِياغَتِها عَلَيَّ نَحوً صَحيحَ .

وفي تَأَمُّلٍ ما مَضَى ، لا أَستَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ لِمَذا انْتَهى بِي غالِبًا إلى الوَصولِ
إلى مُتَناوَلِ هَذِهِ النَتِيجَةِ - أَتَذَكَّرُ بِدِقَّةِ اللَّحْظَةِ الَّتِي شَعَرْتُ فيها أَخيرًا بِالرِّضا .
وقَدَ بَدَأَ عَلَيَّ نَحوً فُجائِيٍّ أَنَّهُ كانَ ثَمَّةَ سَبَبٍ وَجِيهٍ - السَّبَبُ الواضِحُ - لِئَلَّا
تَأْتِيَ أَعوامٌ كَثيرَةٌ مِنَ السَّعْيِ المُكثَّفِ المُكْرَسِ لِتَحسينِ إِجْرَاءاتِ الْكَشْفِ بِطائِلٍ ،
في حِينِ أَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي كُنْتُ أَقُومُ بِهِ في العَهدِ نَفسِهِ حَولَ القَواعدِ النَحويَّةِ
التَّولِيدِيَّةِ والنَّظَرِيَّةِ التَّفسِيرِيَّةِ ، بِانفِصالٍ تامٍّ بَينَهما تَقريبًا ، بَدَأَ يُفْضِي عَلَيَّ نَحوً مَتينٍ
إلى نَتائِجٍ مُثيرة .

ومَندُ أَنْ أَدركْتُ ذَلِكَ كانَ التَّقدُّمُ سَريعًا جَدًّا . وفي السَّنَةِ وَنِصْفِ السَّنَةِ
التَّالِيَتَينِ كَتَبْتُ الـ LSLT ، الَّذِي كانَ في حُدُودِ ١٠٠٠٠ صَحيْفَةٍ مَطبُوعَةٍ عَلَيَّ
الآلَةَ الطَّابَعَةَ ، وَكَذلكَ تَقريبًا كُلَّ ما وُضِعَ في كِتابي «البِنى النَحويَّة» ومَقالَ مُؤَمَّرِ
تَكساس لِعامِ ١٩٥٨م ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

أَمَّا بِشَأْنِ القَبُولِ الَّذِي لَقِيَهِ الـ LSLT فَثَمَّةُ شَيْءٍ قَلِيلٌ يَمكُنُ أَنْ يُقالَ .

وَكُنْتُ قد ذكرتُ لكِ أَنَّهُ لم يَكُنْ لَدَيَّ الانطبَاعُ الذي كان يُثِيرُهُ رَدُّ الفِعْلِ عَلَى فريقٍ من اللُّغَوِيِّينَ. وقد قَدِّمْتُ الـ LSLT لِمَطْبَعَةِ معهد ماسوشوستس لِلتَّقَانَةِ MIT - التي رَفَضَتْهُ. ويُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ سَبَبَ ذلكِ لا يَمَكُنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَنَّ الموقِفَ في ذلكِ الوقتِ لم يَكُنْ مُواتِيًا البَتَّةَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى كتابٍ عامٍّ في ذلكِ الموضوعِ، خاصَّةً حينَ يَكُونُ ذلكِ الكتابُ مِنْ تَأليفِ كاتبٍ مغمورٍ. وكذا قَدِّمْتُ مقالًا تَقْنِيًّا حَوْلَ البَسَاطَةِ والتفسيرِ إِلَى مجلَّةِ Word، استجابةً لِإِقتراحِ رومان جاكوبسون، لكنَّهُ رُدَّ فعليًّا بِالبريدِ العائدِ. وهكذا كان لَدَيَّ أَمَلٌ محدودٌ بِرُؤيةِ أَيِّ جزءٍ مِنْ هذا العَمَلِ منشورًا، عَلَى الأقلِّ في مجلَّةٍ لغويَّةٍ. لكنَّ ذلكِ حقًّا لم يُرْعِجَنِي كثيرًا. وجدتُ مكانًا لِلْبَحْثِ في مُختَبَرِ أبحاثِ الإِلِكْترونيَّاتِ في MIT، حَصَلْتُ عَلَيْهِ بِفَضْلِ موريِس هالي ورومان جاكوبسون، وَعَلِمْتُ الفرنسيَّةَ العِلْمِيَّةَ والأَلْمانيَّةَ العِلْمِيَّةَ - مَعَ أَنِّي لَسْتُ كَفِيًّا - وكذا عِلْمَ اللُّغَةِ، والفلسفَةِ، والمنطقِ في المرحَلَةِ الجامعيَّةِ. ولم تَعْتَرِضْني أَيُّهُ مُشْكَلَةٌ حَيَوِيَّةٌ، وَكُنْتُ حُرًّا في أَنْ أَقُومَ بِالعَمَلِ الذي يُهْمُّني.

وَعَلَيَّ أَنْ أؤكدَ أَنَّهُ، مَعَ ضالَّةِ الاهتمامِ بِالعَمَلِ الذي كُنْتُ أَقُومُ بِهِ بَيْنَ اللُّغَوِيِّينَ عَلَى الأقلِّ، لم يَكُنْ لَدَيَّ البَتَّةُ مُبرَّرٌ لِلتَّذَمُّرِ بِقَدْرِ ما كَانَتْ تُقْلِقُنِي شُرُوطُ العَمَلِ. عَلَى العَكْسِ، كُنْتُ ذا حَظٍّ عَظِيمٍ وعِرفَتُهُ. الدَّرَاسَةُ في بنسلفانيا مَعَ زِلْغ هارس ونلسون جودمان كَانَتْ تَجَرِبَةً حَافِزَةً جَدًّا، وَكُنْتُ سَعِيدًا جَدًّا بِأَنْ أَكُونَ قَادِرًا عَلَى مُواصَلَةِ مُناقِشَةِ العَمَلِ الذي كُنْتُ أَقُومُ بِهِ مَعَ هارس، خاصَّةً حينَ كُنْتُ في هارفارد مِنْ عامِ ١٩٥١ إِلَى عامِ ١٩٥٥م في جَمِعيَّةِ الزَّملاءِ، حَيْثُ لم تَكُنْ لَدَيَّ مَسْئُولِيَّاتٌ وَكُنْتُ حُرًّا في أَنْ أَعْمَلَ مِثْلَما أَرَدْتُ مَعَ كُلِّ التَّسْهِيلاتِ المُتاحَةِ لهارفارد، وتلكمِ فَرْصَةٌ رَائعةٌ. أَنْفَقْتُ وَقْتًا طَوِيلًا في المُقَرَّراتِ الدَّرَاسِيَّةِ، وَحَلَقَاتِ البَحْثِ، والمُنَاقِشاتِ، خاصَّةً مَعَ الفلاسِفَةِ في هارفارد - كواين، وأوستن (الذي زار هارفارد حينئِذٍ)، ووايت، وآخَرِينَ. كَانَتْ مَرَحَلَةٌ مُفَعِّمَةً بِالحَيَوِيَّةِ والاندفاعِ

في محيطِ كيمبردج ، بالنسبةِ إلى طالبٍ له اهتماماتٌ مِنْ قِبَلِ اهتماماتي .

كَانَتْ أَجْوَاءُ الْبَحْثِ فِي MIT قَرِيبَةً مِنْ أَنْ تَكُونَ مِثَالِيَّةً . وَلَمْ أَسْتَطِعْ فِي آيَةٍ حَالٍ أَنْ أَجِدَ مَوْقِعًا فِي عِلْمِ اللُّغَةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ - وَلَمْ أَكُنْ عَلَى الْحَقِيقَةِ مُؤَهَّلًا لِلْحِرْفَةِ وَفَقَ مَعَايِيرِ هَذَا الْمِيدَانِ . وَفِي MIT ، لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَعَاوِلَ أَكَادِيمِيَّةٍ حَصِينَةٍ فِي الْمِيَادِينِ الَّتِي تَحْظَى بِاهْتِمَامِي . مَوريس هالي وأنا وَآخَرُونَ كُنَّا أَحْرَارًا فِي مُتَابَعَةِ أَبْحَاثِنَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَضْعِ بَرْنَامِجٍ لِلدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا . هَذَا الْغِيَابُ لِلْبُنْيَةِ الْمُوْطَدَةِ الْأَرْكَانِ ، إِضَافَةً إِلَى رُوحِ عَامٍّ فِي تَشْجِيعِ ابْتِكَارٍ بَدَأَ وَاعِدًا ، أَعْدَا لِازْدَهَارِ عِلْمِ اللُّغَةِ فِي MIT عَلَى نَحْوِ كَانَ فَعَلًا ، عَلَى الْأَقْلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا ، مُسْتَحِيلًا فِي مَكَانٍ آخَرَ . أَمَّا جُورْج مِيلَر ، الَّذِي كَانَ إِذْ ذَاكَ رَئِيسَ قِسْمِ عِلْمِ النَّفْسِ فِي هَارْفَارْد ، فَقَدْ صَارَ مُهْتَمًّا أَيْضًا . وَقُمْنَا بِبَعْضِ الْعَمَلِ مَعًا فِي أَوَاسِطِ الْخَمْسِينِيَّاتِ . وَقَدْ وَاصَلَ الْعَمَلَ لِتَطْوِيرِ مِيدَانٍ جَدِيدٍ تَمَامًا فِي عِلْمِ اللُّغَةِ النَّفْسِيَّةِ . وَبِفَضْلِ مُسَاعَدَتِهِ كُنْتُ قَادِرًا عَلَى قَضَاءِ عَامٍ مِكَافَأَةً فِي الْمَعْهَدِ لِلدِّرَاسَةِ الْعَالِيَةِ فِي بَرْنِسْتُونِ فِي ١٩٥٨-١٩٥٩ م . وَعَلَيَّ أَنْ أَذْكَرَ أَيْضًا صَدِيقِي الْحَمِيمَ (إِيرِك لِينِيْبِيرْغ Eric Lenneberg) ، الَّذِي كَانَ آنَ ذَاكَ قَدْ بَدَأَ دِرَاسَاتِهِ الْمُثِيرَةَ جَدًّا فِي مِيدَانِ «بَيُولُوجِيَا» اللُّغَةِ ، مُتَقَدِّمًا فِي عَمَلِهِ وَفَقَ مَسَارَاتٍ مُمِثَالَةً نَسْبِيًّا .

ثُمَّ أَخَذْتُ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ تَحْظَى بِشَيْءٍ مِنَ الْإِهْتِمَامِ بَيْنَ اللُّغَوِيِّينَ ، أَوَّلًا فِي مُؤْتَمَرِي تَكْسَاسِ عَامِي ١٩٥٨ وَ ١٩٥٩ م ، اللَّذَيْنِ نَظَّمْتُهُمَا أَرِشِبَالْد هِل ، وَالَّذَيْنِ دُعِيتُ إِلَيْهِمَا . كَانَتْ الْمُنَاقَشَاتُ نَشِطَةً وَحَادَةً ، كَمَا أَشْرْتُ قَبْلُ . وَلَعَلَّهُ مِنْ سُوءِ الْحِظِّ أَنَّ مَحَاضِرَ جَلَسَاتِ مُؤْتَمَرِ ١٩٥٩ م لَمْ تُنْشَر . حَيْثُ قَدِّمْتُ وَرَقَةً حَوْلَ عِلْمِ الْأَصْوَاتِ التَّوَلِيدِيِّ فِي الْإِنْجَلِيزِيَّةِ ، تَنَاوَلْتُ فِيهَا ذَلِكَ الْمَوْضُوعَ بِعُمُقٍ عَلَى نَمَطِ عَمَلِي فِي الْعِبْرِيَّةِ قَبْلَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ ، وَإِنْ يَكُنْ تَنَاوُلُ هَذَا الْوَقْتِ قَدْ جَرَى بِاطْمِنَانٍ أَكْبَرَ إِلَى الْمَنْهَجِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ عَلَى الْجُمْلَةِ إِنَّنِي لَمْ أَنْشُرْ فَعْلِيًّا إِلَّا

في مجلاتٍ كانت خارجَ ميدانِ عِلْمِ اللّغةِ في تلك السّنين .
وقد اجتذبتْ مسائلُ النّحوِ التّوليديّ اهتمامَ اللّغويّينَ قبلَ كُلِّ شيءٍ ، نتيجةً
لنشرِ مُراجعةٍ شاملةٍ قامَ بها (روبرت ليز Robert Lees) لِكتابي «البنى
النّحويّة» عامَ ١٩٥٧م في مجلّة اللّغة Language . ثمّ انتقلتِ المُناقشةُ إلى
مُنتدَى أكثرُ شُمولاً عامَ ١٩٦٢م في المؤتمرِ الدّوليِّ لِلّغويّينَ ، الذي عُقدَ في ذلك
العام في MIT . فقد أقيمتُ مُحاضرةٌ هناك نُشرتْ بعدَ ذلك في صورةٍ مَقالٍ ، بعدَ
شيءٍ مِنَ التّهذيبِ ، حَمَلَ عنوانَ : «المسائلُ الحاضرة في نظريّة اللّغة»^(١) . وفي
تلك المُحاضرة حاولتُ أن أُبينَ ، على نحوٍ شاملٍ نسبيّاً ، ما بدا لي أنّه
الاختلافاتُ الجوهريةُ بينَ النّحوِ التّوليديّ وعِلْمِ اللّغة البنيويّ . لكنّها ظلتْ شيئاً
يَصعبُ أن يُنشرَ في الولاياتِ المتّحدة ، معَ أنّ الموقفَ قد تحسّنَ كثيراً بِنشرِ
أعمالٍ مُهمّةٍ جدّاً لروبرت ليز و ج . هـ . ماثيوس (G. H. Mathews) وإدوارد
كليما (Edward Klima) .

م . ر . : هل بدأتُ في ذلك الوقتُ تُدرّسُ عِلْمَ اللّغة ؟

ن . ت . : نعم ، في بدايةِ السّتينياتِ بدأنا برنامجاً لِلدّراساتِ العُليا . وكما
أسلفتُ ، كنّا قادرينَ على تطويرِ برنامجنا في MIT ، لأنّ ال MIT ، بمعنى من
المعاني ، كان خارجَ نظامِ الجامعةِ الأمريكيّة ، لم يكنْ ثَمّةَ أقسامٍ كبيرةٍ لِلعلومِ
الإنسانيّةِ أو العُلومِ الاجتماعيّةِ المرتبطة بها في ال MIT . وهكذا استطعنا أن
نُنشئَ قِسماً لِعِلْمِ اللّغة من دُونِ أن نواجهَ مُشكلاتِ التّنافسِ و«البيروقراطيّة»
الأكاديميّة . حيثُ كنّا هنا فعلاً جزءاً من مُختبرِ أبحاثِ الإلكترونيّات . وقد سمحَ
لنا ذلك بأن نُطوّرَ برنامجاً مختلفاً جدّاً عن أيّ برنامجٍ آخَر ، وقائماً بِنَفْسِهِ فعلاً .

١ - (هولندا: موتن ، ١٩٦٤م) .

ثمَّ في وقتٍ قريبٍ من ذلك، وُضِعَ برنامجٌ لِلدِّرَاسَاتِ العُلَيَا في عِلْمِ النَّفْسِ في MIT بإشراف (هانس - لوکاس تیوبر Hans - Lukas Teuber)، ثمَّ بعدَ ذلكِ بِقَلِيلٍ أُنْشِئَ برنامجٌ دِرَاسَاتِ عُلَيَا في الفِلسَفَةِ. وَكِلَا البرنامجِينِ طُوِّرَ عَلى نَحْوِ مُمَاطِلٍ تَمَامًا لِعَمَلِنَا. وَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ قَدْرٌ كَبِيرٌ مِنَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الكَلِّيَّةِ وَالكَلِّيَّةِ، تَضَمَّنَ تَجْهِيزاتٍ مُشْتَرَكَةً وَمُقَرَّرَاتٍ دِرَاسِيَّةً تُدْرَسُ مُشْتَرَكَةً.. وَيَتَوَاصَلُ ذَلِكَ، وَأَتَوَقَّعُ أَنَّ الأَمْرَ سَيَصِلُ إِلَى حَدٍّ تَوْحِيدٍ مُحْكَمٍ لِبَعْضِ الحُقُولِ، إِضَافَةً إِلَى المَجَالَاتِ المُتَرَابِطَةِ فِي الهندسة وَعِلْمِ الحَاسُوبِ. وَيَلُوحُ لِي أَنَّ ثَمَّةَ فِرْعَا دِرَاسِيًّا نَاشِئًا أَكْثَرَ طَبِيعِيَّةً فِي عِلْمِ النَّفْسِ الإِدْرَاقِيِّ تَلْتَقِي فِيهِ هَذِهِ الخُيُوطُ المَخْتَلِفَةُ، وَيَمْكَنُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ عِلْمُ اللُّغَةِ مَوْقِعًا مُنَاسِبًا.

الطَّلَابُ الأَوَائِلُ:

م. ر.: مَنْ كَانُوا الطَّلَابُ الأَوَائِلُ وَالبَاحِثِينَ الأَوَائِلُ فِي ذَلِكَ البرنامجِ الجَدِيدِ؟
 ن. ت.: كَانَ مُورِيس هَالِي يَعمَلُ سَابِقًا فِي عِلْمِ الأصَوَاتِ التَّوَلِيدِيِّ فِي الرُّوسِيَّةِ فِي الخَمْسِينِيَّاتِ، وَقَدْ عَمَلْنَا مَعًا أَيضًا فِي عِلْمِ الأصَوَاتِ التَّوَلِيدِيِّ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَشَارَكْنَا فِي البَدْءِ (فَرِيد لُوكُوف Fred Lukoff). وَبِمُشَارَكَةِ لِيز لِي Lees وَمَاتِيُوس وَكَلِيمَا وَلُوكُوف، كُنْتُ - عَلَى الأَقْلَ مِنْ حَيْثُ المَبْدَأُ - طَرَفًا فِي مَشْرُوعِ بَحْثٍ فِي التَّرْجَمَةِ الآلِيَّةِ فِي مُخْتَبَرِ أبحاثِ الإِلِكْتروْنِيَّاتِ، الَّذِي تَرَأَّسَهُ (فِيكْتُور يِنْجَف Victor Yngve). أَمَّا اللُّغَوِيُّونَ، مَا خَلا مَاتِيُوسَ تَقْرِبًا، فَلَمْ يَكُونُوا مُهْتَمِّينَ كَثِيرًا بِالمُشْكِلَاتِ التَّطْبِيقِيَّةِ فِي التَّرْجَمَةِ الآلِيَّةِ، بِحَسَبِ مَا أَتَذَكَّرُ. وَفِي نَهَايَةِ الخَمْسِينِيَّاتِ قَدَّمَ مَاتِيُوسُ، الَّذِي كَانَ مُتَخَصِّصًا فِي اللُّغَاتِ الهِنْدِيَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ وَكَانَتْ لَدَيْهِ خَلْفِيَّةٌ رِيَاضِيَّةٌ جَيِّدَةٌ أَيضًا، نَحْوًا مُهِمًّا جَدًّا لِـ Hidasta.

وَبِالمَعْنَى التَّقْنِيَّ لِلْمُصْطَلَحِ، كَانَ رُوبَرْت لِيز طَالِبُنَا الأَوَّلَ، مَعَ أَنَّهُ عَلَى الحَقِيقَةِ

زَمِيلٌ. وقد قدّم بحثه لِنَيْلِ الدّكتوراه في الفلسفة في موضوع Nominalization في الإنجليزِيَّة، عام ١٩٦٠م. أمّا فعليّاً فقد نال شهادةً في الهندسة. وقد نال كليما، الذي عَمِلَ معنَا، درجةَ الدّكتوراه في الفلسفة في هارفارد في موضوع النّحو التّاريخيِّ. وقد نَشَرَ أيضاً مَقالاً مهمّاً جدّاً ومُؤثِّراً في موضوع النّقي. وَحِينَ بدأ بَرنامِجُ الدّراساتِ العُليا كان هنا (جيرري فودر Jerry Fodor)، و(جيرري كاتز Jerry Katz)، وكذا (بول بوستال Paul Postal). وكان (جون فيرتل John Viertel)، الذي كان أيضاً في صَدَدِ بَرنامِجٍ لِلتّرْجَمَةِ الآليَّة، قد بدأ عَمَلَهُ حَوْلَ هَمبُولدت والموضوعاتِ المتّصلةِ به في ذلك الوقت، وكان (م. ب. شوتزنبرغر M. P. Schützenberger) زائراً من فرنسا. وبعدَ ذلك مَضَتْ الأشياءُ سَريعةً جدّاً...

م. ر.: تلکم کانت ولادة النظرية المعيارية...

ن. ت.: نعم، وفي تلك المرحلة تَمَّتْ صِياغةُ ما سُمِّيَ بِالنّظريَّةِ المِعياريَّة، مِنْ خِلالِ إِسهاماتٍ كَبرى مِنْ جَانِبِ فودر، وكاتز، وبوستال، وعدِدٍ مِنَ الطّلابِ في بَرنامِجِ الدّراساتِ العُليا الجَديد، أولئك الذين عَدَدُ كَثيرٍ مِنْهُم الآنَ في عِدادِ العُلَماءِ الأَكثَرِ عطاءً في هذا المِيدان، الذي تَغَيَّرَ حَقّاً عَلى نَحْوِ مَأساويٍّ تَماماً مِنْذُ المَرحَلَةِ التي ناقَشناها تَوّاً.

الفصل السَّادِسُ عِلْمُ الدَّلَالَةِ

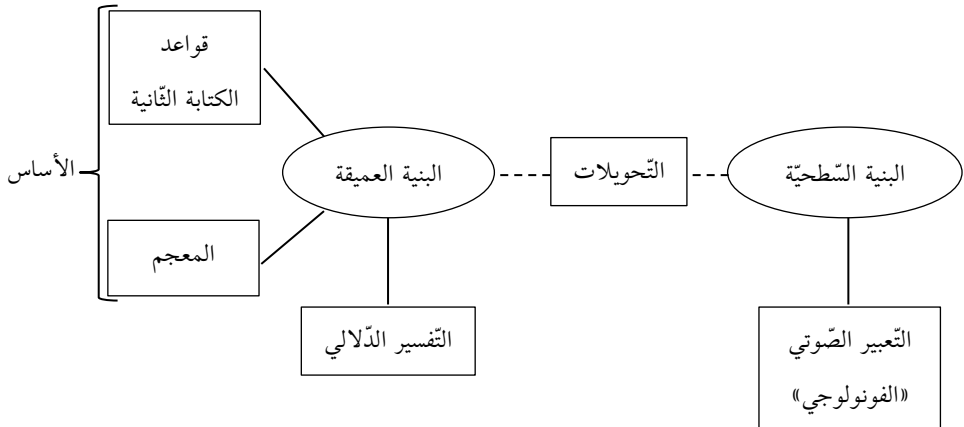
أَسَلَفْتُ أَنَّ نَمُودَجَ تشومسكي الأول - نَمُودَجَ البِنَى النَحْوِيَّة - انطوى أساساً عَلَى ثَلَاثَةِ مُكَوِّنَاتٍ هِيَ: قَوَاعِدُ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَّةِ ، وَقَوَاعِدُ التَّحْوِيلِ ، وَالْقَوَاعِدُ الشَّكْلِيَّةُ الْخَاصَّةُ بِعِلْمِ الْأَصْوَاتِ الْكَلَامِيَّةِ . وَفِي عَامِ ١٩٦٥ مَ ظَهَرَ نَمُودَجٌ مُخْتَلَفٌ كَثِيراً . وَيُقَدِّمُ التَّقْلِيدُ الَّذِي يَبْدَأُ بِـ «مَظَاهِرِ النَّظَرِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ Aspects of the Theory of Syntax (1965) هَذَا النَّمُودَجَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . تَتَأَلَّفُ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ The base component مِنْ عُنْصَرَيْنِ هُمَا: قَوَاعِدُ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَّةِ The rewriting rules الَّتِي ، كَمَا أَسَلَفْنَا ، تُشِيرُ إِلَى بَنِيَّةِ سِلْسِلَةِ كَلِمَاتٍ مُتتَالِيَةٍ ؛ وَالْمُعْجَمُ الَّذِي تُعْزَى إِلَيْهِ كُلُّ الْخَاصِّيَّاتِ النَّحْوِيَّةِ وَالِدَّلَالِيَّةِ وَالصَّوْتِيَّةِ لِلْمُفْرَدَاتِ الْمُعْجَمِيَّةِ . وَتُولَدُ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ The base grammar وَاسِمَ الْعِبَارَةِ الْأَوَّلِيَّةِ ، أَوِ الْبَنِيَّةِ الْعَمِيقَةِ Deep structure .

يُحَوَّلُ الْمُكَوَّنُ التَّحْوِيلِيُّ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ الْأَوَّلِيَّةَ إِلَى بَنَى أُخْرَى ، أُخْرَاهَا تُدْعَى الْبَنِيَّةُ السَّطْحِيَّةُ The surface structure . وَتُولَدُ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ وَالْمُكَوَّنُ التَّحْوِيلِيُّ الْجُزْءَ التَّوَلِيدِيَّ مِنَ النَّمُودَجِ .

وَلَعَلَّ أَحَدَ الْاِبْتِكَارَاتِ الْأَكْثَرِ أَهْمِيَّةً فِي «المَظَاهِرِ Aspects» ، إِدْخَالُ مُكَوِّنَيْنِ تَفْسِيرِيَّيْنِ ، هُمَا: الْمُكَوَّنُ الصَّوْتِيُّ The phonological component ،

والمُكوّنُ الدَّلاليُّ The semantic component. وهنا تَغَيَّرَ وَضْعُ عِلْمِ الأصواتِ الصَّرْفِيِّ morphophonology عَلَى نحوِ ما، أمّا المُكوّنُ الدَّلاليُّ، عَلَى الأقلِّ فِي الصُّورَةِ الَّتِي أُدمِجَتْ فِي نَمُودَجِ تشومسكي بِنَاءً عَلَى اقترح فودر وكاتز وبوستال، فقد كان شيئاً جديداً كُلَّ الجِدَّةِ. وقد حاولَ فودر وكاتز وبوستال أن يوسِّعوا مفهومَ النَّحْوِ التَّولِيدِيِّ لِيَدْخُلَ رِحَابَ المعنى. أراد تشومسكي أن يُبَيِّنَ ما يَعْرِفُهُ المتكَلِّمُ عَنِ البِنْيَةِ النَّحْوِيَّةِ. وقد أرادوا فِي الوقتِ نَفْسِهِ أن يُبَيِّنُوا ما يَعْرِفُهُ المتكَلِّمُ عَنِ المعنى «الحَقِيقِيِّ» لِلْكَلماتِ والجُمَلِ. وإزاءَ هَذِهِ الغَايَةِ، اقترحوا نَمُودَجاً يَتَأَلَّفُ مِنْ قِسْمَيْنِ: فِي القِسْمِ الأوَّلِ تُخَصَّصُ كُلُّ كَلِمَةٍ لَوُصْفِ مِنَ الطَّرَازِ الآتِي: كَذَا مِنَ الأشياءِ يَكُونُ (+ أو -) حَيًّا؛ (+ أو -) أَنْثَى؛ (+ أو -) قَاسِيًّا؛ (+ أو -) شَفَافًا؛ إلخ. - وهذا جُزْءٌ مِنَ المُعْجَمِ. وَفِي القِسْمِ الآخَرِ، تُقَارَنُ القَوَاعِدُ الَّتِي تُدْعَى «قَوَاعِدُ الإِظْهَارِ projection rules» بِخَاصِّيَّاتِ الكَلِمَاتِ لِتَحْدِيدِ ما إِنْ كانَ تَرْكِيبُهَا ضِمْنِ جُمْلَةٍ مَقْبُولاً أَوْ غَيْرَ مَقْبُولٍ.

وقد أمكنَ إدماجُ المُكوّنِ الدَّلاليِّ بِالنَّحْوِ التَّولِيدِيِّ عِنْدَ مُسْتَوَى البِنْيَةِ العميقة: هَذِهِ البِنْيَةُ النَّحْوِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَتَلَقَّى المعنى. وَيُمْكِنُ أَنْ تُتَصَوَّرَ النَّظَرِيَّةُ القِيَاسِيَّةُ أَوْ المِيعَارِيَّةُ The Standard Theory، عَلَى الجُمْلَةِ، بِعِبَارَاتِ المُخَطَّطِ الآتِي:



لكنّ هذا النّمودج سرعانَ ما اعترض عليه، كما سنرى، خاصّةً بسبب الصّلة الوحيدة التي سلّم بها بين عِلْمِ الدّلالة والبنية العميقة.

منزلة علم الدّلالة في النّحو:

م. ر.: مع النّظرية المعياريّة تدخّل المرحلة الثّانية في تاريخ النّحو التّوليديّ، المرحلة التي غدا فيها علم الدّلالة لبّ النقاش.

ن. ت.: نعم، ولكنه لا ينبغي أن يُنسى أنّ النّظرية التي سبقت هذا تضمّنت بوضوح نظريّة دلاليّة عامّة، قائمة في جزءٍ منها على عملِ جودمان وكواين، وفي جزءٍ آخر على عملِ (فتجنشتاين Wittgenstein) ومدرسة أكسفورد. وأحدثُ الآن عن الـ LSLT و«البنى النّحويّة Syntactic Structures». وخلافاً لما كان قد قيل - وثمة قدرٌ كبيرٌ من سوء الفهم بشأنِ هذا الموضوع - أعطى هذا العملُ مكانةً مهمّةً لعِلْمِ الدّلالة. ومهما يكن، فإنّني كنتُ متشكّكاً بشأنِ اعتقادٍ عامٍّ مُفاده أنّ النّحو أقيم على اعتباراتٍ دلاليّة، ممّا هو شأنٌ مختلفٌ حقّاً. وقد زعمَ عددٌ من اللّغويين البنيويّين وعددٌ من الفلاسفة - من مثِل كواين - أنّ المفهومِ النّحويّة ينبغي أن تُحدّد على أساسِ فكرٍ دلاليّة. ومن ذلك مثلاً، أنّ مفهوم «الفونيم Phoneme» ينبغي أن يُحدّد بشروطِ التّرادف...

م. ر.: ممّا يعني القول بأنّ R و L «فونيمان» مختلفان، لأنّ ramp وlamp ليس لهما المعنى نفسه...

ن. ت.: نعم، فذلك أحد الأمثلة. أو أنّهم أيضاً حدّدوا مفهوم الصّحة النّحويّة grammaticality بفكرة الغزارة المعنويّة meaning fulness. لكنّه يبدو لي أنّ الجُملة النّحويّة ربّما لا يكون لها أيُّ معنى حرفيٍّ...

م. ر.: كان ذلك مبعثَ النقاشِ حولِ الجُملة التي طبّقت شهرتها الآفاق:

«فَكَرَّ خَضْرَاءُ عَدِيمَةُ اللَّوْنِ تَغْفُو غَاضِبَةً». بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ، هَذِهِ الْجُمْلَةُ صَحِيحَةٌ نَحْوِيًّا، حَتَّى إِنْ لَمْ تَبْلُغِ الذَّرْوَةَ فِي دَرَجَةِ الصَّحَّةِ النَّحْوِيَّةِ. وَمُجَارَاةً لِهَذَا، اشْتَرَطْتَ أَنْ تُحَدِّدَ الْمَفْهُومَاتِ النَّحْوِيَّةَ بِشُرُوطِ شَكْلِيَّةٍ وَنَوْعِيَّةٍ، مُسْتَقِلَّةٍ عَنِ الْفِكْرِ الدَّلَالِيَّةِ الْغَامِضَةِ.

ن. ت.: أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، حَاوَلْتُ تَأْكِيدَ أَنَّ كُلَّ صِيَاغَةٍ وَاضِحَةٍ لِفَرَضِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِمَا يُزَعَمُ مِنْ ضَرُورَةِ تَحْدِيدِ الْفِكْرِ النَّحْوِيَّةِ بِشُرُوطِ دِلَالِيَّةٍ أَدَّتْ إِلَى نَتَائِجٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ. وَقَدْ أَدَّى التَّفَكُّيرُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ إِلَى مَا سُمِّيَ أَخِيرًا فَرَضِيَّةَ اسْتِقْلَالِ النَّحْوِ. وَكُلَّمَا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْفَرَضِيَّةِ، بَدَأَ لِي أَنَّهَا سَوِيَّةٌ تَمَامًا. وَلَا أَعْرِفُ أَيْضًا بُرْهَانًا مَادِّيًّا عَلَى بُطْلَانِهَا. وَفِي سِيَاقِ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ، تَتَضَمَّنُ الْفَرَضِيَّةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَعَلَّمُ مَعْنَى عِبَارَةٍ فِي شَكْلِ يُنْشَأُ عَلَى أُسُسٍ مُسْتَقِلَّةٍ. وَلَيْسَ فِي مُسْتَطَاعِ الْإِنْسَانِ أَنْ «يَلْتَقِطَ» مَعْنَى غَيْرِ مُجَسَّدٍ وَعَائِمًا فِي الْهَوَاءِ، يُنْشِئُ شَكْلًا يُعَبِّرُ عَنْهُ. وَمِنَ الْعَسِيرِ أَنْ يُحَقِّقَ مَعْنَى كَبِيرًا لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا. وَيَبْدُو لِي أَنَّ عُنَاوِينَ النَّحْوِ لَا تُقَامُ عَلَى أُسَاسٍ دِلَالِيٍّ، وَأَنَّ آلِيَّةَ النَّحْوِ مِنْذُ أَنْ أُنْشِئْتُ تُؤَدِّي عَمَلَهَا مُسْتَقِلَّةً عَنِ الْمَكُونَاتِ الْآخَرِ لِلنَّحْوِ، الَّتِي هِيَ مُكُونَاتُ تَفْسِيرِيَّةٍ.

م. ر.: تُفَسِّرُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ أَيْضًا سَبَبَ انْتِهَاءِ الْمُتَحَدِّثِينَ إِلَى أَنْظِمَةِ صَوْتِيَّةٍ وَنَحْوِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ، مَعَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّتِي تُضْفِيهِ تَجَارِبُهُمْ عَلَى الْكَلِمَاتِ، قَدْ يَكُونُ مُخْتَلَفًا تَمَامًا.

ن. ت.: أَعْتَقُدُ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَنَّ فَرَضِيَّةَ اسْتِقْلَالِ النَّحْوِ، فِي الصُّورَةِ الَّتِي افْتَرَحْتُ فِي الْخَمْسِينِيَّاتِ وَمَا بَعْدُ، قَدْ تَكُونُ صَحِيحَةً. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ وَرَفَضْتُ جِهَارًا وَفِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ مَوْقِفًا مُخْتَلَفًا تَمَامًا، كَثِيرًا مَا نُسِبَ إِلَيَّ: أَنَّ دِرَاسَةَ الْمَعْنَى وَالْمَرْجِعِ وَدِرَاسَةَ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ، يَنْبَغِي أَنْ تُنَحَّى مِنْ مِيدَانِ اللُّغَةِ. وَمَا قُلْتُهُ كَانَ عَكْسَ ذَلِكَ تَمَامًا. إِنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ كِتَابِي «الْبَنَى النَّحْوِيَّةُ»

و«LSLT» مُخَصَّصٌ لِمَشْكِلَةِ التَّفْسِيرِ الدَّلَالِيِّ لِلْأَنْظِمَةِ الشَّكْلِيَّةِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْقَضَايَا كَانَتْ أَسَاسِيَّةً فِي كُلِّ مِنْ «الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ» وَ«LSLT». حَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ بَعْضَ الْجَوَابِ الْمُثِيرَةِ وَالْدَّقِيقَةِ فِي التَّفْسِيرِ الدَّلَالِيِّ لِلْجُمْلِ، يُمْكِنُ أَنْ تُفَسَّرَ بَعْضَ التَّفْسِيرِ بِشُرُوطِ نَظَرِيَّةٍ فِي الْمَسْتَوِيَّاتِ اللَّغَوِيَّةِ، مُوسَّعَةٍ ضِمْنَ إِطَارِ النَّحْوِ التَّحْوِيلِيِّ التَّوَلِيدِيِّ. وَأَكَّدْتُ بِوُضُوحٍ أَيْضًا أَنَّ الِاعْتِبَارَاتِ الدَّلَالِيَّةَ تَتَدَخَّلُ جَوْهَرِيًّا فِي اخْتِيَارِ نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ صَحِيحَةٍ. وَهَكَذَا كَانَتْ وَجْهَةٌ نَظَرٍ هَذَا الْعَمَلِ أَنَّ مَفْهُومَاتِ النَّحْوِ، حِينَ تُضَمَّنُ عَلَيْهَا نَظَرِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ، تُبْنَى (فِيمَا يَبْدُو) عَلَى أَسَاسِ فِكْرٍ أَوَّلِيَّةٍ غَيْرِ دِلَالِيَّةٍ (حَيْثُ يَتَضَمَّنُ النَّحْوُ عِلْمَ الْأَصْوَاتِ وَالتَّرَكِيبِ)، إِلَّا أَنَّ النَّظَرِيَّةَ اللَّغَوِيَّةَ نَفْسَهَا يَنْبَغِي أَنْ تُخْتَارَ عَلَى نَحْوِ تَقْدُّمٍ فِيهِ أَفْضَلُ تَفْسِيرٍ مُمْكِنٍ لِلظَّاهِرَاتِ الدَّلَالِيَّةِ، وَكَذَا الظَّاهِرَاتِ الْأُخْرَى. وَالظَّاهِرُ أَنَّ لُغَوِيَّيْنِ كَثِيرَيْنِ لَمْ يُفْلِحُوا فِي تَبْيِينِ هَذَا الْفَرْقِ، وَاسْتَنْتَجَوْا أَنِّي أَرَدْتُ اسْتِبْعَادَ أَهَمِّيَّةِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ، فِي حِينَ أَنَّ عَكْسَ ذَلِكَ تَمَامًا هُوَ الصَّحِيحُ: أَكَّدْتُ بِجَلَاءٍ أَنَّ الِاعْتِبَارَاتِ الدَّلَالِيَّةَ أَسَاسِيَّةٌ فِي النَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ، مِثْلَمَا قُلْتُ تَوًّا، وَخَصَّصْتُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ لِلدِّفَاعِ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِعِبَارَاتٍ نِقَاشْنَا السَّابِقِ إِنَّ النَّظَرِيَّةَ اللَّغَوِيَّةَ (أَوْ «الْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ الْكُلِّيَّةَ Universal grammar»)، هِيَ مَا يُمْكِنُ افْتِرَاضُ كَوْنِهِ مُعْطًى «بِيُولُوجِيًّا»، خَاصِيَّةً لِلنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ مُحَدَّدَةً وَرَاثِيًّا: لَا يَتَعَلَّمُ الطِّفْلُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ، بَلْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي تَنْمِيَةِ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ. وَسَيَكُونُ مِنْ مُجَافَاةِ الْمَنْطِقِ أَنْ تَفْتَرِضِي أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ اللَّغَوِيَّةَ الْفِطْرِيَّةَ، الَّتِي تُقَرَّرُ الشَّكْلَ الْعَامَّ وَالبِنْيَةَ الْعَامَّةَ لِلُّغَةِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تُرْبَطَ، عَلَى النَّحْوِ الْأَكْثَرِ حَمِيمِيَّةً، بِالْخَاصِّيَّاتِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْمَعْنَى وَاسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ. وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، لَا أَعْرِفُ أَنَّ أَحَدًا اقْتَرَحَ مِثْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْبَاطِلَةِ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ قَدْرٌ كَبِيرٌ مِنَ اللَّبْسِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْأَدَبِ.

م. ر.: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ سُوءَ الفَهْمِ هذا مَرَدُّهُ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ كَلِمَةَ «عِلْمُ الدَّلَالَةِ semantics»، تنطوي عَلَى عِدَدٍ مِنَ التَّحْدِيدَاتِ الْمُتَبَايِنَةِ، وَأَنَّ تَحْدِيدَكَ إِياها لَا يَتطَابَقُ وَتَحْدِيدَاتِهِمْ. حَيْثُ ظَلُّوا مُتَعَلِّقِينَ بِالتَّعْرِيفِ الْمُتَأَثِّلِ فِي القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ المُسْتَمَدَّةِ مِنَ المَنْطِقِ، الَّتِي تَجْعَلُ المَفْهُومَاتِ النَّحْوِيَّةَ مُعْتَمِدَةً عَلَى الفِكْرِ الدَّلَالِيَّةِ. تَأَمَّلْ صِبْغَهُم: الفَاعِلُ يَقُومُ بِالفِعْلِ، المَفْعُولُ يَقَعُ عَلَيْهِ الفِعْلُ، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَإِنْ أَنْتَ أَبْعَدْتَ عَنْهُمْ عِلْمَ دِلَالَةِ الأَلْفَاظِ هَذَا، لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ. وَمِنَ الجَائِزِ القَوْلُ، فِي مُعْتَقَدِهِمْ، إِنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ إِنْ لَمْ يُؤَدِّ المِهْمَةَ الأَسَاسِيَّةَ فَإِنَّهُ لَا يُؤَدِّي آيَةَ مِهْمَةٍ.

ن. ت.: يَلُوحُ أَنَّ مَسْأَلَتَيْنِ تَلْتَبِسُ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى: الأَوَّلَى مَسْأَلَةُ اسْتِقْلَالِ النَّحْوِ؛ وَالثَّانِيَةُ إِمْكَانِيَّةُ كَوْنِ دِرَاسَةِ المَعْنَى وَالمَرْجِعِ تَنْتَمِي إِلَى الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ. وَلَيْسَ هُنَاكَ، عَلَى الحَقِيقَةِ، آيَةُ مُشْكِلَةٍ بِشَأْنِ ذَلِكَ. فَقَدْ سَلَّمَ النَّاسُ دَائِمًا دُونَ اسْتِثْنَاءٍ بِأَنَّ الِاهْتِمَامَ الأَسَاسِيَّ لِلنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ إِنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ عِلْمِ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

فَرْضِيَّةُ «فُودر - كاتز»:

م. ر.: يُمَكِّنُ، عَلَى نَحْوٍ سَرِيعٍ جَدًّا، أَنْ يُمَيِّزَ تَيَّارَانِ اثْنَانِ بَيْنَ أَوَّلَتِكَ الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِاسْتِقْلَالِ النَّحْوِ. إِذْ يَجْعَلُ بَعْضُهُم المَكُونِ الدَّلَالِيَّ تَمَثِيلًا لِلْعَالَمِ، فِي حِينٍ يُقَيِّدُهُ آخَرُونَ بِمُشْكِلَاتٍ دَقِيقَةٍ جَدًّا وَيَمَكِّنُ تَقْدِيرَ دَرَجَتِهَا...

ن. ت.: أَمَّا أَنَا شَخْصِيًّا، فَقَدْ كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي عَمَلِي الأَوَّلِ (البِنَى النَّحْوِيَّةِ و LSLT) بِنَظَرِيَّةٍ ثُنَائِيَّةٍ لِلْمَعْنَى، بِمَعْنَى مِنَ المَعْنَى. فَقَدْ أَشْرْتُ مِنْ وَجْهَةٍ أَوَّلَى، إِلَى مُحَاوَلَةِ جُودِمَانِ مَدِّ نَظَرِيَّةِ المَرْجِعِ إِلَى أَجْزَاءٍ مِنْ نَظَرِيَّةِ لِلْمَعْنَى، وَكَذَا إِلَى انْتِقَادِ كَوَايِنِ المُوَثِّرِ وَالأَكْثَرِ إِقْنَاعًا، فِيمَا أَحَسَبْتُ، لِعِدَدٍ مِنَ أَشْكَالِ التَّنَاوُلِ

المِيعَارِيَّ لِنَظَرِيَّةِ المَعْنَى . وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى ، كُنْتُ أَفَكِّرُ بِنَظَرِيَّاتِ أَكْسْفورد فِي اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ .

وَحِينَ اقْتَرَحَ فودر وكاتز أَنْ تُدْمَجَ بِالنَّظَرِيَّةِ المِيعَارِيَّةِ قَوَاعِدُ التَّفْسِيرِ الدَّلَالِيِّ الَّتِي ضَمَّتِ التَّمثِيلَاتِ الدَّلَالِيَّةَ إِلَى البِنَى النَّحْوِيَّةِ ، إِنَّمَا كَانَا يُفَكِّرَانِ بِشَيْءٍ مُخْتَلَفٍ تَمَامًا عَمَّا كُنْتُ قَدْ اقْتَرَحْتُهُ . وَقَدْ وَحَدَتِ النَّظَرِيَّةُ المِيعَارِيَّةُ اقْتِرَاحَاتَهُمَا بِوَصْفِهَا ابْتِكَارًا . وَكَانَ لِقَوَاعِدِهِمَا خَاصِيَّةٌ تَكثِيفِيَّةٌ ، لَا تُوجَدُ فِي «البِنَى النَّحْوِيَّةِ» ، حَيْثُ لَمْ يُتَصَوَّرَ مَسْتَوًى لِعُيُودِ التَّمثِيلِ الدَّلَالِيِّ . وَقَدْ طَوَّرَا تَشَابُهًا بَيْنَ عِلْمِ الْأَصْوَاتِ وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ . وَمِثْلَمَا أَنَّ التَّمثِيلَ الصَّوْتِيَّ يُبْنَى عَلَى نِظَامٍ شَامِلٍ لِلْمَلَامِحِ الصَّوْتِيَّةِ ، سَيُبْنَى التَّمثِيلُ الدَّلَالِيُّ عَلَى نِظَامٍ شَامِلٍ لِلْفَنَائَاتِ الدَّلَالِيَّةِ ، أَوْ «المَلَامِحِ الدَّلَالِيَّةِ المُمَيَّزَةِ» . وَيُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ النِّظَامُ الشَّامِلُ قَادِرًا عَلَى تَمثِيلِ الفِكْرِ المَفْهُومِيِّ كُلِّهِ . وَقَدْ تَبَنَّى كاتز فِكْرَةَ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الدَّلَالِيَّةَ فِي مَفْهُومِهِ ، يَنْبَغِي أَنْ تَقْصِدَ إِلَى تَقْدِيمِ وَصْفٍ كَامِلٍ لِلخَاصِّيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ لِكُلِّ التَّعْبِيرَاتِ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ ، مُسْتَقِلٌّ عَنِ الِاعْتِبَارَاتِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ جَمِيعًا - وَصْفٍ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ فِي آيَةِ لُغَةٍ ، لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ .

وَمِنْ غَيْرِ الواضِحِ أَبَدًا وُجُودُ مِثْلِ هَذَا النِّظَامِ الدَّلَالِيِّ الشَّامِلِ هُنَاكَ . وَقَدْ تَكُونُ هُنَاكَ خَاصِّيَّاتٌ دِلَالِيَّةٌ عَامَّةٌ ، شَامِلَةٌ ، مِنْ الطَّرَازِ الَّذِي اقْتَرَحَهُ كاتز وَآخَرُونَ . وَيَبْدُو مَعْقُولًا أَنْ نَفْتَرِضَ عَلَى الْأَقْلَى أَنَّ فِكْرًا تَقْلِيدِيَّةً مِنْ مِثْلِ «فَاعِلِ الْفِعْلِ agent of action» وَ«اسْمِ الآلَةِ instrument» وَ«هَدَفِ goal» وَ«مَصْدَرِ source» وَهَلُمَّ جَرًّا ، جِزْءٌ مِنْ عِلْمِ الدَّلَالَةِ الشَّامِلِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ سَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْفِكْرِ فِي مُتَنَاولِ التَّمثِيلِ الدَّلَالِيِّ ، رُبَّمَا بِالمَعْنَى الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْمَلَامِحُ الصَّوْتِيَّةُ الْكَلَامِيَّةُ فِي مُتَنَاولِ التَّمثِيلِ الصَّوْتِيِّ الْكَلَامِيِّ . وَقَدْ نَاقَشَ (جولْيوس مورافيسك Julius Moravesik) الْأَصُولَ الْأَرِسْطُوطَالِيَّةَ لِعَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الْفِكْرِ الْأَصْلِيَّةِ فِي

عَمَلٍ حَدِيثٍ مُثِيرٍ جَدًّا. وإضافةً إلى ذلك، يبدو أنَّ هناك خاصِّياتٍ أكثرَ تحديدًا تدخلُ في تحليلِ النَّظامِ الفِعْلِيِّ، مثلًا. ولِنَأْخُذَ حالةً كثيرًا ما قد نُوقِشَتْ، إذ يبدو معقولًا افتراضُ أنَّ العلاقةَ الدَّلَالِيَّةَ بينَ كلماتٍ مِثْلٍ: يَقْنَعُ، يَنْوِي، يَعْتَقِدُ، يُمْكِنُ أنْ يُعْبَرَ عنها بِعباراتٍ لُغَوِيَّةٍ صُرْفَةٍ (أي: إنَّنا أَقْنَعْتُكَ بِالذَّهَابِ، فَإِنَّكَ تَنْوِي بَعْدَئِذٍ الذَّهَابَ؛ وإنَّنا أَقْنَعْتُكَ بِأَنَّ الْيَوْمَ هُوَ الثَّلَاثَاءُ، فَإِنَّكَ تَعْتَقِدُ بَعْدَئِذٍ أَنَّ الْيَوْمَ هُوَ الثَّلَاثَاءُ. وهذه وقائعٌ مِنَ اللُّغَةِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ). وإضافةً إلى ذلك، يبدو معقولًا أنْ نَفْتَرِضَ أنَّ الخاصِّياتِ الْأَسَاسِيَّةَ لِأَسْوَارِ الْقَضَايَا الْمَنْطِقِيَّةِ quantifiers (وهي كلماتٌ مِثْلُ كُلِّ all، وأَيِّ any، وبعضِ some، إلخ) وتَكَرُّارِ الصَّدَارَةِ anaphora (كالعلاقاتِ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَعُودُ إِلَيْهَا الصَّمائِرُ وَالصَّمائِرُ)، يُمْكِنُ أنْ يُعْبَرَ عنها جُزْئِيًّا عَلَى مَسْتَوَى التَّمثِيلِ الدَّلَالِيِّ، بَعِيدًا عَنِ الْاِعْتِبَارَاتِ غَيْرِ اللَّغَوِيَّةِ. وإنَّ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَظَاهِرَ لِنَظَرِيَّةِ الْمَعْنَى يُمْكِنُ حِينَئِذٍ أَنْ تُدْخَلَ فِي «النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ» وَتُفْهَمَ بِوَصْفِهَا نِظَامًا لِلْقَوَاعِدِ يُحَدِّدُ مَعْرِفَتَنَا اللَّغَوِيَّةَ الصَّرْفَةَ لِأَصْوَاتِ الْجُمَلِ وَمَعَانِيهَا. وَرُبَّمَا أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ، أَنَّ أَشْكَالَ التَّنَاوُلِ الْمُتَبَاعِدَةِ ظَاهِرِيًّا تَمِيلُ إِلَى أَنْ تَكُونَ عَلَى وَفَاقٍ حَمِيمٍ تَمَامًا، بَعِيدًا عَنِ مُصْطَلَحَاتِهَا الْفَنِّيَّةِ، بِشَأْنِ مِثْلِ هَذِهِ النَّتَائِجِ. فَمَا مَبْعَثُ السُّؤَالِ عَنِ إِمْكَانِيَّةِ عِلْمِ دِلَالَةٍ شَامِلٍ، سَيُقَدَّمُ تَمَثِيلًا دَقِيقًا لِلْمَعْنَى الْكَامِلِ لِكُلِّ مُفْرَدَةٍ مُعْجَمِيَّةٍ، وَمَعَانِي التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا هَذِهِ الْمُفْرَدَاتُ؟ أَعْتَقْدُ أَنَّ هُنَاكَ مُبَرِّراتٍ قَوِيَّةً لِلتَّشَكُّكِ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَرْنَامِجِ. وَيَبْدُو أَنَّ أَنْظِمَةً إِدْرَاكِيَّةً أُخْرَى - خَاصَّةً نِظَامَ اعْتِقَادَاتِنَا بِشَأْنِ أَشْيَاءِ الْعَالَمِ وَسُلُوكِهَا - تَقُومُ بِفَعْلٍ كَبِيرٍ فِي أَحْكَامِنَا عَلَى الْمَعْنَى وَالْمَرْجِعِ، عَلَى نَحْوِ مُعَقَّدٍ جَدًّا. وَغَيْرُ وَاضِحٍ الْبَتَّةُ مَا إِنْ كَانَ سَيَبْقَى الْكَثِيرُ إِنْ نَحْنُ حَاوِلْنَا فَضْلَ الْمُكَوِّنَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الصَّرْفَةِ عَمَّا نُسَمِّيهِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْعَادِيِّ أَوْ حَتَّى فِي التَّنَاقُشِ التَّقْنِيِّ «مَعْنَى التَّعْبِيرِ اللَّغَوِيِّ». وَأَرْتَابُ فِي أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ قَادِرًا عَلَى فَضْلِ

التَّمثِيلِ الدَّلَالِيَّ عَنْ مُعْتَقَدَاتِهِ وَمَعَارِفِهِ عَنِ الْعَالَمِ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ شَخْصًا يَوْمُنُ بِمُسْتَوًى مِنَ التَّمثِيلِ مِنَ الطَّرَازِ الَّذِي اقْتَرَحَهُ كَاتِرٌ يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبَ: «حِينَ أَفْعَلُ هَذَا، إِنَّمَا أَقْتَرِحُ «مِثَالِيَّةً» مَشْرُوعَةً. وَأَفْتَرِضُ، مَعَ فِرْج Frege، أَنَّهُ تَوْجَدُ هُنَاكَ عَنَاصِرُ دِلَالِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ اللُّغَاتِ جَمِيعًا، مُسْتَقَلَّةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا اللُّغَةَ وَالْفِكْرَ. وَحِينَ تَرَفُضُ «الْمِثَالِيَّةَ» هَذَا، تَقَعُ فِي الْخَطَأِ نَفْسِهِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَخْلُطُونَ بَيْنَ «التَّدَاوُلِيَّةِ pragmatics» وَ«النَّحْوِ» .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ لِهَذَا الْإِعْتِرَاضِ بَعْضَ الْقُوَّةِ، لَكِنِّي غَيْرُ مُسْتَيْقِنٍ مِنْ أَنَّهُ سَيَصْمُدُ تَمَامًا أَمَامَ قَدْرِ أَكْبَرَ مِنَ التَّأَمُّلِ . وَكُلَّمَا أُخْضِعَتِ الْمَفْهُومَاتُ لِإِخْتِبَارِ الدَّقِيقِ، بَدَأَ أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ اعْتِقَادَاتٍ عَنِ عَالَمِ الْوَاقِعِ . وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ لَيْسَتْ بِجَدِيدَةٍ: فَقَدْ أَكَّدَ فَتْجَنْسْتَايْنُ وَكُوَايْنُ، وَآخَرُونَ، أَنَّ اسْتِعْمَالَنَا لِلْمَفْهُومَاتِ يُوَضِّعُ ضِمْنَ نِظَامٍ مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ حَوْلَ السَّلُوكِ الْمَشْرُوعِ لِلْأَشْيَاءِ؛ وَقَدْ نُسِبَتْ فِكْرٌ مُمَازِلَةٌ إِلَى (لَايْبْنِز Leibniz) . وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّا حِينَ نَسْتَعْمِلُ كَلِمَتِي كُرْسِيَّ chair أَوْ طَاوِلَةَ table نَعُولُ عَلَى اعْتِقَادَاتٍ تَتَّصِلُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُشِيرَانِ إِلَيْهَا. وَنَفْتَرِضُ أَنَّهَا لَنْ تَخْتَفِيَ عَلَيَّ نَحْوِ مُفَاجِئٍ. سَتَتَلَاشَى حِينَ تُتْرَكُ وَشَأْنُهَا، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَهَذِهِ الْإِفْتِرَاضَاتُ لَيْسَتْ جِزْءًا مِنْ مَعْنَى كُرْسِيٍّ، إِخ.، لَكِنَّهُ حِينَ تَسْقُطُ الْإِفْتِرَاضَاتُ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَسْتَنْتَجِ أَنَّ لَمْ نَكُنْ نُشِيرُ إِلَى كُرْسِيٍّ، كَمَا كُنَّا قَدْ اعْتَقَدْنَا.

وَفِي دِرَاسَةِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ، عَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يَضَعَ فِي الْحُسْبَانِ فِعْلَ الْأَنْظِمَةِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ لِلْإِعْتِقَادِ: فَلَدَيْنَا تَوَقُّعَاتُنَا حَوْلَ حَيِّزٍ ذِي ثَلَاثَةِ أَعْدَادٍ، حَوْلَ التَّرْكِيبِ وَالْإِحْسَاسِ، حَوْلَ السَّلُوكِ الْبَشَرِيِّ، وَالْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْحَيَّةِ، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَهُنَاكَ أَعْضَاءٌ عَقْلِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مُتَفَاعِلَةٌ.

وَلِنُعِدْ هُنَا إِحْدَى مُمَازَاتِ فَتْجَنْسْتَايْنِ، حَيْثُ لَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نُسَمِّي شَيْئًا

إن هو بدا لنا في لحظةٍ في صورةٍ كُرْسِيٍّ، وفي لحظةٍ أُخرى اختفى، أي إن لم يُذعنْ لِنَوَامِيسِ الطَّبِيعَةِ. والسَّوَالُ: «أذلك كُرْسِيٌّ أم غيرُ كُرْسِيٍّ؟» لن يظفرَ بإجابةٍ وَفَقَ معاييرَ لُغَوِيَّةٍ صارمة. ولا مُشاحَّةَ في أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نُشَيَّ استنتاجاتٍ مِنْ هذا القَبِيلِ. ولم يُفهمْ إِلَّا النَّزْرُ اليسيرُ بِشَأْنِ «الأنظمة» الإدراكيةِ وتفاعُلِها. ومع ذلك، يبدو هذا التَّنَاولُ معقولاً لَدَيَّ؛ ولإعطائه شيئاً مِنَ المحتوى الحقيقيِّ، لا بُدَّ مِنْ اكتشافِ شيءٍ مُشابهٍ لِلنَّحْوِ التَّوَلِيدِيِّ في ميدانِ المعرفةِ الواقعيَّةِ، وما ذلك بِالْمُهْمَةِ السَّهْلَةِ. أمَّا تَأَمُّلِي الخاصُّ فهو أَنَّ إطاراً واضحاً مِنَ الخاصِّياتِ الدَّلَالِيَّةِ فَحَسْبُ، ممَّا هو غيرُ كافٍ عَلَى الجُمْلَةِ لِتمييزِ ما يُسمَّى في الحالِ العاديَّةِ «معنى التَّعبيرِ اللُّغَوِيِّ»، يُمكنُ أَنْ يُضَمَّ عَلَى نحوٍ صحيحٍ إِلَى «لغةٍ» المِثَالِيَّةِ.

صِدْقُ الْجَمَلِ:

م. ر.: في المَكُونِ الدَّلَالِيَّ عِنْدَ كاتز، ليس ثَمَّةَ فَحَسْبُ عِلْمُ الدَّلَالَةِ الكُلِّيِّ، مُسْتَقِلاً عن معرفةِ العالمِ، فَثَمَّةُ أيضاً قواعدُ الإظهارِ **projection** **rules**، التي مُهمَّتُها استبعادُ الجَمَلِ الخاليةِ مِنَ المعنى. وَسَتَسْتَبْعِدُ هذه الآليَّةُ جُمْلَةً: «فَكَرَّ خَضِرَاءُ، عَدِيمَةُ اللَّوْنِ، تَغْفُو غَاضِبَةً»؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ صحيحاً أَنَّ الفِكَرَ خَضِرَاءُ، وَلِأَنَّهُ لَا يَمَكُنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنَامَ غَاضِباً... ولكنَّ أَلَا يعني ذلك إعادةَ تقديمِ فِكْرَةِ صِدْقِ القَضَايا التي لا عَلاقَةَ لَهَا بِالنَّحْوِ؟

ن. ت.: يُؤْمِنُ كُلُّ النَّاسِ بِأَنَّ شُرُوطَ الصِّدْقِ مرتبطةٌ عَلَى نحوٍ ما بِالتَّمثِيلِ الدَّلَالِيِّ. ومهما يَكُنْ، فَإِنَّ القَضِيَّةَ بعيدةٌ عن البَسَاطَةِ. وحولَ هذا الموضوعِ قَدَّمَ جون أوستن بعضَ الأمثلةِ المُثيرةِ. خُذِي الجُمْلَةَ: تَبْعُدُ نِيويوركُ عن بوسطنِ مِئَتِي ميل. أَصَادِقَةٌ هِيَ أم زائِفَةٌ؟ إِنْ كَانَتْ الإِفَادَةُ تُعَدُّ إجابةً عن سَوَالٍ تَسْأَلِيْنَهُ لِتَعْرِفِي الوقتَ الَّذِي سَيَأْخُذُهُ مِنْكَ الذَّهَابُ بِالسَّيَّارَةِ، أَهو أربَعُ سَاعَاتٍ أو أربَعَةُ أَيَّامٍ، فَهِيَ

صادقةً. وأما إن لم يَكُنْ لديكِ إِلَّا عَشْرَةُ «جالونات» من الغاز، وأنا أعْرِفُ أَنَّ سَيَّارَتَكَ تَقْطَعُ عِشْرِينَ مِيلًا بِكُلِّ «جالون»، وتُريدينَ أَنَّ تعرفني هل في مُسْتَطَاعِكَ أَنْ تذهبي مِنْ بوسطن إلى نيويورك مِنْ دُونِ تَوَقُّفٍ، فَإِنَّ الإِفَادَةَ غَيْرُ صادقةٍ إِنْ كَانَتْ الْمَسَافَةُ الْحَقِيقِيَّةُ مِئَتِي مِيلٍ وَعَشْرَةَ أُمَيَالٍ. وَهَلُمَّ جَرًّا.

وهكذا فَإِنَّ كُلَّ أَنْوَاعِ الاعتباراتِ تُحَدِّدُ شُرُوطَ صِدْقِ إِفَادَةٍ مَا، وَتَتَجَاوَزُ فَعْلِيًّا مَجَالَ النَّحْوِ.

هَبِي أَنَّنِي أَقُولُ: دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ تَنْخَفِضُ. لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ بِدَقَّةٍ مَا يَعْنِي ذَلِكَ مِنْ دُونِ الْإِفْرَاضَاتِ الْقَبْلِيَّةِ غَيْرِ اللَّغَوِيَّةِ. فهل يَعْنِي أَنَّ دَرَجَةَ الْحَرَارَةِ أَقَلُّ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ خَمْسِ دَقَائِقٍ؟— ذَلِكَ جَائِزٌ. أَمَّا إِنْ أَنَا قُلْتُ: إِنَّ دَرَجَةَ الْحَرَارَةِ تَنْخَفِضُ، قَاصِدًا أَنَّنَا مَاضُونَ نَحْوَ عَصْرِ جَلِيدِي، فَإِنَّ إِفَادَتِي حِينَئِذٍ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صَادِقَةً حَتَّى إِنْ كَانَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ تَتَصَاعَدُ مُحَلِّيًّا. وَحَتَّى فِي أَبْسَطِ الْجُمَلِ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا أَنْ نُحَدِّدَ شُرُوطَ الصِّدْقِ، خَارِجَ مُحِيطِ الِاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ. وَعَلَيْنَا أَيْضًا أَنْ نُمَيِّزَ الْمُعْتَقَدَاتِ الثَّابِتَةَ، وَالْمُعْتَقَدَاتِ الْمُؤَقَّتَةَ، إلخ.

م. ر.: هل يَسْتَطِيعُ المرءُ أَنْ يَخْتَصِرَ مَا كُنْتَ قُلْتَهُ مِنْ خِلَالِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ تَصَوُّرَيْنِ لِعِلْمِ الدَّلَالَةِ: الْأَوَّلُ «امتداديّ **extensional**» قُدِّمَ فِي «الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ»، وَعَالَجَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ عُنَاوَيْنِ مُحَدَّدَةٍ فِي اللَّغَةِ وَأَشْيَاءَ خَارِجِيَّةٍ (تَكَرَّرَ الصَّدَارَةُ، مَثَلًا)؛ وَالثَّانِي «تَكثُّفِيّ **intensional**»، يَدَّعِي تَفْسِيرَ كُلِّ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ مِنْ دُونِ الْإِحْتِكَامِ إِلَى مَعْرِفَتِنَا لِلْعَالَمِ؟— وَفِي هَذَا الشَّأْنِ، يَنْتَمِي عَمَلُ (رَاي جَاكَنْدُوف **Ray Jackendoff**) إِلَى تَصَوُّرِ «الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ».

ن. ت.: لَسْتُ فَعْلًا مُوَافِقًا عَلَى ذَلِكَ التَّمْيِيزِ. وَهَكَذَا أُوَافِقُ كَاتِرَ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْعِلَاقَاتِ التَّحْلِيلِيَّةِ مُوجُودٌ بَيْنَ التَّعْبِيرَاتِ اللَّغَوِيَّةِ، وَأَنَّ بَعْضَ الْحَقَائِقِ تَصْمُدُّ

وَحَدَّهَا بِفَضْلِ الْوَقَائِعِ اللَّغَوِيَّةِ: مِنْ ذَلِكَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ: «أَقْنَعْتُهُ بِالذَّهَابِ» وَ: «يَنْوِي الذَّهَابَ»، الَّتِي ذَكَرْتُهَا مِنْذُ أَمَدٍ قَصِيرٍ. وَفِي حَالَاتٍ كَهَذِهِ، نَتَعَامَلُ مَعَ خَاصِّيَّاتٍ لِلتَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ «تَكثُّفِيَّةٍ»، وَهِيَ حَقًّا جُزْءٌ مِنَ «النَّحْوِ»، فِي مَعْنَى طَبِيعِيٍّ لِلتَّبْعِيرِ. وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يَنْطَبِقُ عَلَى مَا يُسَمَّى الْعِلَاقَاتِ الْجَذَرِيَّةَ thematic relations («فَاعِلٍ»، «هَدَفٍ»، إلخ) مُطَوَّرَةً عَلَى نَحْوِ مُثِيرٍ جَدًّا فِي عَمَلٍ جَاكَنْدُوفِ الَّذِي كُنْتُ قَدْ ذَكَرْتِهِ. وَيَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ مِنْ أَعْمَالِ جَاكَنْدُوفِ مَنْسَجَمٌ حَقًّا مَعَ بَرْنَامَجِ «الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ»، لَكِنَّهُ طَوَّرَ نَظْرِيَّةَ دِلَالِيَّةٍ فِي وَجْهَةٍ لَمْ تُفْتَرَضْ أَوْ تُقْتَرَحَ هُنَاكَ فِي آيَةِ صُورَةٍ.

م. ر.: هذه هي التي تُسَمَّى «عِلْمَ الدَّلَالَةِ التَّفْسِيرِيِّ»... أَمَّا حَدِيثًا، فَقَدْ اسْتَبَدَلْتُ بِِ «التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ» عِبَارَةً «الشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ». هَلْ لَكَ أَنْ تُوضِحَ طَبِيعَةَ هَذَا التَّغْيِيرِ؟

ن. ت.: اسْتَعْمَلْتُ عِبَارَةً «الشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ»، عَلَى الْحَقِيقَةِ، عَلَى نَحْوِ مُخْتَلَفٍ عَنْ مَعْنَاهَا الْفَصِيحِ، فِي سَبِيلِ أَنْ أَقَابَلَهَا مَعَ «التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ». وَاسْتَعْمَلْتُ عِبَارَةً «شَكْلٍ مَنْطِقِيٍّ» لِأَدَلِّ عَلَى مَسْتَوًى مِنَ التَّمْثِيلِ اللَّغَوِيِّ يُدْمِجُ كُلَّ الْخَاصِّيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ الَّتِي تُحَدِّدُهَا عَلَى نَحْوِ دَقِيقِ الْقَوَاعِدِ اللَّغَوِيَّةِ. إِنَّ تَحْدِيدَ الْعِلَاقَةِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ «شَكْلِ مَنْطِقِيٍّ» مُحَدَّدٍ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَنَظْرِيَّةٍ وَوَصَفٍ دِلَالِيَّيْنِ، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ حَتْمًا إِسْهَامَاتٍ أَنْظِمَةٍ إِدْرَاكِيَّةٍ أُخْرَى - يَبْدُو مَسْأَلَةً عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ. وَيَتَضَمَّنُ الْعَمَلُ الْجَدِيدُ بَعْضَ الْاِقْتِرَاحَاتِ الْمُثِيرَةِ فِي هَذَا الشَّانِ.

م. ر.: وَعَلَى قَدَرٍ مَا لِلْمَرْجِعِ الْمُشْتَرَكِ co-reference مِنْ أَهْمِيَّةٍ - أَقْصَدُ مَسْأَلَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالضَّمَائِرِ وَالْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنِ اللَّغَةِ - تَكُونُ بَعْضُ الْقَوَانِينِ لُغَوِيَّةً، وَتَنْتَمِي قَوَانِينُ أُخْرَى إِلَى الْخِطَابِ.

ن. ت.: في حالة المَرْجِعِ المُشْتَرَكِ، تُفْهَمُ الْقَضِيَّةُ جَيِّدًا عَلَى نَحْوِ يُمْكِنُ قَبُولُهُ. حَيْثُ تَوْجَدُ مَبَادِئُ لُغَوِيَّةٌ تَمَامًا. فَفِي قَوْلِنَا مَثَلًا: John sees him^(*)، لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ «John» و«him» يَرْجِعَانِ إِلَى الشَّخْصِ نَفْسِهِ، أَيْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential (مَعَ أَنَّ الْمُحَقَّقَ أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ أَكْثَرَ مِنْ الْمَرْجِعِ الْمُشْتَرَكِ الْفَعْلِيِّ الَّذِي هُوَ مَجَالُ الْمُنَاقَشَةِ). وَتِلْكَ قَاعِدَةٌ لُغَوِيَّةٌ. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، فَإِنَّهُ فِي قَوْلِنَا: «John expected him to leave»^(**) لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ «John» و«him» مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential. خُذِي حَالَةَ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا مِثْلَ: «I seems to John to like him»^(***)، هُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ «John» و«him» مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential، أَمَّا فِي قَوْلِنَا: John seems to me to like him^(****)، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ «John» و«him» مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential. وَيَبْدُو فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنَّ نَتَعَامَلُ مَعَ مَبَادِئَ لِنَحْوِ الْجُمْلَةِ، تُلَبِّي الشَّرُوطَ الْعَامَّةَ الَّتِي تَحْكُمُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَبَادِئِ.

م. ر.: فِي الْفَرَنْسِيَّةِ نَجِدُ اخْتِلَافًا مُمَازِلًا تَقْرِيبًا فِي: Marie regarde

pierre le coiffer، حَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ Pierre و Le

مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential، فِي حِينِ أَنَّهُ فِي قَوْلِنَا: Pierre

regarde Marie le coiffer، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ Pierre

و Le مَرْجِعًا مُشْتَرَكًا co-referential.

*- جُون يَرَاهُ.

** - جُون تَوَقَّعَ لَهُ أَنْ يُغَادِرَ.

*** - أَبْدُو لِي جُون أَنَّنِي أَشْبَهُهُ.

**** - جُون يَبْدُو لِي يَشْبَهُهُ.

ن. ت.: في هذه الحالات جميعاً نَمَّة شَبَكَةٌ مِنَ العلاقاتِ تُحَدِّدُ ما يمكنُ أن يكونَ مَرْجِعاً مُشْتَرَكاً co-referential وما لا يمكنُ أن يكونَ، وهذه العلاقاتُ تَحْكُمُها مبادئُ تُشكِّلُ جزءاً مِنَ النّحو. وَمِنْ ذلكَ مثلاً أَنَّ الاختلافَ بَيْنَ: «He believes Pierre is intelligent» و: «Pierre believes he is intelligent» intelligent راجعٌ إلى ما يُسَمَّى علاقاتِ «إصدارِ الأمرِ relations of command: يكونُ المَرْجِعُ المُشْتَرَكُ co-reference مُستحيلاً إن جُعِلَ الضَّميرُ «أعلى» مرتبةً في بِنْيَةِ العبارةِ مِنْ مَرْجِعِهِ غيرِ الضَّميريِّ. وفي الحالةِ الثانيةِ، يُوجَدُ Pierre في موقعِ ثانويِّ، وَمِنْ ثَمَّ «أدنى» مِنْ «He»، حَيْثُ لا يمكنُ أن يكونا مَرْجِعاً مُشْتَرَكاً co-referential، في المعنى المُراد هنا.

م. ر.: في مُعْظَمِ الحالاتِ تُقَدِّمُ الإنجليزِيَّةُ والفرنسيَّةُ حقائقَ مُتشابهةً. وفي الحالاتِ الأُخرى، الحالاتِ الأكثرِ دَقَّةً، تختلفُ اللّغتانِ. ففي الإنجليزِيَّةِ، مثلاً، يستطيعُ الإنسانُ أن يقولَ: تصوّرْ هاري أَنَّهُ كانَ مُستحيلاً أن يغسِلَ نَفْسَهُ في ظُروفٍ كهذه «Harry thought it was impossible to wash himself in such conditions» حَيْثُ نَعوُدُ «Himself» إلى «Harry». أمّا في الفرنسيَّةِ، فإنَّ التَّرجِمَةَ الحَرْفِيَّةَ لِهَذِهِ الجُمْلَةِ ستَكُونُ غَرِيبَةً جَدًّا. ولا محيدَ عن إضافةِ ضَميرٍ في العبارةِ الثَّانويَّةِ: Heuri pensa qu'il LUI était impossible . de se laver (LUI-même) dans telles conditions

ن. ت.: لِمَ يَكُونُ الأمرُ كَذَلِكَ؟ - هذه قضايا مُثيرةٌ. ولا يمكنُ أن يَعْرِفَ الإنسانُ ما تُشيرُ إليه هذه الظَّاهراتُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ المبادئُ التي تفسِّرُها. وينتمي هذا كُلُّهُ إلى الصَّنَفِ الأوَّلِ مِنَ علاقاتِ تَكَرُّارِ الصَّدارةِ.

في الصَّنَفِ الثَّانِي تكونُ عِنْدَنَا مُشكِلةٌ تَحْدِيدِ المَرْجِعِ في كلماتٍ مِثْلِ «الآخَرِينَ The others» أو حَتَّى «هو He» في جُمْلَةٍ مِنْ طِراز: قد وَصَلَ،

فَسَرَّ بَعْضُهُمْ، لَكِنَّ الْآخَرِينَ كَانُوا مُسْتَائِينَ ... He has arrived, some ... reacted well, but the others were angry التَّحْوِيَّةُ (أو عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ دِقَّةٍ، لَيْسَتْ مَبَادِي نَحْوِ الْجُمْلَةِ)، هِيَ الَّتِي تَحْكُمُ عِلَاقَاتِ هَذِهِ الصَّمَائِرِ بِمَا تَعُودُ إِلَيْهِ أَوْ يُقْصَدُ أَنْ تُشِيرَ إِلَيْهِ. وَثَمَّةَ عَدَدٍ مِنَ التَّقَالِيدِ الْآخَرَى فِي الْخِطَابِ غَيْرِ مَبَادِي نَحْوِ الْجُمْلَةِ. فَإِنَا قُلْتُ - وَأَنَا أُرِيكَ هَذِهِ الصُّورَةَ «الفوتوغرافية» - : إِنَّهُ طِفْلٌ وَسِيمٌ، فَسَيَكُونُ ذَلِكَ صَائِبًا تَمَامًا؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ حَقًّا أَنْ أُقَدِّمَ هَذَا الطِّفْلَ لَكَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَفِي هَذَا السِّيَاقِ: نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ نَنْظُرُ إِلَى صُورَةِ فُوتُوغَرَفِيَّةٍ عَلَى طَاوِلَتِي، وَنَشْتَرِكُ فِي بَعْضِ الْاِفْتِرَاضَاتِ حَوْلَ الصُّورِ الْفُوتُوغَرَفِيَّةِ، خَاصَّةً الصُّورَ الَّتِي يَضَعُهَا الْمَرْءُ عَلَى طَاوِلَتِهِ؛ وَتَتَخِيلِينَ أَنْتِ أَنَّ هَذِهِ صُورَةٌ لِابْنِي، وَإِلَّا مَا كَانَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَهَكَذَا. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّهُ فِي سِيَاقِ أَكْثَرِ اتِّسَاعًا وَغَيْرِ لُغَوِيٍّ وَحَافِلٍ بِاعْتِقَادَاتٍ شَتَّى، تَكُونُ إِفَادَتِي مُنَاسِبَةً تَمَامًا. لَكِنَّ تَقَالِيدَ الْمَرْجِعِ هَذِهِ لَيْسَتْ جُزْءًا مِنَ النَّحْوِ. وَسَيَتَطَلَّبُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا نَظْرِيَّةً غَنِيَّةً، تُدْمِجُ عَدَدًا مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْإِدْرَاكِيَّةِ، الَّتِي مِنْهَا افْتِرَاضَاتُ بِشَأْنِ مَا يَتَوَقَّعُ الْمَرْءُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى طَاوِلَتِي. وَذَلِكَ كُلُّهُ ذُو تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ فِيمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمِّيَهُ بَعْضُهُمُ التَّمَثِيلَ الدَّلَالِيَّ الْكَامِلَ.

وَابْتِغَاءَ تَطْوِيرِ الْاِسْتِنَاجَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ الْإِفَادَةِ، عَلَيْنَا أَنْ نَدْرُسَ «مَرْجِعَ» الصُّورِ وَكُلَّ الْاِفْتِرَاضَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِ الَّذِينَ مِنَ الرَّاجِحِ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْهُمْ، وَعِلَاقَاتِهِمْ بِي، إلخ. وَيَسْتَلْزِمُ الْمَرْجِعُ الْفِعْلِيَّ لِلتَّعَابِيرِ اللَّغَوِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ تَفَاعَلَ الْأَنْظِمَةِ الْإِدْرَاكِيَّةِ. وَالنَّحْوُ وَاحِدٌ فَحَسْبُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ. وَيَصْدُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ تَقْرِيبًا عَلَى مُعْظَمِ مَفْهُومَاتِنَا الَّتِي تُدْخَلُ فِي عِمَارِ أَنْظِمَةِ تَصَوُّرِنَا لِطَبِيعَةِ الْعَالَمِ؛ وَتَدْخُلُ هَذِهِ الْأَنْظِمَةُ فِي ضَرْبٍ مِنَ التَّمَثِيلِ الدَّلَالِيِّ لَا بَدَّ مِنْهُ لِتَفْسِيرِ الْمَرْجِعِ الصَّحِيحِ، وَشُرُوطِ الصَّدْقِ، وَالْأَفْعَالِ الْكَلَامِيَّةِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّفْسِيرِيُّ وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيُّ:

م. ر.: رأينا منذ قليل أَنَّ الْمُكَوَّنَ الدَّلَالِيَّ عِنْدَ كَاتَز، الَّذِي صَاغَهُ عَامَ ١٩٦٣م، مَعَ رُجُوعِهِ إِلَى نِظَامٍ دِلَالِيٍّ شَامِلٍ، قَدْ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَلَدَ، قَرِيبًا مِنْ نِهَآيَةِ السَّتِينِيَّاتِ، اتِّجَاهًا «اِنْشِقَاقِيًّا» مُعَارِضًا لِلنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ فِي شَكْلِهِ «الْقِيَاسِيِّ»: عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيِّ. وَنَتِيجَةً سَوْءٍ فَهْمٍ كَبِيرٍ أَيْضًا نُسِبَ إِلَيْكَ عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيِّ هَذَا. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِاخْتِصَارٍ إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تَرْفُضُ اسْتِقْلَالَ النَّحْوِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الدَّلَالَةِ، وَتَزْعُمُ أَنَّ الْبُنْيَةَ الْعَمِيقَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَتطَابَقَ وَالتَّمثِيلَ الدَّلَالِيَّ.

أَمَّا الْيَوْمَ، فَإِنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيِّ فِي شَكْلِهِ الْأَوَّلِيِّ قَدْ أَهْمَلَ فَعَلِيًّا (إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ صِيغَةٌ لِإِعَادَتِهِ مِنْ خِلَالِ تَطْوِيرِهِ)، مَعَ أَنَّ كُلَّ أَنْوَاعِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ كُلَّ أَنْوَاعِ الْأَشْيَاءِ يَظْلُونَ يُسَمِّونَ أَنْفُسَهُمْ «عُلَمَاءَ دِلَالَةِ تَوْلِيدِيَّةٍ». وَفِي الْبَدْءِ كَانَ أَنْصَارُهُ الرَّئِيسُونَ بَوَسْتَال،

وَمَكْكَوَلِي، وَرُوس، وَلاَكُوف... وَكَذَا فِيلْمُور **Fillmore**.

كَانَ زِيًّا ظَلَّ موجودًا فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ الْأُورُوبِيَّةِ كَأَلْمَانِيَا وَفَرَنْسَا.

وَيَلُوحُ لِي أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ قَدْ أَعَادَتْ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَصَرٍ التَّقَائِصَ الَّتِي عِبَتْ الْبِنْيَوِيَّةَ بِسَبَبِهَا، وَالْمُتَمَثِّلَةَ فِي إِغْفَالِ أَهْدَافِ عِلْمِ اللُّغَةِ الَّتِي حَدَّدَتْهَا: إِضْوَاحُ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ. فَقَدْ نَسِيَتْ أَنَّهَا تَتَعَامَلُ مَعَ شَيْءٍ حَقِيقِيٍّ.

ن. ت.: لَدَيَّْ شَعُورٌ بِأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ قَدْ نَحَا نَحْوَ الْعُودَةِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ الْوَصْفِيَّةِ **descriptivism**. وَعِنْدَ فِيلْمُورِ يَبْدُو هَذَا وَاضِحًا حَقًّا. وَفِي مَقَالَةٍ مُوسَمَةٍ، فِيمَا أَحَسَبْتُ، بِ «التَّصْنِيفِ الْجَدِيدِ **The New Taxonomy**»، يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ تَصْنِيفِيٌّ، وَصَفِيٌّ، مُصَيِّبٌ فِي ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَا يُهْمُهُ فَلَيْسَ لَدَيَّْ انْتِقَادٌ حَقًّا؛ زِيدِي عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ يَقُومُ بِعَمَلٍ مِمْتَازٍ فِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْوَصْفِيِّ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ مَرَّةً أُخْرَى إِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَقًّا خِلَافٌ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَدَى إِنْسَانٍ إِزَاءَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، مِثْلَمَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَقًّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَيُّ خِلَافٍ بَيْنَ إِنْسَانٍ

يَعْمَلُ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ وَآخَرَ يَبْحَثُ عَنْ مَبَادِيءِ «بَيُولُوجِيَّةِ». فَهَذَا مِنْ اهْتِمَامَانِ مُتَبَايِنَانِ. وَيُمْكِنُ افْتِرَاضُ أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ صَاحِبِهِ شَيْئًا.

وَفِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ لَا يُحَاوَلُ فِيلْمُورُ إِنْشَاءَ نَظَرِيَّةٍ دِلَالِيَّةٍ عَامَّةٍ، فَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يُقِيمَ عَمَلَهُ عَلَى آيَةِ نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ شَامِلَةٍ وَوَاضِحَةٍ، إِنْ أَنَا فَهَمَّتُهُ فَهَمًّا صَحِيحًا. بَلْ يُنْتِجُ مَادَّةً ذَاتَ قِيَمَةٍ أَكْبَرَ أَوْ أَصْغَرَ، يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ النِّظَرِيَّةُ الدِّلَالِيَّةُ قَادِرَةً عَلَى الْإِفَادَةِ مِنْهَا فِي وَقْتٍ مَا.

أَمَّا «عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّةِ»، فَإِنَّهُ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ نُنَاقِشَهُ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ الْآنَ، فِيمَا أَعْلَمُ، يُدَافِعُ عَنْ مَوْقِفِ نَظَرِيٍّ جَلِيٍّ تَحْتَ ذَلِكَ الْعِنُونِ. وَلَيْسَ هُوَ الْآنَ سِوَى تَمْيِيزِ أَكْثَرِ خَلْخَلَةٍ يَتَضَمَّنُ أَعْمَالَ عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ. وَعَلَى قَدْرِ مَا كَانَتْ النِّظَرِيَّةُ قَدْ صِيغَتْ بِوَضُوحٍ يَبْدُو، عَلَى الْجُمْلَةِ، أَنَّهَا قَدْ أَهْمَلَتْ - عَلَى الْأَقْلَى عَلَى قَدْرِ مَا أَعْرِفُ - مِنْ جَانِبِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَاغُوهَا. وَيَعْمَلُ بَوَسْتَالِ الْآنَ أَشْيَاءَ مُخْتَلَفَةً تَمَامًا. وَلَا أَعْرِفُ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْآنَ عَنْ عِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّةِ، لَكِنْ عَمَلَهُ الْجَدِيدَ - نَحْوَ الْعِلَاقَاتِ relational grammar - يَبْدُو لِي فِي آيَةِ حَالٍ بَعِيدًا عَنْهُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَبْدُو مُنْحِيًّا مَسْأَلَةَ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالشَّكْلِ، إِنْ كُنْتُ قَدْ فَهَمْتُ عَمَلَهُ الْأَحْدَثَ عَهْدًا فَهَمًّا صَحِيحًا، لَكِنْ ذَلِكَ غَيْرُ مُحَقَّقٍ.

أَمَّا جُونِ رُوسِ John Ross، الشَّخْصِيَّةُ الْمُهِمَّةُ الْآخَرَى، فِي تِلْكَ الْحَرَكَةِ، فَيَعْمَلُ فِيمَا يُسَمِّيهِ الْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ غَيْرَ الْمُنْفَصِلَةِ non-discrete grammar، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَى مَفْهُومَاتٍ مُتَدَرِّجَةٍ بَدَلًا مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُنْفَصِلَةِ.

م. ر.: تِلْكَ نَظَرِيَّةُ «السَّقْحِ squish»، حَيْثُ لَا تُحَدِّدُ الْكَلِمَةُ مِنْ خِلَالِ صِنْفِهَا، بَلْ تَكُونُ جُزْءًا صَغِيرًا مِنْ اسْمٍ، بَعْضًا مِنْ فِعْلٍ، أَثَارَةٌ فَحَسْبُ مِنْ صِفَةٍ...

ن. ت.: وَهَكَذَا. وَهُوَ أَيْضًا مُهْتَمٌّ بِتَفَاعُلِ «التَّدَاوُلِيَّةِ pragmatics»،

والتَّحْوِ، وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ. ولذلك فهو غيرُ عابئٍ بِعِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ، خاصَّةً في المعنى المُبَكِّرِ لهذا المُصطلح. وأظنُّه، فوقَ ذلك، يرى البحثَ عن نظريَّةٍ واضحةٍ أمراً سابقاً لِأوانِه أو حتَّى خاطئاً.

ويعملُ لاكوف Lakoff عملاً مُشابهاً، حيثُ يعملُ في «التَّحْوِ الإدراكيّ»، الذي يدمجُ اللُّغَةَ في أنظمتٍ غيرِ لغويَّة. ولستُ أرى أيَّةَ نظريَّةٍ في المَشْهَدِ هناك. وأظنُّ، على الجُمْلَةِ، غيرَ مُستيقنٍ بِشأنِ هذه التناولاتِ الأخيرة. فهي لا تُميِّزُ الأشياءَ التي تبدو لي ممكنةً التَّمييزِ بِسهولةٍ، كتمييزِ الكِفَايَةِ النَّحْوِيَّةِ مِنَ العَوَامِلِ الأخرى التي تتدخلُ في السلوك اللُّغوي. ويُحدِثُ هذا صَرْباً مِنَ اللَّبْسِ. أمَّا بالنسبةِ إلى البقيَّة، فليس ثَمَّةَ ما يُناقشُ؛ لِأنَّه ليس هناك الآنَ نظريَّةٌ مُستقلَّةٌ تحمِلُ عنوان «عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ».

فمن أين يأتي، والحالُ كذلك، مُصطلحُ «عِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ»؟ - إنَّه موقفٌ عامٌّ أو وَجْهَةٌ نظرٍ عَبَّرَ عنها لاكوف، مثلاً، في مقالٍ عنوانُه «عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ»، أو بوستال في مقالٍ له عامَ ١٩٦٩م يحمِلُ عنوان «النَّظريَّةُ الفُضْلَى The Best Theory». لكنَّه ليس هناك، على الأقلِّ فيما أعلمُ، مَنْ سَلَّمَ بِهذه النَّظريَّةِ، التي هي في صُورتِها المُقدَّمةِ خاويةٌ فعلاً. وقد كان ما أَكَدَّتْهُ النَّظريَّةُ أَنَّهُ يُوجَدُ هناك تَمَثُّلاتٌ لِلْمَعْنَى، وتَمَثُّلاتٌ لِلشَّكْلِ، وعلاقاتٌ بينهما. يُضافُ إلى ذلك، أنَّ هذه العلاقاتَ بينَ الصَّنَيفَيْنِ مِنَ التَّمَثُّلاتِ كانتُ اعتباطيَّةً فعلياً؛ وقد اقترحَ لاكوف، في المقالِ الذي أَشْرْتُ إليه تَوّاً، تقييداتٍ constraints^(*)

* - هي تقييداتٌ على تطبيقِ القواعدِ النَّحْوِيَّة. وفي النَّظريَّةِ المعياريةِ لا تنطبِقُ هذه التقييداتُ، إلَّا على الانتقالِ مِنْ بِنْيَةٍ في اشتقاقٍ إلى البِنْيَةِ التَّالِيَةِ. أمَّا عندَ لاكوف فتُطبَّقُ على أيَّةِ بِنْيَةٍ، ممَّا يجعلُها اعتباطيَّةً وخاصَّةً. انظر ج. لاكوف، «في علم الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ On Generative Semantics»، في د. شتاينبرغ و ل. جاكوبوفتس، علم الدَّلَالَةِ، القارئ المتعدِّد التَّخَصُّصات Semantics: An Interdisciplinary Reader (كيمبردج، ماسوشوستس، مطبعة MIT، ١٩٧١م).

اشتقاقية اعتبارية - هي قواعد اعتبارية، على الحقيقة. وإن كان كل ما يُقدَّم على أنه نظرية هو أنه يُوجد هناك علاقات بين ضرب من تمثيل المعنى والشكل، فإنه من الصعب حينئذ أن نتجادل حول ذلك.

ومثلما أسلفت، ما كان يحدث في هذه الأعوام قد أسيء تفسيره غالباً. والحق أن النظرية المعيارية، كما قدّمت في «المظاهر Aspects» مثلاً، كان مشكوكاً فيها منذ نشأتها الأولى. فمن وجهة أولى، لوحظ في الكتاب نفسه (الذي مضى إلى المطبعة عام ١٩٦٤م) أن بعض مظاهر التمثيل الدلالي على الأقل، كالمظاهر المرتبطة بالموضوع والتفسير، تبدو مُستلزمة البنية السطحية أكثر من البنية العميقة، وأن البحث اللاحق حول فاعلية البنية السطحية في تحديد معنى جملة من الجمل قاد إلى ما قد سُمي «النظرية المعيارية الموسعة The Extended Standard Theory». ومن وجهة أخرى، أشرت في «المظاهر» إلى أنه كان هناك إمكانيات متباينة جداً، ومن ذلك مثلاً، أن أحد الأعمال لتوماس بيفر Thomas Bever وبيتر روزنباوم Peter Rosenbaum، قد اقترح فيه طمس فعلي للتمييز بين القواعد التحويلية والدلالية، الفكرة التي قادَتْ أخيراً إلى علم الدلالة التوليدي. إن صنف النظريات التي يمكن أن تُطوّر بوصفها بدائل للنظرية التي تُقدّمها «المظاهر» كبير، ويشار هناك إلى أنه سيكون من السابق لأوانه أن نستبعدّها تحت أية إدانة. وكان أول من وجّه انتقاداً جوهرياً إلى النظرية المعيارية، وخير من فعل هذا على قدر ما أتذكر، راي جاكندوف Ray Jackendoff - وينبغي أن يكون ذلك عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥م. وقد أكد أن البنية السطحية كان لها في التمثيل الدلالي إسهام أكبر كثيراً مما كان مُفترضاً؛ وإن كان الأمر كذلك، فإن الفرضية المعيارية، التي وفقاً لها حدّدت البنية العميقة هذا التفسير تحديداً تاماً، زائفة. ومن ذلك مثلاً أنه من خلال دراسة تفاعل النقي

negation وتَسْوِيرِ القضايا المنطقيّة quantification ضِمْنَ الجُمْلَةِ، أَظْهَرَ جاكندوف أَنَّ مَوْقِعَهُمَا النَّسْبِيَّ فِي الْبِنْيَةِ الْعَمِيقَةِ لِلْجُمْلَةِ كَانَ حَاسِمًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى التَّفْسِيرِ interpretation^(*)؛ وَأَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ أَوْجَدَهُ رَاي دُورْتِي Ray Dougherty وَآخَرُونَ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَلَاخَظَاتُ طَبْعًا عَلَى قَدْرِ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ عِنْدِي. وَقَدْ قَادَتْ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ اللُّغَوِيِّينَ إِلَى تَطْوِيرِ مَا سُمِّيَ فِيمَا بَعْدُ «النَّظَرِيَّةَ الْمُعْيَارِيَّةَ الْمُوسَّعَةَ». لَكِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ إِنَّهُ عَلَى

*- الأمثلة التي جاء بها المؤلف هي: Many arrows did not hit the target, but many did hit it (كثيرٌ من الأسهم لم يُصِبِ الهدفَ، لكنَّ كثيرًا منها أصابه). Not many arrows hit the target, but many have hit it (ليس كثيرٌ من الأسهم يصيبُ الهدفَ، لكنَّ كثيرًا منها قد أصابه). Not many demonstrators were arrested by the police (ليس كثيرٌ من المتظاهرين اعتقلهم البوليس). Many demonstrators were not arrested by the police (يعتقلهم البوليس).

وإنَّ مِثَالًا مشهورًا آخَرَ لِتَغْيِيرِ الْمَعْنَى الْمُعْتَمِدِ عَلَى مَوْقِعِ أَسْوَارِ القضايا المنطقيّة quantifiers فِي الْبِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ، تُقَدِّمُهُ ثَنَائِيَّةُ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ - الْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ:

Many people are buying the same brands of cigarettes. (كثيرٌ من النَّاسِ يشترون الأصنافَ نفسَهَا مِنْ لُفَافَاتِ التَّبَغِ). The same brands of cigarettes bought by many people. (أصنافُ لُفَافَاتِ التَّبَغِ نَفْسُهَا تُشْتَرَى مِنْ جَانِبِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ النَّاسِ). وَيُمْكِنُ أَنْ تُفَسَّرَ الْحَالُ الْأَوَّلِيُّ بِالْقَوْلِ إِنَّ النَّاسَ مُتَعَلِّقُونَ بِصِنْفِهِمْ؛ وَتُفَسَّرَ الثَّانِيَةُ بِأَنَّ بَعْضَ الْأَصْنَافِ أَكْثَرُ نَجَاحًا.

وإنَّ أَمْثَلَةً مُشَابِهَةً، وَإِنْ تَكُنْ أَقْلَ إِقْنَاعًا، أُشِيرُ إِلَيْهَا سَابِقًا فِي «الْبِنْيَةِ النَّحْوِيَّةِ» وَ«LSLT»، وَهِيَ تُشِيرُ أَيْضًا إِلَى مَبْلَغِ تَأْثِيرِ الْبِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ فِي التَّفْسِيرِ الدَّلَالِيِّ. عَلَى أَنَّ جَاكَنْدُوفَ كَانَ الْأَوَّلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ عَلَى نَحْوِ مُنْظَمٍ، وَمِنْ ثَمَّ أَدْمَجَهَا فِي النَّظَرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ اقْتِرَاحِ الْمَبَادِئِ التَّفْسِيرِيَّةِ. [المؤلف].

قَدَرِ ما كَانَتِ النَّظَرِيَّةُ الْمِيعَارِيَّةُ مُكَيَّفَةً لِمُلَاءَمَةِ وَظِيفَةِ الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ، اتَّخَذَ آخَرُونَ سَبِيلًا مُعَاكِسَةً، مُعَوِّلِينَ عَلَى حَدْسٍ مُخْتَلَفٍ: فَقَدْ وَطَّدُوا الصَّلَةَ بَيْنَ التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ وَالْبُنْيَةِ الْعَمِيقَةِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنْهَمَا صَارَا شَيْئًا وَاحِدًا. وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ هُوَ عِلْمٌ دِلَالَةٌ تَوَلِيدِيٌّ. وَهَكَذَا فَإِنَّ الْمَوْقِفَ الْأَسَاسِيَّ غَيْرَ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْفَرَضِيَّةَ الْمُسَهِّمَةَ فِي النَّظَرِيَّةِ الْمِيعَارِيَّةِ غَيْرَ صَحِيحَةٍ، كَمَا أَشْرُتْ مِنْذُ قَلِيلٍ.

وَوَفَّقًا لِذَلِكَ، فَإِنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ التَّوَلِيدِيَّ، ابْتِغَاءً إِدْمَاجٍ فَاعِلِيَّةِ الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ فِي تَقْرِيرِ التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ دُونَمَا إِهْمَالٍ لِلتَّطَابُقِ بَيْنَ الْبُنْيَةِ الْعَمِيقَةِ وَالتَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ، قَدَّمَ فِكْرَةَ «الْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ»، أَيِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي تَرْتَبُطُ الْمَرَاحِلَ غَيْرَ الْمُتَجَاوِرَةِ فِي الْإِشْتِقَاقِ؛ وَعَلَى نَحْوِ مُحَدَّدِ تِلْكَ الَّتِي تَرْتَبُطُ التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ التَّجْرِيدِيِّ الْأَسَاسِيِّ وَخَاصِّياتِ الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ الَّتِي تَتَدَخَّلُ فِي تَحْدِيدِ الْمَعْنَى.

وَالْحَظِّي أَنْتِ أَنَّ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ الشَّامِلَةَ الَّتِي تَرْتَبُطُ الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ بِالتَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ، وَالَّتِي يَفْتَرِضُهَا عِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوَلِيدِيُّ، مُشَابِهَةٌ تَمَامًا، إِنْ لَمْ تَكُنْ مُطَابِقَةً، لِلْقَوَاعِدِ التَّفْسِيرِيَّةِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا جَاكَنْدُوفُ وَآخَرُونَ. وَقَدْ اقْتَرَحَ عَلَى نَحْوِ سَرِيعٍ أَنَّ تِلْكَ الْقَوَاعِدَ الشَّامِلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَظْهَرَ عَلَى نَحْوِ عَامٍّ فِعْلًا فِي النَّحْوِ، وَفِي عِلْمِ الْأَصْوَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَكَذَا فِي بِنَاءِ الْجُمْلَةِ وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ. وَأَنَّ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي تَفْسَحُ الْمَجَالَ لِلْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ، لَهَا إِمْكَانِيَّةٌ وَصْفِيَّةٌ هَائِلَةٌ. وَكَمَا أَسْلَفْتُ، فَإِنَّهُ ابْتِغَاءً تَنَاوُلِ نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ «تَفْسِيرِيَّةٍ»، أَوْ - مَا هُوَ الشَّيْءُ نَفْسُهُ - تَفْسِيرِ إِمْكَانِيَّةِ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ، لَا بُدَّ مِنَ الْإِخْتِرَالِ الشَّدِيدِ لِصِنْفِ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ الْمَسْمُوحِ بِهَا. وَقَدْ كَانَ لِإِفْتِرَاضِ الْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ التَّأْثِيرِ الْمُعَاكِسِ تَمَامًا، وَهُوَ مِنْ ثَمَّ يُؤَلَّفُ خُطْوَةٌ بَغِيضَةٌ جَدًّا، وَيَنْبَغِي أَنْ تُدْعَمَ بِبَرَاهِينٍ حَقِيقِيَّةٍ. وَخِلَافًا لِذَلِكَ، لَا يَبْدُو لِي أَنَّ بُرْهَانًا مُقْنِعًا قَدْ قُدِّمَ لِنُصْرَةِ الْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ.

وقد سارتِ الحالُ نحوَ الأسوأ - إن كان ذلك ممكناً - حينَ بدأ عُلَماءُ الدَّلالةِ التَّولِيدِيَّونَ إدماجَ العوامِلِ غيرِ اللُّغويَّةِ في النُّحو: الاعتقادات، المواقف، إلخ. ولا يَخْرُجُ هذا عن أن يكونَ رَفْضاً لِلْمِثَالِيَّةِ الأُولِيَّةِ لِلُّغَةِ، بِوَصْفِها مادَّةً لِلدَّرْسِ. ويمكنُ القولُ بدهاءةٍ إنَّه لا يمكنُ إعلانُ أنَّ مِثْلَ هذه الخطوة غيرُ واردة، بل ينبغي أن تُثارَ تَجْرِيبيّاً، وإن ثبت أنَّها صحيحةٌ، فإنَّني سأستنتجُ أنَّ اللُّغَةَ خليطٌ مُشَوَّشٌ غيرُ جديرٍ بالدَّرْسِ - أمّا شخصيًّا فلستُ أعتقدُ أنَّ دليلاً أو برهاناً حقيقيًّا قد قُدِّمَ لِمَصْلَحةٍ مِثْلِ هذه الفَرَضِيَّةِ. لاحظي أنَّ المسألةَ ليستُ مسألةَ كَوْنِ الاعتقاداتِ أو المواقفِ، وغيرها، تقومُ بفعلٍ كبيرٍ في السُّلُوكِ اللُّغويِّ أو الأحكامِ اللُّغويَّةِ. وطبيعيُّ أنَّها تقومُ بهذا الفِعلِ، وليس من شكٍّ في ذلك البتَّة، المسألةُ هي إمكانيَّةُ تَطابُّقِ البِنَى الإدراكيَّةِ المُتميِّزة، التي تتفاعلُ في الاستعمالِ الواقعيِّ لِلُّغَةِ والأحكامِ اللُّغويَّةِ، والتي يكونُ النِّظامُ اللُّغويُّ إحداها.

والمُحَقَّقُ أنَّ كُلَّ ما في عالمِ الواقعِ يَدْخُلُ في التَّفَاعُلِ. لكنَّه إن كان على الفيزيائيِّ أن يدرِّسَ صُورَ حَرَكَةِ أناسٍ يمشونَ في أسفلِ الشَّارعِ، فإنَّه سَيُلْغِي كُلَّ أَمَلٍ بِالْعَمَلِ في الفيزياء. ونَعُودُ إلى مسألةِ العقلانيَّةِ والمِثاليَّةِ.

إنَّ مَنْ يَعْمَلُونَ في ميدانِ القَواعِدِ النُّحويَّةِ غيرِ المُنفَصِلَةِ، أو ما يَبْقَى مِنْ عِلْمِ الدَّلالةِ التَّولِيدِيِّ، لم يُقَدِّمُوا أيَّ سببٍ جوهريٍّ، فيما أَعْلَمُ، لِلاعتراضِ على المِثاليَّاتِ المِعياريَّةِ. وجائزُ أن هذه المِثاليَّاتِ سَتُوجَدُ مُشكلاتٍ، وَسَيُثْبِتُ أخيراً أنَّها غيرُ صحيحةٍ، تَفْصِيلاً أو رُبَّما حتَّى مِنْ حَيْثُ المبدأ. وقد ذكرتُ بعضَ الأمثلةِ المُمكنَةِ حينَ كُنَّا نناقشُ التَّمثِيلَ الدَّلاليَّ. لكنَّه ليس لَدَيَّ انطباعٌ بأنَّ اعتراضاً مُهمًّا واحداً قد قُدِّمَ، في العَمَلِ في عِلْمِ الدَّلالةِ التَّولِيدِيِّ، على القَواعِدِ النُّحويَّةِ «غيرِ المُنفَصِلَةِ» أو «الإدراكيَّةِ». على العَكْسِ، يبدو لي أنَّ الذين يَعْمَلُونَ في هذه الاتِّجاهاتِ يَسمحونَ لأنفسهم بأن تَغْمُرَهم الظَّاهراتُ.

م. ر.: عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ، أَلَمْ يُصَرِّفُوا عَمَّا تَعُدُّهُ أَنْتَ الْهَدَفَ الْحَقِيقِيَّ لِعِلْمِ
اللُّغَةِ: تَفْسِيرِ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ؟

ن. ت.: أَفْتَرَضُ أَنَّهُمْ لَنْ يُوَافِقُوا، لَكِنِّي أَحْسَبُهُ صَحِيحًا. وَمَعَ ذَلِكَ
نَتَحَدَّثُ عَنْ إِنْسَانٍ مُوَهُومٍ: فَعِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيُّ لَا يُوجَدُ الْآنَ فِي أَيِّ مَعْنَى
مُحَدَّدٍ عَلَى نَحْوٍ مَعْقُولٍ لِهَذَا الْمُصْطَلَحِ. وَيَسْتَمِرُّ وُجُودُ مُصْطَلَحِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ
التَّوْلِيدِيَّ، أَمَّا الْآنَ فَإِنَّ مُحتَوَاهُ قَدْ صَارَ غَامِضًا غَمُوضًا تَامًا.

م. ر.: مَعَ ذَلِكَ بَدَأَ نَجَاحُهُ الْقَصِيرُ الْأَمَدَ لِأَلَاءٍ، وَبَدَأْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي فِي ذَلِكَ
الْحِينِ عَمَّا إِنْ كَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ غَيْرَ إِدْيُولُوجِيٍّ، كَمَا هِيَ حَالُ
التَّجْرِيْبَةِ. كَانَتْ طَرِيقَةً لِلْعُودَةِ إِلَى الْبِنْيَوِيَّةِ السَّائِدَةِ. وَكَثِيرًا مَا حَسَبَ
الْأَذْكِيَاءُ أَنَّهُمْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَفَادَوْا مَسْأَلَةَ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ بِتَجَاوِزِ
إِحْدَى الْمَحَطَّاتِ: مُبَاشَرَةً مِنَ الْبِنْيَوِيَّةِ إِلَى عِلْمِ الدَّلَالَةِ عِنْدَ لَاقُوفٍ...

ن. ت.: قَدْ يَكُونَانِ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَكْثَرُ تَشَابَهًا. وَإِنَّ عِدَدًا مِنَ اللُّغَوِيِّينَ،
خَاصَّةً أَنْتَ نَفْسَكَ فِي مَقَالَتِكَ عَنْ «Remind» وَكَذَا رَايَ دُورْتِي وَبِيفِرْ وَكَاتَرِ
وَبَعْضُ الْآخَرِينَ، حَاولُوا إِقَامَةَ عِلَاقَةٍ بَيْنَ عِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيِّ وَوُضُفِيَّةِ بِلُومْفِيلْدِ
الْجَدِيدَةِ neo-Bloom Fieldian descriptivism، عَلَى نَحْوِ مُقْنَعٍ تَمَامًا،
فِي رَأْيِي.

م. ر.: إِنَّ قَوَاعِدَ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ **The case grammar** عِنْدَ فِيلْمُورْ قَدْ
حَقَّقَتْ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ النَّجَاحِ فِي فَرَنْسَا نَتِيجَةً لِتَرْجَمَةِ إِحْدَى مَقَالَاتِهِ
فِي مَجَلَّةِ «اللُّغَاتِ Languages».

ن. ت.: هُنَا أَيْضًا يَلُوحُ لِي أَنَّ هُنَاكَ قَدْرًا كَبِيرًا مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ بِشَأْنِ مَا
يُظْهَرُ. فَقَوَاعِدُ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ **Case grammar** تَقُومُ عَلَى بَعْضِ الْإِفْتِرَاضَاتِ
الشَّائِعَةِ فِي كُلِّ النَّظَرِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ، إِذْ تُوجَدُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْعِبَارَاتِ الْاسْمِيَّةِ

علاقاتٌ مِنْ مِثْلِ «فاعل agent» و«اسم الآلة instrument» و«الهدف goal» وهَلَمْ جَرًّا. خُذِي النَّظَرِيَّةَ الْمِيعَارِيَّةَ، وَلتَكُنْ فِي الصَّوْرَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا بِهَا جِيرُولد كاتز، وَهِيَ تَدْمِجُ نِظَامًا مِنْ «العلاقات الدَّلَالِيَّةِ» الَّتِي يَصْعَبُ كَثِيرًا تَمْيِيزُهَا عَنْ «الحالات النَّحْوِيَّة cases» عِنْدَ فِيلْمُور، هَذَا إِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَعَذِّرَةً التَّمْيِيزِ، تَمَامًا.

خُذِي النَّظَرِيَّةَ الْمِيعَارِيَّةَ الْمَوْسَّعَةَ the Extended Standard Theory: هذه تَدْمِجُ الْعِلَاقَاتِ الْجَذَرِيَّةَ Thematic relations مِنَ الْقَبِيلِ الَّتِي دَرَسَهُ جَاكَنْدُوف، مُتَمَدِّدَةً إِلَى عَمَلٍ سَابِقٍ لِج. جروبر J. Gruber. وَكُلُّ وَصْفٍ دِلَالِيٍّ يَتَضَمَّنُ شَيْئًا مِثْلَ: قَاعِدَةِ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ، عَلَى الْأَقْلَ عَلَى قَدَرٍ مَا تَقْتَرِحُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ بَوْضُوحٍ مِنْ أَنَّ الْعِلَاقَاتِ الدَّلَالِيَّةَ الشَّائِعَةَ، الَّتِي هِيَ أَيْضًا تُنَاقَشُ فِي الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، تَرْبِطُ الْأَفْعَالَ بِالْعِبَارَاتِ الْأَسْمِيَّةِ. وَالْأَمْرُ الْمُثِيرُ هُوَ كَيْفَ تَدْمِجُ «قَاعِدَةُ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ» هَذِهِ فِي نَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ...

م. ر.: وَلَيْسَ هُوَ كَيْفَ نَسْتَبْدِلُ قَاعِدَةَ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ بِنَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ...

ن. ت.: نَعَمْ، مَسْأَلَةُ الْإِدْمَاجِ تَظَلُّ مَفْتُوحَةً؛ وَفِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ عَدَمُ الْمُؤَافَقَةِ عَلَيْهَا، وَأَرَى أَنَّ حُجَجًا دَاخِضَةً تَمَامًا قَدْ وُجِّهَتْ إِلَى الْفَرَضِيَّاتِ الْخَاصَّةِ بِقَوَاعِدِ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ عِنْدَ فِيلْمُور، وَعَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ، قُدِّمَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْحُجَجِ مِنْ جَانِبِ رَاي دُورْتِي وَآخَرِينَ كَثِيرِينَ، أَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ. وَلَسْتُ أَعْرِفُ مَا يَعْتَقِدُ فِيلْمُور حَوْلَ هَذَا فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ. وَمِثْلَمَا قُلْتُ، يَبْدُو لِي الْآنَ مَهْتَمًّا بِعِلْمِ الدَّلَالَةِ الْوَصْفِيِّ - «التَّصْنِيفِيِّ الْجَدِيدِ» لَدَيْهِ - أَكْثَرَ مِنْ اِهْتِمَامِهِ بِقَضَايَا النَّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ الْعَامَّةِ، إِنْ أَنَا فَهَمُّهُ عَلَى نَحْوٍ صَحِيحٍ. أَمَّا إِنْ لَمْ يَرِ الْمَرْءُ فِي «قَاعِدَةِ الْحَالَةِ النَّحْوِيَّةِ» إِلَّا تِلْكَ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي تَدْمِجُ الْعِلَاقَاتِ الدَّلَالِيَّةَ التَّقْلِيدِيَّةَ فِي شَكْلِ مَا، مِنْ دُونِ آيَةِ فَرَضِيَّاتٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا بِشَأْنِ طَبِيعَتِهَا أَوْ صَمِّهَا إِلَى النَّحْوِ التَّوَلِيدِيِّ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَدِينَا عِنْدُنَا نِظَامٌ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ بِسُهُولَةٍ، عَلَى الْأَقْلَ عَلَى نَحْوِ سَطْحِي.

يكفي أن يأخذ المرءُ آيةً لُغَةً وأن يُحدِّدَ في كُلِّ جُمْلَةٍ الفاعِلَ، واسْمَ الآلةِ، والهدفَ، إلخ. ، وسيكونُ لديه قاعدةٌ للحالةِ النَّحْوِيَّةِ في هذا المعنى المُحدَّد، ممَّا ليس له كبيرُ غناءٍ، وذلك لا يكونُ حتَّى عِلْمُ لُغَةٍ تطبيقيًّا. ودعيني أُوكِّدُ مرَّةً أُخرى: ليستَ هذه هي «قاعدةُ الحالةِ النَّحْوِيَّةِ» عند فيلمور، التي قدَّمتَ فرضياتٍ مُحدَّدةً، لكنَّها فرضياتٌ أُثبتَ خَطُوبُها، فيما أعتقدُ.

م. ر.: ذلك غريبٌ، هذه الكراهيةُ لِدِراسةِ البنى النَّحْوِيَّةِ.

ن. ت.: سأقولُ الشَّيءَ نفسه عن دراسةِ البنى الدَّلاليَّةِ. لأنَّ أيَّ بحثٍ ذي شأنٍ في عِلْمِ الدَّلالةِ، ينبغي أن يتقدَّم أكثرُ مُتجاوزًا هذه المفهوماتِ الأوَّليَّةِ. تأملي عِلْمَ الأصواتِ الكلاميَّةِ: إن اكتفَتْ نظريَّةٌ في عِلْمِ الأصواتِ بأن تقولَ: «هناك صَوائتٌ وهناك صوامتٌ»، فإنَّها ليستَ نظريَّةً مُثيرةً جدًّا؛ لأنَّ النظرياتِ جميعًا مُتَّفقةٌ في هذا الشَّانِ، مهما يُمكن أن يكونَ هناك من اختلافاتٍ أُخرى. وتغدو المسألةُ مُثيرةً حينَ نسألُ: «كيفُ يُدمَجُ صِنْفُ «الصَّائتِ» في نظريَّةِ ذاتِ شأنٍ في بنيةِ الأصواتِ الكلاميَّةِ؟».

الشَّيءُ نفسه في عِلْمِ الدَّلالةِ. ومن المُهمِّ كثيرًا أن نستبينَ كيفَ تُدمَجُ الأصنافُ التي يُدرِكها كُلُّ النَّاسِ (بأسمائها المختلفة) في نظريَّةٍ عامَّة، وأن نُهذَّبَ هذه الأصنافَ ونُطوِّرها. وإلاَّ فإنَّ ما نقومُ به لا يعدو أن يكونَ تصنيفًا. وفي هذا الشَّانِ، عَلَيَّ أن أذكرَ عملاً حديثًا لجاكندوف يَسيرُ نحوَ عِلْمِ دِلالةٍ «تفسيرِيٍّ» على نحوٍ مُثيرٍ فعلاً، ويُدمَجُ «العلاقاتُ الجذريَّةُ» (أو «الحالاتِ النَّحْوِيَّةُ») في نظريَّةٍ أكثرَ تعميمًا. ويبدو ذلك عملاً واعدًا جدًّا.

م. ر.: ذَكَرْتَ «نَحْوَ العلاقةِ relational grammar عند بوسنال Postal».

وهو نَحْوُ يُقالُ إنَّه يصوغُ قواعدهَ بِعباراتٍ الوظائفِ Functions،

وليسَ بِعباراتٍ الأصنافِ النَّحْوِيَّةِ، كما يقترحُ النَحْوُ التوليديُّ. ومن

ذلك ، مثلاً ، أنَّ المَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ **The passive** يُعَبَّرُ عنه بِالْقَوْلِ :
 «المَفْعُولُ به يَغْدُو فاعِلاً» . ويقولُ النَّحْوُ التَّوْلِيدِيُّ : «إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ
 الْإِسْمِيَّةِ ، الَّتِي تَأْتِي فِي الْبِنْيَةِ آ ، يُمْكُنُ أَنْ تُوضَعَ فِي الْبِنْيَةِ ب» .
 وَيُقَدِّمُ النَّحْوُ التَّوْلِيدِيُّ بَرَاهِينَ عَلَى عَدَمِ اسْتِعْمَالِ الْوِظَائِفِ فِي
 صِيَاغَةِ التَّحْوِيلَاتِ . وَيَلُوحُ أَنَّ بُوَسْتَالَ يَقْتَرِحُ الْعَوْدَةَ إِلَى (جَسْبِرْسِن
 (Jespersen) لِتَعْرِيزِ مَوْقِفِهِ .

ن . ت : قَبْلَ التَّحَدُّثِ عَنْ نَحْوِ الْعِلَاقَةِ وَالْمَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ ، أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ
 بِضَعِ كَلِمَاتٍ عَنْ جَسْبِرْسِن . فَمِنْ وَجْهَةٍ أُولَى ، كَانَ جَسْبِرْسِنُ يَكْتُبُ بِوَصْفِهِ
 فِيلَسُوفًا تَقْرِيبًا ، كَمَا فِي كِتَابِهِ «فِلْسَفَةُ النَّحْوِ Philosophy of Grammar» ؛
 وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى ، يَكْتُبُ بِوَصْفِهِ نَحْوِيًّا ، فِي عَمَلِهِ فِي النَّحْوِ الْإِنْجِلِيزِيِّ . وَهُوَ فِي
 عَمَلِهِ الْفِلْسَافِيِّ أَحَدَ الرُّوَادِ فِي هَذَا الْقَرْنِ [العشرين] مِمَّنْ أَكْدَوْا فِكْرَةَ «التَّعْبِيرِ
 الْحُرِّ» ، الَّذِي كُنْتُ قَدْ سَمَّيْتُهُ الْمَظْهَرَ «الْمُبْدَع» لِلُّغَةِ . وَهُوَ هُنَا تَجَاوَزَ الْبِنْيَوِيَّينَ ،
 وَفِيهِمْ سُوَسَّيْرُ ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ إِلَّا أَشْيَاءُ أَوَّلِيَّةٌ تَمَامًا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .
 وَبِفَضْلِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي قَدَّمَهَا الْمَنْطِقُ الْحَدِيثُ فَحَسَبُ ، يُمْكُنُ الْآنَ دِرَاسَةَ هَذِهِ
 الْفِكْرَةِ ، الَّتِي نَاقَشَهَا عَلَى نَحْوِ مَا دِيكَارْتُ وَهَمْبُولْدْتُ مِثْلًا ، دِرَاسَةً جَادَّةً . وَإِضَافَةً
 إِلَى ذَلِكَ ، خَصَّصَ جَسْبِرْسِنُ قِسْطًا كَبِيرًا مِنْ كِتَابِهِ «فِلْسَفَةُ النَّحْوِ» لِمَا سُمِّيَ حَدِيثًا
 «اِسْتِقْلَالَ النَّحْوِ» . وَأَثَارَ مَسْأَلَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ «مَفْهُومَاتِ الْفِكْرِ rational concepts»
 وَمَفْهُومَاتِ النَّحْوِ الشَّكْلِيِّ ، وَكَانَ لَدَيْهِ أَشْيَاءٌ مُثِيرَةٌ جَدًّا فِي هَذَا الشَّانِ . وَذَلِكَ كُلُّهُ
 يُدْزِنُهُ مِنْ الْإِهْتِمَامَاتِ الْمُعَاصِرَةِ . وَقَدْ كَتَبْتُ حَوْلَ هَذَا فِي مَقَالَةٍ أَسَمَيْتُهَا «مَسَائِلُ
 الشَّكْلِ وَالتَّفْسِيرِ Questions of Form and Interpretation» ، قَدَّمْتُ
 فِي الذِّكْرِ السَّنَوِيِّ الْخَمْسِينَ لِلْجَمْعِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ فِي أَمْرِيكََا .

وَتَبْدُو الْحَالُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا حِينَ يَلْتَفِتُ الْمَرْءُ إِلَى عَمَلِهِ بِوَصْفِهِ نَحْوِيًّا . وَمَعَ أَنَّهُ

قَدَّمَ عددًا مُحددًا مِنَ الابتكاراتِ المُثيرة، أَحَسَبُ مِنَ المُناسِبِ أَنْ نقولَ إِنَّه في القِسْمِ الأكبرِ ظَلَّ في إطارِ النَحْوِ التَّقْلِيدِيِّ، الذي يُقدِّمُ، كما أسلفتُ، أمثلةً وأوصافًا، مِنْ دُونِ أَنْ يُقدِّمَ المبادئَ الواضحةَ التي تُفسِّرُها. ولم يَبْتَدِعْ صِيغةً لِمَسْأَلَةِ تصميمِ نظريَّةٍ لغويَّةٍ واضحة. لكنَّ عمله يَظَلُّ مَعِينًا لِمُلاحَظَاتٍ وَتَبَصُّراتٍ نافذةٍ ومُفيدةٍ.

أما الآن، فما العلاقةُ بَيْنَ جسرِسن و«نَحْوِ العلاقة»؟ - قبلَ كُلِّ شيءٍ، يَصْعَبُ أَنْ نُنَاقِشَ هذا عَلَى نحوٍ دقيقٍ؛ لِأَنَّهُ حَتَّى هذا الوقتِ (كانون الثاني ١٩٧٦م) لم تُقدِّمَ هذه النظريةُ النَحْوِيَّةُ بأسلوبٍ مُنظَّم. ويبقى أَنْ نرى عَلَى نحوٍ دقيقٍ تمامًا كيفَ تُربطُ بِمناهجٍ كثيرةٍ أُخرى.

ولا شكَّ في أَنَّ جسرِسن، شأنه شأنَ النَحْوِيِّينَ التَّقْلِيدِيِّينَ جميعًا، يُعوِّلُ كثيرًا عَلَى مفهومِ العلاقةِ النَحْوِيَّةِ. ولكنَّ ما مضمونُ ذلكِ المفهومِ؟ - غيرُ واضحٍ تمامًا. فهو يَسْتَعْمِلُ المُصْطَلَحَ في طرائقٍ كثيرة. هناك، مَثَلًا، فِكْرَةُ «العلاقاتِ الجَذَرِيَّةِ» - أو «الحالاتِ» في «قاعدةِ الحالةِ النَحْوِيَّةِ». ويمكنُ أَنْ يقولَ المرءُ إِنَّه في الجُمْلَتَيْنِ: John opens the door (المفتاحُ يَفْتَحُ البابَ) و: The key opens the door with key (جون يَفْتَحُ البابَ بِالْمِفْتَاحِ)، تَدْخُلُ العبارةُ الاسميَّةُ «the key» والفعلُ «open» في نموذجِ «العلاقةِ الجَذَرِيَّةِ» نَفْسِه؛ أي «اسمِ الآلةِ instrument». وَلَدَيْنَا ههنا فِكْرَةُ واحدةٍ لِلْعلاقةِ النَحْوِيَّةِ - فِكْرَةُ دِلَالِيَّةٍ.

وَتَمَّةً أيضًا فِكْرَةُ شَكْلِيَّةٍ صِرْفَةٍ Formal notion. خُذِي مِثَالًا لِذلكِ، الجُمْلَةُ: I promised John that I would leave (وعدتُ جونَ أَنِّي سَأُغَادِرُ). أَمَّا شَكْلِيًّا فَلَدَيْنَا مفعولٌ به مُباشِرٌ؛ لِأَنَّهُ ليسَ هناكِ حَرْفٌ جَرٌّ يَفْصِلُ الفعلَ عن تَمَتُّه؛ أَمَّا في معنَى ثانٍ، فَإِنَّ هذا مفعولٌ غيرُ مُباشِرٍ، dative.

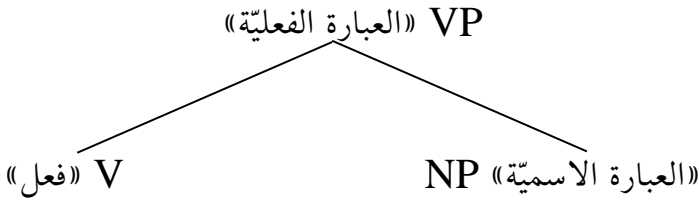
والتَّرجمةُ الفرنسيَّةُ لِتلك الجُملةِ J'ai promis à Jean de parler ، تتضمَّنُ
 مفعولاً شكلياً غيرَ مُباشرٍ ، كما يفعلُ الشَّكْلُ المُعطى اسماً nominalized form
 في الإنجليزيَّة: My promise to John to leave (وعدي لِجون أن أغادر).
 ولأجلِ تلكِ الجُملةِ ، على المرءِ مِن ثَمَّ أن يُميِّزَ فِكرَتَيْنِ لِ «العلاقاتِ النَّحويَّةِ» .
 زيدي على ذلك ، أَنَّهُ على قَدَرٍ ما يَمُكِنُ أن يُوَكِّدَ المرءُ أيضاً أنَّ «جون John»
 هو «هَدَفُ goal» العملِ ، وَفَقاً لِلْعَلاقاتِ الجَذريَّةِ ، هناكِ أَشياءُ ثلاثةٌ مُختلفةٌ
 لِلتمييزِ ، وقد يكون ثَمَّةُ أَشياءُ أُخرى .

على أَيِّ مِن هذه الفِكرِ يُبْنَى نَحْوُ العلاقةِ نَفْسُهُ؟- أمَّا ظاهرياً فليس على
 العلاقاتِ الجَذريَّةِ ؛ وكثيراً ما يبدو ذلك واضحاً . وماذا عن الفِكرَتَيْنِ الأُخريَّتينِ
 اللَّتينِ ذُكِرتا تَوّاً؟- في جُملةِ «I promised John that I would leave»
 (وعدتُ جون أنني سأغادرُ) «هل يَجْعَلُ نَحْوُ العلاقةِ «جون John» مفعولاً بهِ
 مُباشِراً أو مفعولاً بهِ غيرَ مُباشرٍ - أو رُبَّما الاثْنَيْنِ على مُستوياتٍ مُختلفةٍ ؟ هَبِي أَنَّا
 نَعُدُّ «جون John» مفعولاً بهِ غيرَ مُباشرٍ . سَيُعْنِي ذلك أَنَّهُ عندَ مُستوىِ تجريديٍّ
 لِلتَّمثِيلِ يكونُ لَدِينَا شَيْءٌ مُماثلٌ لِ I promised John that I would leave
 (وعدتُ جون أنني سأغادرُ) «بُوجودِ حَرْفِ جَرٍّ بَيْنَ الفِعْلِ والاسْمِ .

وعلى مُستوىِ آخَرَ يَنْبَغِي أن يكونَ «جون John» مفعولاً بهِ مُباشِراً في إطارِ
 نَحْوِ العلاقةِ ؛ لِأَنَّ المَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ يَمُكِنُ أن يُسْتَعْمَلَ: « John was
 promised that I would leave (وُعدَ جون بِأنِّي سأغادرُ) . وَوَفَقاً
 لِمَبادئِ نَحْوِ العلاقةِ ، إن أَنَا فَهَمْتُهَا ، فَإِنَّ المَفْعُولَ بهِ المُباشرَ وَحْدَهُ يَمُكِنُ أن
 «يُبْنَى لِلْمَجْهُولِ» ، أَي يُرْفَعُ إلى الفاعلِ . ولا بدَّ مِن إِضافةِ قاعدةٍ تَحَوُّلِ المَفْعُولِ
 بهِ غيرِ المُباشرِ إلى مَفْعُولٍ بهِ مُباشرٍ . لكنَّ مِثْلَ هذه القاعدةِ تَبْدُو خاصَّةً تامَّاماً في
 هذه الحال .

م. ر.: نعم. ولكن بَعْدَ ذلك، كَيْفَ يَسْتَطِيعُ المرءُ أن يَمْنَعَ «Je parle à Jean» من أن تَغْدُو: «Je parle Jean»؟.

ن. ت.: لَسْتُ مُتَأَكِّدًا. افْتَرِضِي أَنَّ المرءَ يَعْذُّ «جون John» مفعولًا به مُبَاشِرًا فَحَسَبُ فِي هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ. فِي تِلْكَ الْحَالِ يُعَبَّرُ عَنِ الْعِلَاقَةِ بِلُغَةٍ وَإِسْمَاتِ الْعِبَارَةِ phrase markers، الْبَنَى النَّحْوِيَّةَ. وَالْمَفْعُولُ بِهِ الْمُبَاشِرُ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، هُوَ الْعِبَارَةُ الْأَسْمِيَّةُ فِي الشَّكْلِ:



م. ر.: سَمِعْتُ بُوَسْتَالِ يَتَحَدَّثُ فِي الْحَلَقَةِ الدِّرَاسِيَّةِ فِي شِيكَاغُو عَامَ ١٩٧٣م؛ وَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يُثَبِّتَ أَنَّ التَّحَوَّلَ إِلَى الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ عَامٌّ... وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، إِنَّهُ لَيْسَتْ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ هِيَ الْعَامَّةُ، بَلِ الشَّرُوطُ الْمَفْرُوضَةُ عَلَى الْقَوَاعِدِ.

ن. ت.: أَظَلُّ مُتَشَكِّكًا بِشَأْنِ الْإِفْتِرَاضِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ قَاعِدَةً لِـ «الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ» إِمَّا فِي لُغَةٍ بَعَيْنِهَا وَإِمَّا عَلَى نَحْوٍ شَامِلٍ، فِي اللُّغَاتِ جَمِيعًا. وَفِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، يَبْدُو لِي أَنَّ هُنَاكَ دَلِيلًا جَيِّدًا عَلَى الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ التَّحْوِيلِيِّ، وَهِيَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي تُحَوَّلُ عِبَارَةً أَسْمِيَّةً إِلَى مَوْقِعِ الْفَاعِلِ فِي الْجُمْلَةِ أَوْ عِبَارَةٍ أَسْمِيَّةٍ، فَتُعْطِي بِنَى مِنْ قَبِيلِ: «الْمَدِينَةُ دُمِّرَتْ The city was destroyed» وَ: «تَدْمِيرُ الْمَدِينَةِ The city's destruction» مُنَاطِرَةً لِـ: «تَدْمِيرُ الْمَدِينَةِ Destroy the city» وَ: «تَدْمِيرُ الْمَدِينَةِ Destruction of the city». لَكِنَّ هَذَا لَا يَنْبَغِي، فِيمَا أَحْسَبُ، أَنْ يُعَدَّ «قَاعِدَةُ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ»، بَلْ هِيَ حَالٌ خَاصَّةٌ لِقَاعِدَةٍ أَكْثَرَ

عموماً لِحَرَكَةِ العبارة الاسميّة NP التي تُستعملُ أيضاً لِلْحُصُولِ عَلَى جُمْلٍ مِثْل: «جون يبدو زَمِيلاً لَطِيفاً John seems to be a nice fellow»، التي تُناظِرُ: «يبدو أنّ جون زَمِيلٌ لَطِيفٌ It seems that John is a nice fellow» التي لم تُستعملْ فيها قاعدةُ حَرَكَةِ العبارة الاسميّة. والقولُ إنّ الإنجليزيّةَ فيها «قاعدةُ المَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ» يبدو لي عامّاً عَلَى نحوٍ غيرِ كافٍ. بل إنّ فيها قاعدةً لِحَرَكَةِ العبارة الاسميّة التي تَحْدُثُ لِتَشكُّلِ المَبْنِيَّاتِ لِلْمَجْهُولِ، بِوَصْفِهَا حالاً خاصّةً.

لكنّ «المَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ» لا يبدو لي ظاهرةً فُذَّةً، سَوَاءً أَكانَ في لُغَةٍ واحدة أم في اللُّغَاتِ جميعاً. وَتُستعملُ لُغَاتٌ أُخْرَى وسيلةً مُختلفةً تماماً لِإِحداثِ تأثيرٍ مُماثِلٍ لِلْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ في الإنجليزيّة - مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ، عَلَى نحوٍ غيرِ ثابت، أداةً لِتَقْلِيلِ مَوْضُوعٍ أو لِلسَّماحِ بِجُمْلٍ لا فاعِلَ لها. وفي لُغَةٍ تُستعملُ، مثلاً، أدواتُ صَرْفِيَّةٌ في التَّركيبِ مُطابِقةٌ تقريباً لِلْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ في الإنجليزيّة سَنَتَوَقَّعُ أَنْ نَجِدَ خاصيّاتٍ مُختلفةً نَسْبِيّاً لِهذا التَّركيبِ.

وفي الإنجليزيّة، مثلاً، ليس لِزاماً أَنْ تكونَ العبارةُ الاسميّةُ المُحوَّلَةُ هي المفعولُ به المُباشِرُ لِلْفعلِ، صَحِيحٌ أَنَّها في مُعْظَمِ الحالاتِ هي المفعولُ به المُباشِرُ، كما في: جون رأى بِلَ John saw Bill - بِلَ رُئِيَ مِنْ جانِبِ جون Bill was seen by John. لكنّها يُمْكِنُ أيضاً أَنْ تكونَ المفعولُ به غيرَ المُباشِرِ المُتَّصِلِ بِالفِكرةِ: تَذَكَّرِي: بِلَ وُعِدَ بِأَنِّي سَأُغادِرُ Bill was promised that I would leave. أو لِتَقْلِيلِ ثانِيَّةً، إنّ هذه العبارةُ الاسميّةُ رُبَّما لا تكونُ لها أيّةُ عَلاقَةٍ بِالْفعلِ الأساسيّ، كما في Believe (John to be a fool)، التي يُمْكِنُ أَنْ تُصَبِّحَ: John was believed to be a fool.

م. ر.: بِلُغَةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ، يَقُولُ المرءُ إنّ الفاعِلَ في العبارةِ الثَّانَوِيَّةِ يُصَبِّحُ الفاعِلَ في العبارةِ الرَّئِيسَةِ.

ن. ت.: في لغةٍ فيها قاعدةُ حَرَكَةِ العبارةِ الاسميّةِ، قد نجدُ أيضاً أنَّ التّعبيراتِ الاصطلاحيةَ خاضعةٌ لِ «البناءِ لِلْمجهولِ»: فمُقابلِ «Someone has taken advantage of Bill»^(١)، يكونُ لديكِ: «Bill was taken advantage of» و: «advantage was taken of Bill». وكذا: «Bill advantage seems to have been taken of Bill»، و: «Bill seems to have been taken advantage of»، وهَلُمَّ جَرّاً.

م. ر.: ولا ينبغي أن ينسى المرءُ أنَّ المبنيَّ لِلْمجهولِ يمكنُ أن يُطبَّقَ عَلَى ما كان قبلَ مفعولاً به غيرِ مُباشرٍ: **Someone gave John a book - John was given a book**

ن. ت.: تُؤيِّدُ هذه الأمثلةُ جميعاً الفرضيةَ التي تذهبُ إلى أنَّ هناك قاعدةَ تحوُّلِ العبارةِ الاسميّةِ التي تلي الفعلَ، عَلَى نحوِ مُستَقِلٍّ عن وظيفتها. ويمكنُ أن يمضي المرءُ إلى أبعدَ مِنْ ذلك. وفي بحثٍ لِلدكتوراهِ أَكَدَ (جوي إmondز Joe Emonds عَلَى نحوِ مقبول، أنَّ قاعدةَ تَشْكِيلِ المَبْنِيَّاتِ لِلْمجهولِ واحدةٌ مِنْ صِنْفٍ عامٍّ مِنَ القَوَاعِدِ التي «تَصُونُ البِنْيَةَ»؛ بِمَعْنَى أنَّ نتيجةَ التَّحوِيلِ هي بِنْيَةٌ مُماثِلَةٌ لِتلك التي تُنتِجُها قَوَاعِدُ الكِتَابَةِ الثانية. وهكذا فإنَّ حَرَكَةَ العبارةِ الاسميّةِ تَضَعُ العبارةَ الاسميّةَ المُحوَّلةَ في موقعِ الفاعِلِ.

م. ر.: ذلك تَقْيِيدٌ مُهمٌّ. وإلَّا فسيبدو بديهيًّا أنَّ التَّحويلاتِ يمكنُ أن تُولَّدَ بِنْيٌ مِنْ أيِّ نوعٍ.

ن. ت.: حقًّا، ونرى أنَّ بِنْيَةَ المبنيِّ لِلْمجهولِ تتألَّفُ مِنَ الفِعْلِ الرَّابِطِ be

١- التفسيرُ الدَّلَالِيُّ فِي التَّحْوِيلِ التَّوْلِيدِيِّ Semantic Interpretation in Generative

Grammar (كيمبردج، ماسوشوستس: مطبعة معهد ماسوشوستس للتكنولوجيا، ١٩٧٢م).

المتبوع بِشَيْءٍ كعبارة الصِّفَةِ . فعبارَةُ: «جون كان مرئيًّا John was seen» ذاتُ
بِنْيَةٍ مُمَاطِلَةٍ لِ: «جون كان جيِّداً John was good». وقولُنا: «البابُ أُغْلِقَ
The door was closed» غامضٌ: سواءُ أَكانَ مولِّدَ الأساسِ - base
generated، مِثْلُ: «البابُ كانَ مَفْتُوحاً The door was open»، أَمْ أَتَتْ
بِهِ حَرَكَةُ العبارةِ الاسْمِيَّةِ، مِثْلُ: «البابُ فُتِحَ The door was opened».

وهناك خاصِّياتٌ أُخرى لِلْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ تُنتِجُ عَنْ خاصِّياتٍ عامَّةٍ تاماماً لِقَوَاعِدِ
الحَرَكَةِ. وَلَدَى (فينغو Fiengo) أَشياءٌ مُثيرةٌ عَنْ هَذَا فِي أَطْرُوحَتِهِ. وهناكُ
مُراجَعَةٌ لِلْقَضِيَّةِ فِي كِتابِي «تأملات في اللُّغة Reflections on language».

ويمكِنُ القولُ، عَلى الجُمْلَةِ، إِنَّ تَركِيبَ المَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ فِي الإِنجِلِيزِيَّةِ،
يُقَدِّمُ شَبَكَةً مِنَ الخاصِّياتِ الَّتِي تَنشَأُ عَنْ افْتِراضِ أَنَّ قاعِدَةَ حَرَكَةِ العبارةِ الاسْمِيَّةِ
يُمكنُ اسْتِعمالُها فِعْليًّا. وَخِلافًا لِذَلِكَ، نَجِدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ اللُّغاتِ أَنَّ ما يَكادُ يُقَابِلُ
المَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ فِي الإِنجِلِيزِيَّةِ ذُو خاصِّياتٍ مُختلفَةٍ. فَثَمَّةُ تَركِيبِ الفِعْلِ المُتَعَدِّي
مَعَ المَفْعُولِ بِهِ المُباشِرِ، والفِعْلُ المُتَعَدِّي يَمكِنُ أَنْ يَظْهَرَ أَيضاً فِي بِنْيَةٍ مُختلفَةٍ مَعَ
مَفْعُولِهِ المُباشِرِ بِوَصْفِهِ فاعِلاً. وَخِلافُ ما عَلَيهِ الحالُ فِي الإِنجِلِيزِيَّةِ، يَنبَغِي أَنْ
يَكُونَ فاعِلُ الشَّكْلِ المَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ المَفْعُولَ بِهِ المُباشِرَ فِي الشَّكْلِ المَبْنِيِّ
لِلْمَعْلُومِ المُقَابِلِ لَهُ. وَلا يَمكِنُ أَنْ يَكُونَ الفاعِلُ فِي عبارةٍ مُندَمِجَةٍ embedded
phrase، مِثْلاً. وَتَسْلُكُ التَّعابِيرِ الاصْطِلَاحِيَّةِ مَسْلَكاً مُختلفاً. وَلَنْ يَكُونَ ثَمَّةُ دَاعٍ
لِافْتِراضِ تَحْوِيلِ لِلْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ فِي هَذِهِ اللُّغاتِ: ذَلِكَ أَنَّ «شَكْلِيَّةَ مُورفولوجيا»
المَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ خاصِّيةٌ مُعْجَمِيَّةٌ لِلْفِعْلِ.

وَلَيْسَ صَحيحاً تاماماً، عَلى الحَقِيقَةِ، أَنْ نَذْهَبَ كَما أَسْلَفْتُ تَوًّا إِلى أَنَّ هَناكَ
نَموذَجَيْنِ مُتبايِنَيْنِ لِللُّغَةِ فِي هَذَا الشَّانِ. وَسَيَكُونُ أَكْثَرُ دِقَّةً أَنْ نَقُولَ إِنَّ هَناكَ اثْنَتَيْنِ

(ورُبَّما أكثر) مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ الْأَسَاسِيَّةِ لِتَشْكِيلِ مَا نُسَمِّيهِ فِي الْمَجَالِ غَيْرِ الرَّسْمِيِّ «المَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ»: أُولَاهُمَا تَحْوِيلِيَّةٌ؛ وَالثَّانِيَةُ مُعْجَمِيَّةٌ Lexical. فالإنجليزية، مثلاً، فِيهَا أَيْضاً مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ مُعْجَمِيٌّ، مِثْلَمَا هِيَ الْحَالُ فِي أَحَدِ مَعْنَيَيْ: The door was closed. وَهَذَا الْمَبْنِيُّ لِلْمَجْهُولِ الْمُعْجَمِيُّ رَبَّما يَكُونُ أَوْضَحَ فِي بَنَى مَنَفِيَّةٍ مِنْ مِثْلِ: unread, untaught، إلخ. وَفِي قَوْلِنَا «John was untaught» (جون كَانَ غَيْرَ مُعَلِّمٍ)، أَوْ: «The book was unread» (الْكِتَابُ كَانَ غَيْرَ مَقْرُوءٍ) عَلَيْنَا أَنْ نَعُدَّ الْمَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ مُعْجَمِيًّا lexical، لِأَسْبَابٍ عَامَّةٍ تَمَامًا، وَلَيْسَ تَحْوِيلِيًّا - لِأَنَّ التَّحْوِيلَاتِ، مَبْدِئِيًّا، رَبَّما لَا تُؤَكِّدُ بَنَى مُعْجَمِيَّةً (وَقَدْ اخْتَلَفَ بِشَأْنِ هَذَا الْمَبْدَأِ؛ لَكِنِّي إِخَالُهُ صَحِيحًا). لَا حِظِي فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ أَنْ أَسْمَاءَ الْمَفَاعِلِ participles مَعَ السَّابِقَةِ «un» تَتَصَرَّفُ تَمَامًا بِوَصْفِهَا مُتَنَبِّأً بِهَا - مِثْلُ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ الْمُعْجَمِيِّ. وَيَكُونُ لَدَيْنَا «John was taught French» (جون عُلِّمَ الْفَرَنْسِيَّةَ) مَعَ التَّحْوِيلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ، وَلَيْسَ «John was untaught French» (جون لَمْ يُعَلِّمَ الْفَرَنْسِيَّةَ)، لِأَنَّ الْمَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ الْمُعْجَمِيَّ يُمْكِنُ أَنْ يُشَكَّلَ فَحَسْبُ مَعَ الْمَفْعُولِ بِهِ الْمُبَاشِرِ بِوَصْفِهِ فَاعِلٌ الْمَبْنِيُّ لِلْمَجْهُولِ. وَعَلَى نَحْوِ مُمَاطِلٍ، نَجِدُ خَاصِّيَّاتٍ مُعْجَمِيَّةً بَيْنَ صَيَغِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ الْمُعْجَمِيَّةِ، وَلَيْسَ فِي حَالِ صَيَغِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ التَّحْوِيلِيَّةِ، كَمَا تَتَنَبَّأُ النَّظَرِيَّةُ. وَإِنْ مَعْنَى «John was untaught, untutored» (جون كَانَ غَيْرَ مُعَلِّمٍ، غَيْرَ مُدَرِّسٍ دُرُوسًا خَاصَّةً) لَا يُمْكِنُ التَّنَبُّؤُ بِهِ بِوَسَاطَةِ قَاعِدَةٍ عَامَّةٍ مِنْ مَعْنَى «Teach John» (عَلِّمَ جونَ)، «tutor John» (دَرِّسْ جونَ دُرُوسًا خَاصَّةً). وَعَلَى التَّحْوِيلِ نَفْسِهِ، نَجِدُ أَنَّ الْعِبَارَةَ الْإِصْطِلَاحِيَّةَ «John was unread» (جون كَانَ غَيْرَ قَارِئٍ) لَا تُمَاطِلُ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، «read John» (أَقْرَأْ جونَ). أَمَّا «John was taught French» (جون عُلِّمَ الْفَرَنْسِيَّةَ)، مِثْلًا، فَتَمْتَلِكُ مَعْنَى

يَمَكُنُ التَّنَبُّؤُ بِهِ تَمَامًا مِنْ خِلَالِ قَاعِدَةٍ عَامَّةٍ مِثْلَمَا هِيَ الْحَالُ، مَبْدِئِيًّا، فِي الْقَوَاعِدِ التَّحْوِيلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ: إِذْ تَمْتَلِكُ جَوْهَرِيًّا الْمَعْنَى نَفْسَهُ الْمَوْجُودَ فِي «X taught john French (فُلَانٌ عَلَّمَ جُونِ الْفَرَنْسِيَّةَ)». وَتُوضَحُ هَذِهِ الْأَمْثَلَةُ مَا يَلُوحُ أَنَّهُ ظَاهِرَةٌ تَعْمِيمٍ كَبِيرٍ. وَلِأَسْبَابٍ ذَاتِ صِلَةٍ بِالْمَبْدَأِ الضَّارِبِ الْجُذُورِ فِي النَّظَرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلنَّحْوِ، هُنَاكَ تَرْكِيبَانِ مُخْتَلِفَانِ اخْتِلَافًا تَامًّا يُدْعَيَانِ «الْمَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ Passive»، وَرُبَّمَا أَكْثَرُ.

وَلَسْتُ أَرَى أَيَّ دَاعٍ لِافْتِرَاضِ أَنَّ هُنَاكَ قَاعِدَةً عَامَّةً تَنْسَحِبُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ التَّرْكِيبِ. وَإِنَّ افْتِرَاضَ «قَاعِدَةٍ عَامَّةٍ لِلْمَبْنِيَّ لِلْمَجْهُولِ»، سَيَمِيلُ إِلَى طَمَسِ هَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ جَمِيعًا وَكَذَا الْمَبَادِئِ الْعَامَّةِ الْمُسْتَلَزِمَةِ فِي تَفْسِيرِهَا.

م، ر.: تَبْدُو الْفَرَنْسِيَّةُ حَالًا مُتَوَسِّطَةً...

ن. ت: الْفَرَنْسِيَّةُ حَالٌ مُثِيرٌ، إِحَالُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ تَقْتَضِي دِرَاسَةً أَكْثَرَ اسْتِفَاضَةً.
أَمَّا الْآنَ فَإِنَّهَا تَظَلُّ مَفْتُوحَةً.

الفصل السابع النظرية المعيارية الموسعة

م. ر.: النظرية التي تقترحها الآن هي النظرية المعيارية الموسعة The
Extended Standard Theory. وقد ذكرت منذ قليل أن إسهام
راي جاكندوف كان له فعالية حاسمة في إحكام الصيغة الجديدة للنموذج.

ن. ت.: أما بإظهار فاعلية البنية السطحية في التفسير الدلالي، فنعم. وخلافاً
لما اقترحته النظرية المعيارية في كتابي «المظاهر Aspects»، يبدو مُحتملاً كثيراً
أن البنية السطحية تقوم بفعل رئيس في التفسير الدلالي.

والحق أن الإسهام الوحيد - والجوهري، مع ذلك - للبنية العميقة في تحديد
معنى تعبير من التعابير، يبدو التمثيل لما يُسمى العلاقات الجذرية thematic
relations، كعلاقة «المفتاح» بالفعل «يفتح» بوصفه «اسم آلة» في: «جون فتح
الباب بالمفتاح»، «المفتاح فتح الباب»، إلخ. وتفترض النظرية المعيارية الموسعة
أن قواعد الكتابة الثانية في «الأساس»، تولد بنية عميقة تُفهم فيها المفردات
المُعجمية. وأن العلاقات الجذرية بين الفعل والعبارات الاسمية التي ترتبط به
نحوياً، تُحدد عند هذا المستوى. وتحدد خاصيات دلالية أخرى من خلال قواعد
تُطبق على البنية السطحية. وقد تحدثنا عن المرجع المشترك co-reference
للأسماء والضمائر، حيث تبدو العلاقات بين المواقع في البنية السطحية حاسمة،
وكذا تحدثنا عن تفاعل النفي وأسوار القضايا المنطقية quantifiers. وهناك

أَيْضاً مَوْقِعُ لِبْنِيَةِ السَّطْحِيَّةِ حَاسِمٌ، وَهِيَ حَقِيقَةُ تَدْرِكُ فِي كُلِّ مِنَ النَّظَرِيَّةِ الْمِغْيَارِيَّةِ الْمُوسَّعَةِ وَعِلْمُ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّةِ. وَثَمَّةَ ظَاهِرَاتٍ أُخْرَى تَرْتَبِطُ بِالْبْنِيَةِ السَّطْحِيَّةِ، كَالْمَرْكَزِ Focus والافتراضِ Presupposition.

م. ر.: أَمَّا حَدِيثًا فَقَدْ أَدْمَجَتِ النَّظَرِيَّةُ الْمِغْيَارِيَّةُ الْمُوسَّعَةُ مَفْهُومًا جَدِيدًا، يَبْدُو وَاعِدًا بِخَيْرٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى النَّحْوِ، وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ، وَعِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ: مَفْهُومَ «الْأَثَرِ trace». وَأَنْتِ تُحَدِّدُ الْأَثَرَ t بِأَنَّهُ عِنَصْرُ الصَّفْرِ فِي عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ، الَّذِي يُمَيِّزُ مَوْقِعَ الْعِنَصْرِ الَّذِي أَزَاحَهُ التَّحْوِيلُ. وَمِثَالُ ذَلِكَ:

Whom did you see? - Whom did you see t?

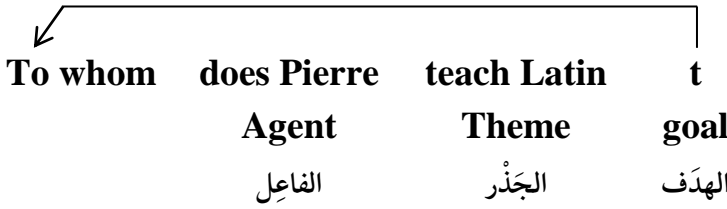
وَقَدْ أَكَّدَتْ (لِيسَا سِيلْكِرْك Lisa Selkirk)، وَ(تُومَاسُ وَاسُو Thomas Waso)، وَرُوبرْتُ فِينْغُو، فَاعِلِيَّةَ هَذَا فِي كُلِّ مِنَ عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ.

ن. ت.: فِي إِطَارِ نَظَرِيَّةِ الْأَثَرِ trace، يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَكْثَرَ وَيَقُولَ إِنَّ «كُلَّ» مَا فِي التَّمْثِيلِ الدَّلَالِيِّ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْعِلَاقَاتِ الْجَذَرِيَّةَ، يُمْكِنُ بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي أَنْ يُسْتَنْتَجَ مِنَ الْبْنِيَةِ السَّطْحِيَّةِ: لَا رَيْبَ فِي أَنَّ مَرَجَعَ ذَلِكَ، بِشَرْطِ فِكْرَةٍ ثَرِيَّةٍ تَمَامًا لِـ «الْبْنِيَةِ السَّطْحِيَّةِ»، أَنَّ الْبَنَى السَّطْحِيَّةَ الْجَدِيدَةَ تَنْطَوِي عَلَى آثَارِ، يُمْكِنُ أَنْ تُرَكَّبَ بِلُغَتِهَا الْعِلَاقَاتُ الْجَذَرِيَّةُ بِوَصْفِهَا مُحَدَّدَةً بِوَسَاطَةِ الْقَوَاعِدِ الْأَسَاسِيَّةِ base rules.

م. ر.: الْحَقُّ أَنَّ الْعِلَاقَاتِ الْجَذَرِيَّةَ تَقُولُ، مَثَلًا، إِنَّ الْمَفْعُولَ بِهِ غَيْرَ الْمُبَاشِرِ لِلْفِعْلِ «يُعَلِّمُ teach»، هُوَ «هَدَفٌ a goal».. وَتِلْكَ الْعِلَاقَةُ يُحْتَفَظُ بِهَا حِينَ يُزَاحُ الْمَفْعُولُ بِهِ غَيْرَ الْمُبَاشِرِ مِنْ خِلَالِ تَحْوِيلٍ. مِثَالُ ذَلِكَ:

To whom	Does Pierre	Teach Latin
Goal	Agent	Theme
الْهَدَفُ	الْفَاعِلُ	الْجَذَرُ

ووفقاً لجاكندوف، فإنَّ العلاقة تُستبدلُ معَ الاسم. وفي نظرية الأثرِ **trace** (حيثُ الأثرُ يُربطُ «كما لو أنَّ الرِّبطَ كانَ بِخِيطٍ غيرِ مرئيٍّ» بِالْعَنْصَرِ الَّذِي حُلَّ مَحَلَّهُ)، يَسْتَطِيعُ المرءُ أن يعزوَ العلاقةَ الجَذَرِيَّةَ إلى البنيةِ السَّطْحِيَّةِ؛ لِأَنَّ ترتيبَ البنيةِ العميقةِ ما يزالُ ممثلاً:



ن. ت.: تتلقَّى To whom علاقتها الجَذَرِيَّةَ بِإِدْخَالِ أثرِها its trace.

م. ر.: الأثرُ **the trace** ضَرَبٌ مِنْ ذِكْرَى البنيةِ العميقةِ مُسَجَّلَةٌ فِي البنيةِ السَّطْحِيَّةِ.

ن. ت.: ومن وجهةِ نظرٍ أُخرى، يمكنُ أن يُعَدَّ الأثرُ في هذه الحالِ تَعْيِيناً لِمَوْعٍ نِطاقٍ مُتَغَيِّرٍ مِنْ خِلالِ نوعٍ مِنْ أَسْوَارِ الْقَضَايَا الْمَنْطِقِيَّةِ، يُدْخَلُ فِي الشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ بِوَسَاطَةِ قَوَاعِدَ تَنْطَبِقُ عَلَى البنيةِ السَّطْحِيَّةِ.

وفي هذا التَّصَوُّرِ الْأَخِيرِ تَأْخُذُ النَّظَرِيَّةُ تَقْرِيباً الشَّكْلَ الْآتِي: هناكِ بِنَى عَمِيقَةٌ تُولِّدُهَا الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ **the base component**، معَ خَاصِّيَّاتِهَا الْمُحَدَّدَةِ. وَتُشَكِّلُ التَّحْوِيلَاتُ بِنَى سَطْحِيَّةً تُغْنِيهَا الْآثَارُ **traces**. وَهَذِهِ الْبِنَى السَّطْحِيَّةُ تَرْبِطُهَا قَوَاعِدُ أُخْرَى بِمِثَالَاتٍ لِلصَّوْتِ (التَّمثِيلُ الصَّوْتِي) وَالْمَعْنَى (الشَّكْلُ الْمَنْطِقِي).

م. ر.: يُعْطِي ذَلِكَ الْمُخَطَّطُ الْآتِي:



ن. ت.: هذا نموذجٌ بديلٌ في اللغةِ بوصفِها نظاماً إدراكياً. وتذكّرني أنّي أعني بعبارة «الشَّكْلِ المنطقيِّ»، ذلك التمثيلَ الجزئيَّ للمعنى الذي تحدّده البنيةُ التحوّليّةُ. وأكثرُ من ذلك، نستطيعُ أن ندرُسَ تفاعلَ هذا النظامِ الإدراكيِّ معَ الأنظمةِ الأخرى، مثلما يحدثُ في عِلْمِ وظائفِ الأعضاء، إذ متى حدّدَ القلبُ استطعنا أن ندرُسَ تفاعلَه معَ الأعضاء الأخرى.

م. ر.: يبدو لي أنّك قد اخترتَ عبارة «الشَّكْلِ المنطقيِّ»، لأنَّ كُلَّ الحقائقِ الدّلاليّةِ التي تعتمدُ على البنيةِ اللّغويّةِ، يمكنُ أن يُعبّرَ عنها بلُغةِ المنطقِ التقليديِّ أو الحديثِ.

ن. ت.: لا أريدُ أن ألَمَحَ إلى ذلك. واختيارُ مُصطلحِ «الشَّكْلِ المنطقيِّ» ربّما كان، وربّما لم يكنْ، قراراً حكيماً في ميدانِ المُصطلحِ الفنّيِّ - حيثُ يُستعملُ هذا المُصطلحُ في نواحٍ أخرى. لكنّه بصرفِ النّظرِ عن المُصطلحاتِ الفنّيّةِ، هناك اتّجاهاتٌ مُثيرةٌ للبحثِ هنا. وكثيراً ما قد افترضَ (حتّى من جانبي) أنّ اختيارَ كلمةِ «منطقِ Logic» المُستعملةِ في التعبيرِ: «الشَّكْلِ المنطقيِّ Logical form» لا مغزى له. ويُمكنُ القولُ، مثلاً، إنّهُ في تصوّرِ الأسوارِ المنطقيّةِ للقضايا quantifiers في لغةٍ طبيعيّةٍ ما، بدا أنّ أيّ منطقيّين يَمتَلِكُانِ القوّةَ التعبيريّةَ نفسَها مُترادِفان. ويبدو هذا معقولاً إن افترضَ أنّ العلاقةَ بينِ البنيةِ التحوّليّةِ والشَّكْلِ المنطقيِّ يُعبّرُ عنها من خلالِ مبدأ يُستعملُ «دفعَةً واحدةً»، إنّ جازَ القولُ. أمّا في النّموذجِ الذي نرسمُ مخطّطَه الآنَ، فإنّ استنتاجَ الشَّكْلِ المنطقيِّ يتقدّمُ خطوةً خطوةً. إنّ الشَّكْلَ المنطقيِّ تحدّده عمليّةٌ استنتاجيّةٌ مُماثلةٌ لعمليّاتِ التّحوّ وعِلْمِ وظائفِ الأصوات. وهكذا فإنّ اختيارَ الملاحظةِ المنطقيّةِ يغدو حاسِماً. ولعلّه من المُمكنِ أنّ بعضَ القواعدِ ستقرّرُ على نحوٍ ملائمٍ عندَ مستوى مُتوسّطٍ بلُغةِ منطقيٍّ ما وليس بلُغةِ منطقيٍّ آخَر؛ ويبدو أنّ هذه هي الحالُ.

ويمكنُ القولُ، مثلاً، إنَّ مَنْطِقًا فيه مُتَغَيِّرَاتٌ وَمَنْطِقًا مِنْ دُونِ مُتَغَيِّرَاتٍ لهما القدرةُ التَّعْبِيرِيَّةُ نَفْسُهَا. أمَّا إن استُخْلِصَ الشَّكْلُ الْمَنْطِقِيُّ تَدْرِيجِيًّا، فَسَيُثْبِتُ فِي النِّهَايَةِ أَنَّ مَنْطِقًا ذا مُتَغَيِّرَاتٍ لَا غِنَى عَنْهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ الْمَبَادِئِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُفَسِّرُ حَقَائِقَ لُغَوِيَّةً. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، يَغْدُو مُسْتَحِيلًا الْحَصُولُ عَلَى بُرْهَانٍ تَجْرِبِيٍّ لِلْإِجَابَةِ عَنِ السُّؤَالِ: مَا النَّظَامُ الصَّحِيحُ لِلْمَنْطِقِ الَّذِي اسْتَعْمَلْتَهُ الْمُلَاحِظَةُ عَمَلِيًّا فِي التَّمْثِيلِ الْعَقْلِيِّ؟

وهناك دَلِيلٌ مُثِيرٌ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَنْطِقَ الصَّائِبَ هُوَ مَنْطِقُ كِلَاسِيكِيِّ ذَوِ مُتَغَيِّرَاتٍ. وَرُبَّمَا يَكُونُ فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نُبَيِّنَ بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ لِمَاذَا يَكُونُ الْمَنْطِقُ الْكِلَاسِيكِيُّ ذَوِ الْمُتَغَيِّرَاتِ حَدْسِيًّا جَدًّا. فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَعُدَّهُ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، نَمُودَجًا مُبَسَّطًا، تَخْطِيطِيًّا إِلَى حَدٍّ مَا، لِلشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ الَّذِي تُحَدِّدُهُ الْبَنِيَّةُ السَّطْحِيَّةُ.. ويمكنُ فِعْلِيًّا أَنْ «يُقْرَأَ بَعِيدًا عَنِ الْعَقْلِ read off the mind». عَلَى عَكْسِ الْأَنْظِمَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مُتَغَيِّرَاتٌ فَإِنَّهَا، مَعَ امْتِلَاقِهَا الْقُوَّةَ التَّعْبِيرِيَّةَ نَفْسَهَا غَالِبًا، أَكْثَرُ مُقَاوِمَةً لِلْحَدْسِ، وَتُفْهَمُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، بِسُهُولَةٍ أَكْثَرَ بِتَوَسُّطِ الْمَنْطِقِ الْكِلَاسِيكِيِّ. وَأَحْسَبُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَيْضًا إِثْبَاتُ أَنَّهَا حَقًّا لَا تُقَدِّمُ أَنْمَاطًا لِلتَّمْثِيلِ مُنَاسِبَةً لِصِيَاجَةِ قَوَاعِدِ تَرْبِطِ الْبَنِيَّةِ السَّطْحِيَّةِ بِالشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ عَلَى النَّحْوِ الْأَكْثَرِ عَمُومًا.

وإنَّ نَظَرِيَّةَ التَّسْوِيرِ الْمَنْطِقِيِّ لِلْقَضَايَا quantification عندَ (مونتاغيو Montague)، حَالَةٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وَالْمَوْقِفُ إِزَاءَ اخْتِيَارِ مَنْطِقٍ مَا، مُشَابِهَةٌ عَلَى نَحْوِ مَا لِلْمُشْكِلَاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ phonology. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ نِظَامَيْنِ لِلْمَلَامِحِ الْمُمَيِّزَةِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لِهَمَا «الْقُوَّةُ التَّعْبِيرِيَّةُ نَفْسُهَا» مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ، لَكِنْ أَحَدُهُمَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي الْآخَرِ - وَفِي مُسْتَطَاعِنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّهُ صَحِيحٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللُّغَةِ، وَأَنَّ الْآخَرَ خَاطِئٌ - لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَأْذَنُ بِإِعْطَاءِ

صِغَةً لِبَعْضِ التَّعْميماتِ والمبادئِ التفسيريةِ، في حينَ أنَّ الآخرَ لا يَأْذَنُ بذلكَ . ويلوحُ لي أنَّ الموقفَ هو نفسه بِشأنِ علاقةِ البنيةِ السطحيةِ بالشَّكلِ المنطقيِّ . وعلى قَدَرٍ ما أُوتيتُ مِنْ فَهْمٍ، يَتطلَّبُ بعضُ التَّعْميماتِ المُهمَّةِ منطَقاً كلاسِيكياً يَتضمَّنُ مُتغيِّراتٍ، حيثُ إنَّ المُتغيِّراتِ تَعكِّسُ أحياناً وجودَ أثرِ a trace في البنيةِ السطحيةِ .

م . ر .: ذلكَ ما تحدَّثتُ عنه في مُحاضَرتِكَ في Vincennes . ويبدو لي أنَّ هذه الاكتشافاتِ الحديثةُ تُبيِّنُ أيضاً تاريخَ العلاقاتِ بينَ المنطقيِّ ونظريَةِ اللُّغة . وقَبْلَ النَّحوِ التَّوليديِّ، يَمَمُ كُلُّ أولئك الذين أرادوا أن يُفسِّروا اللُّغاتِ على نَحْوِ مُنظَمٍ نَسْبِيّاً، سَطَرُ المنطقيِّ ليزودهم بِـ «الأساسِ التَّوليديِّ generative base» . وكان ذلكَ صحيحاً بالنسبةِ إلى بعضِ البَنِيويِّينَ - وفي ذهني هنا سومجان Šaumjan - وكان صحيحاً فيما يَتصلُّ بالتَّقليدِ النَّحويِّ .

وأوَّلُ عَمَلٍ لِلنَّحوِ التَّوليديِّ إنَّما كان فَضْلَ نفسه عن ذلكَ التَّقليدِ . وقد قلتُ: معَ أنَّ المنطقيَّ لا غنىَ عنه لإنشاءِ نظريَةِ عِلْمِيَّةٍ، فإنَّ نَحْوَ اللُّغاتِ الطَّبيعيَّةِ عَصِيٌّ على الخُضوعِ لِلْمَنطِقِ . لا، فالبنيةُ العميقةُ ليستُ هي البنيةُ المنطقيَّةُ للقضايا؛ وهَلُمَّ جَرّاً . ونظريَةُ النَّحوِ تُحكِّمُ مفهوماتها الخاصَّةَ .

ومهما يَكُنْ، فقد بقيَ سُؤالٌ واحدٌ: إنَّ كانتِ بنيةُ اللُّغةِ لا تَعتمدُ على البنيةِ المنطقيَّةِ، فكيفَ يَتأتَّى لأجيالٍ مِنَ الفلاسفةِ أن تتحدَّثَ عن هذه المسائلِ وتنشِغَلَ بها إلى هذا الحدِّ، ويفهمُ كُلُّ منها الآخرَ؟ - كيفَ يُفسِّرُ المرءُ هذا «الحَدَسَ» الذي تتحدَّثُ عنه؟ - إنَّ فُرْضِيَّةَ «الشَّكْلِ المنطقيِّ» يَوْصِفُه مَكُوناً يُفسِّرُ البنيةَ السطحيةَ، يُمكنُ أن تُجيبَ عن ذلكَ السُّؤالِ؛ ولم يَدْرُسِ الفلاسفةُ والنحويُّونَ خاصِّيَّاتِ البنيةِ السطحيةِ، معَ أنَّهم اعتقدوا أنَّهم رأوا هناكَ بِنْيَ عميقةَ .

وقد حَلَّلَ النَّحْوُ الْعَامُّ لِمَدْرَسَةِ الْبُورْتِ رُويَال The Port-Royal
 Dieu invisible هذه الْجُمْلَةُ: Grammaire Générale
 Dieu est إلى الْقَضِيَّتَيْنِ a créé le monde visible
 invisible، إلخ. وكان مُعْتَقِدًا أَنَّ مَجْمُوعَ هذه الْقَضَايَا شَكْلُ الْبِنْيَةِ
 الْعَمِيقَةِ لِلْجُمْلَةِ. أَمَّا الْآنَ، فَإِنَّ الْعَكْسَ هُوَ الصَّحِيحُ: فَالْبِنْيَةُ الْعَمِيقَةُ
 جِزْءٌ مِنَ الْبِنْيَةِ النَّحْوِيَّةِ، وَمَجْمُوعُ الْقَضَايَا يُسْتَنْجَى مِنْ قَوَاعِدَ تَفْسِيرِيَّةٍ
 نَتَمَّى إِلَى الْمَكُونِ الدَّلَالِيِّ، الَّذِي يُعْطِي الْبِنْيَةَ السَّطْحِيَّةَ «مَحْتَوًى».
 وَهَكَذَا، فَإِنَّ الْمُدْهَشَ كَثِيرًا هُوَ أَنَّ الشَّكْلَ الْمَنْطِقِيَّ يُرْبِطُ بِالْبِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ.
 لَكِنْ وَجْهَةُ النَّظَرِ مُخْتَلِفَةٌ اخْتِلَافًا تَامًّا.

ن. ت.: تَامًّا. فَمُنْذُ أَمَدٍ غَيْرِ بَعِيدٍ اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ مِنَ الْعَبَثِ السَّوَالُ عَمَّا إِنْ
 كَانَ شَيْءٌ مِنْ قَبِيلِ الْمَنْطِقِ التَّقْلِيدِيِّ ذِي الْمُتَغَيَّرَاتِ أَوْ نَظَرِيَّةِ أَسْوَارِ الْقَضَايَا
 الْمَنْطِقِيَّةِ عِنْدَ مونتَاغِيو Montague، هُوَ الْمَنْطِقُ الصَّحِيحُ، الْمَنْطِقُ الَّذِي
 يُسْتَعْمَلُ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، فِي الشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ وَيُسْهِمُ فِي تَفْسِيرِ الْخَاصِّيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ
 لِللُّغَةِ. لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا. وَحَقِيقَةُ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ الْعَثُورُ عَلَى بَرَاهِينِ
 تَجْرِبِيَّةٍ تُؤَثِّرُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِنَفْسِهَا، تُشَكِّلُ نَتِيجَةً مُثِيرَةً.

الفصل الثامن البنية العميقة

م. ر.: لعلنا باستعادة تاريخ البنية العميقة نستطيع أن نفهم تاريخ النحو التوليدي مرةً أخرى، من وجهة نظرٍ أخرى هذه المرة؟

ن. ت.: إن شئت ذلك. دعينا نبدأ بتلك العبارة: اقترح مُصطلحُ «البنية العميقة deep structure» نفسه في سياقِ النظريةِ المعياريةِ Standard Theory. وتذكّرني أن هذه النظريةَ قالتُ بوجودِ تصنيفٍ للبنى:

- تلك التي أنتجتُها قواعدُ القاعدةِ الأساسيةِ **the base component**؛
- تلك التي تلقّت تفسيراً دلاليّاً؛
- تلك التي حولتها التحويلاتُ إلى بنى سطحيةٍ صحيحةٍ نحويّاً **well-formed**.

م. ر.: وتلك التي انطوت على المفرداتِ المعجميةِ؟!

ن. ت.: نعم. هذه كانتِ النقطةُ التي أُدخِلتُ عندها المفرداتُ المعجميةُ. ومن ثمّ كانتُ مُصطلحاً تقنياً، حقاً.

ومهما يكنُ، فإنّ العبارةَ قد استعملتُ في نواحٍ أخرى. ففتجنشتاين، مثلاً، استعملَ تمييزاً: «النحو العميق - النحو السطحي deep grammar - surface grammar». واتخذَ هوكِت مُصطلحاتٍ فنيّةٍ مُماثلةً في مؤلّفه «مسيرة علم اللغة

الحديث Course of Modern Linguistics». أما ما وَضَعْنَاهُ فِي الْحُسْبَانِ ، فقد كان التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تُقَدَّمُ مُبَاشَرَةً وَتِلْكَ الَّتِي تُقَدَّمُ مُبَاشَرَةً.

وقد أفادَ (وورف Whorf) مِنْ فِكْرَةٍ «الأَصْنَافِ الْمُقْتَنَعَةِ covert categories»، أيَّ الْأَصْنَافِ الَّتِي لَهَا فَاعِلِيَّةٌ وَظَيْفِيَّةٌ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ لَهَا انْعِكَاسٌ تَصْرِيفِيٌّ «مورفولوجيٌّ». والنَّقْطَةُ الْأَسَاسِيَّةُ هِيَ أَنَّ تَعْبِيرَاتٍ مُشَابِهَةً قَدْ ظَهَرَتْ قَبْلُ فِيمَا كُتِبَ فِي الْمَوْضُوعِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الْمَرْءَ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ الْمُصْطَلَحَ بِمَعْنَاهُ التَّقْنِيِّ، مُبْعَدًا التَّدَاعِيَاتِ الْفَضْفَاضَةَ لِلْفِكْرِ أَوْ الْمُثَامَلَاتِ الْغَامِضَةِ تَقْرِيبًا.

وَفِي الشَّكْلِ الْأَوَّلِ لِلنَّظَرِيَّةِ، كَمَا هِيَ الْحَالُ مَثَلًا فِي LSLT، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفْهُومٌ «الْبِنْيَةِ الْعَمِيقَةِ». أَمَّا أَقْرَبُ مَفْهُومٍ إِلَيْهِ فَكَانَ الْفِكْرَةُ التَّقْنِيَّةُ الْمُسَمَّاةُ «الْوَاسِمَ T: T-marker». وَقَدْ حَدَدَ هَذَا التَّمَثِيلَ الدَّلَالِيَّ. وَقَدْ مَثَّلَ الْوَاسِمَ T التَّارِيخَ التَّحْوِيلِيَّ لِلْجُمْلِ، مِثْلَمَا أَنَّ الْوَاسِمَ P: P-marker (وَاسِمَ الْعِبَارَةِ) مَثَّلَ التَّارِيخَ الْاِشْتِقَاقِيَّ لِقَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ. تَذَكَّرِي ذَلِكَ النَّمُودَجَ الْأَوَّلَ. وَكَانَ مُفْتَرَضًا أَنَّ قَوَاعِدَ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ تُولَّدُ عَدَدًا مُحَدَدًا مِنَ الْمَفَاعِيلِ التَّجْرِيدِيَّةِ، الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُحوَّلَ إِلَى بِنَى سَطْحِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ تَحْوِيلَاتٍ «فَرْدِيَّةٍ Singular» تَعْمَلُ عَلَى تَشْكِيلِ جُمْلَةٍ بَسِيطَةٍ simple sentence؛ وَمِنْ ثَمَّ ظَفَرَ الْمَرْءُ بِصَنْفٍ مُتَنَاهٍ مِنَ «الْجُمْلِ الْأَسَاسِيَّةِ kernel sentences» مِثْلُ: John said that (جون ذَكَرَ أَنَّ...)، in Bill has just come (بِلْ دَخَلَ تَوًّا)؛ وَكَذَا جُمْلٌ مُشْتَقَّةٌ بَسِيطَةٌ مِنْ مِثْلِ: This book has been read by everyone in England (هَذَا الْكِتَابُ قُرِئَ مِنْ جَانِبِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي بَرِيطَانِيَا)، إلخ.

وَقَدْ أَدْمَجَتِ التَّحْوِيلَاتُ «الَّتِي عُمِّمَتْ» بَعْضَ الْبِنَى بِنَى أُخْرَى: John

said that Bill has just come in (*), إلخ.

وإنَّ تَرْتِيبَ هذه التَّحويلاتِ الفَرْدِيَّةِ و«المُعَمَّمةِ»، شَكْلُ التَّارِيخِ التَّحوِيلِيّ الذي مَثَّلَهُ الوَاسِمْ T. وقد أَظْهَرَ هذا الوَاسِمْ في المَحْصَلَةِ كَيْفَ تَوْحَدُ هذه الجُمْلُ، والعَلاقاتُ التي تَكُونُ بَيْنَ أَجْزائها، وهَلَمْ جَرًّا. وَمِنْ هذه الوِجْهَةِ يَمَكُنُ أَنْ يُقَارَنَ بِالبِنْيَةِ العميقة.

أَمَّا في الشَّكْلِ الذي جَاءَ بَعْدَ ذلك مُباشَرَةً، فَإِنَّ مُصْطَلَحَ «البِنْيَةِ العميقة»، قد «حُدِّدَ بِصَرَامَةٍ» في بَعْضِ التَّواحي: رأينا في النِّظَرِيَّةِ المِيعاريَّةِ أَنَّها [البِنْيَةُ العميقة] تُولَّدُ بِوَساطَةِ الأساسِ the base، وَتَتَلَقَّى المُفْرَداتِ المُعْجَمِيَّةَ، وَتَخْضَعُ لِلتَّفْسِيرِ الدَّلَالِيّ، وَأخِيرًا تُحوَّلُ إلى بِنْيَةٍ سَطْحِيَّةٍ صَحِيحَةٍ نَحْوِيًّا. وَجَدِيرٌ بِالتَّذْكِيرِ أَنَّ هذه الخَاصِّيَّاتِ مُسْتَقِلَّةٌ. فَالبِنْيَةُ التي تَخْضَعُ لِلتَّفْسِيرِ الدَّلَالِيّ لَيْسَ لِرَإْمًا أَنْ تَكُونَ البِنْيَةُ التي هِيَ مَرَكُزُ الإِدْخَالِ المُعْجَمِيّ، أَو التي تُحوَّلُ إلى بِنْيَةٍ سَطْحِيَّةٍ.

والصَّحِيحُ أَنَّ العَمَلَ الذي أَعْقَبَ «المَظَاهِرَ Aspects»، مَيَّزَ بَيْنَ هذه الخَاصِّيَّاتِ المَخْتَلَفَةِ، وَأَكَّدَ أَنَّها يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُفْصَلَةً. وَتُؤَكِّدُ النِّظَرِيَّةُ المِيعاريَّةُ المُوسَّعةُ The Extended Standard Theory، أَنَّ البِنْيَةَ العميقةَ لَيْسَتْ هي التي تَخْضَعُ لِلتَّفْسِيرِ الدَّلَالِيّ. وَقَدْ رَأينا أَنَّهُ في ظِلِّ نَظَرِيَّةِ الأَثَرِ trace theory يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ البِنْيَةَ السَّطْحِيَّةَ تُضَمُّ مُباشَرَةً إلى التَّمثِيلِ الدَّلَالِيّ.

وَمَا حَدَثَ لِمَفْهُومِ «البِنْيَةِ العميقة» هُوَ مَا يَحْدُثُ في مَسَارِ تَطَوُّرِ آيَةِ نَظَرِيَّةٍ. فَالمُصْطَلَحَاتُ تُحَدَّدُ ضِمْنَ سِيَاقٍ خَاصٍّ، وَيَتَغَيَّرُ هذا السِّياقُ كُلَّمَا أُنْشِئَ النَّاسُ فَرَضِيَّاتٍ تَجْرِبِيَّةً مُخْتَلَفَةً، فَتَأْخُذُ المُصْطَلَحَاتُ حِينئِذٍ مَعْنًى مُخْتَلَفًا.

خُذِي مُصْطَلَحَ ذَرَّةٍ atom: لَا يَدُلُّ ذلكَ المُصْطَلَحُ اليَوْمَ عَلَى ما دَلَّ عَلَيْهِ

*- جون دُكَرَ أَنَّ بِلَ قد دَخَلَ تَوًّا.

عند الإغريق . إذ تَغَيَّرُ المفهوماتُ باستمرارٍ كُلِّما تَغَيَّرَ الْمَنْبْتُ النَّظَرِيُّ . ولا يَعْرِضُ عَلَى أَحَدٍ فِي مِيدَانِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ إدراكُ ذلك - عَلَى الْأَقْلَ ليس إلى حَدٍّ كَبِيرٍ جَدًّا . أَمَّا فِي مِيدَانِ كَعْلَمِ اللُّغَةِ فَإِنَّهُ يُزَعِّجُ النَّاسَ كَثِيرًا . وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَقُومَ بِهِ هُوَ مُحَاوَلَةُ الْحِفَافِ عَلَى وَضُوحِ الْفِكْرِ .

وعند بعضهم ، تَظَلُّ «الْبِنْيَةُ الْعَمِيقَةُ» تعني تلكِ الْبِنْيَةُ الَّتِي تَحْمِلُ التَّمْثِيلَ الدَّلَالِيَّ .

م . ر .: بَعْدَ عِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّوْلِيدِيَّ ...

ن . ت .: تَقْرِيْبًا . وَقَدْ وَاصَلْتُ اسْتِعْمَالَ هَذَا الْمُصْطَلَحِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى الْبِنْيَةِ الَّتِي يُوَلِّدُهَا الْأَسَاسُ the base ، الَّتِي تُحَوَّلُ إِلَى بِنْيَةٍ سَطْحِيَّةٍ صَاحِيحَةٍ نَحْوِيًّا . وَيَكْمُنُ مَصْدَرُ اللَّبْسِ فِي حَقِيقَةٍ أَنَّنَا نَسْتَعْمِلُ الْمُصْطَلَحَ نَفْسَهُ فِي مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ .

ومهما يَكُنْ ، فَإِنَّ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ اللَّبْسِ يَجِيءُ مِنْ أَنْاسٍ يَعْمَلُونَ عَلَى أَطْرَافِ الْمَيْدَانِ ، كَبَعْضِ نَاقِدِي الْأَدَبِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ الْمُصْطَلَحَ فِي مَعْنَى فَتَجَنُّشَتَيْنِيٍّ غَامُضٍ . وَقَدْ نَسَبَ كَثِيرُونَ كَلِمَةَ «عَمِيقَةٌ» إِلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ «الْبِنْيَةَ الْعَمِيقَةَ» وَالنَّحْوَ الْعَامَّ universal grammar «شَيْءٌ وَاحِدٌ .

وَقَدْ قَرَأْتُ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْتِقَادَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ سُقْمِ النَّظَرِ أَنْ نَفْتَرِضَ وَجُودَ بِنْيٍ عَمِيقَةٍ فِطْرِيَّةٍ . وَأَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ ، وَلَمْ أَكْتُبْ مَا يُوجِي بِأَيِّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، مَعَ أَنَّ آخَرِينَ قَدْ دَافَعُوا عَنْ هَذَا الرَّأْيِ .

وَشَبِيهُ بِهَذَا أَنَّنِي كَثِيرًا مَا قَرَأْتُ أَنَّ مَا اقْتَرَحَهُ هُوَ أَنَّ الْبِنْيَةَ الْعَمِيقَةَ لَا تَخْتَلِفُ مِنْ لُغَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَأَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعًا تَمْتَلِكُ الْبِنْيَةَ الْعَمِيقَةَ نَفْسَهَا: يَبْدُو أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَصْلَتَهُمْ كَلِمَةُ «عَمِيقَةٌ» ، فَظَنُّوا أَنَّهَا مِنَ الثَّوَابِتِ invariants . وَأُعِيدُ أَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي زَعَمْتُ أَنَّهُ «ثَابِتٌ invariant» ، إِنَّمَا هُوَ النَّحْوُ الْعَامُّ

. Universal grammar

م. ر.: في كتابك «تأملات في اللغة Reflections on language»

تَحِلُّ مُصْطَلَحَ «النِّبْيَةُ الْعَمِيقَةُ» مَحَلَّ «وَاسِمِ أَوَّلِيٍّ لِلْعِبَارَةِ initial

phrase marker

ن. ت.: تلك مُحاوَلَةٌ مِنِّي لِتَفَادِي صُورِ اللَّبْسِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا تَوًّا. أَمَّا إِنْ أَرَادَ النَّاسُ أَنْ يُلْبَسَ عَلَيْهِمْ، فَسَيَنْجَحُونَ دَائِمًا، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الْمُصْطَلَحِ الَّذِي تَسْتَعْمِلُونَهُ. وَتَعْبِيرُ «الوَاسِمِ الْأَوَّلِيِّ لِلْعِبَارَةِ» يَحْظَى بِالطَّنِينِ الَّذِي تَحْظَى بِهِ الْمُصْطَلَحَاتُ التَّقْنِيَّةُ. لَكِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَظَلَّ مُضِلًّا: كَيْفَ سَيُفَسِّرُ الْمَرْءُ كَلِمَةَ «أَوَّلِيٍّ initial»؟ - أَبَوْصَفِهِ مُتَقَدِّمًا فِي الْعَهْدِ؟ - سَيَكُونُ ذَلِكَ هُرَاءً.

م. ر.: يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ حَقِيقَةُ أَنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ قَدْ رُبِطَ بِالنِّبْيَةِ الْعَمِيقَةِ...

ن. ت.: ... مِمَّا جَعَلَ النَّاسَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ «عَمِيقٌ» يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَبِطَ بِعِلْمِ الدَّلَالَةِ، إِذْ يَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَيْئًا «عَمِيقًا». وَأَعِيدُ الْقَوْلَ إِنَّ التَّدَاعِيَّ هُوَ الَّذِي يُثِيرُ أَشْكَالَ سُوءِ الْفَهْمِ هَذِهِ. وَنَعُودُ إِلَى مَسْأَلَةِ الطَّرَائِقِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا الْأَشْيَاءُ مُثِيرَةً أَوْ «عَمِيقَةً» عَقْلِيًّا. يَبْدُو عِلْمُ الدَّلَالَةِ عَمِيقًا نِسْبِيًّا لِأَنَّهُ يَظَلُّ غَامِضًا. لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي لِزَامًا أَنَّهُ مَوْضِعٌ عَمِيقٌ حَقًّا. رَبَّمَا يَكُونُ عَادِيًّا لَكِنَّا مَا نَزَالُ نَجْهَلُ ذَلِكَ. رَبَّمَا لَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مُثِيرٌ لِلْفَهْمِ. وَلَا مُحَاجَّةٌ فِي أَنَّ عِلْمَ الدَّلَالَةِ مُثِيرٌ بِمَا هُوَ كَذَلِكَ. أَمَّا عَلَى الْمُسْتَوَى الْعَقْلِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ يَثْبُتُ فِي النَّهَايَةِ أَنَّ عِلْمَ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ يَقْتَضِي قَوَاعِدَ تَجْرِيدِيَّةً جَدًّا تَتَدَخَّلُ فِي الْأَسْتِنَاجَاتِ الْمُعَقَّدَةِ وَتُفَسِّرُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الظَّاهِرَاتِ. وَفِي ذَلِكَ الْمَعْنَى، يَكُونُ عِلْمُ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ عَمِيقًا - مِثْلَمَا أَنَّ الْفِيزِيَاءَ عَمِيقَةٌ. فَهَلْ عِلْمُ الدَّلَالَةِ «عَمِيقٌ» فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى؟ - لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ تَكُونُ الْإِجَابَةُ: لَا. فَلِكَيْ يَسْتَحَقَّ مَوْضِعٌ مَا صِفَةً «عَمِيقًا»، يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ إِجَابَاتٍ لِبَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَحْظَى بِمُسْتَوَى مَعَيَّنٍ مِنَ الْعُمُقِ الْعَقْلِيِّ.

لكنّ هذا كلّهُ لا صِلَةٌ له بِالْفِكْرَةِ التَّفَنِّيَّةِ «البُنْيَةُ العميقة» .

م. ر.: وكذا نَحْدُ أيضاً أَنَّ عَمَلَ (جوان برسنان Joan Bresnan) - الذي

يُوكِّدُ أَنَّ النَّبْرَ فِي جُمْلِ اللُّغَةِ الإنْجِلِيزِيَّةِ لا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِي الْحُسْبَانِ

البُنْيَةُ السَّطْحِيَّةِ فَحَسْبُ، بل البُنْيَةُ العميقة والمتوسَّطَةُ أيضاً - يقضي

عَلَى فِكْرَةٍ أَنَّ الْجَانِبَ الصَّوْتِيَّ لِلُّغَةِ وَحْدَهُ يَسْتَعْمِلُ السَّطْحَ ...

ن. ت.: ذلكم صَحِيحٌ، وهو جانبٌ آخَرُ لِلنَّظَرِيَّةِ الْمُعْيَارِيَّةِ انْتِقَاداً مَتَمِيزاً .

م. ر.: فِي النَّظَرِيَّةِ الْمُعْيَارِيَّةِ، لَدَيْنَا تَسَاوُفٌ فِي الْعِلَاقَاتِ: بُنْيَةُ عميقة - تفسير

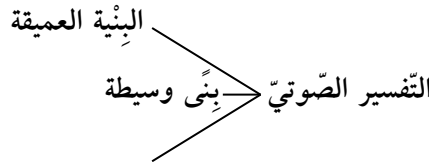
دِلَالِي، ثُمَّ: بُنْيَةُ سطحيَّة - تفسير صوتي «فونولوجي» .

ن. ت.: يبدو اليَوْمَ أَنَّ مُخَطَّطاً مُخْتَلِفاً رُبَّمَا يَكُونُ ضَرُورِيّاً: حَيْثُ البُنْيَةُ السَّطْحِيَّةُ

تُحَدِّدُ التَّمَثِيلَ الدِّلَالِيَّ - أريدُ: فِي الْمَعْنَى الْمُغْنَى لِلْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ الَّذِي تُسْتَخْلَصُ

فِيهِ بَعْضُ خَاصِّيَّاتِ البُنْيَةِ العميقةِ الأَسَاسِيَّةِ بِوَسَاطَةِ نَظَرِيَّةِ الأَثَرِ Trace Theory .

م. ر.: والبُنْيَةُ العميقةُ رُبَّمَا تُحَدِّدُ عِلْمَ وَظَائِفِ الأصواتِ . وذلك سَيُعْطِي الآتِي:



التفسير الدِّلَالِيَّ ↔ البُنْيَةُ السَّطْحِيَّةُ

ن. ت.: لكنّ ذلكَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ . وقد أُثِيرَ تَسَاوُلٌ حَوْلَ خَاصِّيَّةِ أُخْرَى

تُنْسَبُ إِلَى البُنْيَةِ العميقةِ فِي النَّظَرِيَّةِ الْمُعْيَارِيَّةِ . وتلكَ هِيَ فِكْرَةُ أَنَّهَا تُعْبَرُ عَنْ «كُلِّ»

العِلَاقَاتِ النَّحْوِيَّةِ بَيْنَ الْمُفْرَدَاتِ الْمُعْجَمِيَّةِ . خُذِي فَرَضِيَّةَ جِين - روجر فيرغنون

Jean - Roger Vergnaud حَوْلَ جُمْلِ الصِّلَةِ relative clauses^(١) . إذ

١- جُمْلُ الصِّلَةِ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ French Relative Clauses، رسالُهُ دكتوراه فِي الفِلْسَفَةِ غَيْرِ

مَنْشُورَةٌ، مَعْهَدُ مَاسُوشُوسْتَسِ لِلتَّكْنُولُوجِيَا، كِيمْبَرْدِج، مَاسُوشُوسْتَسِ، ١٩٧٤م .

يَتَقَدَّمُ بِفَرَضِيَّةٍ تَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ فِي جُمْلَةٍ تَتَضَمَّنُ جُمْلَةً صِلَةً، تُرْفَعُ raised العبارة الاسميَّةُ التي تَظْهَرُ فِي الجُمْلَةِ الرَّئِيسَةِ مِنَ الجُمْلَةِ المَوْصُولَةِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الجُمْلَةَ: I saw the man who was there (رَأَيْتُ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ هُنَاكَ) تُشْتَقُّ مِنْ بِنْيَةٍ عَمِيقَةٍ مِثْلُ:

((the man was there)
NP S)

حَيْثُ العبارة الاسميَّةُ the man تُؤْخَذُ مِنَ الجُمْلَةِ المُدْمَجَةِ وَتُوضَعُ فِي مَوْضِعِ الـ NP (العبارة الاسميَّةِ)، تَارِكَةً فَرَاغًا عَلَى يَمِينِ الفِعْلِ فِي الجُمْلَةِ الرَّئِيسَةِ. وَبِمُقْتَضَى هَذِهِ الفَرَضِيَّةِ، تُتْرَكُ العبارةُ فارغةً فِي البِنْيَةِ العميقة وَيُدْخَلُ اسْمٌ فِي هَذِهِ البِنْيَةِ بِوَسَاطَةِ قَاعِدَةٍ تَحْوِيلِيَّةٍ. وَسَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ العِلَاقَةَ النَّحْوِيَّةَ (وَمِنْ ثَمَّ العِلَاقَةَ الجَذَرِيَّةَ) بَيْنَ see وman تُفَرِّزُ فِي البِنْيَةِ العميقة. وَأَنَّ العِلَاقَةَ النَّحْوِيَّةَ بَيْنَ مَوَاقِعِ البِنْيَةِ تُحَدِّدُهَا البِنْيَةُ العميقة، وَلَكِنْ لَيْسَ العِلَاقَةُ بَيْنَ العِنَاصِرِ المُعْجَمِيَّةِ. وَهَكَذَا يَكُونُ لَدَيْنَا هُنَا مَرَّةً أُخْرَى فِكْرَةٌ مُثْبِتَةٌ تُعَدِّلُ تَحْدِيدَ البِنْيَةِ العميقة.

وَقَدْ قَدَّمَ كَارْلُوسُ أَوْتِيرُو Carlos Otero فِكْرَةً مُثْبِتَةً أَكْثَرَ تَطَرُّفًا. وَيَذْهَبُ إِلَى أَنَّ إِدْخَالَ المُفْرَدَاتِ المُعْجَمِيَّةِ يَحْدُثُ بِتَمَامِهِ فِي البِنْيَةِ العميقة. لِمَاذَا؟- لَشَيْءٍ وَاحِدٍ، هُوَ أَنَّ التَّحْوِيلَاتِ لَا تُشِيرُ إِلَى الخَاصِّيَّاتِ الصَّوْتِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ. وَإِنْ دَخَلَتِ الْكَلِمَاتُ فِي البِنْيَةِ عِنْدَ مَسْتَوَى البِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ سَتُفَسَّرُ: تَتَبَّأُ هَذِهِ النِّظَرِيَّةُ بِأَنَّ الخَاصِّيَّاتِ «المُمَيَّزَةَ» لِلْكَلِمَاتِ، لَيْسَ لَهَا أَيُّ تَأْثِيرٍ فِي التَّحْوِيلَاتِ، مِمَّا يَبْدُو صَحِيحًا.

وَهَذِهِ الفَرَضِيَّةُ مُثْبِتَةٌ، خَاصَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى تِلْكَ اللِّغَاتِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا لِلتَّصْرِيفِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي البِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ. وَفِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، لَا يَحْدُثُ ذَلِكَ إِلَّا فِي حَالِ الْكَلِمَاتِ الشَّاذَّةِ. أَمَّا حِينَ تَتَنَوَّعُ الْأَشْكَالُ الصَّرْفِيَّةُ التَّظَامِيَّةُ تَنَوُّعًا كَبِيرًا، فَإِنَّهُ

رَبِّمَا يَمِيلُ المرءُ إِلَى أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْكَلِمَةَ تُوَلَّدُ فِي الشَّكْلِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ فِي الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ. وَكَذَا فَإِنَّ اعْتِبَارَاتٍ أُخْرَ وَثِيقَةً الصَّلَةِ بِالْمَوْضُوعِ. وَيَظَلُّ السَّوَالُ مَفْتُوحًا، أَمَّا إِنْ كَانَتْ الْإِجَابَةُ إِيْجَابِيَّةً، فَإِنَّ الْبُنْيَةَ السَّطْحِيَّةَ إِذْ ذَاكَ تَكُونُ مَرْكَزَ إِدْخَالِ الْمُفْرَدَاتِ الْمُعْجَمِيَّةِ.

م. ر.: وَتُعْطَى كَلِمَةٌ «عَمِيقَةً» أحيانًا قِيَمَةً لِأَسْبَابٍ سَيِّئَةٍ كَتَلِكِ الَّتِي انْتَقَدَتْ مِنْ أَجْلِهَا. وَيَرَى النَّاسُ إِمْكَانِيَّةَ نَظَرِيَّةٍ تَأْوِيلِ heremeneutics جديدةٍ هُنَا. وَهَذَا هُوَ الْخَطَأُ نَفْسُهُ حَقًّا...

ن. ت.: نَعَمْ، بِلُغَةِ الْأَشْيَاءِ «الْمُغْطَاةِ»، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُكْشَفَ؛ لَكِنْ هُنَاكَ جَوَانِبٌ كَثِيرَةٌ فِي عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ phonology، هِيَ «عَمِيقَةً» فِي هَذَا الْمَعْنَى لِلْكَلِمَةِ.

م. ر.: إِنَّ كَلِمَةَ «سَطْحِيَّةٍ surface» هِيَ أَيْضًا خَادِعَةٌ...

ن. ت.: الْبُنْيَةُ السَّطْحِيَّةُ شَيْءٌ تَجْرِيدِيٌّ تَمَامًا، يَتَضَمَّنُ خَاصِّيَّاتٍ لَا تَظْهَرُ فِي الشَّكْلِ الْمَادِّيِّ... وَبِفِعْلِ هَذِهِ الْخَاصِّيَّاتِ تَكُونُ اللَّغَةُ خَلِيقَةً بِالْدِّرَاسَةِ.

م. ر.: أَنَا شَخْصِيًّا أَجِدُ خِلَابَةً كَبِيرَةً فِي ذَلِكَ التَّجْرِيدِ أَوْ الْعُمَقِ الَّذِي يُرْبِطُ بِنَظَرِيَّةِ الْأَثَرِ trace Theory - أَقْصِدُ الدِّرَاسَةَ الْمَدْهَشَةَ لِلتَّأْثِيرِ التَّرْكِيبِيِّ لِلصَّمْتِ: فِي عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ يُغَيِّرُ الْأَثَرُ التَّنْغِيمَ؛ وَفِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ يُحَدِّدُ مَلَامَحَ الْمَرْجِعِ الْمُشْتَرَكِ co-reference...

ن. ت.: تِلْكَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، خَاصِّيَّةٌ مُثِيرَةٌ لِلْبُنْيِ السَّطْحِيَّةِ.

م. ر.: فِي الشَّعْرِ أَيْضًا، فِي الْأَوْزَانِ، هَذِهِ السَّكَاتُ الْبِنَائِيَّةُ أَسَاسِيَّةٌ... وَلَكِنْ أَلَا تَحَسُّبُ أَنَّكَ حِينَ تَضَعُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ التَّشْدِيدِ عَلَى الْبُنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ، إِنَّمَا تَنْصُرُ تَهْمَةً الْعُودَةَ إِلَى الْبِنْيَوِيَّةِ Structuralism؟ يُمْكِنُ الْقَوْلُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، إِنَّكَ كُلَّمَا هَذَبْتَ مَفْهُومًا انْتَهَمْتَ بِإِغْفَالِ فَرَضِيَّاتِكَ الْأَسَاسِيَّةِ. وَأَتَذَكَّرُ أَنَّي قَرَأْتُ أَنَّ تَحْدِيدَكَ لِدَرَجَاتِ الصَّحَّةِ

النَّحْوِيَّةُ grammaticalness، يُشِيرُ إِلَى أَنَّكَ قَدْ أَغْفَلْتَ مَفْهُومَ
الصَّحَّةِ النَّحْوِيَّةِ.

ن. ت.: حَسَنًا، الْحَقُّ أَنَّ فِكْرَةَ «دَرَجَةِ الصَّحَّةِ النَّحْوِيَّةِ» طَوَّرَتْ فِي الْوَقْتِ
نَفْسِهِ بِوَصْفِهَا فِكْرَةَ «الصَّحَّةِ النَّحْوِيَّةِ» ضِمْنَ نَظَرِيَّةِ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ، أَيْ فِي أَوَائِلِ
الْخَمْسِينَاتِ. وَقَدْ خُصِّصَ فَضْلٌ مِنَ الـ LSLT لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَأُشِيرَ إِلَيْهَا أَيْضًا
فِي «الْبَنَى النَّحْوِيَّةِ». لَكِنْ مَا هُوَ أَكْثَرُ أَهْمِيَّةً، هُوَ أَنَّ نَوْعَ الْإِنْتِقَادِ الَّذِي تُشِيرِينَ إِلَيْهِ
يَكْشِفُ ثَانِيَةَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ الْحَالِ فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْمَوْقِفِ الَّذِي
كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي الْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَ«الْإِنْسَانِيَّاتِ humanities» مِنْ جِهَةٍ
أُخْرَى. وَإِنَّ هَذِهِ الْأَخِيرَةَ، الَّتِي تَفْتَقِرُ إِلَى الْمُحْتَوَى الْعَقْلِيِّ الْمَوْجُودِ فِي الْعُلُومِ
الطَّبِيعِيَّةِ، مُتَأَثِّرَةٌ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ بِشَخْصِيَّاتٍ أَكْثَرَ مِنْهُ بِفِكْرٍ. وَمِنْ الْبَيِّنِ فِي ذَاتِهِ فِي
مِيزَانِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَفْهُومَاتِ فِي طَرِيقِهَا إِلَى التَّغْيِيرِ؛ أَعْنِي تَمَامًا أَنَّكَ تَأْمَلِينَ فِي أَنَّ
تَتَعَلَّمِي شَيْئًا. وَلَيْسَ هَذَا لَاهُوتًا، مَعَ ذَلِكَ. وَأَنْتِ لَا تَعْلَمِينَ أَنَّكَ يَنْبَغِي أَنْ تَظَلِّي
كَمَا أَنْتِ فِي بَقِيَّةِ حَيَاتِكَ. عَلَى الْعَكْسِ، فِي الْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ فِي الدِّرَاسَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ كَثِيرًا مَا يُضْفَى الطَّابَعُ الشَّخْصِيُّ عَلَى الْمَوَاقِفِ. وَمَتَى اتَّخَذْتَ مَوْقِفًا
يُفْتَرَضُ أَنْ تَذُبِّي عَنْهُ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا يَحْدُثُ. فَمَوَاقِفُ مَدْرَسَةٍ أَوْ أُخْرَى تَتَطَابَقُ
مَعَ الْأَشْخَاصِ. يَغْدُو الثَّبَاتُ مَسْأَلَةً شَرَفٍ، وَيَعْنِي ذَلِكَ أَلَّا تَتَعَلَّمِي شَيْئًا. أَمَّا فِي
عِلْمِ اللُّغَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا فِتْ جَدًّا لِلنَّظَرِ، إِذْ تُتَّهَمِينَ بِتَكْذِيبِ نَفْسِكَ إِنْ أَنْتِ عَدَلْتِ
مَوْقِفَكَ. وَكَثِيرًا مَا قَرَأْتُ مِثْلَ هَذَا الْإِنْتِقَادِ، وَأَجِدُ صُعُوبَةً فِي فَهْمِهِ.

إِنْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَى اكْتِشَافِ الْحَقِيقَةِ، سَوَاءٌ أَكُنْتِ تَعْمَلِينَ وَحَدَكِ أَمْ فِي
جَمَاعَةٍ، فَلَا شَكَّ فِي أَنَّكَ سَتُغَيِّرِينَ رَأْيَكَ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ - كُلَّمَا عُرِضَتْ قَضِيَّةٌ
فِي مَجَلَّةٍ جَادَّةٍ. وَحِينَ يَكُونُ ثَمَّةُ تَقَدُّمٍ حَقِيقِيٍّ سَتَكُونُ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتُ ذَاتَ شَأْنٍ.
سَتُفَكِّرِينَ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلَفٍ. وَالتَّقْدِيرَاتُ التَّقْرِيبِيَّةُ الْأُولَى يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَبَدَلَ بِهَا

تقديراتٌ تقريبيةٌ أخرى، تقديراتٌ أفضلٌ منها.

وعَلَى قَدَرٍ ما تكونُ «الْعَوْدَةُ المزعومةُ إلى البِنْيَوِيَّةِ» مُقْلِقَةً. قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ هَبِي أَنْ ذَلِكَ كان صحيحًا - حَسَنًا!. إِنَّهُ كَثِيرًا ما يَحْدُثُ أَنْ تُهْمَلَ الفَرَضِيَّاتُ في العُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ في مَرَحَلَةٍ ما لِأَنَّها لا تكونُ كافِيَةً، لَكِنَّهُ يُعادِ بِنَاؤُها لاحتِقًا حِينَ يُحَقِّقُ مُسْتَوًى أَعْلَى مِنَ الفَهِمِ. خُذِي نَظَرِيَّةَ الذَّرَّةِ: فَقَدْ أَهْمَلْتُ، ثُمَّ بُعِثْتُ في صُورَةٍ مُخْتَلَفَةٍ. ولا يعني ذلك أننا قد عُدْنَا إلى دِيمُقْرِيطس! لا، البتَّة. تَتَقَدَّمُ الأشياءُ، وتَظْهَرُ منظوراتٌ جديدة، مِمَّا يُعيدُ تَفسِيرَ ما كان قد رُفِضَ من قَبْلُ. وليس ثَمَّةَ «هزيمةٍ شخصيَّةٍ» في ذلك.

خُذِي مَسْأَلَةَ «الدِّيْكَارْتِيَّةِ Cartesianism». كان صحيحًا تمامًا إغفالُ المبدأ الدِّيْكَارْتِيّ لِأَمَدٍ طَوِيلٍ. وأَحَسَبُ أَنَّهُ مِنَ الصَّحِيحِ أَنْ نَعُودَ إلى شَيْءٍ ما كَهَذَا المبدأ اليَوْمِ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ في شكلٍ مُخْتَلَفٍ جَوْهَرِيًّا.

م. ر.: ولا يبدو في حالِ البِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ أَنْ تكونَ لَدَيْنَا عَوْدَةٌ إلى أَيِّ شَيْءٍ كَانَتْ عَلَيْهِ.

ن. ت.: أَكَّدَ عَمَلُ الأَعْوامِ العَشْرَةِ الأخيرةِ أَنَّ البِنْيَةَ السَّطْحِيَّةَ تَقُومُ بِفِعْلِ لَمْ يُفْطَنَ إِلَيْهِ قَبْلُ. فَهَلْ في مَقْدُورِ المَرءِ، مِنْ ثَمَّ، أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ عَوْدٍ إلى البِنْيَوِيَّةِ؟ ما أَرَاهُ أَنْ ذَلِكَ لا يعني شَيْئًا البتَّةَ في هَذِهِ الحالِ. فالْمَفْهُومُ التَّقْنِيُّ لِلْبِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ لَمْ يُوْجَدْ، عَلَى الحَقِيقَةِ، في النِّظَرِيَّاتِ البِنْيَوِيَّةِ، والنِّظَرِيَّاتُ الحَدِيثَةُ تُثِيرُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الأَسْئَلَةِ بِشَأْنِ البِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ مِمَّا لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قد أَثِيرَ في الإِطارِ البِنْيَوِيّ. وَلَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ المَفْهُومُ، في مَعْنَاهُ الحَالِيّ، إِلَّا مَعَ النِّحْوِ التَّوَلِيدِيِّ، بِوَضْفِهِ صِنْفًا لا مُتَنَاهِيًّا مِنَ البِنْيِ...

م. ر.: يُحَدِّدُ هَذَا المَفْهُومُ مِنْ خِلالِ مُقَابَلَتِهِ لِـ «البِنْيَةِ العميقة deep

structure إلخ.

ن. ت.: على غرار ما أسلفت، فإنَّ البنية السطحية التي تُدمج الآثار traces، أكثر تجريدًا من الفكرة الأولى. وهكذا فإنَّ لدينا مفهومًا للبنية السطحية مُحددًا بلغة القواعد التي تولد منظومة لا محدودة من الأشياء، ويَقِفُ مُقابلًا للبنية العميقة، وهو أكثر تجريدًا من ذي قَبْل، في أنَّ خاصِّياتِ للبنية العميقة تُستخلص من خلال نظرية الأثر.

ومن جهة أخرى، هَبِي أنَّ أَحَدَ النَّاسِ قَدَّرَ له أنَّ يكتشف أنَّ المفهوم البنيويَّ لِلْفونيم phoneme يُؤدِّي وظيفةً مُهمَّةً جدًّا، لم يُفطنَ إليها من قَبْل. وهَبِي أنَّ الحُجَجَ التي قُدِّمَتْ لِتَنْفِي وجودِ مستوًى فونيميٍّ، يمكنُ أنَّ تُدخَصَ ضِمْنَ إطارِ مفهوميٍّ آخَر. لن يكونَ ذلك عودةً إلى فكرةٍ قديمة، وإنَّما هو تقدُّمٌ إلى فكرةٍ جديدة، تُضفي دِلالةً جديدةً على مفهومٍ قديم. وسيكونُ ذلك تقدُّمًا.

وحيْنَ يُضْفَى الطَّابَعُ الشَّخْصِيُّ على التَّظَرِّياتِ والمفهُوماتِ التي تَظْهَرُ فيها، يتطلَّعُ المرءُ إلى أنَّ يرى «مَنْ» المُخْطِئُ؛ لكنَّ تلكَ ليستِ السَّبِيلَ الصَّحِيحَةَ لِلتَّفْكِيرِ. ذلك أنَّ «مَنْ» قد يكونُ مُصِيبًا في سِياقِ زمانه، قد يكونُ مُخْطِئًا في سِياقِ نظريَّةٍ أُثِرَ من سابقتها. وقد يَثْبُتُ أَنَّهُ مُصِيبٌ مرَّةً أُخرى. ذلك حَسَنٌ. ويُضَافُ إلى ذلك أَنَّهُ ليسَ هناك ما هو خَطَأٌ مِنْ حَيْثُ هو خَطَأٌ. ويُؤَسَّسُ التَّقَدُّمُ على فِكْرٍ مُثْبِتَةٍ يَثْبُتُ، على الجُمْلَةِ، أَنَّها خاطئةٌ - إمَّا أنَّ تكونَ ناقصةً، وإمَّا أنَّ يكونَ أَسِيءَ فَهْمُها، وإمَّا أنَّ تكونَ خاطئةً بِتَمَامِها.

م. ر.: في العلومِ الإنسانيَّةِ، يُمضي نَفَرٌ مِنَ الأساتذةِ حياتَهُم حَقًّا في تَدْرِيسِ رسائلِهِم لِلدَّكتوراه.

ن. ت.: إنَّ كُلَّ مَنْ يُعَلِّمُ وهو في سِنِّ الخمسينِ ما كان يُعَلِّمُهُ وهو في سِنِّ الخامسةِ والعشرينِ يَحْسُنُ به أنَّ يَجِدَ حَرْفَةً أُخرى. وإنَّ لم يَحْدُثْ في خَمْسَةِ وعشرينَ عامًا ما يُبْرِهنُ لك على أنَّ فِكْرَكَ كانَتْ خاطئةً، فإنَّ ذلك يعني أَنَّكَ

لست في مجالٍ حيٍّ، أو ربّما تكونُ جزءاً من فِرْقَةٍ دينيّةٍ .

م. ر.: في ميدانٍ لا يُطلَبُ مِنْكَ فيه إلّا أن تُطبّقَ نظريّةً على شيءٍ جديدٍ،
يمكنُ أيضاً أن يظهرَ هذا الضَّرْبُ مِنَ التَّصَلُّبِ. وفي إطارِ عِلْمٍ ووظائفِ
الأصواتِ البنيويّ، مثلاً، يُقدِّمُ لكَ منهجٌ للعُثورِ على النِّظامِ الصّوتيِّ
للُّغة، وحينَ تكونُ قد وجدته، يُكَمِّلُ العَمَلُ. وفي عِلْمٍ ووظائفِ
الأصواتِ التّوليديّ يكونُ ذلكَ مكانَ بدءِ العَمَلِ ...

ن. ت.: وقد عَرَضَ عِلْمُ وظائفِ الأصواتِ البنيويّ - بِصَرَفِ النّظَرِ عن
مسألةٍ مشروعِيّته - مسائلَ أكثرَ محدوديّةً. وعلى غِرارٍ ما تقولينَ، متى أجبتَ عن
هذه الأسئلة، يمكنُ أن يبدأَ العَمَلُ المُشيرَ.

وقد أقلّقتني ذلكَ الجانبُ مِنَ البِنْيويّةِ حينَ كُنْتُ طالباً. وَجَدَ عِلْمُ لِلُّغةِ هَوًى
كبيراً في نفسي، كانَ أسيراً لي. لكنّ النّقطةَ الأساسيّةَ لم تُكُنْ واضحةً تماماً؛ كانَ
هذا الفرعُ الدّرَاسيّ، بِمعنى ما، مُغلّقا. هَبِيَ أن المرءَ قد أتمَّ التّحليلَ الفونيميَّ
للُّغاتِ الأرضِ جميعاً، وكذا التّحليلَ الصّرفيّ وتَحلِيلَ المُكوّناتِ الأساسيّةِ،
بِمَعْنَاهَا فِي المنهجِ البِنْيويّ. هذه أنظِمَةٌ مُتناهيةٌ (معَ بعضِ الغموضِ في الحالِ
الأخيرة)، قابِلَةٌ لِلتّحليلِ وَفَقاً لِإِجْراءاتٍ اعتدّتْ مُكتمِلَةً جوهريّاً، خلا بعضِ
التّفاصيلِ، ممكِنَةُ التّطَبُّقِ على آيَةٍ لُغة. مِثْلُ هذا الميدانِ لا يكادُ يَسْتَحِقُّ عِناءَ
الاستكشافِ. ويبدو الأمرُ أكثرَ وُضوحاً في التّاريخِ الطّبيعيّ: تخيّلِي أنّكَ قد
وَصَفْتَ الفَرَاشاتِ كُلَّهَا ...

م. ر.: في هذه النّقطة، يكونُ عِلْمُ اللُّغةِ البِنْيويّ مُضلّلاً، على غِرارِ الطّريقةِ
التي يُعلِّمُ بها. ماذا يَطْلُبُ الأساتذةُ مِنَ الطّلابِ؟ - استعمالُ منهجٍ مُعدٍّ
مِن قَبْلُ. وَيُتَهَمُ المرءُ بِإِعادةِ ما قد أُسِّسَ مِن قَبْلُ. أمّا شَخْصياً، فإنَّ
حِماسي لِعِلْمِ اللُّغةِ انبَعَثَ على نطاقٍ واسعٍ، في الوقتِ الذي أدركْتُ
فيه أنّه قدَّمَ أداةً لِإنْجَازِ عَمَلٍ عقليٍّ ومُبدِعٍ في ميدانِ «العلومِ الإنسانيّةِ».

وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، كَانَ يُطَلَّبُ مِنْ طُلَّابِ الدَّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْعُلُومِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ أَنْ يُطَبِّقُوا الْمَنَاهِجَ مِنْ دُونِ أَيِّ تَأَمُّلٍ ...
وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْإِبْدَاعِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الْمُلَازِمَةَ لِلنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ قَائِمَةٌ أَيْضًا
عَلَى الْقَوَاعِدِ، لَكِنَّهَا قَوَاعِدٌ وَاضِحَةٌ، فِي مَقْدُورِ الْمَرْءِ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهَا
أَوْ يُغَيِّرَهَا.

ن. ت.: زَيْدِي عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ الْحَقْلَ الْمَعْرِفِيَّ الَّذِي مَا يَزَالُ فِي مَسْتَوًى
يُمْكِنُ أَنْ تُطَبَّقَ فِيهِ الْمَنَاهِجُ الْإِجْرَائِيَّةُ، هُوَ حَقْلٌ فِي مَسْتَوًى بِدَائِيٍّ جَدًّا، عَلَى
الْحَقِيقَةِ. مَسْتَوًى وَصْفِيٌّ صَرَفٌ، كَعِلْمِ الْفَلَكَ عِنْدَ الْبَابِلِيِّينَ مَثَلًا، أَوْ لَيْسَ حَتَّى
كَذَلِكَ. وَلَا تُوجَدُ «مَنَاهِجٌ» فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي حَقْلٍ يَمْتَلِكُ مَحْتَوًى عَقْلِيًّا حَقِيقِيًّا.
الْهَدَفُ هُوَ اكْتِشَافُ الْحَقِيقَةِ. أَمَّا كَيْفَ نَفْعَلُ ذَلِكَ، فَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ
إِجْرَاءَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ تُرَسِّمَ حُدُودَهَا سَلَفًا لِإِكْتِشَافِ الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ. وَلَيْسَ فِي
مَقْدُورِكَ أَنْ تُدَرِّبِي فِيزِيَاءِيًّا مُبْدِعًا أَوْ عَالِمًا أَحْيَاءٍ بِأَنْ تَقُولِي لَهُ: «هَهُنَا مَنَاهِجٌ، طَبَّقْهَا
عَلَى كَائِنٍ حَيٍّ جَدِيدٍ». تِلْكَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ طَرِيقَةً لِتَدْرِيبِ أَحَدِ الْفَنِيِّينَ فِي
مَخْبَرٍ، أَمَّا الْعَالِمُ فَلَا. وَتَقُومِينَ بِهَذَا حِينَ لَا تَعْرِفِينَ كَيْفَ تَجِدِينَ عَمَلًا ذَا مَعْنَى
لِلطُّلَّابِ. إِنَّهُ اعْتِرَافٌ بِالْإِخْفَاقِ.

إِنَّ مَا تَتَوَقَّعِيْنَهُ مِنْ عَالِمٍ إِنَّمَا هُوَ اكْتِشَافُ مَبَادِيٍّ جَدِيدَةٍ، نَظَرِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ،
وَحَتَّى طَرَائِقَ جَدِيدَةٍ لِلتَّحْقُقِ ... وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ بِتَعَلُّمٍ مَنَهْجٍ ثَابِتٍ. وَيَصِحُّ الشَّيْءُ
نَفْسُهُ عَلَى عِلْمِ اللُّغَةِ الْمُعَاَصِرِ. إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ نُبَيِّنَ لِإِنْسَانٍ مَا الْإِجْرَاءُ الَّذِي عَلَيْهِ
أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ لِيَكْتَشِفَ الْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ التَّوْلِيدِيَّةَ لِلُّغَةِ مِنَ اللُّغَاتِ. مَا يَتَطَّلَعُ الْمَرْءُ
إِلَيْهِ هُوَ اكْتِشَافُ ظَاهِرَاتٍ جَدِيدَةٍ تُؤَكِّدُ أَنَّ النَّظَرِيَّاتِ الْمُقْتَرَحَةَ خَاطِئَةٌ، وَأَنَّهَا يَنْبَغِي
أَنْ تُغَيَّرَ - أَسْأَلُهُ جَدِيدَةً لَمْ يُفَكِّرْ أَحَدٌ بِعَرَضِهَا مِنْ قَبْلُ، عَلَى الْأَقْلَ بِطَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ،
إِسْهَامَاتٍ جَدِيدَةٍ لِفَهْمِهِمْ، رَبَّمَا تَكُونُ قَدْ نُفِّذَتْ مِنْ خِلَالِ «مَنَاهِجٍ» جَدِيدَةٍ.

وأخيراً، فِكْرٌ جَدِيدٌ، ومبادئٌ جَدِيدَةٌ، ستَكشِفُ كم هي محدودةٌ وزائفةٌ وسطحيَّةٌ تلك الافتراضاتُ التي نحسبُ اليومَ أنَّها مشروعةٌ.

م. ر.: يَحْدُثُ أحياناً أنَّ ذلك يُزَعِّجُ الطُّلَّابَ الذين اعتادوا التَّعليمَ التَّقْلِيدِيَّ، حَيْثُ يَكْفِي أَنْ تَتَعَلَّمَ سَلْبِيًّا مَا تُلقَنُ. وفي النَّحْوِ التَّوْلِيدِيَّ، عَلَى الحَقِيقَةِ، يَتِمُّ التَّعليمُ في تَشْرِيحِ المَفْهُومَاتِ الْأَصْلِيَّةِ، وفي تَقْدِيمِ تَارِيخِ التَّخْصُّصِ مِنْ خِلَالِ وَصْفِ تَفْصِيلِيٍّ لِلْفَرْضِيَّاتِ الْمُخْتَلَفَةِ. وفي مَقْدُورِ المرءِ أَنْ يُوضَحَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يُبْرَهُنُ بِهَا عَلَى شَيْءٍ، كَيْفَمَا يَنْشَأُ مِثْلُ هَذَا الْبَرْهَانِ. لَكِنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ المرءِ أَنْ يُعَلَّمَ أَحَدًا كَيْفَ يَكْتَشِفُ فِكْرَةً جَدِيدَةً، كَيْفَ يَخْتَرَعُ. إِذْ يَرْتَبِطُ الْإِخْتِرَاعُ بِالتَّوَقُّعِ إِلَى فَهْمِ أَفْضَلِ الْمِيدَانِ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ اخْتِيَارُ الْإِنْسَانِ.

الفصل الثاني النحو العام والمسائل التي لما تحل

م. ر.: في الأعوام الأخيرة ركزت جهدك اللغوي على اكتشاف الشروط المفروضة على القواعد، أي الفرضيات التي تتصل بالنحو العام. وهذا هو الدور الثالث للنحو التوليدي الذي حدّدته في البدء.

ن. ت.: يمكننا أن نعدّ النحو العام نظاماً من المبادئ يُميّز صنفًا من القواعد النحوية الممكنة حين يُحدّد كيف تُنظّم القواعد النحوية الخاصة (ما المكونات وعلاقاتها)، وكيف تنشأ القواعد المختلفة لهذه المكونات، وكيف تتفاعل، وهلّم جرّا.

م. ر.: إنه ضربٌ مما وراء النظرية metatheory.

ن. ت.: ومنظومة من الفرضيات التجريبية تؤثر في الملكة اللغوية المحددة حيويًا «بيولوجيًا». ومهمّة الطفل الذي يتعلّم لغةً، أن يختار من بين القواعد النحوية grammars التي تقدّمها مبادئ النحو العام، تلك القواعد النحوية التي تنسجم مع المعطيات المحدودة وغير الكاملة الممنوحة له. أعني، مرّة أخرى، أن اكتساب اللغة ليس عملية تعميم وتداع وتجريد تنمّ على نحو تدريجيّ، تنطلق من المعطيات اللغوية إلى النحو، وأن دقّة إدراكنا تفوق كثيرًا ما يُقدّم في التجربة.

م. ر.: وقد ظهر تعبير «العضو العقليّ mental organ» أحيانًا في هذه الفرضيات...

ن. ت.: أَحَسَبُ أَنَّ ذَلِكَ تَمَثِيلٌ صَحِيحٌ وَمُفِيدٌ، لِأَسْبَابٍ كُنَّا قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِهَا. وَالْمُشْكِلَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَذَا «الْعُضْوِ الْعَقْلِيِّ» تَقْنِيَةٌ جَدًّا، وَقَدْ يَعِزُّ أَنْ يُفْصَلَ الْقَوْلُ فِيهَا ههنا. وَتَتَضَمَّنُ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ الْخَاصَّةُ قَوَاعِدَ الْكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ rewriting rules، وَالْقَوَاعِدُ التَّحْوِيلِيَّةُ transformational rules، وَالْقَوَاعِدُ الْمُعْجَمِيَّةُ lexical rules، وَقَوَاعِدُ التَّفْسِيرِ الدَّلَالِيِّ وَالصَّوْتِيِّ. وَيَلُوحُ أَنَّ هُنَاكَ مُكَوِّنَاتٍ مُتَعَدِّدَةً فِي الْقَاعِدَةِ، أَصْنَافًا مُتَعَدِّدَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ، وَيَمْتَلِكُ كُلُّ مِنْهَا خَاصِّيَّاتٍ مُحَدَّدَةً، مُتَرَابِطَةً عَلَى نَحْوِ تَقَرُّرِهِ مَبَادِئُ النَّحْوِ الْعَامِّ. وَغَايَةُ نَظَرِيَّةِ النَّحْوِ الْعَامِّ أَنْ تُحَدَّدَ عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ طَبِيعَةُ كُلِّ مِنْ مُكَوِّنَاتِ النَّحْوِ هَذِهِ وَتَفَاعُلُهَا. وَلِأَسْبَابٍ كُنَّا قَدْ نَاقَشْنَاهَا مِنْ قَبْلُ - وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ذَاتَ عِلَاقَةٍ بِانْتِظَامِ اكْتِسَابِ بَنِيَّةٍ مُعَدَّةٍ وَمُتَرَابِطَةٍ جَدًّا عَلَى أَسَاسِ مُعْطَيَّاتٍ مَحْدُودَةٍ - فِي مَقْدُورِنَا التَّكَدُّمُ أَنَّ النَّحْوَ الْعَامَّ، مَتَى فَهَمْنَاهُ جَيِّدًا، يَفْرَضُ قِيودًا صَارِمَةً عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ أَنْظِمَةِ الْقَوَاعِدِ الْمُمَكِّنَةِ. وَلَكِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ الْقَوَاعِدَ الْمَسْمُوحَ بِهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعَبَّرَ عَلَى نَحْوِ مُفْصَّلٍ عَنِ كَيْفِيَّةِ عَمَلِهَا، وَيَعْنِي أَيْضًا أَنَّ الْقَوَاعِدَ تَنْزِعُ إِلَى أَنْ تَتَوَالَدَ بِإِفْرَاطٍ - وَلَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يُضَمِّنَ الْقَوَاعِدَ نَفْسَهَا الْقِيُودَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَى تَطْبِيقِهَا. وَمَا حَاوَلَ عِدَّةٌ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ أَنْ يَفْعُلُوهُ، هُوَ أَنْ يَسْتَخْلِصُوا مِنَ الْقَوَاعِدِ بَعْضَ الْمَبَادِئِ الْعَامَّةِ تَمَامًا الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي تَطْبِيقِهَا. وَإِنَّ دِرَاسَةَ هَذِهِ الشَّرُوطِ التَّجْرِيدِيَّةِ جُزْءٌ مُثِيرٌ جَدًّا مِنَ النَّحْوِ الْعَامِّ. وَقَدْ عَمِلْتُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْذُ بَدَايَةِ السِّتِينِيَّاتِ، وَبِتَحْدِيدٍ أَكْبَرَ فِي الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي خَلَتْ. وَمِنْذُ حَوَالِي عَامِ ١٩٧٠مَ كُنْتُ أَعْمَلُ وَأَكْتُبُ حَوْلَ بَعْضِ الْفَرَضِيَّاتِ الْمُتَطَرِّفَةِ تَمَامًا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

وَتُقَيَّدُ هَذِهِ الْفَرَضِيَّاتُ عَلَى نَحْوِ صَارِمٍ جَدًّا الْقُوَّةُ التَّعْبِيرِيَّةُ لِلْقَوَاعِدِ التَّحْوِيلِيَّةِ، وَبِذَلِكَ تُحَدَّدُ صِنْفُ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ التَّحْوِيلِيَّةِ الْمُمَكِّنَةِ. وَلِلتَّعْوِيزِ عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الْقَوَاعِدَ، الْمُقَيَّدَةَ مِنْ ثَمَّ، تَنْزِعُ إِلَى تَوَلِيدِ عَدَدٍ كَبِيرٍ جَدًّا مِنَ الْبَنَى، اقْتَرَحَ عِدَّةٌ مِنَ

المبادئ العامة تماماً بشأن الطريقة التي ينبغي أن تطبق فيها القواعد التحويلية على البنى المعطاة. وهذه المبادئ العامة من طراز طبيعي جداً، فيما أرى، مصحوبة بتقييدات معقولة تماماً على معالجة المعلومات، بطرائق قد تكون مرتبطة ارتباطاً مُحْكَمًا بِمَلَكَةِ اللُّغَةِ. وما أُمِّلُ أن أكون قادراً على إثباته، هو أن هذه المبادئ تُقدِّمُ الإِطارَ الأساسي لـ «التَّحْمِينِ العَقْلِيِّ»، وأنها من خلال تفاعلها مع قواعد ذات تنوع وقوة تعبيرية محدودتين قدرة على تفسير الترتيب الغريب للظواهرات، الذي نكتشفه حين ندرُسُ على نحو مُفَصَّلٍ كيف تُصاغُ الجُمْلُ، وتُستعملُ، وتُفهمُ. وأشكُّ في أنها ستعملُ كما ينبغي، لكنني أعتقد أنها على الطريق الصحيح. وقد أثبتتُ جدوى هذا الطراز من التناول أكثر كثيراً مما توقعتُ. وأرى أن هذه طريقة معقولة لتطوير النظرية المعيارية الموسعة. وقد نُشِرتُ بعضُ الأعمالِ، والكثيرُ منها في سبيله إلى النشر. وأشعرُ بأنَّ عمَلَ الأعوامِ القليلةِ الماضية أكثرُ تشجيعاً ممَّا كانت عليه الحال لبعض الوقت. وأنا سعيدٌ جداً بشأنه...

م. ر.: ذلك بَيِّنٌ، في آيةٍ حال...

ن. ت.: نعم، أشعرُ أننا نظفَرُ بِمَكَانٍ ما. وأُمِّلُ أن أكون قادراً على أن أجِدَ الزَّمانَ...

م. ر.: مهما يكن، فإنَّ هذه النَّتائِجُ الأخيرة، خلافاً لما أُنجِزَ سابقاً في علم الدلالة مثلاً، لم يُتَبَّنَأَ بها في المخططِ الأوَّلِيِّ لـ LSLT. وهذه أنواعٌ جديدةٌ من المُشكِلاتِ.

ن. ت.: ومختلفةٌ كثيراً. وقد سمَحَتِ النَّظَرِيَّةُ المُقَدَّمَةُ في ال LSLT بِعَدَدٍ كبيرٍ من القواعد. وقد حاولتُ في البدء أن أقدمَ نظاماً قادراً على التعبيرِ بِأَقْصَى ما استطعتُ أن أتصوَّرَ. أمَّا الآنَ، فإنني أحاولُ، بِمعْنَى من المعاني، أن أعملَ العكسَ، أن أحدَّ الطَّاقةَ التَّعْبِيرِيَّةَ لِلْقَوَاعِدِ. وفي ال LSLT ليس ثَمَّةُ فارقٍ بينَ القَوَاعِدِ

والشروط المفروضة على القواعد. وقد ظهر ذلك الفارق أول ما ظهر في مقالتي «المسائل الحالية في النظرية اللغوية (Current issues in linguistic Theory) مع شرط A/A(*)، ومبدأ إمكانية استرداد الفقرة المشطوبة، وعدد من الشروط الأخرى، التي اقترحت بوصفها شروطاً تنتمي إلى النحو العام. وقد طور (روس Ross) هذا تناول على نحو أصيل ومهم جداً في أطروحته، كما فعل آخرون. وإن كتاباً جديداً لريتشارد كين Recharad Kayne عن النحو الفرنسي، هو إسهام مهم جداً في هذا الاتجاه. وقد أثبت هذا الخط في البحث كبير غناء.

م. ر.: إن أشكالاً عديدة من سوء الفهم قد أحاطت بإشارتك إلى النحو العام. حتى إن بعضهم اعتقد أنه لغة عامة. وأرى أن هذا راجع إلى حقيقة أنه يصعب كثيراً أن نتخيل الشرط المفروض على قاعدة من القواعد من دون معرفة أية بنية لغوية هي...

ن. ت.: ... ومن دون معرفة أية قاعدة هي، نعم.

م. ر.: ولذلك، لا غنى عن الإلمام بالحد الأدنى من المعرفة اللغوية. وإلا فإن المرء يتخيل «تلقائياً» - أي بفضل التقليد الفلسفي الذي أضفي عليه الطابع الذاتي بتوسط المعجم اللغوي المعاصر - أن النحو العام مثل المنطق. ولذلك، كثيراً ما رأى المرء أصنافاً مختلفة من الناس يخلطون بين «النحو العام» و«البنية العميقة»، لأنهم يفهمون من «البنية العميقة» الخبر المؤلف من مُسندٍ إليه ومُسندٍ في المنطق، الذي يفترض الفلاسفة أنه أساس كل لغة. وهذا الخلط مُستحيل الوقوع في

*- يفترض هذا الشرط أنه لا يمكن استخلاص مُكوّنٍ من الصنف A من داخل مُكوّنٍ آخر من الصنف A نفسه. وقد منع هذا، مثلاً، تتمّة الاسم الموجودة في مفعول به مُباشِرٍ من أن تُختار بوصفها NP (عبارة اسمية) مُستبدلةً بوساطة تحويلٍ مبنِيٍّ للمجهول:

- (a) John saw (Mary)'s brother
NP NP
(b) Mary was seen by John

النَّحْوُ التَّوْلِيدِيّ. إِنَّ النَّحْوَ الْعَامَّ ضَرْبٌ مِمَّا وَرَاءَ النَّظَرِيَّةِ؛ وَالْبَنِيَّةُ الْعَمِيقَةُ

- كَمَا كُنَّا رَأَيْنَا - مُصْطَلَحٌ تَقْنِيٌّ يَتَّصِلُ بِالنَّحْوِ الْخَاصِّ **particular**

grammar، وَيُشِيرُ إِلَى مَرَحَلَةٍ دَقِيقَةٍ فِي اسْتِقْطَاقِ الْجُمْلَةِ.

ن. ت.: عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ، اعْتَرَضَ نَفَرٌ مِنَ الْفَلَسَفَةِ عَلَى مَسْأَلَةِ أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَمْتَلِكُ «قَوَاعِدَ نَحْوِيَّةً فِطْرِيَّةً **innate grammars**» - كَمَا اعْتَقَدُوا أَنِّي اقْتَرَحْتُ. وَمَا هَذَا سِوَى خَلْطٍ بَيْنَ النَّحْوِ الْعَامِّ وَالنَّحْوِ. وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَضَعَ فِي الْحُسْبَانِ أَنَّ النَّحْوَ الْعَامَّ لَيْسَ قَاعِدَةً نَحْوِيَّةً، بَلْ هُوَ نَظَرِيَّةٌ لِلْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ، نَوْعٌ مِمَّا وَرَاءَ النَّظَرِيَّةِ **metatheory** أَوْ التَّخْطِيطِ لِلنَّحْوِ. وَوَفَقًا لِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ النَّظَرِيَّةَ الْمُقَدَّمَةَ فِي الـ **LSLT** أَوْ فِي أَيِّ كِتَابٍ عَامٍّ فِي النَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ، هِيَ مُحَاوَلَةٌ لِصِيَاغَةِ مَبَادِيٍّ لِلنَّحْوِ الْعَامِّ، عَلَى الْأَقْلَ فِي الْمَعْنَى الَّذِي اسْتَعْمَلَ فِيهِ تَعْبِيرُ «النَّحْوِ الْعَامِّ **universal grammar**». وَلِأَنَّ الْعَمَلَ اللَّغَوِيَّ يَتَقَدَّمُ، فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَأْمَلَ أَنَّهُ سَيُؤَدِّي إِلَى فَهْمٍ أَعَمِّ لِ«النَّحْوِ الْعَامِّ»، أَيِ النَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ، مَعَ الْقِيُودِ الَّتِي تَفَرِّضُهَا هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ عَلَى مَا تَعُدُّهُ لُغَةً بَشَرِيَّةً مُحْتَمَلَةً.

وَعَلَى غِرَارٍ مَا لَاحِظَتْ، رُكِّزَ كَثِيرٌ مِنْ جُهْدِ الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى النَّحْوِ الْعَامِّ، عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ وَضُوحًا وَحِدَّةٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ قَبْلُ. وَطَبِيعِيٌّ أَنَّ الْإِخْتِلَافَ «كَمِّيًّا»، عَلَى قَدَرٍ مَا أَنَّ كُلَّ صِيَاغَةٍ لِلنَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ يُرَادُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ إِسْهَامًا فِي النَّحْوِ الْعَامِّ. لَكِنَّ الْمُلَاحَظَةَ صَحِيحَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ هُنَاكَ، فِيمَا أَحْسَبُ، بَعْضُ التَّقَدُّمِ الْحَقِيقِيِّ نَحْوِ صِيَاغَةِ مَبَادِيٍّ النَّحْوِ الْعَامِّ. عَلَى الْأَقْلَ فِي مِيزَانِ النَّحْوِ، وَعِلْمُ الْأَصْوَاتِ (وَأَقْلَ كَثِيرًا فِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ، حَيْثُ لَمَّا يَتِمَخَّصُ الْبَحْثُ عَنْ مَبَادِيٍّ لِأَيِّ مَجَالٍ مُهِمٍّ أَوْ قُوَّةٍ تَفْسِيرِيَّةٍ). وَمِثْلَمَا تُؤَكِّدِينَ، فَالنَّحْوُ الْعَامُّ فِي الْمَعْنَى الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْمُصْطَلَحُ فِي أَعْمَالِ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَبَسَ بِالْبَنِيَّةِ الْعَمِيقَةِ.

المسائل التي لَمَّا تُحَلَّ:

م. ر.: هناك اليومَ عددٌ كبيرٌ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ يَعْمَلُونَ فِي إِطَارِ النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ،
وفي كُلِّ أنواعِ اللُّغَاتِ. وقد سَمَحَتْ هذه النَّظَرِيَّةُ مِن قَبْلُ بِاكتشافِ
عددٍ كبيرٍ مِنَ الحقائقِ وتفسيرِها؛ ويمكنُ القولُ، عَلَى الجُمْلَةِ، إِنَّ
نتائجَ هذا العَمَلِ فِي مُتَنَاولِ كُلِّ مَنْ هُوَ مُسْتَعِدٌّ لِتحَمُّلِ عَنَاءِ قراءتها.
ومهما يَكُنْ، فَإِنَّهُ مَعَ حَجْمِ النِّتَائِجِ الثَّابِتَةِ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ
الْأَسْئَلَةِ مَا يَزَالُ مِنْ دُونِ إجابة.

ن. ت.: حَقًّا! - ولكنَّه مِنَ المُفِيدِ أَنْ نُمَيِّزَ بَيْنَ نَمُودَجَيْنِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ:
أَسْئَلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، وَأَسْئَلَةٍ خَارِجِيَّةٍ. أَمَّا الْأَسْئَلَةُ الدَّاخِلِيَّةُ، فَأَعْنِي بِهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْشَأُ
مِنذُ الْوَقْتِ الَّذِي تَبَدُّ فِيهِ الْعَمَلُ فِي شَكْلِ خَاصٍّ مِنَ النَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ، كَالنَّظَرِيَّةِ
الْمِغْيَارِيَّةِ الْمُوسَّعَةِ. وَأَمَّا بِالْأَسْئَلَةِ الْخَارِجِيَّةِ، فَأَعْنِي تِلْكَ الَّتِي تَتَّصِلُ بِاخْتِيَارِ هَذَا
النَّمُودَجِ الْعَامِّ مِنَ النَّظَرِيَّةِ بَدَلًا مِنْ نَمَازِجٍ أُخْرَى مُعْتَمِدَةٍ عَلَى افْتِرَاضَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ
تَمَامًا، وَوَضَعَ النَّظَرِيَّةِ فِي مِيدَانِ النَّظَرِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَمُشْكِلَةٍ مَشْرُوعِيَّةٍ مِثَالِيَّاتِهَا،
والتَّفاعُلَاتِ مَعَ الْأَنْظِمَةِ الْأُخْرَى، وَهَلُمَّ جَرًّا.

وَعَلَى قَدْرِ مَا أَنَّ الْأَسْئَلَةَ الدَّاخِلِيَّةَ شَاغِلَةٌ، فَهِيَ كَثِيرَةٌ كَثَرَةً بِالْغَةِ. وَتَبَرُّزُ كُلِّمَا
حَاوَلْتُ أَنْ تَخْتَبِرِي النَّظَرِيَّةَ الَّتِي صُغْتِهَا وَحَاوَلْتُ أَنْ تَرْتَقِي بِهَا؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ
فَرَضِيَّةٌ ذَاتُ شَأْنٍ، فِيمَا أَعْلَمُ، لَا تُوَاكِفُهَا أَمِثْلَةٌ مُضَادَّةٌ خَطِيرَةٌ جَدًّا - وَمِنْ ذَلِكَ
مِثْلًا الشُّرُوطُ الْمَفْرُوضَةُ عَلَى الْقَوَاعِدِ، كَشَرْطِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْمُحَدَّدِ. وَأَرَى أَنَّ بَعْضًا
مِنْ هَذِهِ الْفَرَضِيَّاتِ يُؤَيِّدُهُ الْبَرَهَانُ الْعَقْلِيُّ التَّامُّ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ حِينَ تَدْرُسِينَ
مَادَّةً لَغَوِيَّةً مَعْقَدَةً لَا يَبْدُو عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ مُسْتَجِيبًا لِهَذِهِ الشُّرُوطِ، وَتَبْدُو
ظَاهِرَاتٌ أُخْرَى مُسْتَجِيبَةً لِشُرُوطٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتَظَلُّ ظَاهِرَاتٌ أُخْرَى عَصِيَّةً عَلَى آيَةٍ
شُرُوطٍ مُقْتَرَحَةٍ.

وللتأكيد ذلك، خُذِي عَمَلِيَّة «الانعكاس reflexivation» (*) . وتلك عَمَلِيَّةُ تختلف من لغة إلى أخرى . وفي الإنجليزية يَعْمَلُ الانعكاسُ عَلَى الأرجحِ بِوَصْفِهِ تَكَرَّارَ صَدَارَةٍ مُلتَزِمًا، أَقْصِدُ نَوْعَ تَكَرَّارِ الصَّدَارَةِ الذي يَجِدُهُ المرءُ في جُمْلٍ مِنْ قَبِيل: جون ضَلَّ طريقَه John lost his way ، حيث ينبغي أن تعود «his» لا محالة إلى John . (والأمرُ خِلافُ ذلك في: جون ضَلَّ كتابَه John lost his book ، إذ ليس ثَمَّةَ تَكَرَّارٍ صَدَارَةٍ مُلتَزَمٍ ؛ لأنَّ his ههنا قد تُشيرُ إلى أيِّ إنسانٍ ، بِمَنْ فيهم John) .

وترجعُ فِكْرَةُ مُعالِجَةِ الانعكاسِ بِوَصْفِهِ حَالًا مِنْ تَكَرَّارِ الصَّدَارَةِ المُلتَزِمِ إلى (مايكل هِلْك Michael Helke) ، الذي طَوَّرَهَا في رسالته للدكتوراه في MIT منذُ عِدَّةِ أعوام . وتبدو لي صَحِيحَةً حَقًّا، في الإنجليزية وفي عددٍ مِنَ اللِّغَاتِ الأُخْرَى . وَوَفَّقًا لِهَذِهِ الفِكْرَةِ، تَكُونُ الأَفْعَالُ الانعكاسِيَّةُ حَالَةً خَاصَّةً لِتَكَرَّارِ الصَّدَارَةِ المُلتَزِمِ bound anaphora . وَلِذَلِكَ ، فَإِنَّ قَوْلَنَا: «جون يَجْرَحُ نَفْسَهُ John hurts himself» ، مُمَاثِلٌ لِقَوْلَنَا: «جون ضَلَّ طريقَه John Lost his way» . ويمكنُ القولُ في قَدَرٍ أَكْبَرَ مِنَ التَّعْمِيمِ ، إِنَّ الشَّرُوطَ الَّتِي تُفْتَرَضُ فِي تَكَرَّارِ الصَّدَارَةِ المُلتَزِمِ تَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى «الانعكاس» .

ومهما يَكُنْ ، فَإِنَّ هَذِهِ القَضِيَّةَ غَيْرُ واضِحَةٍ البَتَّةِ ، حَتَّى فِي الإنجليزية . وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ النَّاطِقِينَ يَقْبَلُونَ جُمْلًا مِنْ مِثْلِ:

The pictures of themselves that I gave them are hanging in the library, they thought that some pictures of

*- يعني حالة الفعل الذي يكونُ مفعولُهُ نَفْسَ فاعِلِهِ (مِثْلُ Shave في قولنا: He shaved himself [المترجم العربي]).

themselves would be on exhibit^(*).

وسوى ذلك . ويُقدّم جاكندوف في كتابه كثيرًا من الأمثلة المُعقَّدة على درجَاتٍ مُتباينةٍ من إمكانيةِ القبول ؛ وهو حَجْمُ اقترحه آخرونَ أيضًا . وتُثيرُ هذه الحقائقُ مُشكلاتٍ كثيرةً .

يُضافُ إلى ذلك ، أنَّ الانعكاسَ في لغاتٍ أُخرى له خاصيَّةٌ مختلفةٌ جدًّا ؛ يَصْدُقُ هذا على الكوريَّة ، مثلاً . أمَّا في الإنجليزيَّة ، فإنَّ مَرَجَعَ الفعلِ الانعكاسيِّ ينبغي أن يُوجَدَ في الجُمْلَةِ نفسِها ، وأمَّا في الكوريَّة ، فإنَّ الصَّيْغَةُ التي تبدو مُماثِلَةً كثيرًا لِلانعكاسيِّ الإنجليزيِّ English reflexive ، يمكنُ أن تُشيرَ إلى شيءٍ غيرِ مذكورٍ في الجُمْلَةِ البتَّة . وكان قد دَرَسَ هذا Wha-Chun kim في رسالةٍ جديده في MIT . وقد أُخْفِيَتِ الظَّاهِرَةُ بفعلٍ بعضِ القَوَاعِدِ التي تَميلُ إلى اختيارِ مَرَجِعٍ أَقْرَبَ إلى الضَّميرِ الانعكاسيِّ reflexive pronoun ، لكنَّه يبدو أنَّ هذه قَوَاعِدُ لِلإِثَارِ ، والْحَقُّ أنَّ الانعكاسيَّاتِ يمكنُ أن تَعُودَ إلى شيءٍ تَقَدَّمَ في معرفةٍ مُشترَكَةٍ أو خِطَابٍ سابقٍ . وفي لُغَةٍ كهذه ، لا يبدو أنَّ قَوَاعِدَ الانعكاسِ تنتمي إلى نَحْوِ الجُمْلَةِ في المعنى الدَّقِيق : فالقاعدةُ التي تَحْكُمُ الشَّكْلَ المُشَابِهَ لِلانعكاسيِّ في الإنجليزيَّةِ تبدو على الأرجحِ قاعدةً «لِلخِطَابِ» أو ، على نحوٍ أَكْثَرِ دِقَّةً ، قاعدةً تُرْبِطُ الكِفَايَةَ اللُّغَوِيَّةَ بِالأنْظِمَةِ الإدراكيَّةِ الأُخرى التي تَقُومُ بفعلٍ كبيرٍ في الأداء .

وهناك أيضًا لغاتٌ يكونُ فيها سُلُوكُ ما يُعَدُّ انعكاسيًّا ، مختلفًا عمَّا عليه الحالُ في كُلِّ من الإنجليزيَّةِ أو الكوريَّةِ ، من مثِلِ البولنديَّة ، واليابانيَّة ، ورُبَّما الإغريقيَّة الكلاسيكيَّة . وفي هذه اللُّغاتِ ينبغي أن يكونَ الانعكاسيُّ مرتبطًا بشيءٍ موجودٍ في

*- الصُّورُ الخاصَّةُ بهم التي أعطيتُهم إياها مُعلَّقةٌ في المكتبة ، وتصوروا أنَّ بعضَ الصُّورِ الخاصَّةِ بهم ستكونُ معروضةً [المترجم العربي] .

الجُمْلَةُ نَفْسِهَا، وهو يَظْهَرُ، ولكنْ لَيسَ تَحْتَ الشُّرُوطِ التَّقْيِيدِيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ الانْعِكَاسِيَّ فِي الْإِنْجَلِيزِيَّةِ - بل تَحْتَ بَعْضِ الشُّرُوطِ الْعَامَّةِ جَدًّا عَلَى تَكَرُّارِ الصَّدَارَةِ، الَّتِي تَتَضَمَّنُ التَّحْكُمَ، وَالْعِلَاقَةَ النَّحْوِيَّةَ، وَرَبَّمَا مُقْتَضِيَّاتِ السَّبَبِ الْخَطِيَّ.

وإن شئتَ أن تسألني أسئلةً مُحِيرَةً ففني مقدورك أن تسألني ماذا يعني هذا كُلُّه. هل يعني أن الانعكاسَ يمكنُ أن يكونَ حقًّا أيَّ شيءٍ؟ - لا حتمًا. هل هذه الأصنافُ المختلفةُ مِنَ الانعكاسِيَّاتِ reflexives لها خاصِّيَّاتٌ مُشْتَرَكَةٌ؟ - هل تَتَحَكَّمُ بِهَا مَبَادِئُ أُخَرُ لِتَكَرُّارِ الصَّدَارَةِ؟ - هل هي مُشَابِهَةٌ لِلضَّمَائِرِ الثَّنَائِيَّةِ؟ كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِزاءَ الشُّرُوطِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْقَوَاعِدِ؟ - في حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ تُنْتَهَكُ شُرُوطُ عَلَى الْقَوَاعِدِ تَبْدُو مَشْرُوعَةً مِنْ نَوَاحٍ أُخْرَى. هل نَحْنُ الَّذِينَ لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نَصَوِّغُ الْقَوَاعِدَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ بِالْانْعِكَاسِيَّ، أَوْ أَنَّ الشُّرُوطَ عَلَى الْقَوَاعِدِ خَاطِئَةٌ، أَوْ أَنَّ هُنَاكَ سَبَبًا آخَرَ؟ هذه جميعًا تَبْقَى أسئلةً مَفْتُوحَةً.

وَمِنْ وَجْهَةٍ عَمَلِيَّةٍ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ دُرِسَ بِجَدِّيَّةٍ تَظْهَرُ إِزاءَهُ أسئلةٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. وَلِلْإِجَابَةِ عَنْهَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْرَعَ الْمَرْءُ بِأَبْحَاطٍ تَتَنَاوَلُ نِطَاقًا وَاسِعًا مِنَ اللُّغَاتِ. وَلَسْتُ مُسْتَيَقِّنًا مِنْ أَنَّ ذَلِكَ مُرَجَّحٌ لَهُ أَنْ يَكُونَ التَّنَاوُلُ الْأَكْثَرُ إِثْمَارًا. وَإِنْ كَانَتِ الشُّرُوطُ الَّتِي نَحْنُ إِزاءَهَا عَلَى مَسْتَوَى مُحَدَّدٍ مِنَ التَّجْرِيدِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ «ظَاهِرَةٌ» سَتُثْبِتُهَا أَوْ تُفَنِّدُهَا؛ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ سِوَى الْقَوَاعِدِ. وَمِنْ هُنَا، عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَأْسِيسِ نِظَامٍ لِلْقَوَاعِدِ، لِيَرَى مَا إِنْ كَانَتْ مُوَائِمَةً لِلشُّرُوطِ. أَمَّا الظَّاهِرَاتُ نَفْسُهَا، فَلَا تَقُولُ لَنَا شَيْئًا عَنْ مَشْرُوعِيَّةِ شَرْطٍ مَفْرُوضٍ عَلَى الْقَوَاعِدِ. وَهِيَ لَا تُؤَثِّرُ فِي الشَّرْطِ إِلَّا عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي تُثَبَّتُ فِيهِ الظَّاهِرَاتُ نِظَامًا لِلْقَوَاعِدِ يُمْكِنُ أَنْ يُقَيِّمَ وَفَقًا لِانْطِبَاقِهِ عَلَى الشُّرُوطِ الْمُفْتَرَضَةِ. وَلَيْسَ فِي مُسْتَطَاعِ الْمَرْءِ أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ شَرْطٍ بِالْعُودَةِ إِلَى النَّحْوِ التَّقْلِيدِيِّ، أَوْ بِسُؤَالِ رَاوِيَةٍ. وَيُظْهَرُ

الْعَمَلُ الْجَادُّ فِي لُغَاتٍ خَاصَّةٍ مَبْلَغُ الصَّعُوبَةِ فِي تَأْسِيسِ قَاعِدَةٍ صَحِيحَةٍ . وَغَالِبًا مَا يَظْهَرُ خَطَأُ افْتِرَاضَاتِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلَى فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ جَدًّا . وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ التَّجْرِيدِيَّةَ عَلَى الْقَوَاعِدِ لَا يُمْكِنُ تَخْطِئُهَا ؛ بَلْ يَعْنِي أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ بِجِدِّيَّةٍ تَامَّةٍ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِثْبَاتُ تَرْيِيفِ شَرْطٍ أَوْ تَأْكِيدُهُ أَمْرًا مُمْكِنًا .

المُشْكِلَةُ عَامَّةٌ حَقًّا . وَلَا بَدَّ مِنْ دَرْسِ آيَةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ بَعُمَقٍ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الْحَقَائِقُ وَالْبَرَاهِينُ ، الَّتِي لَهَا أَهْمِيَّةٌ نَظَرِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ . وَفِي مَقْدُورِكَ دَائِمًا أَنْ تَنْظُرِي إِلَى اللُّغَةِ وَتَقُومِي بِبَعْضِ الْمُلَاحَظَاتِ : «ههنا الحالاتُ ، العلاقاتُ ، إلخ» . وَذَلِكَ لَا يَعْنِي الْكَثِيرَ . لِأَنَّا حِينَ نَدْرُسُ الْقَضِيَّةَ بِأَحْكَامٍ ، قَدْ نَتَبَيَّنُ أَنَّ مَا يَبْدُو صَحِيحًا عَلَى الْوَاجِهةِ خَادِعٌ فِعْلًا . وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْعَسِيرِ حُلُّ هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ ، فَهِيَ تَتَطَلَّبُ كَبِيرَ عَنَاءٍ . عَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يَدْرُسَ اللُّغَةَ بَعُمَقٍ كَبِيرٍ لِيُظْفَرَ بِالْحَقَائِقِ الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ بِمَبَادِيٍّ لَهَا آيَةٌ أَهْمِيَّةٌ . وَتَبَرُّزُ أَسْئَلَةٍ خَطِيرَةٍ بِشَأْنِ الْمَوْقِفِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَّخِذَهُ الْمَرْءُ إِزَاءَ الْأَمْثَلَةِ الْمُضَادَّةِ الظَّاهِرَةِ . فِي آيَةِ نَقْطَةٍ يَنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ بِجِدِّيَّةٍ ؟ -

أَمَّا فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَإِنَّ الدَّلِيلَ الْمُنَاقِضَ لِظَاهِرَةٍ كَثِيرًا مَا يُهْمَلُ ، عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّهُ سَيُعْنَى بِهَا عَلَى نَحْوِ مَا لَاحِقًا . وَذَلِكَ حَقًّا مَوْقِفٌ مَعْقُولٌ . وَضِمَّنَ حُدُودِ مَعْقُولَةٍ ، طَبْعًا ، وَمِنْ دُونِ إِفْرَاطٍ . لِأَنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّ قُدْرَتَنَا عَلَى فَهْمِ الظَّاهِرَاتِ الْغَرِيبَةِ مَحْدُودَةٌ جَدًّا ، عَلَى الدَّوَامِ . ذَلِكَ حَقٌّ فِي مِيدَانِ الْفِيزِيَاءِ ، وَأَكْثَرُ صِحَّةً فِي عِلْمِ اللُّغَةِ . وَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ سِوَى جُزْئِيَّاتٍ مِنَ الْوَاقِعِ ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ كُلَّ نَظَرِيَّةٍ مُثْبِتَةٍ وَذَاتِ شَأْنٍ هِيَ ، فِي أَحْسَنِ الْحَالَاتِ ، صَحِيحَةٌ جُزْئِيًّا فَحَسْبُ . وَلَيْسَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِهْمَالِ النِّظَرِيَّاتِ أَوْ إِهْمَالِ الْبَحْثِ الْعَقْلَانِيِّ .

وَفِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، عَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يَقْطَعَ الْحَدِيثُ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَظْهَرُ . عَلَيْهِ أَنْ يُحَاوَلَ تَقْدِيرَ الْأَهْمِيَّةِ النَّسْبِيَّةِ لِلظَّاهِرَاتِ أَوْ الْقَوَاعِدِ الَّتِي تُنَاقِضُ

فَرَضِيَّاتِهِ، مُقَارَنَةً بِالِدَّلِيلِ الَّذِي يَنْتَصِرُ لَهَا. ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يُنَحِّيَ الدَّلِيلَ الْمُنَاقِضَ لِإِعَالِجِهِ لَاحِقًا، وَإِمَّا أَنْ يُقَرَّرَ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ غَيْرُ كَافِيَةٍ وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَادَ بِنَاوُهَا. وَلَيْسَ الْاِخْتِيَارُ سَهْلًا. وَلَيْسَ هُنَاكَ نِظَامُ الْعَدِّ. وَلِأَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْمُسْكِلاتِ يَظْهَرُ دَائِمًا أَثْنَاءَ الْبَحْثِ، فَإِنَّهُ حُكْمٌ حَدْسِيٌّ سَوَاءٌ أَكَانَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَبْقَى فِي إِطَارٍ مُحَدَّدٍ أَمْ لَا - نَظَرًا إِلَى النَّتَائِجِ الْإِيجَابِيَّةِ وَمَعَ وَجُودِ الْأَمْثِلَةِ الْمُضَادَّةِ الظَّاهِرَةِ. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ، عَلَى الْجُمْلَةِ، إِنَّ هُنَاكَ تَقَدُّمًا مَلْمُوسًا فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، إِنْ وَضَعَ الْمَرْءُ فِي الْحُسْبَانِ النَّتَائِجَ الْإِيجَابِيَّةَ - حَتَّى إِنْ بَقِيَتْ مُسْكِلاتٌ لَا تُحْصَى فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ. وَيُؤَكِّدُ «عُلَمَاءُ الْمَنْهَجِ» أحيانًا أَنَّ الْمِثَالَ الْمُضَادَّ يُفِيدُ فِي دَخْضِ نَظَرِيَّةٍ وَيُظْهِرُ أَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُهْمَلَ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ يَلْقَى تَأْيِيدًا ضئيلاً فِي مُمَارَسَةِ الْعُلُومِ الرَّاقِيَةِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ بَدَهِيَّةٌ فَعَلًا، فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ. إِنَّ التَّوَقُّعَ إِلَى تَنْحِيَةِ الْأَمْثِلَةِ الْمُضَادَّةِ لِنَظَرِيَّةٍ لَهَا بَعْضُ الْحِظِّ مِنَ الطَّاقَةِ التَّفْسِيرِيَّةِ، نَظَرِيَّةٍ تُقَدِّمُ قَدْرًا مِنَ التَّبَصُّرِ، ثُمَّ إِنْزَالِ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ فِي مَسْتَوًى أُسْمَى مِنَ الْإِدْرَاكِ، هُمَا فَعَلًا طَرِيقُ الْعَقْلَانِيَّةِ. وَيُشْكَلَانِ حَقًّا الشَّرْطَ الْقَبْلِيَّ لِتَقَدُّمِ مُهِمِّ فِي أَيِّ مِيدَانٍ ذِي شَأْنٍ مِنَ مِيَادِينِ الْبَحْثِ.

م. ر.: وَالْأَسْئَلَةُ الْخَارِجِيَّةُ؟

ن. ت.: بِشَأْنِ تِلْكَ، هُنَاكَ فَعَلًا قَلِيلٌ مِنْهَا يَنْبَغِي أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ الْمَرْءُ. هُنَاكَ، مَثَلًا، مَسْأَلَةُ اسْتِقْلَالِ النَّحْوِ، الَّتِي تَضَعُ النَّحْوَ الشَّكْلِيَّ Formal grammar أَمَامَ النَّحْوِ «التَّامِ» Full grammar. هَلْ هَذَا تَجْرِيدٌ مُنَاسِبٌ؟ - هَلْ صَحِيحٌ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مَفْهُومَاتِ عِلْمِ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ phonology وَالنَّحْوِ تُحَدَّدُ عَلَى أُسَاسِ فِكْرٍ أَوَّلِيَّةٍ شَكْلِيَّةٍ وَلَيْسَ عَلَى أُسَاسِ مَبَادِيءٍ دِلَالِيَّةٍ؟ - أَوْ هَلِ التَّمْيِيزُ مُنَاسِبٌ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ؟

م. ر.: رَأَيْنَا أَنَّ النَّحْوَ التَّوْلِيدِيَّ يُجِيبُ بِ «نَعَمْ» عَنْ هَذَا السُّؤَالِ.

ن. ت.: عَلَى الْأَقْلَ بَعْضُ الْاِتِّجَاهَاتِ فِي النَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ. وَهَذَا السُّؤَالُ يَبْدُو لِي السُّؤَالُ الصَّحِيحُ مَعَ بَعْضِ الْمُؤَهَّلَاتِ. لَكِنَّهُ عَلَى الْمَرْءِ أَلَّا يَنْسَى أَنَّ هَذِهِ أَسْئَلَةٌ مُهِمَّةٌ. وَعَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ، يُمْكِنُ أَنْ يَتَسَاءَلَ الْمَرْءُ عَنْ مَشْرُوعِيَّةِ الْمِثَالِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللُّغَةِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ. هَلْ مِنْ الْجَائِزِ أَنْ نَقُولَ إِنَّ النَّحْوَ أَلِيَّةٌ تَرْتَبُ التَّمَثِيلَ الصَّوْتِيَّ وَالشَّكْلَ الْمَنْطِقِيَّ؟ - هَلْ مِثْلُ هَذَا النِّظَامِ مَوْجُودٌ حَقًّا؟ - هَلْ يَقُولُ الْمَرْءُ شَيْئًا صَحِيحًا عَنْ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ حِينَ يَفْتَرِضُ أَنَّ هُنَاكَ عُضْوًا عَقْلِيًّا يَتَأَلَّفُ مِنْ نِظَامٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ يَرْتَبُ التَّمَثِيلَ الصَّوْتِيَّ بِالشَّكْلِ الْمَنْطِقِيِّ مِنْ خِلَالِ أَلِيَّةِ النَّحْوِ؟ - ذَلِكَ الْاِفْتِرَاضُ يَقْتَضِي التَّزَامًا بِمَشْرُوعِيَّةِ مِثَالِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ. طَبِيعِيٌّ أَنَّنَا لَا نَفْتَرِضُ أَنَّ ثَمَّةَ صُنْدُوقٍ دَاخِلَ الدِّمَاغِ. وَكَثِيرًا مَا أَسِئَءُ فَهَمُّ هَذَا الَّذِي تَعْنِيهِ الْمِثَالِيَّةُ.

وَفِي مَقْدُورِ الْمَرْءِ أَنْ يُؤَكِّدَ مَعَ (رُوس Ross) وَ(لَاكُوف Lakoff)، مِثْلًا، أَنَّ مِثْلَ هَذَا النِّظَامِ غَيْرُ مَوْجُودٍ؛ لِأَنَّ الْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ فِي الْحُسْبَانِ الْاِعْتِقَادَاتِ وَالْمَوَاقِفَ الشَّخْصِيَّةَ. وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً، فَإِنَّ النَّحْوَ يُشَكِّلُ مِثَالِيَّةً غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ. وَلَسْتُ أَشْعُرُ بِأَنَّ هُنَاكَ تَبَرِيرًا لِهَذَا الْمَوْقِفِ، لَكِنَّ السُّؤَالَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْحَى بِدَاهَةٍ.

وَلِلْإِثْبَاتِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّجْرِيدِ، يَنْبَغِي أَنْ يُثَبَّتَ أَوَّلًا أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى نَتَائِجٍ مُثِيرَةٍ. وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى كَيْفِيَّةِ إِدْمَاجِهِ فِي مُخْطَطٍ أَعْمٍ. وَعَلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ يَتَوَقَّفُ عَمَلُ كُلِّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا. كَيْفَ يُمْكِنُ إِدْمَاجُ نَمُودَجِ الْكِفَايَةِ فِي نَمَازِجِ الْأَدَاءِ، وَنَمَازِجِ التَّكَلُّمِ، وَالْإِدْرَاكِ؟ وَابْتِغَاءَ تَطْوِيرِ نَمُودَجٍ لِلْأَدَاءِ يَنْبَغِي اِفْتِرَاضُ نَمُودَجِ الْكِفَايَةِ مُقَدِّمًا؛ وَمِنْ الْعَسِيرِ أَنْ نَتَخَيَّلَ بَدِيلًا مُتَمَاسِكًا. وَبَقِيَ أَنْ يُبَيِّنَ كَيْفَ تُقَدِّمُ الْمَعْرِفَةُ اللُّغَوِيَّةُ لِلْعَمَلِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَتْ الضُّرُوبُ الْمَعْقُولَةُ مِنَ التَّنَاوُلِ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ الْآنَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّهَا لَنْ تُوجَدَ الْبَتَّةَ.

وأخيراً، فإنَّ التَّحَقُّقَ المادِّيَّ مِنْ هذه الأنظِمةِ جميعاً، أنظِمةِ الكِفايةِ والأداءِ، يَظَلُّ مَجْهُولاً تماماً. وليس في مقدورنا إلَّا بِطَرِيقَةٍ تجرِديَّةٍ تماماً، أن نَتحدَّثَ عن خاصِّياتِ العقل. ما الآليَّاتُ البدنيَّةُ التي تُلبِّي الشُّروطَ التَّجرِديَّةَ التي نَحْنُ الآنَ قادرونَ عَلى دَرَسِها؟- ما الذي يَتطابَّقُ جَسَديّاً مَعَ هذه الأنظِمةِ والخاصِّياتِ التي نُقيِّمُ حَولَها فَرَضِياتٍ؟ هذه أسئلةٌ أساسِيَّةٌ. وقليلٌ جدًّا ما يُعرَفُ عن الأُسُسِ الجَسَديَّةِ لِهذه الأنظِمةِ.

م. ر.: هل في مقدور المرء أن يُعَدَّ مِنَ الأسئلةِ «الخارجية» تلك التي عَرَضَها

عِلْمُ اللُّغَةِ الاجتماعيِّ sociolinguistics؟

ن. ت.: يمكنُ تصوُّرُ ذلك. وَلَسْتُ متأكِّداً مِنْ طَبِيعَةِ هذه الأسئلةِ. وَيَسْتَطِيعُ المرءُ أن يَتَخَيَّلَ أنَّ تحديدَ اللُّغَةِ أو اللَّهْجَةِ يمكنُ أن يكونَ أَحَدَ هذه الأسئلةِ. ويبدو مِنَ المشكوكِ فيه أن تكونَ هذه فِكْراً لُغويَّةً، عَلى الحقيقةِ.

ما «اللُّغَةُ الصِّينيَّةُ»؟- لِمَ تُدعى «الصِّينيَّةُ» لغةً والرومانيَّةُ لُغاتٍ، لُغاتٍ مختلفة؟ الأسبابُ سياسيَّةٌ، وليستْ لُغويَّةٌ. وَعَلى الأُسُسِ اللُّغويَّةِ الصَّرْفَةِ لن يكونَ ثَمَّةَ سَبَبٍ لِلقَوْلِ إِنَّ الكانتونيَّةَ Cantonese (*) والمندرينيَّةَ Mandarin (**) لَهْجَتانِ لِلُّغَةِ واحدةٍ، في حينَ أنَّ الإيطاليَّةَ والفرنسيَّةَ لُغَتانِ مختلفتان. وأكثرُ مِنْ ذلك، ما الذي يَجْعَلُ الفرنسيَّةَ لُغَةً واحدة؟- وأفترضُ أَنَّهُ منذُ خَمسينَ عاماً كانَ يمكنُ أن تُوجَدَ قُرى متجاورةٌ تَتحدَّثُ لَهْجاتٍ فرنسيَّةً مُتباينةً كَثِيراً إلى دَرَجَةٍ أنَّ إِمكانيَّةَ التَّفاهُمِ المُتبادِلَةِ كانتِ محدودةً.

*- اللُّهْجَةُ الصِّينيَّةُ التي يُنطَقُ بها في مدينة كانتون الصِّينيَّة وما حَولَها [المترجم العربي].

** - اللُّغَةُ الصِّينيَّةُ الشِّماليَّةُ التي كانت لغةَ البلاطِ والطَّبقاتِ الرَّسميَّةِ في عَهْدِ الإمبراطوريَّةِ [المترجم العربي].

فما اللُّغَةُ الْآنَ؟ - هناك نُكْتَةُ قِيَاسِيَّةٌ تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ اللُّغَةَ لَهْجَةٌ ذَاتُ جَيْشٍ وَأُسْطُولٍ. وهذه لَيْسَتْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةً. أَمَّا بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَسْئَلَةٍ أُخْرَى فِي مِيدَانِ عِلْمِ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَلَا يَبْدُو لِي وَاضِحًا أَنَّهَا قَدْ عُرِضَتْ بِطَرِيقَةٍ تَسْمَحُ بِإِجَابَاتٍ خَطِيرَةٍ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ كُنَّا قَدْ عَرَضْنَاهَا قَبْلُ.

م. ر.: المفهوم اللُّغَوِيُّ هو النُّحُو grammar.

ن. ت.: يمكنُ افتراضُ أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيَّ لَا يَهْتَمُّ بِالْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَقْصِدُهُ فِي نِقَاشِنَا، بَلْ بِمَفْهُومَاتٍ مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلَفٍ، رُبَّمَا تَكُونُ «اللُّغَةُ» أَحَدَهَا، إِنْ قُدِّرَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ أَنَّ تُصْبِحَ مَادَّةً لِدِرَاسَةٍ جَادَّةٍ. وَعَلَى غِرَارِ مَا قُلْتُ قَبْلُ، يَبْدُو لِي أَنَّ آيَةَ دِرَاسَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ عَلَى مِثَالِيَّةِ أَنْظِمَةٍ فِي جَمَاعَاتٍ مُتَجَانِسَةٍ «أُضْفِيَتْ عَلَيْهَا الْمِثَالِيَّةُ». أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ، فَغَيْرُ وَاضِحٍ تَمَامًا أَنَّ هُنَاكَ مَبَادِيءَ مُهِمَّةٌ تَتَحَكَّمُ فِي مَدَى إِمْكَانِيَّةِ تَنَوُّعِ النِّظَامِ أَوْ الْأَنْظِمَةِ وَطَبِيعَتِهَا فِي رُؤُوسِ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

إِنَّ الْمَسَائِلَ اللُّغَوِيَّةَ هِيَ مَسَائِلُ قُوَّةٍ أَسَاسًا، نَوْعُ مُمَارَسَةِ الْقُوَّةِ الَّذِي أَوْجَدَ نِظَامَ الدَّوْلَةِ الْقَوْمِيَّةَ كَمَا فِي أُرُوبَا. وَوَضِحٌ أَنَّ هَذَا لَيْسَ الْمَنْهَجَ الْوَحِيدَ لِلتَّنْظِيمِ السِّيَاسِيِّ. فَفِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، مِثْلًا، وَحَدَّثَ مَنَاطِقُ كَالْمَشْرِقِ جَمَاعَاتٍ مَحَلِّيَّةً كَثِيرَةً، رَبَطَتْ بَيْنَهَا بِطَرَائِقَ مُخْتَلَفَةٍ، مَعَ مَقْدَارٍ كَبِيرٍ مِنَ الْاِخْتِلَافِ اللُّغَوِيِّ أَيْضًا. وَلَا أَحَدَ تَحَدَّثَ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ الَّتِي تُعَلَّمُ فِي الْمَدَارِسِ، لَكِنْ مَا يُسَمَّى بِاللَّهْجَاتِ عُدَّ شَيْئًا قَبِيحًا. وَقَدْ أَفْضَى تَدَخُّلُ الْقُوَى الْإِمْبَرِيَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى نِظَامِ الدَّوْلِ، مُخَلِّفًا صِرَاعَاتٍ وَعَدَاوَاتٍ مُؤَلِّمَةً وَمُعَقَّدَةً، وَهُوَ نِظَامٌ يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فِيهِ أَنْ يُحَدِّدَ انْتِمَاءَهُ إِلَى قَوْمٍ أَوْ دَوْلَةٍ قَوْمِيَّةٍ. وَهُوَ نِظَامٌ مَفْرُوضٌ مِنَ الْخَارِجِ عَلَى مَنَاطِقَةٍ أَخْضِعَتْ لَهُ إِخْضَاعًا مُؤَلِّمًا. وَيَصْدُقُ الشَّيْءُ نَفْسُهُ تَقْرِيبًا فِي إِفْرِيقِيَّةٍ، حَيْثُ فَرَضَ تَدَخُّلُ الْقُوَى الْإِمْبَرِيَالِيَّةِ إِطَارًا لِلتَّنْظِيمِ الْقَوْمِيِّ الَّذِي لَا يَنْسَجِمُ وَالطَّبِيعَةَ

الأصليَّة لهذه المجتمعات. وإنَّ إدماجَ الدَّولِ القوميَّةِ، كما هي حالُ أوروبا سابقًا، يتفاعلُ بطرائقٍ مُعقَّدةٍ مع انتشارِ اللِّغاتِ القوميَّةِ. ولا شكَّ في أنَّ ههنا مسائلٌ مُهمَّةٌ، لكنَّه من غيرِ الواضحِ أن يكونَ لدى عِلْمِ اللِّغة الشَّيءُ الكثيرُ الذي يُسهِمُ به في بَحْثِها.

م. ر.: إنَّ ما قُلْتَه تَوًّا يَأْذُنُ لي أن أوجِّه الاتِّهامَ، الذي وَجَّهَهُ بعضُ المشتغلينَ بعِلْمِ اللِّغة الاجتماعيِّ إلى النُّحُو التَّوليديِّ، إليهم هم أنفسهم. فقد قالوا عن عِلْمِ اللِّغة إنَّه «إمبرياليٌّ»، لأنَّه كان مُهْتَمًّا بِأنْظِمَةِ أُضْفِيتَ عليها المِثاليَّةُ، وخاصَّةً بِأنْظِمَةِ مِعياريَّة، يَسَّرَتْ دِرَاسَتَها الأبحاثُ السَّابِقَةُ. ويمكنُ القولُ باختصارٍ إنَّ ما يُريدُه هؤلاء المُتَقِدُّونَ هو أن يَدْرُسَ المرءُ لُغَةَ الشَّعب. وقد أَشْرَتْ منذُ قليلٍ إلى مِبلَغِ ارتباطِ هذه الفِكرَةِ بِالقُوَّةِ البورجوازيَّةِ، وخاصَّةً بِالإمبرياليَّةِ!

ن. ت.: ليس في مقدوري أن أَرى التُّهْمَةَ تعني شَيْئًا؛ لِأَسبابٍ عَرَضْنَا لها من قَبْلُ - ذلك لِأنَّ المُتَكَلِّمَ الكَامِلَ لِنِظَامِ «أُضْفِيتَ عليه المِثاليَّةُ»، غيرُ موجودٍ في عالمِ الواقع. وفي كلامِ المُتَكَلِّمينَ الواقعيِّينَ تَتَفَاعَلُ الأنْظِمَةُ «التي أُضْفِيتَ عليها المِثاليَّةُ»؛ فَكُلُّ مَنَّا يَتَكَلَّمُ مِجموعةً مِنْ هذه الأنْظِمَةِ، مازِجًا بَيْنَها عَلى نُحُو مُعَقَّد. وَلِأَنَّ تَجَرِبَةَ الأَفْرَادِ مُخْتَلِفَةٌ، يَكُونُ مِزِجُ الأنْظِمَةِ مُخْتَلَفًا. لَكِنِّي لا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ تَوَجَّدَ حَقِيقَةُ «لَهْجَةٍ» أو «لُغَةٍ» خَارِجَ نِطاقِ هذه الأنْظِمَةِ.

قد أَكُونُ مُخْطِئًا. وقد تَكُونُ هُناكَ قُيُودٌ عَلى الوَسائِلِ التي يُمكنُ بِها لِأنْظِمَةِ اللُّغويَّةِ، أو لا يَمَكُنُ، أن تَتَفَاعَلَ ضِمْنَ جَماعَةٍ وَاحِدَةٍ، أو مِجموعةٍ كَبِيرَةٍ، أو عَقْلٍ شَخْصٍ وَاحِدٍ. وَرَبِّمَّا نَجِدُ أنَّ بَعْضَ المِجموعاتِ مِمكِنَةٌ وَبَعْضُها مُسْتَحِيلَةٌ. وإنْ ظَهَرَتِ المِبادئُ التي تَحْكُمُ تَفَاعَلَ هذه الأنْظِمَةِ، فإنَّ هذه المِبادئُ سَتَنتمِي مِنْ ثَمَّ إلى مِيدانٍ يُدْعَى عِلْمُ اللُّغَةِ الاجتماعيِّ. وَرَبِّمَّا يَجِدُ المرءُ أَيْضًا طَرِيقَةً لِرِبطِ

هذه المبادئ بمبادئ عِلْمِ الاجتماع... وفي التَّفَاعُلِ الاجتماعيّ، لا رَيْبَ في أنّ أنواعَ المسائلِ تستلزمُ اللُّغَةَ. وربّما تعتمدُ دراسةُ هذه المسائلِ على الدِّراساتِ اللُّغويّةِ وقد تُؤثّرُ فيها كثيراً. في مقدورِ المرءِ أن يتخيّلَ هذا. أمّا شخصياً فإنني مُتردّدٌ في رَيْبِي.

وإنَّ الموقفَ مختلفٌ جداً على قَدَرِ ما لِلْعَلاقَةِ بينَ اللُّغَةِ وَعِلْمِ النَّفسِ الإدراكيّ من أهمّيّة. وههنا مسائلُ ذاتُ محتوًى واضحٍ تماماً، ولدى المرءِ، على الأقلّ، فكرةٌ ما عن كَيْفِيّةِ تناوُلِها. ويُخيّلُ إليّ أنّه في مقدورِ المرءِ أن يتطلّعَ إلى تقدُّمِ ذي شأنٍ.

م. ر.: هل تعتقدُ أنّ نموذجاً جديداً من الصِّياغةِ سيمكّننا من رؤيةِ اللُّغَةِ من وجهةِ نظرٍ مختلفة تماماً؟ في الوقتِ الرَّاهِنِ نعدُّ الجُمْلَ تتابعَ عناصرِ مُسلسَلَةٍ، أي وُضِعَ أحدها إثرَ الآخر. هَبْ أنّ بعضَ الحقائقِ تميلُ إلى إثباتِ أنّ هذا المنظورَ (الذي يُعبّرُ عنه في قَواعِدِ الكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ) ليس المنظورَ الصَّحيحَ، وأنّ علينا أن نعدَّ الجُمْلَ تتابعاتٍ مُتقطّعةً: أي إنّ بعضَ العناصرِ يمكنُ إقحامها بينَ العناصرِ الأخرى. سيعني ذلكُ تماماً أن نقولَ إنّ قَواعِدَ الكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ تضطلعُ بِقَدَرٍ من المُهمّاتِ مُخصَّصةً الآنَ لِلتَّحويلاتِ: التَّعديلاتِ، ضُروبِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، ضُروبِ الإلحاقِ، وهلمَّ جَرّاً. أمّا سَكليّاً، فإنّ هذه نماذجٌ لِلإِدخالِ (التَّعقيدِ)...

ن. ت.: أنا شخصياً بدأتُ بشيءٍ قريبٍ جداً من ذلك، أي بِنِظامٍ لِلقَواعِدِ الأساسيّةِ أكثرَ غنىً وليسَ بِالتَّحويلاتِ، في عملي في اللُّغَةِ العِبريّةِ الذي عَرَضنا له. ومن ثمّ كان طبيعياً ألاّ أعدَّ هذا الاقتراحَ غيرَ مُتماسِكٍ أو مُستبعداً من القضيةِ. ومثُلُ هذه الأنظِمةِ ممكنٌ حقّاً. وليسَ في مقدورِ المرءِ أن يكونَ مبدئياً «دوغماتياً» في هذه القضيةِ. ولا بدّ من إبقاءِ العقلِ مفتوحاً.

هناك أيضاً إمكانياتٌ أخرى . وربما يذهبُ بعضهم إلى القولِ إِنَّ النُّحُو حُرْمَةٌ من «السِّتِراتِيجِيَّاتِ» الإدراكيَّة التي تَربِطُ الصَّوْتَ بِالمَعْنَى . وذلكَ منظُورٌ مُختلِفٌ جدًّا عن المنظُورِ الذي كُنَّا قد ناقشناه . ويمكنُ تصوُّرُ أنَّنا سنكتشفُ أخيراً أنَّ هذا هو التَّنَاولُ الصَّحيحُ - معَ اعتقادي أنَّنا لا نملكُ شيئاً ندعمُ به مثَلُ هذا الاعتقادِ في الوقتِ الرَّاهنِ .

ومرَّةً أخرى في ميدانِ الأَسْئَلَةِ المُحِيرَةِ ، أَسْتَطِيعُ أن أرى سُؤالاً يَتَّصِلُ بِسُؤالِكِ عن النُّحُو الأساسيّ base grammar . وهناكُ لُغَاتٌ لا دَلِيلَ فيها عَلى مشروعيَّةِ أيِّ ترتيبٍ لِلأَصْنَافِ عَلى مُستوى البِنْيَةِ العميقة . وهذه هي اللُّغَاتُ ذاتُ التَّرتيبِ الكلاميّ الحُرِّ Free word order نِسْبِيًّا . والظَّاهِرَةُ مُثيرةٌ جدًّا ، معَ أنَّها لم تُوصَفْ عَلى نحوِ كافٍ حتَّى الآنَ . وهناكُ لُغَاتٌ يَبْدُو تَرتيبُ الكلماتِ فيها أكثرَ تحرُّراً ممَّا هو عليه في تلكَ اللُّغَاتِ التي تُدعى عادةً لُغَاتِ ذاتِ تَرتيبِ حُرِّ لِلْكَلماتِ - كاللَّاتِينِيَّةِ أو الرُّوسِيَّةِ - بِحَيْثُ يَكُونُ في مقدورِ المرءِ أن يَصِفَه بِقَوَاعِدَ من مثَلِ قَاعِدَةِ «التَّدافع Scrambling» (*) ...

م . ر . : نعم ، في الرُّوسِيَّةِ أو اللَّاتِينِيَّةِ ، معَ كُلِّ شيءٍ ، يَخضعُ ترتيبُ الكلماتِ إلى قَوَاعِدَ صارمةٍ ؛ زِدْ عَلى ذلكَ ، أنَّ هذا يقتضي فَوَارقَ دقيقةً من التفسيرِ الدَّلاليِّ والافتراضِ القَبليِّ .

ن . ت . : دَرَسَ هذه القضيةَ (كِنْ هيل Ken Hale) ، الذي وَجَدَ مثَلُ هذه الحُرِّيَّةِ في ترتيبِ الكلماتِ في الِولبيريَّة Walbiri بِحَيْثُ إِنَّه اضطرَّ إلى أن يَنسَبَ إلى مثَلِ هذه اللُّغَاتِ قَوَاعِدَ نحويَّةٍ من نوعٍ اقترحَ في بعضِ المُناسباتِ ، حَيْثُ يَكُونُ ترتيبُ الأساسِ the base حُرًّا ...

* - «قَاعِدَةُ التَّدافع» قَاعِدَةُ اقترحَها (روس Ross) لِتفسيرِ ضُروبِ التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ ، وَضُروبِ الإبدالِ في اللَّاتِينِيَّةِ . [المؤلف] .

م. ر.: كَالنَّحْوِ التَّطْبِيقِيِّ عِنْدَ (سومجان Šaumjan).

ن. ت.: نعم، وَتَطَلَّبَ هَذَا ضَرْوبًا أُخَرَ مِنَ الْقَوَاعِدِ، رُبَّمَا تَكُونُ غَيْرَ لُغَوِيَّةٍ، لَكِنَّهَا تَقْتَضِي فِكْرًا مِنْ قَبِيلِ «المعلومات الجديدة New information»، إلخ. سَيَدْعُ النَّحْوُ نَفْسَهُ تَرْتِيبَ الْكَلَامِ حُرًّا تَمَامًا. عَلَى الْأَقْلَ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَخَيَّلَ هَذَا. وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَسْأَلَ: هَلْ هُنَاكَ فِعْلًا نَمُودَجَانٍ مِنَ اللُّغَاتِ، مُخْتَلِفَانِ تَمَامًا؟ أَوْ: هَلْ هُنَاكَ نِظَامٌ أَكْبَرُ Super-system يَكُونُ نَمُودَجَانٍ نَوْعًا مِنْهُ؟ - هَذِهِ أَسْئَلَةٌ خَطِيرَةٌ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تُفْهَمَ عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ.

م. ر.: الْحَقُّ أَنَّهُ إِنْ أَمَكُنْ أَنْ يُوجَدَ نَمُودَجَانٍ لِلُّغَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلْقِي بِظِلَالِ الشَّكِّ عَلَى فِكْرَةِ النَّحْوِ الْعَامِّ.

وَفِي الْخِتَامِ، نَعْتَقِدُ أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ، مَعَ كُلِّ الْمَشْكِلَاتِ الَّتِي تَنْتَظِرُ الْحَلَّ، هُوَ الْعَنْصَرُ الْإِيجَابِيُّ الْوَحِيدُ فِي السَّلْسِلَةِ الْكَامِلَةِ لِلْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، خِلَا عِلْمِ نَفْسِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ هُنَاكَ مِيدَانًا وَاحِدًا لَمْ تَتَحَدَّثْ عَنْهُ - الشَّعْرِيَّاتِ التَّوْلِيدِيَّةِ generative poetics، الَّتِي أَوْجَدَهَا (هالي Halle) وَ(كيسر Keyser) فِي نِهَايَةِ السَّنِينَاتِ^(١). وَهَذَا التَّخْصُّصُ الْجَدِيدُ كُلُّ الْجِدَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ «عِلْمًا إِنْسَانِيًّا»: إِذْ يُحَقِّقُ مُتَطَلِّبَاتِكَ جَمِيعًا. وَقَدْ حَدَّدَ هَدَفَهُ وَمِبَادَتَهُ، وَزَوَّدَ نَفْسَهُ بِنَظَرِيَّةٍ لِلتَّفَاعُلِ بَيْنَ الْأَنْظِمَةِ (العلاقة بَيْنَ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ)، وَقَدْ حَدَّدَ مَفْهُومَهُ لِلْكَفَايَةِ الشَّعْرِيَّةِ. وَبَوَضَّفَهُ وَلِيدًا لِلنَّحْوِ التَّوْلِيدِيِّ، لَيْسَ هُوَ عِلْمُ لُغَةٍ

١- انظُرْ هَالِي وَكيسر، «التَّبرُّ الْإِنْجِلِيزِيّ: شَكْلُهُ، وَتَطَوُّرُهُ، وَفَعْلُهُ فِي الشَّعْرِ English Stress: Its form, Its Growth and Its Role in Verse» (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٧١م)؛ وَ«تَشَوُّسٌ وَدِرَاسَةُ الْعَرُوضِ Chaucer and Study of prosody»، كُولِجِ إِنْجِلِش (كَانُونِ الْأَوَّلِ ١٩٦٦م).

تطبيقاً كما كانتِ الشَّعَرِيَّاتُ الْبِنْيَوِيَّةُ. وهذا أيضاً، فيما أرى، ميدانٌ
له مستقبلٌ غَنِيٌّ.

ن. ت.: هذا الْعَمَلُ كُلُّهُ مُثِيرٌ جَدًّا. ومهما يَكُنْ، فَإِنِّي لَمْ أُضِفْ إِلَيْهِ شَيْئًا،
ولا أَشْعُرُ بِأَنِّي مُؤَهَّلٌ لِمُنَاقَشَتِهِ. فههنا ليس لَدَيَّ كِفَايَةُ الْبَتَّةِ؛ وهو أَحَدُ
المَوْضُوعَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى عَدًّا مِمَّا لَيْسَ لَدَيَّ مَا أَقُولُهُ فِيهِ..

